

جمهورية السودان
جامعة أم درمان الإسلامية
كلية الدراسات العليا
كلية اللغة العربية
قسم الأدب والنقد

السيد محمد رشيد رضا حياته وأدبه

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الأدب والنقد

إعداد الطالب/ أحمد عبده أحمد
إشراف الأستاذ الدكتور/ بابكر الجزولي عثمان
١٤٢٨م - ٢٠٠٧م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاستهلال

(المرتن كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة
أصلها ثابت وفرعها في السماء)

(سورة إبراهيم: ٢٤)

إهداء

إلى روح والدي المرحوم، تقبله الله في الصديقتين
والشهداء والصالحين .. وإلى والدتي العزيزة، أطال الله
عمرها بالصحة ودوام النوفيق في مرضاة الله، أهدي ثمار
هذا الجهد، وفاءً لهما ..

كلمة شكر

في ختام هذا البحث أتوجه بالشكر الجزيل ، والامتنان الصادق ، إلى فضيلة الأستاذ الدكتور/ بابر الجزولي عثمان ، الذي أشرف عليّ في البحث ، وأفادني بعلمه وتوجيهاته ما أعاني على التغلب على كثير من صعوبات البحث ، فجزاه الله عني ، وعن زملائي الطلاب خير الجزاء .

كما أشكر أسرة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في ثيكا - كينيا ، إدارةً وأساتذةً ، وطلاباً على دعمهم لي ، وتحملهم غيابي عن التدريس ، رغم ما تعانيه الكلية أصلاً من شح في هيئة التدريس ، وأشكر كل من أعاني - وما أكثرهم ! - على إنجاز هذه المهمة الجليلة ، على أي وجه كان هذا العون ، سائلاً المولى أن يجزيهم عني جميعاً خير الجزاء .

تمهيد

يقول السيد رشيد رضا (رحمه الله): "إن الصنائع القولية والعلمية تنمو بنمو الأمم وترتقي بارتقائها ، والشعر صناعة من الصناعات اللفظية ، لكنها لم ترق مع رقي العرب في مدنيّتهم التي أفادها لهم الإسلام إلا قليلا ، حتى هبطت من أوج عزها ، وكادت تندرس رسومها ، وتمحى أطلالها بالكليّة ، صدمها بعد صدمة اللغة المعروفة صدمة أخرى خاصة بها ، أوقعتها في موقف ضيق حرج ، وهو وصف الأناسي أحياء (بالممدح والهجاء) وأمواتا (بالرثاء) " ¹

والصدمة الأولى التي يشير إليها رشيد رضا ، هي سقم طريقة تدريس علوم العربية وآدابها ، وانحرافها عن تدريس نصوصها إلى العناية بضبطها بقواعد منطقية جافة ، لا تنمي ملكات المتأدّبين ، وإنما تخرج متعلمين يحفظون نظريات وقواعد لا يحسنون تطبيقها. حدث ذلك عندما ملك الأعاجم زمام الأمور في عهد الدولة العباسية الثانية ، فلما آلت الأمور إلى العثمانيين ، وتحولت عاصمة الخلافة إلى بلد أعجمي ، وأصبحت البلاد العربية مناطق طرفية تدور في فلك القسطنطينية ، دخلت اللغة العربية وآدابها في غيبوبة طويلة ، لم تستفّق منها إلا بأصوات مدافع الحملة الفرنسية على مصر ، وأبواق أجراس الكنائس الغربية ، التي غزت الشام بجيوش من البعثات التبشيرية ، المتنافسة على تسخير العباد والبلاد لمصالح دولها ، وبما صاحب هاتين الحملتين من وسائل المدنية الغربية الصاعدة ، وأفكارها ومبادئها الغازية ، فنشأت الصحف ، وانتشر التعليم المدني ، فنتبه العقلاء على حال أمتهم السيئة ، وبدعوا يتململون تحت أنقاض ركام عصور التراجع والتخلف ، وما إن أخذوا يتلمسون الطريق ، ويهتدون إلى علاج دائهم ، ويقبلون على بناء مؤسساتهم الحضارية ، التي عفا عليها الزمن على أسس جديدة حتى هجم عليهم الاستعمار الغربي ، فسلب الأرض ، وصادر الحريات ، وخيم على البلاد من جديد ليل دامس ، ولكنه ليل لا يرقد فيه أهله كلهم ، بل يتحرك في أرجائه المفكرون والأبطال ، ممن لم تنطفئ بصائرهم ، ولم تخب نار حماسهم بأفول شمس الحرية ، يجاهدون الغزاة بالسيف والقلم ، فأبلوا بلاء حسنا في إيجاع العدو ، وإيقاظ أحوامهم من السبات التي

¹ - السيد رشيد رضا ، مجلة المنار : ١٥٠/٩/١

أخذوا إليها ، وكانت النتيجة أن كسبوا المعركة بإصرارهم ، وقوة عزائمهم ، وعظم تضحياتهم كما تتبأ رشيد رضا الذي لم يشهد ميلاد الحرية في بلده :^٢

سل النفوس إذا ما ثار ثائرها هل ترتضي بدلا عن حقها الدرا

لا والذي تملك الأكوان قبضته إن الشباب إذا ما أقدم انتصرا

كان الأدب دائما في موكب فكر المجتمع ووعيه ، فإن ضعف كان شاهدا عليه ، ودليلا ينطق على ضعفه ، وإن صحا من غفوته ، وبرئ من علله وأسقامه انطبع ذلك في صفحة شئونه ، وانعكس في مرآة أحوله ، ولئن صادفت نشأة رشيد في عصرٍ ، أصدق ما يوصف به ، قول رشيد نفسه ، في شاعر معاصر له : "ولكن مجال الشعر في عصر نشأته كان ضعيف الساحة ، وحرية الكلام كانت في الدولة التركية قليلة المساحة ، والباعث على إجادة المنظوم كان في حكم المعدوم."^٣ ، فقد أدرك في آخر عمره عصرا ، وصف أدبائه بقوله "إن الفئة الراقية من كتاب مصر ، وأدبائها في هذه السنين ، أرقى في النقد اللغوي ممن قبلهم ، من كبار كتاب هذا العصر وأدبائه ، بل لم يوجد النقد الدقيق إلا في هذا العهد من عصرنا."^٤ وبين هذين العصرين (الثالث الأخير من القرن التاسع عشر والثالث الأول من القرن العشرين) عاش السيد رشيد رضا ، ولئن أدركه شيء من سيئات العصر الأول ، بسوء التعليم والتربية ونحوها ، فقد تفتحت عيناه في ظل اليقظة ، التي كان من روادها جيل أساتذته ، ومن بينهم شيخه حسين الجسر ، الذي أخذ بيده في نشأته الأولى ، وجمع له التفقه في العلوم النقلية والعقلية ، وتبصيره بمعارف العصر ، ومفاهيم المدنية الحديثة ، ثم استفاد من صحبة شيخه الثاني ؛ الإمام محمد عبده ، ما لم يجده عند غيره ، من تنوير فكره ، وتنقيف عقله وتدريبه على فلسفة الإصلاح الإسلامي ، مما جعله أهلا لخلافته في نظر كثير من الباحثين.

كان السيد رشيد رصا بحكم ثقافته الدينية العميقة ، وفكره السلفي المنزع ، وبحكم المرحلة الزمنية التي نضج فيها ، ينتمي إلى طائفة الأدباء الإحيائيين ، الذين

^٢ - السيد رشيد رضا ، ديوان السيد ، دار الطباعة الحديثة بمصر ، ص ٦٩

^٣ - المنار : ٦٧/١/٣٠

^٤ - السيد رشيد رضا ، شكيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدزن ، دمشق ، ١٩٣٦م ، ص ٦١٤

حرروا الأدب من براثن الجمود ، وانتشلوه مما تردي فيه من مهاوي الزخارف الاصطناعية والمماحكات اللفظية الركيكة ، وذلك باستلھامهم من التراث الأدبي الرفيع في عصور ازدهاره ، ومحاكاتهم لطرائق فحول شعرائه ، وكبار كتابه ، فمهدوا الطريق أمام الجيل الذي بعدهم ، وكان هؤلاء الرواد على الرغم من استمدادهم من معين الأدب العربي الكلاسيكي ، واتكائهم على النصوص الشعرية والنثرية العالية منه ، بالمعارضة والاستلھام والتضمين حتى استعادوا للشعر العربي ديباجته القديمة ، ونضارته المعهودة - كانوا إلى جانب ذلك يتقدمون ببطء في ساحات التجديد ، لأن الأديب "يتأثر ببيئته ومجتمعه والطبيعة المحيطة به وثقافة العصر وأحداثه".[°] مهما بلغ تحفظه والتزامه بالقواعد والتقاليد الفنية الصارمة ، وكان السيد رشيد رضا بفضل مشروعه الإصلاحی الشامل من أكثر أدباء عصره تقبلا للتجديد والابتكار ، وانفتاحا على روح العصر ، وعندما ظهر التيار التجديدي ، وتنوعت اجتهاداته ، ما بين متكرين للتراث جملة وتفصيلا ، ومجددين على ضوءه بتعقل وروية ، وقف رشيد رضا إلى جانب التراثيين ، دون أن يغمض عينيه عن التجديد ، الذي لا بد منه في ضوء التطورات الفكرية ، والثورة العلمية ، والفلسفات الحديثة ، التي عصفت بكثير من المسلمات التي سادت في العالم القديم ، وهذا ما سوف يظهر صداه في أدب رشيد بجميع أشكاله وأنواعه ؛ من شعر ونقد ومقالات ومؤلفات ، ومع الأسف لم يعرف أكثر الباحثين السيد رشيد رضا أدبيا ، بقدر ما عرفوه مفكرا ، ومصلحا رائدا ، وعالما دينيا واسع الشهرة ، فتوارى أدبه في مطاوي مجلته الموسوعية القابعة في أرفف المكتبات وفي كتبه التي لم تجدد طبعاتها الأولى باستثناء القليل منها.

[°] - نظرية الأدب ومناهج الدراسات الأدبية ، د. عبد المنعم إسماعيل ، مكتبة الفلاح - الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١م ، ١٤٩/١

مقدمة

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) ^١ ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه ، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين .
ويعد..

فلم تزل عناية الباحثين والدارسين متصلة بهذه اللغة الشريفة ، منذ أن اختارها الله وعاء لكتابه العزيز ، ولسانا لدينه الحنيف ، ومفتاحا لمناجاته بمختلف الشعائر وأنواع العبادات ، التي شرعها لعباده ، فعظمت منزلتها ، وكبر شأنها ، فعكف العلماء على دراستها ، ودراسة ما قام عليها من علوم وفنون ، حتى غدت من أغنى اللغات الحية ، وأكثرها ثراء ، وأنصعها تاريخا ، بل لا تكاد توجد لغة أخرى ، حفظت تراث أهلها ، على ما يربو أربعة عشر قرنا ، مثلما حفظت العربية تراث الإسلام ، وما ذلك إلا بكأ الله وحفظه لها ، بحفظ القرآن والذكر الذي هو روح اللغة العربية (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ^٢

تعثرت الحياة السياسية في الخلافة الإسلامية منذ عهد الدولة العباسية الثانية وتدهورت الأوضاع في شتى المجالات ؛ بالتنافس المذموم على السلطة والمنافع الدنيوية الآنية ، وأدى صراع الأسر الساعية إلى احتكار السلطة إلى استعانة بقوى أعجمية ، لما يدخل الإيمان في قلوبهم ، ولم تتطلق أسنتهم بلغة الذكر الحكيم ؛ مفتاح الحضارة الإسلامية ، فتسلطوا على جميعهم ، واستبدوا بالأمر دون أهله ، فزادت غربة الإسلام في أرضه ، وأخذت منابع الحضارة الإسلامية الفياضة في الكمون ، وتوارت عقلية الإسلام المبدعة ، الهادية المهدية ، خلف جدران الانحراف السياسي ، ومع ذلك ظل العلماء يؤدون واجبهم في حفظ التراث الإسلامي دون كلل أو ملل ، وشهدت أكثر العصور تخلفا وجمودا وضنا بالعلم وأهله ميلاد الموسوعات الإسلامية التي كان حظ علوم العربية منها وافرا . أما الأدباء والشعراء فلم يجدوا ما

^١ - سورة الكهف : ١

^٢ - سورة الحجر : ٩

يحفزهم على الإبداع ، فسكنوا ، حتى قيض الله لهم في عصر النهضة من نبههم من غفلتهم ، وبصرهم بالطريق الذي ضلوا عنه في سرى ليل التخلف الطويل .
شهد السيد رشيد رضا تباشير فجر النهضة ، وتلمذ على روادها ، واستمع إلى تنبيهاتهم وتوجيهاتهم كما يشرحه بقوله : "هذا ما نبه أفكار الفضلاء وأهل الغيرة على الآداب العربية ، وحدا بهمهم إلى حَلّ الشعر العربي من عُقله وإطلاقه من قيوده فأرشدوا الناس إلى التصرف في المعاني الجديدة والنظم في المواضيع الشريفة على ما تقتضيه حالة هذا العصر .

طَرَقَ هذا التنبيه مسامع منشئ هذه الجريدة في أوائل طلبه للعلم من أستاذنا العلامة الشهير الشيخ حسين أفندي الجسر ، فجنحت النفس للعمل ، وكان أول نظم نظمته في ذلك قصيدة أشرت فيها إلى مذاهب المتأخرين في الشعر بصيغة الإنكار وشيبت ذلك بالمعاني الجديدة التي تعطيها الفنون والصناعات العصرية ."^٣
يتكون البحث من مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة فصول ، وخاتمة ، وفهارس .

تناولت في المقدمة شرف العربية ، وجهود العلماء - بما فيهم علماء عصر رشيد رضا - في دراستها ، وتسهيلها على المتعلمين ، وأوجزت في التمهيد رحلة الأدب العربي حتى وقت رشيد رضا . أما الفصل الأول - وهو من مبحثين - فهو شرح لعصر رشيد ، وما تميز به من الملامح السياسية والفكرية ، وفي المبحث الثاني دراسة خاصة بالسيد رشيد رضا ، ترصد سيرته ، وحياته العلمية ، وحياته الفكرية ، في ثلاثة مطالب تحمل هذه العناوين على التوالي ، ويدرس الفصل الثاني أدب رشيد رضا من شعر ، ونثر فني ، ونقد أدبي دراسة عامة ، ومباحثه ثلاثة تدور في الجزئيات السابقة . أما الفصل الثالث فهو خاص بالدراسة الفنية النقدية لأدبه ، وهو كسابقة ذو مباحث ثلاثية ، وتتضمن الخاتمة أهم نتائج البحث ، والجديد الذي توصل إليه الباحث ، وما يراه من المقترحات بعد دراسة أدبه .

وأخيرا عملت أربعة فهارس . هي فهرس الآيات القرآنية ، وفهرس الأحاديث الشريفة ، وفهرس الأشعار ، وفهرس الموضوعات .

وفيما يلي بعض المصطلحات الخاصة بالبحث :

^٣ - المنار ، السيد رشيد رضا ، ١٩٤/١١/١

- ١- عنوان الرسالة : السيد محمد رشيد رضا حياته وأدبه ، وعند كتابة الفصول والمباحث اختصرته فحذفت "محمد" ، وفي عناوين المطالب اكتفيت بالضمير عن ذكر الاسم.
- ٢- عند ذكر المصدر أو المرجع في هوامش البحث ، أذكر اسم الكتاب لا المؤلف ، لأنه يغني عن المؤلف ، إذا ذكر له أكثر من كتاب.
- ٣- رتبت الصادر والمراجع على حسب أسماء الكتب بالترتيب الهجائي.
- ٤- إذا تكرر المصدر أو المرجع في الصفحة الواحدة ، أكتب بدلا عن اسمه كلمة "السابق" لتشمل المصدر والمرجع.
- ٥- أكتب كل البيانات المتعلقة بالمصدر أو المرجع عند وروده الأول ، ولا أعيد ذلك إذا تكرر.
- ٦- أكتفي بالتاريخ الميلادي حيث يحتاج إلى ذكر التاريخ .
- ٧- عند العزو إلى مجلة المنار اقتصر على "المنار"

مصادر البحث :

أهم مصادر البحث هي مؤلفات السيد رشيد رضا ومكتوباته ، من مقالات ورسائل وتضم مجلة "المنار" أكثر مقالاته ، ومن ثم فهي المرجع الأساسي لدراسة نثره الفني ، وآرائه النقدية في اللغة والأدب ، كما اشتملت على طائفة من أشعاره ، ويمثل تفسيره للقرآن الكريم "تفسير المنار" ومؤلفاته الدينية الأخر ، جزءا مهما من نثره التأليفي ، ومن أهم مصادر رسائل رشيد رضا كتاب "السيد رشيد رضا" لأمير البيان شكيب أرسلان ، حيث ضم هذا الكتاب أكثر من مائتي رسالة بلغت صفحاتها أكثر من خمسمائة ، ومن مصادر الدراسة أيضا ما كتب عن رشيد رضا من الكتب ، التي سأشير إليها في "الدراسات السابقة" .

أهمية البحث

كان السيد رشيد رضا عالما دينيا ، ومفكرا إسلاميا ، وسياسيا مناضلا ، وصحفيا بارعا ، وأحد بناء النهضة العربية والإسلامية الحديثة ، وقد ذاعت شهرته في هذه المجالات السابقة بحيث اتجهت إليها الأعلام التي تناولته بالدراسة ، واستبدت بالدراسات التي قامت عليه ، وقلما التفت دارسوه إلى أدبه شعرا أو نثرا ، لأن ذلك ليس بالميسور إلا لمن يطلع على مجلدات جريدته القابعة في أرفف الدوريات المحفوظة ، أو وقع بيده ديوانه الوحيد "ديوان السيد" الصغير الحجم ، الذي لم يطبع على ما يبدو إلا مرة واحدة في حياة رشيد رضا في عام ١٣٤٥هـ ، ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة ، لتتبه الدارسين إلى أدب رشيد ومظانه إن لم توفق - كما يرجو الباحث - في تقديم هذا الأدب بطريقة علمية وموضوعية إلى الدارسين.

أسباب اختيار الموضوع

كان الباحث بصدد دراسة النثر الفني في مجلة العروة الوثقى ، التي صدر منها ثمانية عشر عددا بقلم السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ، لتكون موضوع أطروحته الدكتوراه ، وبينما هو متردد حيال العروة الوثقى لقلّة أعدادها وصغر حجمها ، إذ به يطلع في مكتبة جامعة أم درمان الإسلامية على مجلة المنار ، فيجدها أنسب بالدراسة ، لأنها أوفى أعدادا وأغزر مادة ، ثم استشرت أساتذة قسم الأدب فأشاروا علي بدراستها.

أهداف البحث

تتلخص أهداف البحث في الكشف عن أدب رشيد وطبيعته وحجمه ومصادره ، ثم دراسته دراسة علمية وموضوعية ، راجيا أن تسهم هذه الدراسة في تعريف هذا الأدب إلى الدارسين ، وفاء لحق هذا العالم الموسوعي ، الذي أنسى الاشتغال ببعض علمه بعض الآخر.

صعوبات البحث

من أشد الصعوبات تأثيراً على البحث في أثناء إعداده :

١- صعوبة الحصول على المراجع ذات الصلة القريبة من موضوع البحث ، لأن الباحث يقيم في بلد غير عربي ، تندر فيه مادة الثقافة العربية والإسلامية على العموم ، ناهيك عن المراجع الأدبية ذات الصلة المباشرة بموضوع البحث ، كما أنه لم يصبح من الشائع بعد ، خلق مكاتب إلكترونية في شبكات "الإنترنت" ، تلبي احتياجات الباحثين ، وأغلب ما فيها لا يعدو عن كونه قوائم أسماء الكتب في المكتبات المختلفة ، أو كتابات تعريفية مقتضبة.

٢- بُعد الباحث عن مشرفه ، بحيث لم يكن من السهل عليه الاتصال به بصورة منتظمة ، مما حرمه كثيراً من مزايا القرب منه ، وسهولة الرجوع إليه.

٣- اتساع نطاق البحث ، وتشعب موضوعاته ، وتنوع مجالاته ، إذ لم يكن في تصور الباحث عند اختيار الموضوع أنه سيدرس ما في مجلة المنار من النثر الفني ، فتكشف له أن لرشيد رضا شعراً مدوناً ، وأن أدبه النثري فوق الحجم الذي كان في باله ، وإلا ، لأقتصر على جانب منه من جوانبه المتعددة.

منهج البحث

المنهج الذي سلكته في إنجاز هذا البحث في دراسة حياة وأدب السيد رشيد رضا هو المنهج النقدي التكاملي.

وبما أن أدب رشيد رضا غزير ومتنوع - لأنه شاعر موهوب وناثر بارع - فقد التزمت بدارسة كل ما وقفت عليه من شعره لأنه ليس بالكثير ، وتتبع آراء النقدية في كتبه ومؤلفاته المطبوعة التي من أهمها مجلة المنار ، أما نثره فقد اكتفيت منه بدراسة نماذج اخترتها على أساس مناسبتها لموضوعات أو أنواع النثر الفني التي استخلصتها من نثره الغزير الذي حوت معظمه مجلة المنار ذات الخمسة والثلاثين مجلداً.

الدراسات السابقة

حظي السيد رشيد رضا باهتمام كبير من الباحثين والدارسين يليق بمقامه العلمي وكفاحه في نصح الأمة الإسلامية والعربية ، فتناولوه بالدراسات الأكاديمية وغيرها ، وانصبت معظم البحوث التي أنجزت فيه على المجالات العلمية والفكرية والنضالية التي برز فيها ، فمنها ما تناول جهده في تفسير القرآن الكريم ومنها ما بحث في اتجاهه العقدي ، ومنها ما درس فكره السياسي ، ومنها تعرض لإصلاحاته الدينية والاجتماعية ، ومنها ما بحث في أدبه. ومن هذه البحوث الكثيرة ما اختص به وحده ، ومنها ما ترجم له ضمن الطائفة التي يصنف فيها أو في المجال الذي يسهم فيه بعلمه أو فكره أو نضاله وكفاحه.

ومن الدراسات التي خصت له :

- ١- السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة ، لصديقة أمير البيان شكيب أرسلان ، وفيه ترجمة السيد رشيد رضا ، ملخصة من ترجمة رضا لنفسه في كتابه "المنار والأزهر" وحديث مقتضب عن العلاقة بينهما ، وعن حفلات التأبين ، وعن منزلة رشيد رضا ، ثم أورد من آثار السيد رشيد رضا مقصورته الموسومة بالمقصورة الرشيدية ، ورسائله التي بعث بها رشيد إلى شكيب أرسلان على مدى الأربعين سنة التي دامت فيها صداقتهما.
- ٢- الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح ، للدكتور محمد بن عبد الله السلطان ، (١٩٩٣م) والكتاب في الأصل رسالة ماجستير بعنوان : "رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب" ثم استخلص منها هذا الكتاب الخاص برشيد رضا مركزا على سلفيته وإصلاحاته.
- ٣- الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل ، سمير أبو حمدان (١٩٩٢) ويتناول الكتاب الجانب السياسي في جهود رشيد رضا الإصلاحية ، ويبرز اعتدال خطاب رشيد السياسي.
- ٤- السيد محمد رشيد رضا إصلاحاته الاجتماعية والدينية ، محمد أحمد درنيقة (١٩٨٦م) ويبحث الكتاب في إصلاحات رشيد الاجتماعية التي من أهمها

الإصلاح التربوي والتعليمي ، ومنها اهتمامه في النهوض بوضع المرأة المسلمة ، كذلك يبحث الكتاب في إصلاحات رشيد الدينية التي تناولت تفسير القرآن الكريم ، حيث أخرج تفسيراً ميسراً مناسباً لطبيعة العصر ، ثم جهوده في إصلاح الأزهر ، فجهوده في إصلاح الفرق والمذاهب الإسلامية والطرق الصوفية.

٥- ديوان النهضة (نصوص في الفكر والسياسة مختارة من مجلة المنار) ، اختارها أدونيس وخالدة سعيد (١٩٨٣) ويبرز الكتاب أن إصلاح السيد رشيد رضا كان إصلاحاً للمجتمع الإسلامي في ضوء تعاليم الإسلام ، ولم يكن إصلاحاً لتعاليم الإسلام بإعادة النظر فيها في ضوء المستجدات الحضارية.

٦- رشيد رضا صاحب المنار عصره وحياته ومصادر ثقافته ، للدكتور أحمد الشرباصي (١٩٧٠م) والكتاب ترجمة وافية لصاحب المنار تتناول عصره وحياته الخاصة ، ومصادر ثقافته ، التي ذكر أنها مصدران ؛ التراث الإسلامي ، والثقافة المعاصرة التي حصل منها شيئاً بسبب مطالعته الخاصة ، ولم يتوسع الكتاب في الجوانب العلمية أو الفكرية التي برز فيها صاحب المنار.

وفي كلام الشرباصي ما يشير إلى أنه كتب في أدب رشيد رضا ، وذكر الأستاذ أنور الجندي في كتابه "تراجم الأعلام المعاصرين" أن الدكتور أحمد الشرباصي أعد أطروحة علمية عن أدب السيد رشيد رضا ، ولم أعر على هذا الكتاب رغم البحث عنه في مكتبات السودان والسعودية.

ومهما كتب عن السيد رشيد رضا فإنه بغزارة إنتاجه ، وتعدد اهتماماته ، وجهوده الإصلاحية ، ونضاله السياسي ، يتسع لكثير من الدراسات ، كما "أن الشخصية الواحدة قد تعني بالنسبة لعصر خلاف ما تعنيه بالنسبة لآخر ومن ثم يمكن أن ينظر كل جيل إلى الشخصية الواحدة من منظور خاص به

٤ ."

الفصل الأول

عصر وحياة السيد رشيد رضا

المبحث الأول :

عصر السيد رشيد رضا

المبحث الثاني :

حياة السيد رشيد رضا

المبحث الأول : عصر السيد رشيد رضا

المطلب الأول : الحالة السياسية في عصره

عاش السيد رشيد رضا في عهد الدولة العثمانية التي ظهرت أول ما ظهرت إمارة صغيرة في غربي الأناضول إثر ضعف دولة سلاجقة الروم ثم أخذت تنمو وتتوسع على حساب الإمارات التركمانية المجاورة لها حتى غدت في أقل من قرن إمارة قوية وخلالها الجو في الأناضول^١ ثم اتجهت غربا إلى البر الأوروبي الذي لم يكن يفصلها عنه إلا مضيق مائي صغير فشنت غاراتها على أراضي الدولة البيزنطية في الجزء الأوروبي بعد أن سيطرت على أراضيها في الأناضول ، واكتسحت في مدة زمنية وجيزة مناطق شاسعة في شرق وجنوب الدولة البيزنطية^٢. وكان الجو مهياً والظروف مواتية لما سيحققه العثمانيون من فتوحات عظيمة إذ كانت العناصر البشرية المقاتلة الشديدة الحماسة إلى الفتوحات متوافرة ، وكانت هذه العناصر مزيجا من القبائل التركمانية المهاجرة من أواسط آسيا والجماعات التي كانت مرابطة من أجل الجهاد في سبيل الله في تخوم الدولة السلجوقية الرومية التي بلغت من الضعف بحيث خضعت للدولة الإيلخانية في إيران^٣.

وكانت الإمبراطورية البيزنطية تعاني من الصراعات السياسية على السلطة ومن الخصومات المذهبية بين الأرثوذكس والكاثوليك فاستغل العثمانيون هذا الظرف المواتي وأحسنوا تنظيم دولتهم ورفعوا شعار الجهاد وساروا في رعيتهم سياسة عمادها العدالة وطبقوا مبادئ الشريعة السمحة على الشعوب التي خضعت لهم وأشركوها في الحكم ولم يحاولوا تتركيز ولا أسلمة أحد بقوة السلاح كما فعل بالمسلمين في الأندلس^٤. "وبسبب سياسة التسامح الديني هذه نجحت الحضارة العثمانية في فرض

١- السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده: أورخان محمد علي ، دار الوثائق ، الكويت ، ط١ ، ١٩٨٦م. ص ١٦

٢- الإسلام الأمس والغد: محمد أركون ولويس غارديه ، ترجمة علي المقلد ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط١ ، ١٩٨٣ ص ٨١

٣- العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي (العصر المملوكي) : نادية محمود (بمشاركة) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦م ص ٥٩

٤- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: أكمل إحسان الدين أوغلي (بمشاركة) ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول (إرسیکا) ، ١٩٩٩م ، ص xxvii

نفسها ، وفي بعض جوانب الحياة في البلقان ، بحيث يمكن القول بأن الأتراك هم الذين أرسوا اللبنة الأولى لحضارة مدنية.^٥

ولم تنزل الدولة العثمانية تشن الغارة تلو الأخرى ، وتضغط على الدولة البيزنطية ، وتطيل الحصار على عاصمتها القسطنطينية حتى انهارت أخيرا وسلمت عاصمتها إلى السلطان العثماني محمد الفاتح^٦ وتحقق له بذلك حلم كبير كان يراوده ، ويتسابق إلى تحقيقه السلاطين العثمانيون ، ومن قبلهم الفاتحون المسلمون منذ العصر الإسلامي الأول ، لما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم من إشادة بمن سيفتح هذه المدينة المهمة.^٧ وسقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين طويت صفحة الإمبراطورية البيزنطية الأرتوذكسية أطول إمبراطوريات العالم عمرا حيث دامت أحد عشر قرنا.^٨ وتنبه البابا وملوك أوروبا إلى الخطر الذي تمثله الدولة العثمانية فتعاونوا على إيقاف زحفها ، فجيشوا الجيوش وجندوا كل الطاقات واستنفروا المقاتلين من مختلف البلاد الأوروبية وبدأوا يرسلون الحملة تلو الأخرى غير أن أيا من هذه الحملات التتري لم تحقق نصرا ،^٩ بل تواصل الزحف العثماني حتى ضم كل الأراضي البلقانية في الشرق كما ضم في جبهة الغرب أراضي اليونان وجزر قبرص وكريت ورووس وضربت القوات العثمانية الأمامية في أقصى الشمال حصارها على فيينا عاصمة الإمبراطورية النمساوية.^{١٠}

ويعد أن تثبتت الدولة العثمانية أقدامها في أوروبا الشرقية اتجهت إلى الشرق الإسلامي الذي كانت تتوزعه دول ضعيفة أقواها دولة المماليك في مصر والشام والحجاز والدولة الصفوية في إيران والعراق فأوقعت بهما أما دولة المماليك فقد أزلت حكمها وضمت جميع أراضيها وأما الدولة الصفوية فلم تنته وجودها بل أضعفتها

^٥ - تاريخ الدولة العثمانية: روبرت مانتران (بمشاركة) ، الاجتهاد ، العددان ٤١-٤٢ ، السنة ١١ عام ١٩٩٩م ، ص ٤٠١

^٦ - فتحت القسطنطينية في عام ١٤٥٣م. انظر: السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده: ٢٠
^٧ - لقوله صلى الله عليه وسلم : "لتفتحن القسطنطينية على يد رجل ، فنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش." مسند الإمام أحمد ، ٣٣٥/٤

^٨ - العصر المملوكي ، ص ١٠٥-١٠٦
^٩ - نظم الأوربيون حملات ضد الأتراك في سنوات ١٣٦٤ ، ١٣٧١ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٦ ، وكلها باءت بالفشل.

انظر: السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عصره: ١٧-١٨

^{١٠} - حوصرت فيينا عدة مرات كان آخرها في عام ١٦٨٣م

وأخذت منها العراق^{١١} كما دانت لها دول الشمال الإفريقي من غير قتال. ومع دخول الشام ومصر والحجاز في حوزتها تبوأَت الدولة العثمانية دون منازع زعامة العالم الإسلامي. "ونجحت الدولة العثمانية في أن تمزج في بوتقة واحدة بين عناصر بشرية مختلفة اللغات والأديان والأعراق والثقافات وتجمع بين هؤلاء في جو من الهدوء والاستقرار على مدى قرون عدة."^{١٢}

وهكذا أصبحت الدولة العثمانية إمبراطورية ، تحكم مناطق شاسعة ، تمتد في ثلاث قارات " وتتفق التحليلات الغربية والعربية على حد سواء ، أن الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦م) كانت مركز العالم ، وأقوي دوله ، وأن السلطان سليمان كان أعظم شخصية في التاريخ العثماني ، ووصلت الإمبراطورية في عهده إلى أوج اتساعها وقوتها برا وبحرا ، حيث اجتمع للدولة - إلى جانب خصائصه الشخصية - عناصر القوة العسكرية والاقتصادية والإدارية والتي كانت تفوق ما لدى الدول الأوروبية المعاصرة لها."^{١٣}

بداية ضعف الدولة العثمانية

ثم مالت شمس الإمبراطورية العثمانية عن كبد السماء إلى الزوال ، وأخذت أسباب الضعف تسري رويدا رويدا في جسدها المترهل منذ عهد سليمان القانوني^{١٤} وكان من أكبر ما أصيبت به الدولة العثمانية إهمالها للعلم ، وتقصيرها في تطوير أدواتها الحربية وتنظيم جيشها لقرون عدة^{١٥} كما أن موقعها الجغرافي في وسط الدول الأوروبية المتربصة بها ، كان يزيد من الأخطار المنتظرة لها^{١٦} ولم تنتبه إلى فداحة قصورها ونتائج إهمالها إلا عندما هزم جيشها أمام الجيش الروسي في عام ١٧٧٤م

^{١١} - العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز: د. بكر فائق الصواف ، مطابع سجل العرب ، ١٩٧٨م ص

٣١-٢٧

^{١٢} - الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: xxii

^{١٣} - العصر العثماني: نادية محمود مصطفى (بمشاركة) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، ص ٢١ ،

١٦٠

^{١٤} - يقول رشيد رضا: "توالت جرائم الضعف في الدولة العلية في عهد سليمان القانوني" المنار: ١/٣٧/٧٣٥

^{١٥} - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن الندوي ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ،

دار القرآن الكريم ، بيروت - لبنان ، ١٩٧٨ ص ١٤٨

^{١٦} - السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده: ٢٨

، واضطرت إلى توقيع معاهدة مهينة^{١٧} وكان الروس من قبل أضعف أعدائها ، إلا أنهم واجهوا آلة حربية متطورة وجيشاً نظامياً عالي التدريب ، ولم يستطع العثمانيون قط أن يسدوا الفجوة التقنية والتنظيمية والعلمية بينهم وبين القوى الأوروبية الصاعدة ، لأنها كانت فجوة قرون ، ولم تكن فجوة سنوات معدودة^{١٨} ولأن الإصلاحات التي هرع إليها السلاطين المخلصون واجهت تحديات عاتية من الجبهة الداخلية التقليدية ، ومن القوى الأوروبية الماكرة ، وأودت بحياة بعضهم وبعروش بعضهم الآخر .^{١٩}

والجدير بالذكر أن النهضة الأوروبية الحديثة أخذت خيوطها تتجمع منذ القرن السادس عشر الميلادي بظهور الاهتمامات البحرية التي أدت إلى اكتشاف عوالم جديدة وطرق بحرية جديدة إلى العوالم القديمة وبالإصلاحات الدينية والإدارية لأنظمة الحكم التي مهدت لقيام دول قومية متنافسة ، كما ظهرت بوادر النظام الرأسمالي بفضل السياسات التجارية للدول القومية .^{٢٠}

كل ذلك كان يحدث في أوروبا في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية قد تربعت على عرش العالم بوسائلها التقليدية غير معنية بما كان يجري من تغييرات خطيرة في الجانب الأوروبي الذي يقع فيه أهم شطري إمبراطوريتها^{٢١} ولم تعتبر بسقوط دولة الأندلس في جنوب غرب القارة في الوقت الذي كانت تصارع أهلها في جنوب شرقه .^{٢٢} فكانت بداية الأتراك في التاريخ الإسلامي إذن من نقطة ضعف أساسي ، لقد قامت الدولة العثمانية تقريبا في الزمان الذي كان الارتقاء الفكري والنهضة العلمية قد أرهص بناؤه في أوروبا. ومع أن الأتراك العثمانيين رفعوا راية الإسلام عالية في الدنيا ، وألقوا مهابته في نفوس العالم ، بما هزموا أوروبا مرارا متكررة في القرنين أو أكثر منذ قيام دولتهم ، كانوا هم كذلك يسيرون في وجه

^{١٧} - المسألة الرقية : الامتيازات الأجنبية وتأثيرها على الإمبراطورية العثمانية: شفيق محسن ، الاجتهاد ، العدد

٤٤ ، السنة ١١ ، عام ١٩٩٩ ص ٢٢٨

^{١٨} - السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده: ٣٠

^{١٩} - حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني: محمد البحراوي ، مراجعة محمد غشام ،

الاجتهاد ، العددان ٤٥-٤٦ ، السنة ١١ ، عام ٢٠٠٠ ، ص ٤١٠-٤١١

^{٢٠} - الدولة العثمانية ودمجها في النظام الرأسمالي العالمي: الفضل شلق ، الاجتهاد ، العددان ٤٥-٥٦ ، السنة

١١ ، عام ٢٠٠٠ ، ص ٨-١١

^{٢١} - الإسلام الأمس والغد: ٨١

^{٢٢} - المسلمون في تاريخ الحضارة: ستانود كب ، ترجمة محمد فتحى عثمان ، الدار السعودية للنشر والتوزيع

ط ٢ ، ١٩٨٥م ، ص ١٢١

الانحطاط كعامة الأمة المسلمة في هذا الزمان بينما الأمم الأوروبية التي تقابل الأمة التركية في الميدان كانت تسير الخبب في طريق الرقي المادي والتقدم الفكري .^{٢٣}

محاولات الإصلاح

استمرت الدولة العثمانية في الانحدار رغم المحاولات الكثيرة للإصلاح منذ السلطان عبد المجيد الأول وتنوعت اجتهادات المصلحين غير أن القوى الداخلية ومن أخطرها الإنكشارية (قوات الدولة التقليدية) كانت بالمرصاد لأي إصلاح فقد تمردوا في عهد عثمان الثاني ، ومصطفى الثالث ، وإبراهيم ، وأحمد الأول ومصطفى الرابع ، وكل هؤلاء السلاطين إما خلعوا أو قتلوا على أيدي الإنكشارية .^{٢٤} وبعد التغلب على الإنكشارية وعلى جميع القوى المعارضة صدرت تشريعات يقصد بها الإصلاح وكان من أكبرها تأثيرا (خط كلخانة ١٨٣٩م) الذي أتى بتعديلات جوهرية في إدارة الدولة وتنظيم الجيش على الطريقة الأوروبية مع المحافظة على الشريعة الإسلامية كما نص بتحفظ على بعض الإصلاحات. ثم صدر (خط حمايو ١٨٥٧م) وكان أكثر جرأة على تغريب نظام الدولة ، حيث تضمن مساواة رعايا الدولة أمام القانون ، كما نص على تغييرات اقتصادية من أهمها إلغاء النظام الضريبي القديم المعروف بنظام "الالتزام".^{٢٥} غير أن كل هذه الإصلاحات لم تؤد إلى نتائج إيجابية لأنها لم تعالج الضعف السياسي الذي عليه مدار كل إصلاح ، كما يؤكد عليه باحث معاصر إذ يقول : " والأرجح أن الخيارات المؤدية للتقدم تتعلق قبل كل شيء بإحراز القدرة على تعبئة المجتمع وشحن الإرادة ، ولا ينفصل ذلك عن القدرة التنظيمية والإدارية ، وكل ذلك مرهن بالإرادة السياسية ، والفرق بين أمم أحرزت تقدما وأخرى عجزت عنه هو الفرق في التعاطي السياسي في كل منهما."^{٢٦}

^{٢٣} - نحن والحضارة الغربية: أبو الأعلى المودودي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان ١٩٨٣م ، ص ١١
^{٢٤} - الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، د. قيس جواد العزاوي ، الدار العربية للعلوم ، الطبعة الثانية ، بيروت - لبنان ، ٢٠٠٣م ، ص ١٢٣. وانظر كذلك : حركة الإصلاح العثماني ، في عصر السلطان محمود الثاني: ٤١٠-٤١١

^{٢٥} - سياسات العصر العثماني: جوستين مكارثي ، الاجتهاد العددان ٤٥-٤٦ ، السنة ١١ ، عام ٢٠٠ ، ص

٧٦

^{٢٦} - الدولة العثمانية ودمجها في النظام الرأسمالي العالمي: ١٤

"إن الإصلاحات التي ترمي إلى تحديث البنية الاجتماعية السياسية للدولة عن طريق إلقاء التشريع القديم وإعادة بناء الإدارة كلها وفق الأسس الدستورية والمدنية والمساواتية المعتمدة في أوروبا أدى إلى تفسخ وتحلل نظام الملل العثماني وأتى على التوازن الإسلامي المسيحي التقليدي القائم على التسامح والتعايش بين الأديان ، لأنه من العبث البحث عن نموذج للإصلاح عن طريق وضع أنظمة لا تتناسب وأوضاع الإمبراطورية التركية."^{٢٧}

ومع أن كثيرا من السلاطين الجادين قد حاولوا الوقوف في وجه الضعف والانحلال ، الذي لازم الإمبراطورية منذ مالت إلى الانحدار ، إلا أن جهودهم لم تكن ذات نتائج حاسمة ، ويرى بعض المؤرخين الأوروبيين ، ومن سار على دربهم ، أن السبب في ذلك ، هو عدم تطبيقهم للنظرية الأوروبية بحذافيرها - كما فعل أتاتورك - ومحاولتهم الانتقاء منها ، يقول جوستين كارثي : " فالشعوب التي ترغب في الحصول على رعاية صحية ممتازة ، ومواد استهلاكية متوفرة ، وجيوش قوية ، لا ترغب عادة في أن تفكر ، وتعمل مثل الألمان ، أو الأمريكيين من أجل الحصول على هذه المنافع .. فالغنى الغربي قد تطور في محيط محدد يتفق وثقافات وتاريخ الغرب الأوروبي والأمريكي ، وأطلق عليه جماعيا اسم "الثقافة الغربية" ، والتطور الاقتصادي لم يكن إلا جزءا بسيطا من هذه الثقافة . فهل بإمكان دولة أن تتنقى وتختار من الثقافة الغربية فتأخذ فقط التكنولوجيا والاقتصاد ، وتترك وراءها الفلسفة والتقاليد ؟ " ^{٢٨} وفاتهم أن أتاتورك لم يحقق للأتراك التقدم المنشود برغم مرور نحو مائة عام على تغريبه للشعب التركي المسلم ، ولا تزال تركيا في قائمة الدول المتخلفة ^{٢٩} كما فاتهم أن اليابان وصلت إلى قمة التقدم ، مع الاحتفاظ بتقاليدها الدينية ، وأنماط حياتها الشعبية.^{٣٠}

^{٢٧} - المسألة الشرقية : الامتيازات الأجنبية وتأثيرها في الإمبراطورية العثمانية: شفيق محسن ، الاجتهاد ، العدد ٤٤ ، السنة ١١ ، ١٩٩٩م ، ص ١٥٦

^{٢٨} - سياسات الإصلاح العثماني ، ص ٦٣ ، الإسلام والرسول في نظر منصفى الشرق والغرب: الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي ، مطابع قطر الوطنية ، الدوحة - قطر ، ١٣٩٨هـ ، ص ١٥

^{٢٩} - حقيقة القومية العربي وأسطورة البعث العربية: محمد الغزالي ، مطبعة حسان ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٧م ، ص ١٧٢

^{٣٠} - التحديث والاعتراب في اليابان ، دياسومازا كورودا ، (ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي) من مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ١ ، ١٩٨٥م ، ص ٢٢٣

أسباب فشل الإصلاحات

والحق أن الدولة العثمانية كانت من الناحية الواقعية أسيرة لأعدائها بسبب عدة عوامل ، منها: المعاهدات والامتيازات الكثيرة ، التي كانت تتال كثيرا من سيادتها ومنها الامتيازات التجارية الجشعة ، التي كانت وباستمرار وراء تدمير اقتصادها^{٣١} يقول أحد الباحثين مصورا ما كان يعانيه العثمانيون لكسر الطوق الاقتصادي والعسكري المفروض عليهم : " بشكل أو بآخر كانت الإمبراطورية العثمانية في حالة حرب مع المستعمرين الأوروبيين انتهت بانتصارهم . مصالح الطرفين كانت متناقضة جذريا ، العثمانيون أملوا من الاستعمار تطوير صناعتهم الأوروبيون أملوا في الحصول على أرباح قصوى من الزراعة ، حيث مصدر الأرباح الأساسية للدولة ، العثمانيون أملوا أن يصبحوا أقوىاء عسكريا واقتصاديا بينما الأوروبيون سمحوا للعثمانيين بالاستمرار بمستوى يسمح لهم بدفع فواتيرهم فقط ، وبعبارة أخرى أن تأخذ أقصى ما يمكن فعليا دون قتل البطة الذهبية." ^{٣٢}

ومنها محاولة العثمانيين الفاشلة في التشبث بمناطق شاسعة من الأقاليم الأوروبية التي يعلمون أنها ستفصل عنهم قريبا وكان الإصرار على الاحتفاظ المؤقت بها مكلفا ماديا وعسكريا^{٣٣} ومبيحا للتدخلات الدولية المغرضة من أجل مصالحها الخاصة فكانت تنتزع كل دولة من الدول الأوروبية الكبيرة من الدولة العثمانية بسبب هذه التدخلات منافع جديدة ،^{٣٤} فلو تخلت الدولة العثمانية من الأول عن كل المناطق التي لم تستطع هضمها لتخففت من كثير من المشاكل ولاستطاعت أن تصمد أمام القوى الطامعة فيها ، ولشقت طريقها في التقدم بالطريقة التي تراها مناسبة لها ، أما والحال هذه فلم يكن أمامها كثير من الخيار في الإصلاح الذي تنتشده.

^{٣١} - سياسات الإصلاح العثماني ، ص ٧٦

^{٣٢} - المصدر السابق ، ص ٩٨

^{٣٣} - يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته السياسية : "إن ضعف الدولة العثمانية نابع من اتساع رقعتها ، فاجتماع كثير من الشعوب تحت راية واحدة جعل إدارة هذه الشعوب أمرا صعبا." انظر : السلطان عبد الحميد الثاني (مذكراتي السياسية ١٨٩١ - ١٩٠٨) مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٢م ، ص ٧٨

^{٣٤} - العصر العثماني: ١٩٢

عاصر الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥م) ستة من سلاطين بني عثمان هم على الترتيب عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦) ، مراد الخامس (١٨٧٦) عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) ، محمد الخامس (١٩٠٩-١٩١٨) ، محمد السادس (١٩١٨-١٩٢٢) ، عبد المجيد الثاني (١٩٢٢-١٩٢٤) كما شهد إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية في عام ١٩٢٤م على يد مصطفى كمال أتاتورك ، مؤسس الدولة التركية الحديثة ، بعد احتلال دول التحالف في الحرب العالمية الأولى لإستانبول ؛ عاصمة الخلافة ، وإنهاء الحكم العثماني الذي دام أكثر من ستمائة سنة.^{٣٥}

وكان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين الفعليين ، الذين عاصرهم رشيد رضا ، وأطولهم عهدا ، أما السلاطين الذين جاءوا بعد خلعه ، فكانوا لا يملكون من أمر الدولة أكثر من لقب "ال خليفة" ،^{٣٦} ولهذا يعتبر السلطان عبد الحميد محور الأفكار والسياسات الخصبية التي ظهرت في هذه الفترة الفاصلة بين العهدين القديم والجديد ، فلما استولت جمعية الاتحاد والترقي الحكم ، وتبنت سياسة تترك الشعوب المنضوية تحت الإمبراطورية العثمانية ، لم يعد أمام تلك الشعوب إلا الوقوف في وجهها بغض النظر عن أجناسها وأديانها.^{٣٧}

جاء عبد الحميد الثاني إلى الحكم في فترة حرجة جدا ، بعد إقالة السلطان عبد العزيز ثم اغتياله ، وجنون خلفه السلطان مراد الثاني الذي نصبه الثائرون على سلفه فلم يجدوا بدا من السلطان عبد الحميد الثاني لعدم وجود بديل عنه في الأسرة^{٣٨} وأملوا عليه شروط بيعتهم له فقبلها على مضض وكان من أهم ذلك تطبيق الدستور الذي أعده قبل ذلك - ولم يكن صالحا للتطبيق لقصوره الذاتي ولطبيعة ظروف الإمبراطورية - كما أكرهوه على إمضاء الحرب التي أشعلوها ضد الروس فمضت الإمبراطورية بأسوأ هزيمة تعرضت لها في تاريخها الطويل قبل سقوطها غير

^{٣٥} - تصادم السياسات ومصائر الجماعات القومية ، فايز سارة ، الاجتهاد ، العددان ٤٥-٤٦ ، السنة ١١ ، عام

٢٠٠٠ ، ص ٢٣١

^{٣٦} - حياة الشرق دوله وشعوبه وماضيه وحاضره: د.محمد لطفي جمعة ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة -

مصر ، ص ١٣٤٧

^{٣٧} - تصادم السياسات ومصائر الجماعات القومية: ٢٣١

^{٣٨} - السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده: ٢٣٧

أن السلطان تمكن من استعادة سلطاته فألغى الدستور ، وحل البرلمان الذي رآه غير مؤهل لأداء دور فعال في تلك الفترة الصعبة ، وحكم الإمبراطورية بطريقة مركزية فترة مديدة تبلغ ثلاثا وثلاثين سنة . تميزت بالاستقرار وبالنمو التدريجي الشامل.^{٣٩}

إنصاف السلطان عبد الحميد الثاني

ومع التسليم بالنظرية القائلة بأن ما قام به عبد الحميد الثاني من الإصلاحات لم يكن أكثر من مجرد إطالة عمر دولة أصبحت أيامها معدودة^{٤٠} فإن السلطان عبد الحميد لم يأل جهدا في إنقاذ ما يمكن إنقاذه وكان موفقا - في نظر كثير من المؤرخين - في معظم إصلاحاته في مختلف المجالات. يقول ج. مكارثي في تقييم سياسة عبد الحميد: "وقد تمكن من إحباط أي حرب يمكن أن تجر كارثة على بلاده. وأسباب الحروب المستقبلية كانت كثيرة .. إن السياسة الخارجية المحافظة التي اتبعها السلطان وبراعة دبلوماسيته ساهمت في المحافظة على حياة الإمبراطورية خلال تلك الفترة."^{٤١} ثم قال وهو يناقش ما اتهم بالسلطان عبد الحميد من الاستبداد والتفرد بالسلطة ، وذلك بعد أن صور ما كانت تعانيه الدولة من الفوضى السياسية ، وما تواجهه من مؤامرات وفساد ، والتنوع العرقي الذي كان يندر بالانفصالات : " البديل الوحيد كان في وجود حكم فردي مطلق نسبيا قوي وعادل ، وكان هذا بالتحديد ما فعله عبد الحميد.. والبرهان على صحة مثل هذه السياسة كان في نجاح عبد الحميد. فبعد حرب ١٨٧٧-٧٨ مع الروس وخلال فترة حكم عبد الحميد لم تخسر الإمبراطورية أية أرض. وكما أوضحنا أعلاه فإن البنى التحتية للإدارة والاقتصاد العثماني قد تطورت بشكل غير متوقع."^{٤٢}

^{٣٩} - السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده: ٢٣٧

^{٤٠} - الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: ١٢٦

^{٤١} - سياسات الإصلاح العثماني: ٩٣

^{٤٢} - السابق: ١٠٤

وضع المناطق العربية في عهد الدولة العثمانية

دأبت الحكومة العثمانية في تاريخ فتوحاتها على الاكتفاء بالسيطرة السياسية والعسكرية للبلاد المفتوحة ، وإفساح مجال واسع لأهل البلاد لإدارة شئونهم ومؤسساتهم التعليمية والدينية والاجتماعية ، وكانوا يفضلون دائماً التعاون مع الزعماء المحليين ، وترك السلطات السياسية المحلية في أيدي أصحابها والاكتفاء بولائهم للدولة الجديدة.^{٤٣} وهذا ما سار عليه العثمانيون في المناطق العربية التي دخلت في سيادتهم ، وذلك بعد أن "أقاموا نظاماً إدارياً في هذه البلاد انسجم على نحو عام مع النظام الإداري العام في الدولة العثمانية ، وهي الميزة التي حققتها الدولة العثمانية في فترة القوة ، والتي أهلت العثمانيين لتحقيق إنجازات ملموسة في بعض البلاد العربية ومن ذلك كانت الحركة العمرانية التي تركت جوامع ومدارس وتكايا (جمع تكية) وقصور".^{٤٤}

منذ أن أصبحت المنطقة العربية جزءاً من الدولة العثمانية واعتبرت ولايات من الولايات العديدة التي تتكون منها الإمبراطورية العثمانية ارتبط نصيبها من التقدم والتخلف وحظها من الازدهار والتدهور بحال وظروف الدولة العثمانية التي هي جزء منها ، ولم تعتبر الولايات العربية في يوم من الأيام مناطق طرفية هامشية أقل شأنًا وعناية لدى الدولة من أي من الولايات الأخرى ، بل كانت الدولة توليها عناية خاصة لأهميتها الاستراتيجية وقدسيتها أراضيها (مكة المكرمة - المدينة المنورة - القدس الشريف)^{٤٥} وأهمية شعبها ، ولكونها مهبط الوحي ومهد الحضارة الإسلامية ، ومما يدل على هذه المكانة المتميزة أنه كان "يعتبر أمير أمراء مصر في التركيبة الإدارية أعلى سلطة وهيئة إدارية في البلاد بعد سلطة السلطان في الآستانة".^{٤٦} لهذا كانت الدولة العثمانية تتخير لها الولاة ، وتحرص على استقراها ، تبذل قصارى جهدها في خدمة مدنها المقدسة وعواصمها الحضارية ، وفي كل ترك السلاطين العثمانيون بسمات التطوير والتعمير .

^{٤٣} - مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر: سيد محمد سيد ، مراجعة ياسر زغيب ، الاجتهاد ، العدد ٤٤ ، السنة ١١ ، عام ١٩٩٩م ، ص ٣٨

^{٤٤} - العرب والعثمانيون: عبد الكريم رافق ، الاجتهاد ، العدد السابق ، ٢٣

^{٤٥} - العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز: ٤٥

^{٤٦} - مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر: ٢٥٦

ورغم الجدل بين المؤرخين في وضع السلاطين العثمانيين الديني في نظر رعاياهم المسلمين ، وخاصة أهل المنطقة العربية منهم ، "ومهما كانت النوايا والتحليلات التي اهتمت بنفي صفة الخلافة عن الدولة العثمانية فإن وجود دولة إسلامية قائمة تتحمل مسئلة الدفاع عن الإسلام والتوحيد بين دوله ضرورة مهمة." ^{٤٧} وهذا ما تكفلت به الدولة العثمانية واستحقت به المرجعة الإسلامية.

حاول السلطان عبد الحميد الثاني أن يعود بالدولة التي قطعت شوطا كبيرا في درب التغريب إلى الساحة الإسلامية ، فجمّد البرلمان ، وقرب العرب والعناصر المسلمة الأخرى غير التركية ^(٢) ودعا إلى التضامن الإسلامي ، وأطلق شعار الجامعة الإسلامية ، فالتف حوله العلماء والمصلحون المخلصون من أمثال جمال الدين الأفغاني وغيره ، ولكن (لات حين مناص) ^{٤٨} فقد وصل حال الدولة الإسلامية إلى مرحلة من الضعف تعددت فيها الاجتهادات في كيفية إنقاذها ، فرأى قوم من المتعلمين الأتراك أن الخلاص في تقليد أوروبا في التحاكم إلى الدستور وتطبيق الحياة النيابية وإطلاق الحريات لمختلف القوميات التي تتكون منها الإمبراطورية كي تقوم كل فئة عرقية بإدارة شئونها بالشكل الذي تراه مناسبا لها في إطار تعددية في ظل السيادة العثمانية العامة . "لقد اعتقدوا بأنه لو سمح للمجموعات العرقية المتنوعة في الإمبراطورية العثمانية بانتخاب ممثليهم فإنهم سيتعاضون عن مشاعرهم القومية ، ويتحدون في ظل القومية العثمانية متناسين نظام الملل وأفكارهم القومية الجديدة المستوردة من أوروبا." ^{٤٩}

تتريك الدولة العثمانية

وإزداد الطين بلة عندما تحولت هذه الدعوة إلى نعرات قومية متباغضة ، وتولى كبر هذه الطامة حزب الاتحاد والترقي ، الذي أجبر الخليفة عبد الحميد على التنحي والاستقالة ، ومهد الطريق إلى سقوط الخلافة الإسلامية بعد تفريطه في

^{٤٧} - العصر العثماني ، ص ١٠

^(٢) دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش: حسان على حلاق ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ص ٨٨

^{٤٨} - سورة ص: آية ٣

^{٤٩} - الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: ١٢٧

استقلال الدولة بسقوط إستانبول عاصمة الخلافة في أيدي الاستعمار في الحرب العالمية الأولى ، كما فتحوا الباب واسعا أمام "كل المخالفين للوحدة الإسلامية : القوميون الذين رأوا أن الجامعة الإسلامية ضد المصالح القومية ، وهؤلاء لم يكونوا في البلاد العربية فقط ، بل كان الأكراد والألبانيون والعرب والترک واليهود والأرمن وغيرهم." ^{٥٠}

لم يكن العرب – مثل بقية الشعوب الإسلامية – راضين عن إسقاط الخلافة الإسلامية ، ولم يفكروا في الانفصال عنها كما يقرره معظم المؤرخين المنصفين من المسلمين والغربيين ، حتى دفعهم إلى ذلك حزب الاتحاد والترقي الذي لم يفسح لهم مجالاً سوى التفكير في منطقتهم العربية ^{٥١} يقول الشيخ محمد عبده : " إن من له قلب من أهل الدين يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله . فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين ، الكافلة لبقاء حوزته ، وليس للدين سلطان في سواها . وأنا على هذه العقيدة والحمد لله ، عليها نحيا وعليها نموت . " ^{٥٢} ويقول الزعيم المصري مصطفى كامل : "ولكن الحقيقة أن بقاء الدولة العلية ضروري للنوع البشري ، وأن في بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب والشرق ، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعية لثورة عامة بين المسلمين ، وحرب دامية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية . " ^{٥٣}

هذا رأي الشيخ المصلح ، وذاك رأي الزعيم الوطني العربيين في الدولة العثمانية وليس رأيهما هذا صادرا عن إعجابهما بحال الدولة العثمانية ، ورضاهما عن حسن خدمتها لرعاياها من المسلمين وغيرهم ، وإنما لجلالة اللقب الذي تحمله وما يرمز إليه هذا اللقب من المعاني السامية العميقة في نفوس المسلمين من العزة والوحدة والرباط التاريخي المقدس ، وهذا ما يشرحه الشيخ محمد رشيد رضا بقوله : "إن أكثر مسلمي الأرض متمسكون بالدولة العثمانية وخليفتها ، لأنها أقوى

^{٥٠} - العثمانيون في التاريخ والحضارة: د. محمد حرب ، دار القلم ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٩٩م ص٥٢٩

^{٥١} - الفكر الغربي والتغيير في المجتمع العربي: د. أحمد صدقي الدجاني ، (ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي) ، ص ٣٢٧

^{٥٢} - تاريخ الأستاذ الإمام: السيد محمد رشيد رضا ، الدار الفيصلية للنشر والتوزيع والتصدير ، ط١ ، ٢٠٠٣م

٩٠٩ / ١

^{٥٣} - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، ط٦ ، ١٩٨٣م ، ٢٣/١

الحكومات الإسلامية ، وأنهم يخافون أن يزول بزوالها حكم الإسلام من الأرض ، وأن هذا أعظم شأننا عندهم من بقاء المعاهد المقدسة سليمة مصونة.^{٥٤} لهذا كان بعض الحكام التابعين اسما للخلافة ، يخافون من رعاياهم إن هم نبذوا هذه التبعية الرمزية ، التي كانت تقيدهم في نظرهم . " ففي مواجهة التوسع الأوروبي ، كان من رأي الباي^{٥٥} أحمد أن التفاهم مع أوروبا القوية يفوق في الأهمية ارتباط تونس بالدولة العثمانية .. أما خير الدين .. فقد كان يرى أن الاتفاقات الدبلوماسية ، وعلى المدى البعيد ، غير مجدية .. ولهذا فقد كان الحل الذي لديه هو البناء الداخلي ، وتغيير أسلوب الحكم في البلاد ، دون التخلي عن الرابطة العثمانية . إذ كان يرى أن أي خطوة لإضعاف هذه الرابطة يمكن أن تتعكس على الأوضاع الداخلية نفسها " .^{٥٦} ولهذا فوجئ الإيطاليون بضراوة المقاومة التي واجهتهم في ليبيا ، كما فوجئ الفرنسيون بمثلها من قبل إبان حملتهم على مصر سنة ١٧٩٨م ، وكانوا يتصورون أن أهالي البلاد سيستسلمون دون مقاومة ، لأنهم يرغبون في التخلص من الحكم العثماني الأجنبي.^{٥٧} ولم يدر بخلداهم أن المسلمين مهما كرهوا حكامهم المسلمين فلن يستبدلوا بهم حكاما غير مسلمين .

وبرغم التخلف والجمود الذي صاحب الدولة العثمانية لعدة قرون - وكان هذا الجمود من أكبر ما أودى بها من العلل والأمراض - إلا أن بعض المؤرخين المتحاملين عليها بالغوا في تناول هذا الجانب من تاريخ الدولة العثمانية. فوصفوها بالدولة العسكرية المعادية للعلم والعلماء والعدالة والحرية ، وسلبوها من أي إبداع فكري أو علمي^{٥٨} وخاصة في عهدها الأخيرة ، ولعل ظهور العلماء المصلحين من أمثال الشيخ محمد عبد الوهاب في نجد (١٧٠٣-١٧٩١م) والشيخ محمد بن نوح الفلاتي في المدينة المنورة (١٧٥٢-١٨٠٣م) والشيخ محمد بن علي الشوكاني في اليمن (١٧٥٨-١٨٣٤م) والشيخ الشهاب محمود الألوسي في العراق (١٨٠٣-

^{٥٤} - الخلافة: السيد محمد رشيد رضا ، الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٨٨م ، ص ١٢٥

^{٥٥} - الباي كان لقب حاكم تونس.

^{٥٦} - التغيير المؤسسي في الوطن العربي على النسق الغربي: د. وليم سليمان قلادة ، (ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي) ، ص ٤٢٩

^{٥٧} - ليبيا المعاصرة ، د صلال العقاد ، ص ١٤

^{٥٨} - زعماء الإصلاح في العصر الحديث: أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، ص ٦ ، والسلطان محمد الفاتح: د. سيد رضوان علي ، دار السعودية للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٨٢م.

١٨٥٤م) والشيخ عبد القادر الجزائري (١٢٢٢-١٣٠٠هـ) في المغرب والشيخ محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧-١٨٥٩م) في ليبيا ، والشيخ جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧م) في أفغانستان ومصر وغيرهما دليل على استمرار العطاء وممارسة الاجتهاد والإصلاح من علماء أفاض أكفاء ، وخاصة في مجال علوم الدين .

يقول الدكتور مراد هوفمان : "ومن الطبيعي أن ذلك التدهور ، الذي تلا ازدهار الحضارة الإسلامية ، لم يكن كله ظلمات بعضها فوق بعض ، فقد أطلت هنا وهناك بارقة من بوارق العبقرية الإسلامية ، وخاصة في مجال الفقه وعلوم الدين والأدب وفن العمارة ، ووعت ذاكرة التاريخ روائع معمارية ، مثل تاج المحل (١٦٣٤م) ، والمسجد الأزرق الكبير في إستانبول ، الذي شيّد في ذلك الوقت نفسه

٥٩ "

انفصال المناطق العربية عن تركيا

كانت الفترة التي عاشها السيد رشيد رضا فترة عصيبة على العالم العربي والإسلامي ، فقد شهد رضا شيخوخة الدولة العثمانية التي بلغت من الضعف والهوان لم تصلح معه للبقاء فتداعت عليها الدول الإستعمارية الطامعة في تركتها^{٦٠} وطال الجدل والتدافع فيما بينها في كيفية اقتسام هذا الميراث الذي بات وشيكا . وكانت المناطق الأوروبية من الدولة العثمانية قد بدأت تتوالى على الانفصال ، بعد العدوان الثلاثي (إنجلترا - فرنسا - روسيا) الذي حطم الأسطول العثماني في معركته مع اليونان^{٦١} والذي مهّد لاستقلال اليونان في عام ١٨٢٧م ، وفتح الباب واسعا أمام جميع المنشقين في وقت كانت الدولة عاجزة عن معالجة مشاكلها الداخلية والخارجة المستفحلة ، ولولا حرص الدول الأوروبية المتنافسة على استحواذ النصيب الأوفى

^{٥٩} - الإسلام كبديل: د. مراد هوفمان ، ترجمة غريب محمد غريب ، مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا للنشر والإعلام بألمانيا الموحدة ، ص ٧٠

^{٦٠} - السيد محمد رشيد رضا: محمد أحمد درنيقة ، مؤسسة الرسالة ودار الإيمان ، ط ١ ، ص ١٥

^{٦١} - رشيد رضا صاحب المنار ، د. أحمد الشرباصي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر ، ١٩٧٠م ، ص ١٤

من تركة الرجل المريض - كما كانوا يطلقون آنذاك على الدولة العثمانية المتداعية - ورغبتها في مراعاة توازن القوى بينها لما بقي في يد الأتراك شيء من المجد الذي شادوه على قرون بدمائهم .

وهبت ريح هذه التغييرات العاتية على المنطقة العربية التي تعرضت للعدوان الاستعماري منذ أواخر القرن الثامن عشر ، عندما غزا نابليون مصر غزوا عسكريا وفكريا وثقافيا ، ثم حاول الاستيلاء على الشام لولا تعرض جنوده لوباء الطاعون من جهة وتهديد ومنافسة إنجلترا من جهة أخرى ^{٦٢} وأدى التنافس الشديد بين بريطانيا وفرنسا في التحكم على الممرات البحرية إلى حماية بريطانيا لمصر في عام ١٨٨٢م واحتلال فرنسا للجزائر ثم تونس .^{٦٣} ومنذ ذلك الحين تبين لكل ذي بصيرة عجز الدولة العثمانية عن وفاء شرط دخولها إلى المنطقة العربية وهو حمايتها من الغز الصليبي .

وفي أيام السلطان عبد الحميد الثاني - آخر سلطان عثماني فعلي - كانت سيطرة الدولة العثمانية على مصر وعلى شمال إفريقيا سيطرة رمزية روحية ، أما بقية المناطق في المشرق العربي فقد كانت خاضعة للسيطرة العثمانية المباشرة.^{٦٤}

ولما قامت الحرب العالمية الأولى بين دول المحور ومنها الدولة العثمانية وبين دول التحالف ، كان العرب يقاتلون في صفوف الحلفاء ضد الدولة العثمانية بوعدهم من الحلفاء على تحقيق طموحات العرب في الاستقلال ^{٦٥} ولما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء انقلبوا على العرب ، وأخلفوا ما وعدوهم ، واقتسموا أراضيهم ، وحدث ما كان العقلاء على حذر منه ، فقد كانوا يخافون على الراية العثمانية أن تطوي إلى الأبد ، وأن تحل محلها رايات الدول الاستعمارية ، فتصبح في كل وطن عربي راية لدولة أوروبية ، كما وقع في الشمال الإفريقي .^{٦٦}

حمل العرب السلاح من جديد ، وبدأ نضال الاستقلال من الاستعمار الأوروبي ، بعد الجهود المضنية التي بذلوها من قبل في الحصول على مطالبهم من

^{٦٢} - الأمير شكيب أرسلان حياته وأثاره: د. سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ص ٢١

^{٦٣} - السابق: ٢٤

^{٦٤} - السابق: ٢٤

^{٦٥} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٤

^{٦٦} - نحن والحضارة الغربية: ١١٨

الدولة العثمانية ، ومات الشيخ رشيد رضا بعد كفاح مرير في عام ١٩٣٥م ومعظم الدول العربية تحت الاستعمار الأوروبي .^{٦٧} بعد أن ظهر للعرب أن الدولة العثمانية قد ضعفت وأنها لم تعد قادرة على الدفاع عن أراضيها وحماية مصالحها بدأ المثقفون العرب المناقشة في مستقبل مناطقهم في ظل بروز مسألة القوميات التي أصبحت من معطيات الحضارة الأوروبية ، ومن وسائل تدخلها في شئون الأمم الضعيفة .^{٦٨} اقتصر بحث المسألة العربية في البداية على النخب العربية في الجمعيات التي أسسوها لخلق الجو المناسب وتهيئة الظروف المواتية ، وقامت الصحف التي أنشأها هؤلاء بتوعية الشعب العربي بمصيره في المستقبل ، ثم تأسست فيما بعد الأحزاب السياسية ، وتعددت المؤتمرات والندوات السياسية ، وبسبب المضايقات التي كانت تمارسها السلطات العثمانية على هذه الأنشطة التي تتوجسها خيفة ، اقتضى الأمر عقد بعض هذه الأنشطة إما في أوروبا أو في مصر حيث لم يكن للدولة العثمانية سلطة رقابية عليها .^{٦٩}

لم تخرج مطالب العرب في هذه المرحلة عن الإصلاح ، حيث كانت تقدم مقترحاتها ورؤيتها في الإصلاح إلى الدولة العثمانية^{٧٠} حتى إذا جاء حزب الاتحاد والترقي إلى الحكم بعد إقالة السلطان عبد الحميد الثاني ، ورفعوا شعار الطورانية ونبذوا وراءهم كل ما يمت إلى الإسلام والعرب بصلة ، عند ذلك لم يعد أمام العرب إلا المطالبة بحقهم في الاستقلال الكامل .^{٧١}

أدى النفور الشديد من مواقف حزب الاتحاد والترقي من العرب ومواقف العرب من الترك في الحرب العالمية الأولى إلى خلق حاجز نفسي سميك بين العرب وبين التاريخ العثماني المديد في المنطقة العربية ، حتى وُصِف بأنه فترة استعمار

^{٦٧} - رشيد رضا صاحب المنار: ٥٢

^{٦٨} - السابق: ١٤

^{٦٩} - الأمير شكيب أرسلان: ٤٠

^{٧٠} - السابق: ٣٤

^{٧١} - الفكر الغربي والتغيير في المجتمع العربي: ٣٧٢

مظلمة ^{٧٢} وأصبحت هذه النظرة السلبية النظرة الرسمية التي تبنتها كثير من الدول العربية في مناهجها الدراسية. ^{٧٣}

ولا تزال هذه النظرة قائمة إلى اليوم رغم الدراسات المتأخرة الكثيرة التي حاولت التصحيح وإنصاف التاريخ العثماني ، الذي لم يخرج في الحقيقة عن كونه تاريخ دولة إسلامية أصابت وأخطأت ، فلها ما لها وعليها ما عليها ^{٧٤} ويكفيها أنها نجحت "لمدة ثلاثة قرون على الأقل من حماية الأراضي العربية من حملة الغرب الاستعمارية الهوجاء التي امتدت غربا إلى العالم الجديد وشرقا إلى الهند وما وراءها". ^{٧٥} يقول الشيخ محمد محمود الصواف : " لو تصفح الإنسان أي كتاب من كتب التاريخ الحديث لوجد الهجوم على تركيا مركزا ومنظما وبأشد من الهجوم على دول الكفر المستعمرة حتى سموها تركيا مستعمرة لديار العرب ". ^{٧٦} وإذا عرفنا أن مصر ، والشمال الإفريقي كان من الاستقلال ، بحيث وصفت تبعيتها للدولة العثمانية بالرمزية أو الروحية ، فلا مبرر لإلقاء اللوم على الدولة العثمانية فيما أصاب هذه البلاد من التخلف ، وتجربة محمد علي باشا خير دليل على ذلك. ^{٧٧}

وكان من نتيجة تبعية العالم العربي للدولة التركية التي أصبحت أول دولة للخلافة لم تستعرب ^{٧٨} أن عجزت الدولة عن دمج العرب الذين يمثلون روح الإسلام في منظومتها السياسية ونسيجها الاجتماعي ، فكان هذا مبعث قلق دائم للطرفين ، وخطرا قائما على وحدة الخلافة ، وهذا ما يشير إليه السلطان عبد الحميد الثاني بحسرة : "اللغة العربية لغة جميلة ، لبيتنا كنا اتخذناها لغة رسمية للدولة من قبل .. اتخذنا للغة العربية لغة رسمية للدولة من شأنه - على الأقل - أن يزيد ارتباطنا

^{٧٢} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٦

^{٧٣} - تاريخ الدولة العربية الإسلامية وحضارتها ، د. حسين مؤنس (بمشاركة) ، وزارة التربية - الكويت ، الصف الأول الثانوي ، ط ٢ ، ١٩٧٤-١٩٦٥ ، ص ٢٥١

^{٧٤} - العرب والفكر التاريخي: عبد الله العروزي ، دار التنوير للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م ، ص ٧٩

^{٧٥} - إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر : صراع طبقي أم مشكل ثقافي: د. محمد عابد الجابري ، (ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي) ، ص ١٤٠

^{٧٦} - المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام: محمد محمود الصواف ، دار الثقافة للطباعة والزنكوغراف ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥م ، ص ١٧٥

^{٧٧} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٤

^{٧٨} - واقعا ومستقبلا في ضوء الإسلام: وحيد الدين خان ، ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم ، دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م ص ١٥٢

بالعرب.^{٧٩} ويرى رشيد رضا أن ضعف انتشار الإسلام في أوروبا التركية سببه عزل اللغة العربية التي تحوي كنوز الإسلام ، وهو ما سبب الفرقة بين الترك والعرب فيقول : "ولو أن الدولة العثمانية أحيت اللغة العربية فيما فتحتة من أوروبا لانتشر فيها الإسلام ، ثم فيما جاورها انتشارا عاما .. ولو رضيت لنفسها لغة الإسلام لما أبوا ، وهذه المسألة هي التي فرقت بين الترك والعرب ذلك التفريق الذي أشرنا إلى رزاياه في هذا البحث مرارا ."^{٨٠}

^{٧٩} - الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط: د. علي محمد الصلابي ، دار القمة لتوزيع الكتاب والشريط ، ودار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ، إسكندرية ٢٠٠٣م ، ص ٥٥٦

^{٨٠} - الخلافة . ١٠٠

المطلب الثاني : الحالة الفكرية في عصره

بدأ الغرب نهضته برغبة شديدة في الحصول على كل شيء يمكنه من بناء نهضته ، ويعينه على تجاوز عصور الظلمات التي خيمت عليه مدة طويلة ، فنحى جانبا خلافاته المريعة مع العالم الإسلامي التي كانت سببا في الصراعات التي عرفت باسم "الحروب الصليبية" واتجه إلى العالم الإسلامي يتلمذ عليه ويأخذ عنه العلم والمعرفة ، واحتفى بكل ما هو إسلامي ^{٨١} فقام بجهود جبارة في ترجمة العلوم الإسلامية ، شارك فيها كل المؤسسات الغربية ؛ الحكومية والكنسية ، والتعليمية وحتى الأفراد ^{٨٢} وأثمرت هذه الجهود في إحداث نهضة فكرية وعلمية كبيرة مكنتهم من وضع الأسس الأولى للحضارة الغربية التي يستظل بها العالم اليوم ، وامتدت آثار هذه الصحوة إلى مختلف مناحي الحياة الغربية في صورة ثورة فكرية شاملة لا يقف لها إلا ما يملك منطق البقاء ، فاهتزت العروش الملكية والمؤسسات الإقطاعية والسلطات الكهنوتية وحتى التعاليم المسيحية ^{٨٣} وتواصلت عندهم الجهود البحثية والعلمية ، وانطلقت عجلة الحركات الإصلاحية دون توقف أو فتور حتى قويت ساعد حضارتهم وتوطدت أركانها وتفوقوا على غيرهم من الأمم الأخرى في جميع المجالات ؛ العسكرية والاقتصادية والسياسية ، ثم انتقلوا إلى بسط نفوذهم وفرض سيطرتهم على الشعوب الأخرى لاستغلال مواردهم ومصادرهم الطبيعية.

بواعث النهضة

كان المسلمون أول من احتك بالحضارة الغربية ، فقد كانت الإمبراطورية العثمانية التي كانت في أوج قوتها في مبدأ النهضة الغربية تصارع الدول الغربية حتى ضمت جزءا كبيرا من الأراضي الأوروبية في وسط القارة ، ثم تعرضت للهجمات المرتدة من قبل الدول الغربية التي رجحت كفتها بعد أن تسلحت بسلاح

^{٨١} - تراث الإسلام: جوزيف شاخت (بمشاركة) ، ترجمة محمد زهير السهموري (بمشاركة) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، الطبعة الثالثة ، ١ / ٥٧ ، واقعنا المعاصر: محمد قطب ، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، ط ٢ ، ١٩٨٧ ص ١٧٥

^{٨٢} - المقدمات التاريخية للعلم الحديث ، توماس جولدشتاين ، ترجمة أحمد حسان عبد الواحد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، ٢٠٠٣ م ص ١٢٦

^{٨٣} - فجر العلم الحديث: توبي أ. هاتف ، ترجمة أحمد محمود صبحي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٩٩٧ م ١٥٤/٢

العلم والحضارة ، لم تنزل الحروب قائمة بين الدول الغربية وبين الإمبراطورية العثمانية لما يزيد على ستة قرون حتى أثنختها جروحها وسقطت في الحرب العالمية الأولى. ولا شك أن العثمانيين كانوا على علم بمنجزات الحضارة الغربية التي كانوا يكتونون بناؤها ، من سلاح وصناعة ونظم اقتصادية وسياسية وقانونية وغيرها^{٨٤} وقد جهدوا أنفسهم في تحقيق التوازن العسكري بينهم وبين الدول الغربية الكبرى التي كانوا ينازلونها ، فاستقدموا الخبراء العسكريين الغربيين وشيدوا المصانع الحربية ، كما فتحو المدارس والكليات الحربية ، وكانوا يكسبون أحيانا بعض الحروب الكثيرة ، التي كانوا يخوضونها للدفاع عن أملاكهم الأوروبية غير أن كل ذلك لم يكن إلا حلا مؤقتا لا يمكن بحال من الأحوال أن يضعها في مصاف الدول المتقدمة ، ويجعلها تجاري القوة الأوروبية ، التي تقف وراءها الجهود البحثية الحديثة ، والمراكز العلمية المتطورة ، والدول الحديثة الطموحة ، التي تتشد المجد بسلاح العلم والمعرفة ، ولا تلوي على غيره ، فعجز العثمانيون عن التحدي ، واقتنعوا ليس فقط باقتباس العلم والتقنية عن الغرب ، بل باستيراد نظمهم السياسية والاقتصادية والتشريعية^{٨٥} وكان أول من انتهج هذا النهج من السلاطين العثمانيين هو السلطان محمود الثاني "الذي كان يترسم خطا الحضارة الغربية في كل شيء فاستبدل الطربوش الروسي بالعمامة ، وتزيا بالزي الأوروبي ، وأمر أن يكون هو الزي الرسمي لكل موظفي الدولة العسكريين منهم والمدنيين"^{٨٦} فكان هذا أول انشطار فكري يصيب المسلمين بالثنائية الفكرية ، والتوزع بين القوانين الوضعية والتشريع السماوي ، ثم جاء ابنه السلطان عبد المجيد فكان "أول سلطان في آل عثمان يضفي على حركة تغريب الدولة العثمانية صفة الرسمية ، إذ إنه أمر بتبني الدولة لهذه الحركة وأمر بإصدار فرماني التنظيمات في عامي ١٨٥٤ و ١٨٥٦ ، وبهما بدأ في الدولة العثمانية ما سمي بعهد التنظيمات ، وهذا اصطلاح يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الأوروبي ، وبهذين فرمانين تم استبعاد العمل بالشريعة الإسلامية ، وبدأت الدولة تستلهم الفكر

^{٨٤} - فجر العلم الحديث: ٣٩/٢

^{٨٥} - المسألة القانونية بين الشريعة والقانون: طارق البشري ، (ندوة التراث وتحديات العصر) ، ص ٦٢٤

^{٨٦} - الإسلام والحضارة الغربية: د. محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان ، الطبعة السابعة ،

١٩٨٥م ص ١٧

الغربي في التقنين وإقامة المؤسسات.^{٨٧} وفي مصر كانت الحملة الفرنسية أول اتصال مباشر ومؤثر بالحضارة الغربية^{٨٨} وكان الفرنسيون قد قصدوا فعلا إظهار تفوقهم العلمي والتقني للمصريين حتى يتقبلوهم ويفضلوا بقاءهم على النفوذ العثماني ، وفعلا ذهل المصريون وعلى رأسهم علماء الأزهر بالتجارب العلمية الكثيرة والمثيرة التي كان العلماء الفرنسيون المصاحبون للحملة يجرونها أمامهم^{٨٩} ورغم إخفاق الحملة في البقاء في مصر ، فقد نجحت في استفزاز شعور العلماء والمتقنين المصريين ونبهتهم إلى البون الشاسع بينهم وبين الفرنسيين الغربيين في العلوم التطبيقية والمدنية والقوة العسكرية والاقتصادية ، وتجلت ذلك في سياسة محمد علي باشا الذي جاء إلى حكم مصر عقب رحيل الفرنسيين ، والذي اتجه إلى بناء دولة حديثة على النمط الأوروبي مستعينا بالخبرات الغربية ، ولكنه وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه العثمانيون من قبل عندما حاولوا إصلاح المؤسسات العسكرية والاقتصادية دون إصلاح النظام السياسي الذي يتوقف عليه أي إصلاح حقيقي^{٩٠} دون أن يسعوا إلى إيجاد مجتمع مدني واع يعين الحكومة على ما تسمو إليه من نهضة ، وقادر على مراقبة تصرفات السلطة حتى لا تتحرف عن المسار المرسوم للإصلاحات بسبب الأهواء أو الأخطاء الفردية كما حدث لمعظم خديويي مصر بعد محمد علي باشا.

وتعرض المسلمون في شبه القارة الهندية للتأثيرات الغربية القوية منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي عن طريق الشركات التجارية العملاقة التي كانت تجني الفوائد والأرباح الهائلة وتنتزع الامتيازات الاحتكارية من السلاطين المحليين بقوة وهيبة الدول التي تنتمي إليها ، ثم خضعت دولة المغول الضعيفة في الهند لنفوذ الشركة الشرقية الهندية البريطانية ، حتى تحول هذا النفوذ إلى استعمار مباشر بعد ثورة في منتصف القرن التاسع عشر ، وانتهى الوجود الرمزي للدولة المغولية

^{٨٧} - العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص ٤٧

^{٨٨} - إشكالية الأصالة والمعاصرة في الوطن العربي: (تعقيب) ، د. صالح أحمد العلي ، (التراث وتحديات العصر) ، ص ١٤٠

^{٨٩} - في الأدب الحديث: د. عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي ١٧/١

^{٩٠} - العالم الإسلامي والنظام الدولي: د. محمد عمارة (بمشاركة) ، مركز دراسات العالم الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ م ص ٥٠

الإسلامية في الهند ، وتعرض المسلمون بسبب ماضيهم السيادي وقيادتهم للثورة ضد الاحتلال لاضطهاد فظيع تعاون عليه البريطانيون والهندوس ، وانتزع من أيديهم كل شيء السلطة والشريعة والتعليم والممتلكات فساعت أحوالهم.^{٩١} وهكذا وقع العالم الإسلامي كله تقريبا في قبضة الاستعمار الغربي الفكري أولا ثم في قبضة الاستعمار الاستيطاني المباشر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر.^{٩٢}

دعاة النهضة

نهض المصلحون والمفكرون من العلماء المسلمين في مواجهة هذه الأزمة التي أحاطت بالمسلمين من جميع الجهات ، وكادت تطفئ نور الإيمان في قلوب المسلمين ، فكان أجهرهم صوتا وأنصعهم حجة وأوفرهم حماسا ، وأجرؤهم على مواجهة الاستعمار الغاشم ، والسلطين المسلمين الضعاف ، الذين استكانوا له ، هو السيد جمال الدين الأفغاني ، الذي قاد حملة توعية كبيرة ، طاف بها البلاد الإسلامية كلها ، يحاضر ، ويعلم ، ويربي ، ويؤلف ، يبين للمسلمين أن الإسلام بريء من التخلف الذي صاروا إليه ، ومن الضعف الذي صادفهم عليه أعداؤهم حتى تمكنوا من رقابهم ، ويدعوهم إلى مراجعة دينهم ، وتجديد الفهم له ، بعيدا عما ران عليه ، وألصق به على مر القرون ، مما ليس من نبعه الصافي ، ولا من هديه الحكيم ، فقيض الله له بعض الآذان الصاغية ، والقلوب الواعية ، وخاصة في مصر - "قبة طلاب الإصلاح في أرجاء العالم الإسلامي" ^{٩٣} وكان من أبرز أتباعه ، وأنبه تلامذته ، الشيخ محمد عبده الذي أصبح له في حياته رفيقه في الجهاد ، ولسانه في الدعوة ، وكان له بعد رحيله ، فيلسوف مشروعه الإصلاحية حتى قال فيه رشيد رضا في معرض إشادته بجمال الدين الأفغاني وحسن أثره في الأمة الإسلامية : "إنه لو لم يكن له من الأثر إلا الشيخ محمد عبده لكفى".^{٩٤} والحق أن الشيخ محمد عبده جدير بهذا الوصف ، فقد كان أزهريا عالما ، ومربيا حاذقا ، ومصلحا

^{٩١} - تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند: مسعود الندوي ، نشر وتوزيع دار العربية ، ص ١٧٩

^{٩٢} - حياة الشرق: ٣٩

^{٩٣} - التفكير فريضة إسلامية: عباس محمود العقاد ، دار الرشد الحديثة ، الطبعة السادسة ، ص ١٣٣

^{٩٤} - تاريخ الأستاذ: ١٠٢ / ١

واعيا ، وقد تقلد من الوظائف الكبيرة ، والمناصب العالية ، ما مكنه من ممارسة بعض إصلاحاته ، وتطبيق شيء من اجتهاداته ، في عديد من المجالات ، فالتف حوله طائفة من الشباب النابهين ، يأخذون عنه ويتربون على يديه ، ويقتبسون من أفكاره ، وفلسفته في الدين والحضارة ، وتكونت منهم مدرسة فكرية ، معلمها ومرشدها الأدي الشيخ محمد عبده ، وملهمها الأكبر السيد جمال الدين الأفغاني بل إن بعضهم - وهو الشيخ رشيد رضا - يقرن بجمال الدين الأفغاني وإن كان لم يلتق به ، لكنه يعد مع ذلك ثالث أقطاب مدرسة التجديد الإسلامي بعد جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، يقول أحد الباحثين : "إذا كان الأفغاني ملهم المدرسة التجديدية السلفية ، ومحمد عبده هو العقل المفكر لها ، فإن رشيد رضا المتحدث عنها ."^{٩٥}

والجدير بالذكر أن هذه المدرسة مدرسة الشيخ محمد عبده لا تلتقي إلا على الشيخ الذي تأثر به الجميع ، وتتلذذ عليه ، أما فيما عدا ذلك ، فقد تفرقوا في اتجاهات متباعدة ، بل متناقضة ومتصادمة ، فمنهم من تبنى الاتجاه الليبرالي ومنهم نادى بالقومية ، ومنهم من أخذ بالسلفية^{٩٦} وكلهم يتخذ الشيخ ملهمه في مذهبه ، وهذا مثار التساؤلات الكثيرة حول شخصية الشيخ محمد عبده ، فبينما اعتبر بعضهم أن هذا أمانة العبقرية وعلامة الأستاذية ، لأنه شخصية مشعة كما يقولون ، يقتبس منها الجميع ما يعينه على إضاءة دربه ، وإنارة طريقه^{٩٧} يتهمه الآخرون بأن هذا نتيجة مذهبه التوفيقي ، وتطويعه الشريعة لمعطيات الحضارة الغربية.^{٩٨} ولم تقتصر حركة جمال الدين الأفغاني على مصر وعلى العالم العربي بل امتدت إلى الهند ، وأفغانستان ، وتركيا ، وإيران وغيرهما من البلاد الإسلامية التي شهدت يقظة فكرية ، فإليه يعود الفضل في "إحياء حركة التجديد الفلسفي ، وخاصة فيما يتعلق بالإصلاح الديني والسياسي فهو على حسب تعبير بعض الباحثين : "حكيم الشرق ، ورجل الإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي في بلاد المسلمين .. لذلك لا عجب

^{٩٥} - تاريخ الأستاذ : ١ / ٣٩٥

^{٩٦} - العرب وتحول خطابهم: رضوان زيادة ، الاجتهاد العددان ٥٥ - ٥٦ ، السنة ١٥ ، عام ٢٠٠٢م ، ص ٧١

^{٩٧} - رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده : د. عثمان أمين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥م ص ٢٥٨

^{٩٨} - التراث والتنمية العربية: د. جلال احمد أمين ، (التراث وتحديات العصر) ، ص ٧٥٤

أنه متى ذكرت حركة الإصلاح في أي بلد من هذه البلاد ، لم يكن بد من إرجاعها إليه.^{٩٩}

واجه الاستعمار - الذي انتقل من مرحلة الهيمنة الاقتصادية ، بواسطة الشركات التجارية الاحتكارية ، إلى الاستعمار المباشر - الحركات الإصلاحية بكل الوسائل المادية والمعنوية ، فإضافة إلى ملاحقته للإصلاحيين بالاعتقالات ، والاعتقالات ، والنفي ، والتشريد ، وتعطيل صحفهم ، ومجلاتهم ، ومصادرة كتبهم ومطبوعاتهم ، استخدم كذلك الوسائل الأدبية المضادة ، كالصحف ، والمجلات ، والمدارس التبشيرية ، والتعليم العلماني ، والمتفقين المتغربين الموالين له ، كما أطلق عنان الأفكار المعادية للحركات الإصلاحية ، كالعلمانية والقومية والليبرالية ، وغيرها من الأفكار الدخيلة التي تصيب المجتمعات الإسلامية بالاضطراب الفكري والتمزق الذهني وتجعلها قابلة للذوبان في الحضارة المادية المعادية .^{١٠٠}

كانت الحركات القومية أخطر الأسلحة ، التي واجهت الإصلاحيين ، الذين كان من أهم دعواتهم تحقيق الوحدة بين المسلمين ، إلا أن الأفكار الواردة من الغرب الذي قامت دوله على أكتاف القوميات ، والأجناس المختلفة ، التي كانت تتصوي تحت لواء الإمبراطورية العثمانية ، وضعف النظام السياسي المترهل للدولة العثمانية ، الذي لم يستطع تطوير أي شكل مقبول من تحقيق الوفاق بين أتباع الدولة ، كل هذه العوامل المتضافرة ، أدت إلى إضعاف حجة الدعوة إلى الوحدة الإسلامية. يقول الأستاذ وحيد الدين خان : "لقد فشلت حركة الخلافة أو الوحدة الإسلامية رغم جميع إمكانياتها ، ولم يكن السبب في ذلك حقيقة "مؤامرة" ما بل إن الظروف العالمية في ذلك الوقت قضت على تلك الحركة ، فحين يجذب طوفان الأفكار الدنيا كلها ناحية القوميات الجغرافية فلا يمكن أن تقف ضدها أي جزيرة .^{١٠١} ويوافق الدكتور محمد البهي الأستاذ وجيد الدين خان على ما ذهب إليه من فشل حركة الخلافة الإسلامية في صراعها مع القومية العلمانية ، لأنه "لم يكن صراعا أيديولوجيا متكافئا رغم أن

^{٩٩} - فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي: د. أحمد محمد جاد عبد الرزاق ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥م ، ٢٩١ / ١

^{١٠٠} - حوار لا مواجهة: د. أحمد كمال أبو المجد ، دار الشروق ، ١٩٩٨م ، ص ١٨٩

^{١٠١} - واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام: وحيد الدين خان ، ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم ، دار الصحوه للنشر والتوزيع بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م ، ص ١٨٠

الإسلام هو العقيدة الأصلية للمسلمين .. وكان يجب أن تكون مكروهة .. ومن أجل ذلك كان يجب أن تكون كفة الإسلام راجحة في هذا الصراع ، ولكن الإسلام كان ضعيفا في الإيمان به من المسلمين قبل الغزو الغربي .. ثم إلى جانب ضعف الإيمان بالإسلام بين المسلمين .. ضعف علماء الإسلام.^{١٠٢}

نشط أنصار العلمانية ، والدعوة التغريبية ، وحاولوا أن يربطوا بين ما يعانيه المسلمون من الضعف والتخلف وبين الإسلام ، ودعوا إلى مجازاة الغربيين في الفصل بين الدين وشتون الحياة ، "ولم يفهموا في الخروج من "التخلف " الاجتماعي والسياسي سوى زاوية تقليد الغربيين ونظمهم ودساتيرهم فحسب ، وذلك بالتبني الكامل للقيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية للمدنية الغربية ، وفي الدعوة صراحة للارتباط بأوروبا والتبعية لها ، إذ اعتبروا أن الإسلام عجز عن تحقيق العصرية ومواجهة قوة الغرب . " ^{١٠٣} " والواقع أن العالم الإسلامي الذي واجه الجيوش الاستعمارية لم يكن إسلام أيام المجد القريب من المنابع والمستند إليها بل إسلاما متقلا بالعادات الغربية عن الإسلام والخرافات. " ^{١٠٤} واستقوى هؤلاء العلمانيون بالأجانب الغزاة واستعلوا على المصلحين بمساندة الدول المستعمرة لهم وتمكينهم من وسائل التربية والتوجيه ، غير أن هذا لم يطفئ جمره الإصلاح ، وإن نال من وهجها ، وقد صور الشيخ محمد رشيد رضا الصراع الفكري الذي احتدم في عصره في الساحة الإسلامية فقال : "إن المتصدرين للزعامة السياسية ومقام الحل والعقد في غير جزيرة العرب من البلاد الإسلامية أزواج ثلاثة : مقلدة الكتب الفقهية المختلفة ، ومقلدة القوانين الأوروبية ، وحزب الإصلاح الجامع بين الاستقلال في فهم فقه الدين وحكم الشرع الإسلامي ولكنه الحضارة الأوروبية. " ^{١٠٥}

في هذا التصنيف الدقيق من الشيخ رشيد رضا للاتجاهات الفكرية في عصره يقول الأستاذ زكي الميلاد : "إن التقسيمات والتصنيفات بين الاتجاهات والتيارات الفكرية والثقافية التي أفرطت الخطابات العربية والإسلامية في الحديث عنها ،

^{١٠٢} - الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر: د. محمد البهي ، دار الفكر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٣ بيروت ، ص ٦٠

^{١٠٣} - الإسلام الأمس واليوم: ٧٦

^{١٠٤} - أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة: د. محمد مخزوم ، معهد

الإنماء العربي ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ م ، ص ١٠٦

^{١٠٥} - الخلافة: ٦٩

والتذكير بها والتركيز عليها بتسميات مختلفة ومتزايدة بين محافظين وإصلاحيين ،
تراثيين وحدائثيين ، دينيين وعلمانيين ، تقليديين وعصرانيين ، سلفيين وليبراليين ،
يمينيين ويساريين .. إلى غير ذلك من تسميات وأوصاف وتقسيمات كرسست معها
الفروقات بين هذه الخطابات والاتجاهات ، وحاولت أن تضع بينها فواصل قاطعة ،
وحدودا نهائية وصارمة. هذه التصنيفات عرفت لأول مرة بهذا الشكل في التاريخ
العربي والإسلامي الحديث عندما قسم رشيد رضا الفئات والجماعات إلى ثلاثة
طوائف أو أحزاب كما في عبارته ، هم حزب المتفرنجين وحزب حشوية الفقهاء
الجامدين وحزب الإصلاح الإسلامي المعتدل في كتابه "الخلافة أو الإمامة
العظمى" ^{١٠٦}

كان الشيخ رشيد رضا من حزب الإصلاح الذي حاول التوفيق بين الثوابت
الإسلامية وكنه الحضارة الأوروبية ، وقد تفاوتوا في هذا التوفيق بين مسدد ومفرط
كما تفاوتوا في الاستلham من الحركة السلفية التي ينسبون إليها ، وسماهم غيرهم
بالتوفيقيين واتهمهم بالانتقائية والتبريرية ، والجمع بين المتناقضات ، كما يقول
الدكتور محمد مخزوم : "كان موقف دعاة هذا الاتجاه انتقائيا إلى حد ما. فبقدر ما
تمسكوا بعدم مخالفة نصوص الشريعة عند وضع القوانين والدساتير ، حاولوا أن
يبرهنوا عدم التعارض بين الإسلام ومفهومه للشورى وبين النزعة البرلمانية التي
يتبناها الغرب الأوروبي." ^{١٠٧}

الحالة الثقافية في عصره

أما عن حال الثقافة الإسلامية عموما والأدب خصوصا في عصر رشيد رضا
فقد انعكس عليها الضعف والتخلف الذي خيم على العالم الإسلامي لعدة قرون جراء
الجمود السياسي ، فبينما كان العالم الأوربي الحديث لا يزال يغترف من العلوم
الإسلامية حتى القرن السادس عشر الميلادي اوتعبير أحد الباحثين الغربيين : "عبر
كل الحدود المشتركة كان العلم العربي يرشح إلى الغرب الأوروبي ، مع العادات

^{١٠٦} - صدمة زوال الخلافة العثمانية في الفكر الإسلامي في العشرينات: الاجتهاد العددان ٤٥-٤٦ ، السنة ١١
عام ٢٠٠٠ ، ص ٢٩٣
^{١٠٧} - أزمة الفكر الإسلامي: ٨٤

الإسلامية ومنظومات النقوش الزاهية ، والملاحح الرشيفة للعمارة العربية ، وكل الأسلوب الباذخ السلس لحياة الطبقة العليا المسلمة ومع بلوغ أوروبا العصر الوسيط سن الرشد كانت قد بدأت تمتص الأساليب المعقدة لحضارة أكثر تقدماً.^{١٠٨} في هذه الفترة العصبية من تاريخ الحضارة الإسلامية توقفت عجلة مد التقدم العلمي في المشرق الإسلامي لنضوب روافده وانعدام دوافعه وانسداد آفاق سيره ، وأسلم القيادة والريادة إلى تلاميذه من غير أهله ملته وحضارته .

لم يكن العلم الذي فتحت له أوروبا حدودها وأقبلت عليه بشغف ورصدت له كل طاقاتها ، لم يكن هذا العلم يتمثل فقط في الفنون الجميلة والعمارة والفلسفة الإسلامية العقلانية وإنما تمثل كذلك في الرياضيات والفلك والطب والعلوم التطبيقية ، ولم تزل السيادة في هذه العلوم للمسلمين حتى في عصور متأخرة ، حيث استمرت هذه السيادة والأستاذية في بعض الفروع العلمية وخاصة في الطب والفلك حتى القرن السادس عشر ، بل إن الابتكارات الإسلامية في مجال الفلك والبصريات قد أفضت مباشرة إلى العلم الحديث. يقول أحد الباحثين الغربيين : "إن العمل الذي قامت به مجموعة الفلكيين في مرصد مراغة بوجه خاص في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وبلوغ ذروته على يد بن شاطر (ت ١٣٧٥) قد توصل فيه إلى تطوير نماذج للأجرام في الكون يوصف بأنه أول ابتكار غير بطلمي في طريق مؤد إلى العلم الحديث ، بل إن هذا الابتكار هو الذي تبناه كوبرنيكوس فيما بعد."^{١٠٩} ولم يكن الأوروبيون وحدهم في التلمذ على المسلمين والأخذ عنهم والاهتمام البالغ في النقل عنهم ، بل شاركهم في ذلك الصينيون الذين شعروا بتخلف معارفهم الفلكية ، وقصور مراصدهم ، فأرسل ملكهم إلى المسلمين ، يطلب خبراتهم في تطوير العلوم الفلكية في الصين "فتأسس في عام ١٣٦٨م مكتب إسلامي خاص بالفلك في الصين ، وظل يعمل حتى وصول اليسوعيين في القرن السادس عشر."^{١١٠} ، والجدير بالملاحظة أن الإمبراطورية العثمانية التي وافق ميلادها آخر الإنجازات العلمية

^{١٠٨} - المقدمات التاريخية في العلم الحديث: ١٢٩ ، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي: عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات - الكويت ، ودار القلم ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩م ص ٥

^{١٠٩} - افجر لعلم الحديث: ٦١ / ٢ . ونيكولاوس كوبرنيكوس (١٥٤٣م) عالم فلكي بولندي ، اكتشف أن الكواكب بما فيها الأرض تدور حول الشمس.

^{١١٠} - السابق: ٦٤/٢

الإسلامية لم تعر اهتماما كبيرا في هذا الجانب الحيوي الذي لا قوام لأي إمبراطورية ولا لدولة ذات شأن بدون الاعتماد عليه والاستثمار فيه ، وهذا ما جعل كثيرا من الباحثين المسلمين وغيرهم ينعنون الدولة العثمانية بأنها كانت دولة فتوة وسيف ولم تكن دولة علم وحضارة.^{١١١}

إن الخلافة العثمانية وهي تتابع جهودها المتواصل في نشر الإسلام عن طريق الفتوحات التي حشدت لها كل طاقاتها المادية وجندت لها كل امكانياتها البشرية حتى كان السلاطين يقودون الجيوش بأنفسهم - غفلت عن الكفاح في مجال العلوم والمعارف الإنسانية ولم تسع إلى الريادة الفكرية والسيادة العلمية كما سعت إلى الهيمنة العسكرية والسيطرة عن طريق القوة ، وقصرت في استقطاب العلماء وتشجيع البحث العلمي في مختلف المجالات كما قصرت في نشر المعارف وتعميمها عن طريق المدارس والجامعات ولم يعرف عنها التطلع العلمي الباعث على البحث عما عند الآخرين ونقله وتطويره بعد ترجمته ودراسته وهضمه كما كان دأب الأوروبيين في مبدأ نهضتهم ، وكان من قبل دأب المسلمين في العصور العباسية.

إن من أقتل ما أصيبت به الخلافة العثمانية وأقعدتها عن التطور هو عجمة لسانها باتخاذ اللغة التركية لغة رسمية للخلافة فحالت هذه اللغة بينها وبين ميراثها الحضاري كما حالت بينها وبين السواد الأعظم من شعبها فأصحت بذلك مشلولة يقول الأستاذ محمد قطب : "ولو تصورنا أن دولة الخلافة قد استعربت ، وتكلمت باللغة التي نزل بها هذا الدين ، فلا شك أن عوامل الوحدة داخل الدولة كانت تصبح أقوى وأقدر على مقاومة عبث العابثين . فضلا عما يتيح تعلم العربية من المعرفة الصحيحة بحقائق هذا الدين من مصادره المباشرة ، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، مما كان الحكام والعامّة كلاهما في حاجة شديدة إليه على الرغم من كل ما ترجم إلى التركية ، وما ألف أصلا بالتركية حول هذا الدين".^{١١٢}

ورث العالم العربي والإسلامي من الدولة العثمانية نوعا من التعليم الهزيل المرتبط بنظام الدولة ، حيث كانت الدولة لا ترعى ولا تهتم إلا بنوع من التعليم كان

^{١١١}- زعماء الإصلاح: ٦

^{١١٢}- واقعنا المعاصر ، محمد قطب ، ص ١٥٣

يوهل خريجيه لخدمة الدولة والعمل في مرافقها المختلفة ، وكانت التركية لغة التدريس في هذه المدارس مما جعل كثيرا من رعايا الدولة العلية محرومين من التعليم الأساسي ، لأن هذا النوع من التعليم الوظيفي لم يعجبهم أو لأنهم رغبوا عن الدراسة باللغة التركية كما أن هذا التعليم لم يكن متاحا لجميع الناس لمحدوديته وقلة انتشاره .

وفي عصر رشيد رضا كان التعليم المتاح في الشام وفي معظم البلاد العربية التابعة للخلافة العثمانية ثلاثة أنواع :

١- التعليم الرسمي : "ولم يبدأ تنظيمه فعليا إلا بموجب نظام المعارف الذي صدر عام ١٨٦٩. وبموجب هذا النظام قسمت الدراسة إلى خمس مراحل .. إلا أن هذا التنظيم لم يؤد مباشرة إلى زيادة عدد المدارس الحكومية ، ولم يرفع من شأن التعليم .. ففي سوريا بقيت المدارس في حالة يرثى لها وهي ليست على شيء من العلم والتعليم .. ومن المؤسف أن المعلمين فيها ليسوا على شيء من علم تربية الأطفال ومعرفة طرق التعليم." ١١٣

٢- الكتاب : وهي الخلاوى القرآنية المعهودة منذ فجر التاريخ الإسلامي ، والتي يتعلم فيها الأطفال عادة القرآن الكريم والقراءة والكتابة ، كما يتلقون فيها مبادئ العلوم الإسلامية واللغة العربية .

٣- المدارس الخاصة : وقد انتشر هذا النوع من التعليم الخاص بين الطوائف المسيحية بتأثير من الإرساليات التبشيرية الأوروبية المختلفة ، وقد نشطت مدارس الإرساليات التبشيرية بتعاطف مصالح ونفوذ الدول الأوروبية الكبرى في المنطقة حتى امتد جهدها إلى التعليم العالي ، فقد فتحت الإرسالية الأمريكية البروسنتانية كلية بيروت التي تطورت لتصبح فيما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت ، وفتح بعض الإرساليات الفرنسية الكلية اليسوعية. أحجم المسلمون عن إرسال أولادهم إلى المدارس الخاصة التي كانت تديرها الإرساليات التبشيرية خوفا على دينهم وأخلاقهم من شائبة تعاليم هذه المدارس التي

١١٣- البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان: د. طلال عتريسي ، الوكالة العالمية للتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ص ٥٢

لم تنشأ إلا لنشر المسيحية وإعزاز أهلها^{١١٤} ولم تفلح الجهود التي بذلها بعض المصلحين في إنشاء مدارس خاصة بالمسلمين ، تعلم ناشئتهم ، وتغنيهم عن اللجوء إلى المدارس التبشيرية ، بل تددت تلك الجهود ، وتضعفت المدارس التي أنشأها بعض المصلحين بسبب سياسات الدولة العلية التي لم تعترف بها مما أدى إلى توقفها واندثارها في نهاية الأمر ، فزاد هذا من تأخر المسلمين التعليمي. وعندما خضع العالم الإسلامي ومن ضمنه معظم البلاد العربية للاحتلال الأجنبي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، سارت فيهم سياسة تجهيل عمادها محو المؤسسات التعليمية الإسلامية المتواضعة التي كانت قائمة ، والتي حفظت للمسلمين دينهم وتراثهم عبر الأجيال ، فضيق على المدارس القرآنية (الكتاتيب) بحجج مختلفة بل تجرأ على إلغائها في بعض البلدان واستبدل نظامه التعليمي الاستعماري العلماني بالتعليم الإسلامي ، وبالغ في محاربة الثقافة الإسلامية واللغة العربية فأصبحتا مادتين ضئيلتا الشأن في المنهج التعليمي الاستعماري الجديد وأضحت لغة المستعمر (الإنجليزية والفرنسية) لغة التعليم بدل العربية وبدأ التغريب يسري في عقول الناشئة المسلمة مسرى الدم في الجسد.^{١١٥}

لم يكن التعليم الذي كان يبشر به المستعمر ليرفع الجهل عن المسلمين ويورثهم البصيرة العلمية كلا فما كان للمستعمر أن يسلح عدوه بأقوى سلاح وهو سلاح العلم ليستعين به على طرده من بلده ، وإنما أراد أن يكسبهم من المعارف الأولية ما يعينه على استغلالهم واستخدامهم في مصالحه . "ويكشف أحد الباحثين الغربيين وهو روبرتتيجنور عن دوافع سياسة كرومر وخبرته في الهند ، التي يحرص على أن يستفيد منها في رسم السياسة التعليمية لمصر ، إذ يذكر أن إدخال التعليم الغربي إلى مصر ، يسهم في نمو الشعور ، مما يهدد بقاء الاحتلال الإنجليزي فيها." (٢) وهكذا كان كرومر وزملاؤه "يحذرون حكوماتهم من إتقان التعليم في المستعمرات .. فهم يرغبون قلع العلوم الشرقية من بين الشرقيين ، ولكنهم يضمنون أن يجعلوا مكانها العلوم العصرية لئلا تحيا بها نفوس هذه الأمم ، إذ يعلمون أنه لا يجتمع العلم والذل

^{١١٤} - الإسلام في القرن العشرين ، عباس محمود العقاد ، ص ٨٧

^{١١٥} - فلسفة المشروع الحضاري: ١ / ١١٠

(٢) الإسلام في القرن العشرين: ٨٧

في محيط واحد سواء أكان علما شرعيا إسلاميا أو علما أوروبا عصريا أو علما جامعا بين الأمرين .^{١١٦}

انتعشت الثقافة الإسلامية في الشرق الإسلامي منذ منتصف القرن التاسع عشر بسبب اتصال المسلمين بالغرب المتطور منذ الحملة النابليونية على مصر التي استفزت المصريين وكشفت عن ضعفهم وتخلفهم وحملت قائدهم محمد علي باشا على القيام بنهضة عاجلة ، فبعث البعث العلمية إلى مختلف البلاد الأوروبية ، وفتح العديد من المؤسسات التعليمية ذوات الطابع العسكري ، وكون جيشا قويا فاقت قدراته التأهيلية والتسليحية قدرات جيش الإمبراطورية العثمانية التي كانت مصر إحدى ولاياتها ، وتهيأ في مصر مناخ فكري وثقافي فريد جذب إليه المفكرين وزعماء الإصلاح من أنحاء العالم العربي والإسلامي ، واحتفى به المعارضون للخلافة والناقمون من ممارساتها الاستبدادية وتضييقها على الحريات الفكرية والسياسية ، وكان من أبرز هؤلاء المصلحين الكبار السيد جمال الدين الأفغاني الذي أحدث في مصر - رغم قصر مدة لبثه فيه - يقظة إسلامية وثورة فكرية التف حولها النخبة المثقفة على اختلاف مشاربها وتوجهاتها ، وخلفه بعد طرده ونفيه من مصر أنجب تلامذته الشيخ محمد عبده الذي أصبح فيما بعد أستاذ جيله وإمام عصره ومجدد قرنه كما تتعته دراسات كثيرة.

وصاحب هذه اليقظة نشاط ثقافي تمثل في انتشار الصحف والمجلات ، وكثرة المطابع التي أحييت التراث الإسلامي وبسرت للجماهير اقتناء الكتب ، كما أصبح متاحا للمثقفين بسبب حركة الترجمة القوية الاطلاع على الحياة الأوروبية المتطورة ، فكان من نتائج كل هذا قيام نهضة فكرية وثقافية وسياسية وأدبية كادت تورث التقدم والانطلاقة التي لا رجعة بعدها لولا أن الاستعمار وأدها في مهدها قبل أن يشند عودها وتقوى على مواجهاه مكائده وتحدياته^{١١٧}

^{١١٦} - حياة الشرق: ١٢٣

^{١١٧} - النهضة العربية والنهضة اليابانية: د. مسعود ضاهر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، ١٩٩٩م ، ص ١٣ ، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل : محمد الغزالي ، دار الشروق ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٢م ص ١٩٩ ،

حال الأدب في عصره

وأما حال الأدب في عصر رشيد رضا فقد كان يستفيق مما أصابه من التراجع والنضوب طيلة عصر المماليك والأتراك ، ذلك لأن الأدب مرآة لعصره يعكس بصدق وأمانة ما يعثوره من الفتوة أو الفتور ، وما يلبسه من الصحة أو الاعتلال وما يصيبه من التقدم أو يلاقيه من التخلف ، وقد ذكرنا أن الركود قد ران على الثقافة الإسلامية منذ أن تحولت السلطة السياسية عن العرب وأصبحت المناطق العربية طرفا تابعا لإمبراطورية عجمية اللسان ، وإن كانت إسلامية الهوية عسكرية الطابع ، برغم حماسها الشديدة لخدمة الإسلام ، وإعلاء كلمة الدين ، وسعيها الدعوب لرفع أعلام التوحيد في ربوع جديدة ، وكم كان الإمام الشاطبي مصيبا في قوله : "إن الشريعة عربية ، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم العربية حق الفهم ، لأنهما سيان في النمط ما عذا الإعجاز . فإذا فرضنا مبتدئا في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة أو متوسطا فهو متوسط في فهم الشريعة ، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية ، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة . " ^{١١٨} فما بالك بقوم ليسوا من العربية على شيء وهم يطمحون إلى حراسة الدين وتبوء مقعد الخلافة وهذا سر ازدهار الحضارة الإسلامية في مراكزها الجديدة في العراق والشام ومصر والأندلس وتعثرها وانوائها في تركيا والسند وإيران وفي كل بلاد العجم ^{١١٩} لأن أولئك تعربوا واصطبغوا بصبغة الثقافة العربية قبل أن يتصدوا لحمل راية الحضارة العربية ، وهؤلاء حاولوا حمل هذه الأمانة الثقيلة قبل أن يتأهلوا لها ويعدوا لها عدتها فضاعت الأمانة رغم الحرص الشديد على حفظها والاستماتة في الدفاع عنها. ^{١٢٠}

والأدب فن حساس سريع التأثير ينبت مع قطرة ربيع التقدم الأولى ، ويتصوح مع هبوب ريح الشتاء القارس ، وكذلك كان الأدب من أوائل ضحايا الجمود في عصر

^{١١٨} - الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ص ١١٤
^{١١٩} - التاريخ والحضارة الإسلامية في باكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربي: د. عبد الله محمد جمال الدين ، دار الصحوة للنشر ، القاهرة ، ص ٣
^{١٢٠} - يقول الشيخ محمد الغزالي : "وقد حاول ناس من الترك والفرس وأشباههم أن يقودوا الإسلام مع بقائهم على تركيتهم وفارسيتهم أو مع ارتداء لباس العروبة على جلدة فارسية أو تركية فكانت هذه المحاولات سببا لبلبلة علمية وسياسية لا يزال الإسلام يتعثر في عقابيلها." حقيقة القومية العربية: ٢٧

العثمانيين وسلطان دولتهم ممدود وشوكتها قوية وهيبتها مرهوبة ، لكن دولة الأدب مع ذلك دالت وذبل غصنها الرطيب وذهبت نضارتها كما يؤكد عليه معظم مؤرخي الأدب لأنه لم يجد من أولي الأمر من يهتم به ويندوقه ويهتز له إذا هز به ، (أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) ^{١٢١} ولا من الجمهور من يطرب له ويقدره حق قدره لفساد سلاتقهم وتراجع ملكاتهم وتبلد أذواقهم وانصراهم إلى أشكال أخرى من الشعر الشعبي . وهكذا أصبحت سوق الأدب كاسدة ، وبضاعته مزجاة ، فتواری في زوايا هامشية من حياة المجتمع فلا يسمع إلا في حفل زفاف أو في مأتم عزيز أو مدح شريف أو ما شابه ذلك من القضايا الشخصية المعزولة ، وعدته في كل ذلك لا يختلف كثيرا ، فهو لا يعدو أن يكون نظما بارد العاطفة ضحل الخيال قليل التصرف في المعاني الشعرية مثقلا بالمحسنات (أو بالأحرى بالمساوي) البديعية جل همه الاهتمام بالإطار اللفظي الشكلي الجامد كالبيتين التاليين للشيخ على الدرويش ، وهما في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقال إنه أودعهما ثمانية وعشرين تاريخا يقول فيهما :^{١٢٢}

خير البرايا أحمد سماله بيت رقى في المعالي مورد

أتقى نبي نور ظهر عاصم هو خير الرسل بل هو أحمد

فانصرف الشعب عنه إلى الأدب الشعبي الذي وجدوا فيه ما يلبي رغبتهم ويناسب ذوقهم.^{١٢٣}

هذا حال الأدب في عصور ما يعرف بعصور الانحطاط ، وما ذكرنا عنه سمة عامة ومشتركة بين المناطق العربية جميعها في نظر معظم مؤرخي الأدب ^{١٢٤} وإذا كان هناك من يماري في بعضها أو يستثني شيئا منها ^{١٢٥} فلا جرم أنه ظاهر

^{١٢١} - سورة :

^{١٢٢} - الأدب العربي الحديث: د. محمد صالح الشنطي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع ، حائل ، الطبعة الرابعة ٢٠٠٣م ، ص ٢٥

^{١٢٣} - تطور الرواية العربية الحديثة: د. عبد المحسن طه بدر ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ص ١٩
^{١٢٤} - يقول بعض الباحثين: "ومرت عصور انحطاط وتراجعات وصلت ذروتها في القرن السادس عشر والسادس عشر والسابع عشر أصبحت فيه القصيدة العربية لا تمثل من الشعر إلا أوزانه وقوافيه لا يختلف في ذلك شعر قطر عربي عن قطر آخر." انظر : أساليب التعبير الأدبي: د. إبراهيم السعافين (بمشاركة) ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن ، الإصدار الثالث ٢٠٠٠م ، ص ١٢٥

^{١٢٥} - انظر: الأدب الحجازي في القرن الحادي عشر: د. عائض الراددي ، مكتبة المدني للطبع والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١/ ١١٧. يذكر الباحث في هذا الكتاب أن أدب الحجاز في القرن الحادي عشر الهجري كان كثيرا وقويا.

في غالب البلاد العربية^{١٢٦} ، وخاصة في مصر التي كانت عاصمتها القاهرة العاصمة الثقافية والسياسية للأقاليم العربية التابعة للخلافة العثمانية ، كما أن ظاهرة الجمود والتخلف واضحة وبينه في الشعر وفي النثر الأدبي على إطلاقه الضيق ، وأما النثر الفني أو الأدبي بمعناه الأوسع فقد يكون فيه مجال للبحث ، ذلك لأن النثر التأليفي أو العلمي لم ينته أبداً إلى ما انتهى إليه النثر الفني المتمثل في الرسائل الإخوانية أو الديوانية وما شابهها من الضعف والركاكة ، بل إن القرون الثلاثة التالية لسقوط بغداد وانتهاء الخلافة العباسية هي العصور التي أنجزت فيها معظم الموسوعات العلمية في شتى الفنون ، وعاش فيها المؤلفون المكثرون الذين أربت مؤلفات على الألف مثل ابن تيمية ووالنووي والسيوطي وغيرهم.

ولئن كان الجبرتي وغيره دليلاً على ضعف الملكة الأدبية ، وتراجع الطبع وظهر ذلك جلياً في مؤلفاتهم ، التي لم تسلم مما يسهل الاحتراز من أمثاله ، من الأخطاء التعبيرية والألفاظ العامية ، فقد كان يعاصروهم من يحلق في سماء البلاغة ولا شبهة في علمه ولا في أسلوبه من أمثال الإمام الموسوعي محمد بن علي الشوكاني اليمني ، والسيد محمود الألوسي العراقي صاحب تفسير روح المعاني وغيرهما .

ليس القصد من هذه المناقشة أنني أنفي أو أمارى أو أدفع ما تواطأ عليه الباحثون والدارسون لتاريخ الأدب العربي من وسم أدب القرنين السابقين على النهضة الحديثة بالضعف والجمود ، مثله في ذلك مثل الثقافة الإسلامية التي عانت من هذا الضعف بصفة عامة وإنما المناقشة في التعميم المطلق الذي لا نزع من أحداً أكد عليه ، لأن الأمة بحكم تنوعها وتعددتها وتغاير بيئاتها لا يصدق عليها مثل هذا الحكم المطلق ، بل إن وصف العلوم الإسلامية والثقافة العربية برمتها بالركود والجمود بسبب دخول البلاد العربية في حكم العثمانيين دعوى فيها مبالغة وتجاوز ، لأنه لم يعرف عن العثمانيين معاداتهم للعلم وأهله ، بل إن كثيراً من المؤرخين

^{١٢٦} - وهناك دراسات تناقش بموضوعية ما نسب إلى الأدب العربي في العصر التركي من الخمول والنضوب. انظر في : تاريخ الأدب العربي (العصر العثماني) د. عمر موسى باشا ، دار الفكر المعاصر ، بيروت - لبنان ، دار الفكر ، دمشق - سورية ، إعادة الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م ، ص ٦ ، تباشير النهضة الأدبية ، وليم الخازن ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م ، ص ١٤ .

يذكرون أنهم كانوا يكبرون العلماء ويجلون أهل الشريعة والدين ، فإذا سلمنا أن الأدب بشعره ونثره وعلومه التابعة له أصيب في هذا العصر بقلّة إقبال السلاطين الأعاجم عليه لافتقارهم إلى وسائل إدراك معانيه وفهم مرامييه وتدوق محاسنه بسبب عجمة لسانهم رغم ما يقال من أن كل السلاطين العثمانيين كانوا ينشأون بإتقان العربية^{١٢٧} وأن بعضهم كان يقرض الشعر باللسان العربي^{١٢٨} فلا نسلم أن عجلة العلوم الإسلامية قد توقفت تماما وأن قرائح العلماء قد تجمدت لانقطاع جوائز الحكام عنهم كلا إن هذه فرضية تسيء إلى أهل العلم الإسلامي أكثر مما تبرؤ ساحتهم من ضعف الانتاج ، فما كان انتاج العلماء وإبداعهم مرهونا قط بمكافئة أحد ، وإن صدق شيء من هذا على الأدب فذلك لخصوصيته بشدة ارتباطه بواقع المجتمع ومع ذلك فإن استقرار حال عصر العثمانيين يثبت أن الأدب لم ينضب معينة ولم تذبل غصنه.

يقول الدكتور شوقي ضيف - بعد أن استعرض فن الغزل في هذا العصر وفيما قبله من عصور الانحدار والتراجع - : "ونمضي في قراءة مثل هذا الغزل الوجداني الملتاع حتى إذا أظلم لواء العثمانيين البلاد أخذ يفيض معينه في القلوب والنفوس ، وخاصة عند نور الدين على العسيلي (ت ٩٩٤) .. وتلميذه يحيى الأصيلي .. وكان الأصيلي والعسيلي يكونون في الغزل زمن العثمانيين مدرسة متماثلة في رشاقة الموسيقى وجمال الصياغة ، وإن كان التكلف قد أخذ يعم في الغزل بعدهم وفي أيامهم." ^{١٢٩} فنحن إذا بإزاء مدرسة شعرية "كانت تمتاز بدقة الحس ورفاهة الشعور " بتعبير د. شوقي ضيف ^{١٣٠} وعند حديثه عن شعراء اللهو والخمريات يقف عند الشاعر عبد الباقي الاسحاقي المنوفي فيقول فيه : "من شعراء القرن الخادي عشر الهجري أيام العثمانيين .. وكان شاعرا بارعا." ^{١٣١} وبعد أن يترجم للشاعر العثماني البوريني (ت ١٠٢٤) ويورد نماذج من شعره الغزلي يعلق عليه بمثل

^{١٢٧} - العثمانيون في التاريخ والحضارة: ٥٢٣

^{١٢٨} - العثمانيون في التاريخ والحضارة : ٥٢٣

^{١٢٩} - عصر الدول والإمارات: د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة.

^{١٣٠} - السابق: ٢٩٧

^{١٣١} - عصر الدول والإمارات: ٣٤١

قوله: "ولعل فيما قدمنا ما يدل على روعة غزلياته." ^{١٣٢} وهكذا كان د. شوقي ينتهي به تتبعه للأغراض الشعرية المختلفة إلى بعض الشعراء المجيدين في العصر العثماني حتى خلص إلى النتيجة التالية "وواضح أن صياغة الشبراوي (ت ١١٧١) جيدة ، وفي شعره وشعر أمثاله من معاصريه ما يدل على أن الشعر كانت لا تزال فيه أيام العثمانيين بقية من حيوية وحياة." ^{١٣٣}

هذا عن الشعر الذي يعد أكثر تأثراً بالتقلبات السياسية والاجتماعية من أي فرع آخر من فروع الثقافة الإسلامية ، أما بقية حقول المعرفة فقد تابعت سيرها وأنت أكلها في هذه العصر ولم تظلم منه كثيرا ، وخير ما يصور ذلك قول د. شوقي ضيف - الذي نكتفي به عن الإطالة لأن فيه الكفاية - : "ونمضي إلى زمن العثمانيين وتظل دراسات العربية بالشام نشيطة .. بل لقد ظلت جميع الدراسات العلمية وانبرى لها علماء في كل الفروع يدرسونها للطلاب دراسة مرتبة مفصلة .. فإذا قلنا إن الدراسات النحوية واللغوية بالشام (الكتاب يؤرخ للأدب في مصر والشام) في زمن العثمانيين كانت لا تزال نشيطة تخفق بغير قليل من الحيوية لم نكن مبالغين." ^{١٣٤} ما أردت بهذا الكلام لأدفع به وجود أصل ظاهرة التراجع الثقافي وإنما لأشير به إلى المبالغة المسرفة في أقلام معظم الكتاب عندما يتحدثون عما أصاب الثقافة الإسلامية من الكلال والضمور في العصر العثماني ، فيطمسون كل حسنات العصر ، ويخلون عليه بأي فضل ، كما يقصرون العلة على السيادة العثمانية ، ويفوتهم أنه لم تكن للعثمانيين سلطة فعلية على الشمال الإفريقي واليمن والجزيرة العربية ولم تفلت من هذا التخلف. ولعل مردّ هذا التحامل العلاقة القلقة التي كانت تسود بين العالم العربي وبين العثمانيين في أواخر أيام حكمهم عندما استولى عليهم الضعف ، وتداعت عليهم الأمم وزاد الطين بلة مجيء القوميين الأتراك إلى حكم الإمبراطورية المريضة ومحاولتهم الفاشلة في الجمع بين المتناقضات عندما استبدلوا الرابطة القومية الضيقة بالرابطة الإسلامية الجامعة مع السعي إلى الاحتفاظ بكامل إرث الإمبراطورية على امتداده الجغرافي والعرقى.

^{١٣٢} - السابق: ٦٩٧

^{١٣٣} - السابق: ٢١٩

^{١٣٤} - عصر الدول والإمارات : ٥٧٣

بدأت غمة جمود الأدب تميل إلى الانفراج منذ بداية القرن التاسع عشر ،
وتجلى ذلك في طبقة الشيخ حسن العطار ، الذين يقول فيهم الأستاذ أحمد حسن
الزيات "على ان اللغة المضرية لم تعد في ذلك الوقت أنصارا فقد كان لها أمثال
الشيخ حسن العطار ، وبطرس كرامة ، السيد على الدرويش ، ورفاعة بك الطهطاوي
من حفظوا كيائها وجددوا بنيانها" ^{١٣٥} حيث ظهرت في أديهم ملامح الخروج على
المألوف ومحاولة التحرر من القيود اللفظية والتعبير عن الذات فيما ينشئونه من نثر
أو شعر بصورة أقل تكلفا وأقل احتقالا بالنواحي الشكلية وخاصة في الشعر الوجداني
، والرسائل الإخوانية كالرسالة التالية للشيخ حسن العطار "أما بعد فإن أحسن وشي
رقمته الأقلام ، وأبهى زهر تفتحت عنه الأكام عاطر سلام يفوق بعبير المحبة نفحه
، ويشرق في سماء الطروس صبحه.

سلام كزهر الروض أو نفحة الصبا أو الراح تجلى في يد الرشأ الألمي

سلام عاطر الأردن . تحمله الصبا سارية الرند والبان . إلى مقام حضرة المخلص
الوداد ، الذي هو عندي بمنزلة العين والفؤاد ، صاحب الأخلاق الحميدة حلية الزمان
الذي حلّى معصمه وجيده .." ومن شعره المقبول قوله في بعض قصائده الغزلية :

ألزمت نفسي الصبر فيك تأسيا والصبر أصعب ما يقاد نجائبه

وبليت منك بكل لاح لو تب دى نحو طود أثقلته كرومه

أفلا رثيت لعاشق لعبت به أيدي المنون ونازعته خطويه

أنت النعيم له ومن عجب تعذبه وتمرضه وأنت طبيبه

"وهو شعر إذا قيس بشعر عصره دل على روح أديب ، وذوق شاعر كما أن النثر
وإن كان مسجوعا ، إلا أنه غير مثقل بالحلى اللفظية مما يدل على بعض التطور
في كل من النثر والشعر . نعم إن في النثر تكلفا وتعمدا للسجع فإذا كان السلام
عاطر الأردن فلا بد أن تحمله الصبا سارية على الرند والبان ، إلى غير ذلك . " ^{١٣٦}

ويقول السيد على الدرويش في وصف جراد اجتاح مصر :

فترى الجراد على الجريد مكللا مثل الثمر

^{١٣٥} - تاريخ الأدب العربي ، أحمد حسن الزيات ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة - مصر ، ١٧٤
^{١٣٦} - في الأدب الحديث: ٤٧ / ١

رقش تراها إنها	نار تظلى باشجر
لواحة للأرض لا	تبقى النبات ولا تذر
وصغيرة في حجمها	لكنها إحدى الكبر
الأرض كانت حية	فالآن ترمي بالشرر
نزل الجراد بها كما	نزل القضاء أو القدر

كان شعر هذه الطبقة امتدادا لفترة ما قبل محمد على باشا الذي يعد من أبرز المسهمين في النهضة العربية الحديثة ، ولم يتأثروا كبير تأثر بالحركة العلمية التي قادها محمد على لأنهم كانوا ناضجين في وقتها وكان يصعب عليهم هضم معطيات المرحلة الجديدة وتمثل مفاهيمها وقيمها والتطبع بطابعها ، ولهذا جاء نتاجهم الأدبي مصطبغا بصبغة عصور الصنعة في عموه

أما عوامل النهضة الحديثة فكثيرة ومتضاربة ومن أهمها^{١٣٧} النزوع إلى التراث الأدبي والثقافي القديم في إطار الحركة السلفية التصحيحية التي كانت تتبع بين الفينة والأخرى بفضل الزعماء الإصلاحيين الذين كانوا يسعون إلى تجاوز محنة التخلف الذي خيم على العالم الإسلامي عن طريق العودة به إلى مصادره الثقافية الإسلامية الصافية التي كانت تسود في عهد الرعيل قبل أن تشوبها شائبة الفلسفة وعلم الكلام والمنطق ومذاهب الصوفية والجدل الفقهي ، وكان من ثمار هذه الحركة الشاملة أن عاد الأدباء والشعراء إلى الأدب العربي في عصور قوته ابتداء من العصر الجاهلي إلى عصر المتنبّي ، فعكفوا على دواوين الشعراء الفحول يعارضونهم أحيانا ويستلهمون منهم أحيانا أخرى ، ويسرت لهم ذلك المطابع التي بفضلها انتشرت الكتب وسهل الحصول عليها واقتناؤها من قبل الجمهور المثقف كما كانت الصحافة تسعف من ضاقت يده وعجز عن إشباع رغبته عن طريق الكتب ، إضافة إلى تلقيح الأدباء أفكارهم بأداب الشعوب الأوروبية الناهضة التي توفرت لديهم بفضل نشاط الترجمة التي خلقتها حركة محمد على التحديثية. وناهيك عما كان لانتشار التعليم من أثر حميد على النهضة الأدبية الحديثة كان أقله أن رفع

^{١٣٧} - يعيدها العقاد إلى عامل واحد وهو "زوال الفتور الذي خيم على حياة الأمة في عهد من الزمن الطويل" مجموعة أعلام الشعر : عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٧٠م ص ٢٣٣

الأمية عن كاهل شريحة واسعة من المجتمع وهياًهم لتذوق الشعر والنصوص الأدبية. كل هذه العوامل وغيرها تضافرت على إيقاظ الشعوب العربية ونبهتهم من رقادهم ونشطتهم من عقل الغفلة ومهدت لهم سبل الانطلاقة إلى آفاق الحرية والعلم والنهضة الحديثة.

المبحث الثاني حياة السيد رشيد رضا

المطلب الأول : أسرته وسيرته

ينتمي الشيخ محمد رشيد رضا إلى أسرة علوية حجازية الأصل ، هاجرت منذ زمن بعيد إلى العراق واستوطنت مدينة النجف ، ثم هاجرت مرة أخرى إلى الشام ، وتنقلت في أجزاء من جبل لبنان ، حتى استقرت في قرية "القلمون" وهي قرية على ساحل البحر الأبيض المتوسط على بعد بضعة كيلومترات من جنوبي مدينة طرابلس الشام في شمال لبنان.^{١٣٨} أما عن اسمه ونسبه فهو السيد محمد رشيد رضا بن السيد علي رضا بن السيد محمد شمس الدين بن السيد محمد بهاء الدين بن السيد منلا علي خليفة البغدادي.^{١٣٩} وكان ميلاده في يوم الأربعاء^{١٤٠} السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى من عام ألف ومئتين واثنين وثمانين هجرية (١٢٨٢/٥/٢٧هـ) الموافق للثالث والعشرين من شهر سبتمبر من عام ألف وثمانمائة وخمسة وستين ميلادية (١٨٦٥/٩/٢٣م)^{١٤١}

إذا فالسيد محمد رشيد رضا كما تقدم ، ينحدر من العترة النبوية الشريفة وينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رحمه الله . يقول الشيخ موضحاً ذلك : "ولدت ونشأت في قرية تسمى القلمون على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من جبل لبنان ، وتبعد عن مدينة طرابلس الشام زهاء ثلاثة أميال ، وكان جميع أهل هذه القرية من السادة الأشراف المتواتري النسب ، إلا أنه خالطهم في القرن الماضي عدد قليل من مسلمي لبنان".^{١٤٢}

ويلاحظ الدكتور أحمد الشرباصي أن الشيخ محمد رشيد رضا كان في مبدأ حياته شديد العناية بإثبات نسبه العلوي ، وكان يوقع مقالاته بمثل قوله : "محمد

^{١٣٨} - انظر ترجمة السيد محمد رشيد رضا في : الأعلام: للزكي ١٢٦/٦ ، المعاصرون: محمد كرد علي ، ص ٣٣٤ ، أعلام الإسلام: عبد الوهاب سكر ، ص ١٠٨ ، معالم الثقافة الإسلامية: عبد الكريم عثمان ، ص ٤٤٩ .

^{١٣٩} - السيد رشيد رضا: ٨١١

^{١٤٠} - منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: فهد بن عبد الرحمن الرومي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة الرابعة ١٤١٤ هـ ، ص ١٧٢

^{١٤١} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٠٢ ، وتكاد مصادر ترجمته تتفق على تاريخ ميلاده ، وذكر الشرباصي أنه عثر على شهادة "سجل نفوس" عثمانية فيها أنه مولود سنة ١٢٧٩ هـ ، واستبعد صحتها ، ويذكر الرومي أن تاريخ ميلاده يوافق ١٨ تشرين الأول بدلا من ٢٨ . انظر منهج المدرسة العقلية في التفسير ، ص ١٧٢

^{١٤٢} - السيد رشيد رضا: ٣٥

رشيد رضا الحسيني" ^{١٤٣} ويعزو الشرياصي ذلك إلى رغبة رشيد في الاحتماء به من تعسف الدولة العثمانية ، ومن تعرض الاستهانة به وبأسرته من قبل مواطنيه في وقت كان الظلم شائعا والانصاف قليلا ، فلما سطع نجمه ، وأمن من جانب الدولة العثمانية قلل من الاعتزاز بنسبه ، والاكتثار من ذكره في مكتوباته. ^{١٤٤}

حول نسبه

ورغم ما ذكره الشح رشيد رضا من تواتر نسب السادة الأشراف في قرية القلمون إلا أن ذلك لم يحل دون إثارة المناقشة حوله ، ولعل مردّ هذه الإثارة خصومه في الفكر وفي مذهبه الإصلاحية ، من أمثال أبي الهدى الصيادي ويذكر حسيب السامرائي أنه بحث في نسب عائلة رشيد رضا ، فاتصل بأسرته في القاهرة فلم يظفر منهم بطائل ، ثم انتقل إلى العراق وإلى النجف ، واتصل بنقيب الأشراف ، واطلع على سجلات النسب الحسيني من الشيعة والسنة ، فلم يجد ذكرا لجد هذه العائلة "السيد منلا على خليفة البغدادي" ^{١٤٥}

غير أن أمير البيان شكيب أرسلان ، قد سبق حسيب السامرائي إلى التثبت والتأكد من نسب عائلة آل رضا ، فتوصل إلى نتائج غير تلك التي انتهى إليها السامرائي. يقول شكيب : "كنا سألنا الأخ عبد الرحمن عاصم ابن عم الفقيد ، قدس الله روحه ، عما إذا كان عندهم شجرة نسب تثبت تحدرهم من العترة الشريفة النبوية ، نظرا لتوارث كونهم من الأشراف الحسينية ، فأجابني أنه لا يزال عندهم سجلات ووثائق تثبت نسبتهم هذه ، ولكن الشجرة مفقودة ، بما توالى عليهم في زمن السلطان عبد الحميد من الاضطهاد ، وكبس البيوت ، وأخذ الأوراق ، فعندما تلقينا هذا الجواب اكتفينا بما ذكره الأستاذ الفقيد عن نسبهم ، وأنه معروف بالتواتر ، ولكننا في هذ الأيام الأخيرة تلاقينا مع السيد أحمد الحسيني ؛ وزير النافعة في لبنان الكبير ، وبينما نتحدث والحديث شجون

^{١٤٣} - المنار: ٨/١/١ ، ١٥/١/١٢

^{١٤٤} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٠٦

^{١٤٥} - منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: ١٧١

وصلنا إلى موضوع نسب السادة الحسينية ، أئمة الشيعة في جبل لبنان وهم الذين منهم السيد أحمد المشار إليه ، وكان منهم عمه السيد على الحسيني قاضي مذهب الشيعة في الجبل ، ومسكنهم القرية التي يقال لها مزرعة السياد في شمالي كسروان إلى الشرق ، فسألت السيد أحمد عن نسبهم وتاريخ وجودهم في لبنان ، وهو من صدق اللهجة والنبالة بالمقام الذي لا يخفى ، قد اتفقت الكلمة على تزكيته وتوثيقه ، فقال لي إنهم في الأصل من الحجاز كسائر الأشراف ، ثم انتقلوا إلى العراق ، ونزلوا النجف ، ثم جاءوا من العراق إلى الشام ، ونزلوا برك نوح ، وهي قرية تجاور معلقة زحلة ، وورد ذكرها في معجم البلدان ، يقول ياقوت الحموي إنها في أصل جبل لبنان . قال السيد الحسيني حفظه الله : ثم انتقل أسلافه إلى قرية قمهز من لبنان ، ثم إلى قرية أخرى يقال لها كفر حيال ثم ، إلى مزرعة السياد التي هم فيها الآن ، ولكن فرعا من عترتهم هذه بدلا من أن ينزلوا مع أولاد عمهم في مزرعة السياد ، ذهبوا فقطنوا قرية القلمون ، على سيف البحر بقرب طرابلس الشام ، قال ومنهم آل رضا الذين منهم السيد رشيد وعائلته ، فسألت السيد أحمد الحسيني : هل هذا معروف عندهم من القديم ؟ فأجابني نعم ، ولما كان المذكور ثقة .. وجدت من الضروري نقل كلامه هذا في ترجمة السيد رشيد لأن الناس مأمونون على أنسابهم ، ولأن السادة الحسينية المذكورين صحة نسبهم إلى آل البيت تغني عن التعريف ، وهم أعلم بمن هو منهم وبمن هو ليس منهم. " ١٤٦

ولعل السامرائي لو تابع بحثه في لبنان ، وزار "القلمون" موطن آل رشيد ، وسأل شيوخ الحسينية في لبنان ، كما فعل أمير البيان شكيب أرسلان ، لاهتدى إلى نتائج مرضية.

وسواء أثبتت نسبة عائلة رشيد إلى العترة النبوية الشريفة أم لم تثبت فإن هذا لا يضير رشيدا ، ولا يقدح في نفسه ، ولا يعض من شرفه وشرف عائلته التي انتهت إليها السيادة في بلده "القلمون" فإما نسب شريف ، وإما زعم قديم يتحمل غيره وزره. وكان رشيد يعاتب بعض من يفتخرون بنسبهم الشريف ، ويباهون به على غيرهم ، ولو كان أكثر منهم صلاحا ، وكان يسميهم استقرابية الأحساب والأنساب

، لأنهم يفضلون صاحب النسب الشريف ، ولو كان مخطئاً أو مذنباً على غير
شريف النسب ، ولو كان صالحاً أو مصلحاً. ^{١٤٧}

مكانة عائلته

كانت عائلة رشيد عائلة سرية وثرية ، ذات جاه وسيادة ، إضافة إلى شرف
نسبها وكرم محتدها ، كما تميزت بالتدين والاشتغال بالعلم والعبادة ، مما هيا لها
منزلة اجتماعية مرموقة ، جعلت الشيخ محمد رشيد رضا يتغنى بها حيث يقول
:"وأهل بيتنا ممتازون فيهم ، بأنهم أهل العلم والإرشاد والرئاسة ويلقبون بالمشائخ ..
وجدي الثالث هو الذي بنى لهم المسجد المعروف الآن بجانب بيتنا القديم الذي
ولدت فيه .. وكان عالماً مشهوراً بالكرامات ، وقد أنعم عليه السلطان العثماني
ببراءات سلطانية ، حبس عليه فيها سبعة قرارات من ٢٤ قيراطاً من أموال الدولة
الأميرية ، وببراءات أخرى بالإمامة والخطابة في المسجد ، وقد تسلسلت هذه
البراءات من السلاطين في ذريته ، حتى آلت إليّ ، فكانت آخر براءة وجهت عليّ
أو إليّ من السلطان وحيد الدين قبل الحرب العامة." ^{١٤٨}

وكما كان جده الأعلى الذي بنى مسجد القرية عالماً مشهوراً بالكرامات
تجمعت لديه السيادة الدينية والدينية ، كذلك كان عدد من ذريته وأحفاده من بعده ،
حتى اعتقد الناس تسلسل الولاية في هذه العائلة وجعلهم يتبركون برجالها الذين من
بينهم عدد كانوا يلقبون بالصوفي ، لكثرة زهدهم وانقطاعهم إلى الاشتغال بالعبادة.

١٤٩

وكان بيت عائلة رشيد مقصد العلماء والوجهاء من جميع الملل ، والضيوف
وأبناء السبيل من جميع الأقطار ، وإلى والد رشيد انتهت رئاسة الأسرة والقرية ، كما
يقول رشيد : " وكان والدي من بعد جدي الذي مات وأنا طفل هو سيد الأسرة والبلد

^{١٤٧} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٠٧

^{١٤٨} - السيد رشيد رضا: ٣٤

^{١٤٩} - السابق: ٣١

المضيف ، وكان عمه "السيد الشيخ أحمد" كبير الأسرة سنا منقطعا للعبادة ، لا يقابل من ضيوفنا إلا العلماء والأصدقاء." ^{١٥٠}

هذه المكانة الاجتماعية السامية ، والمنزلة الدينية العظيمة ، والحسب الرفيع ، كل ذلك أورث أفراد هذه الأسرة الأنفة والحمية وعزة النفس ، مما نجد صداه في مكتوبات الشيخ رشيد رضا ، وأخذ عليه بعض الباحثين ^{١٥١}

تصوفه

وعندما بلغ سن التحصيل والتلقي ، أُدخل رشيد إلى كتاب القرية ، حيث تلقى فيه القرآن والخط ومبادئ الحساب ^{١٥٢} ولم يطل لبثه بعد ذلك في مقاعد الدراسة النظامية ، بل تحول إلى التعليم المسجدي والتلقي عن المشائخ ، كما عني بتعليم نفسه عن طريق القراءات الواسعة ، والمطالعات الكثيرة الذاتية ، وساعده على ذلك وجود خزانة كتب في بيت الأسرة ، توارثوها من قديم الزمان ، فيها نوادر كتب التراث ، فكان يجد فيها ضالته ، ويشبع بها رغبته ، ويقضي فيها الساعات النفيسة ، خاصة وأنه كان في صغره عزوفا عن اللعب واللهو ، قليل المخالطة بأترابه ^{١٥٣} ونشأت هواية القراءة والتعلق بالكتب مبكرة عند رشيد ، فكان يجد فيها لذة وممتعة ، في وقت كان يفترض في ناشئ مثله ، ألا يجد في نفسه من صحة الملكة الذوقية وتوافر العدة والآلة اللسانية ، ما يشجعه على مطالعة المراجع الكبيرة ، وأمّهات التراث الإسلامي ، غير أن رشيدا يقول " وإنما رأيتني بعد تعلم مبادئ القراءة والخط في القرية ، غير مطالب بعمل دنيوي في بيت فيه كتب ، وميلي للعب مع الصبيان قليل ، فليس أمامي شيء إلا هذه الكتب ، اتلذذ بمطالعتها." ^{١٥٤}

قادت هذه القراءة الواسعة رشيدا إلى بعض كتب أهل التصوف ، ككتب الإمام الغزالي ، الذي قرأ له كتابه إحياء علوم الدين ، فأعجب به كثيرا ، وكان يكثر من مطالعته ، ويقرئه لغيره من أهل بيته ، ونزع به عرق التصوف الذي اشتهر به

^{١٥٠} - السيد رشيد رضا: ٢٥

^{١٥١} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٠٨

^{١٥٢} - السيد رشيد رضا: ٣٥

^{١٥٣} - السابق: ٣١

^{١٥٤} - السابق: ١٠٧

كثير من أهل بيته ، فأخذ يعالج نفسه على سلوك أهل الطرق ، ويؤدبها بآدابهم ، واتخذ لنفسه في بيته خلوة ينقطع فيها للعبادة ، وكان يقرأ "ورد السحر" بمفرده أحيانا ، ومع جماعة أحيانا أخرى ، كما كان يواظب على قراءة "دلائل الخيرات" ^{١٥٥} التي تلقى الإحازة بها عن أستاذه العابد العالم أبي المحاسن القاوقجي بسنده إلى مؤلفها ، وعندما ألح على شيخه في أن يسلكه طريق القوم ، على أصولهم في الرياضة والخلوة ، والترقي في منازل المعرفة اعتذر له قائلا : "يا بني إنني لست أهلا لما تطلب ، فهذا بساط طوي وانقرض أهله." ^{١٥٦}

غير أن رشيدا واصل بحثه عن يأخذ بيده ، ويترقى به في معارج الصوفية ، حتى اهتدى عن طريق أحد أصدقائه إلى ضالته . يقول رشيد في هذا الشأن : " ثم أخبرني صديقي الأستاذ العلامة الشيخ محمد الحسيني ، أنه قد ظفر بصوفي حفي من النقشبندية ، يرى هو أنه وصل إلى مرتبة المرشد الكامل ، فسلكت هذه الطريقة معه ، وقطعت مراتب اللطائف كلها ، ورأيت في أثناء ذلك كثيرا من الأمور الروحية الخارقة للعادة ، كنت أتأول الكثير منها ، وعجزت عن تأويل بعضها ، إلا أنها من خصائص الروح التي تظهرها الرياضة وكثرة الذكر .. وكان الورد اليومي لي في هذه الطريقة ذكر اسم الله (الله) بالقلب دون اللسان خمسة آلاف مرة ، مع تغميض العينين وحبس النفس بقدر الطاقة ، وملاحظة ربط قلبي بقلب الشيخ." ^{١٥٧} وهكذا نجد الشيخ رشيد رضا قد نشأ نشأة صوفية قوية ، كان لها أثرها الواضح في تأله وتنسكه ، قبل أن يتحول إلى السلفية.

جهوده في الدعوة والإصلاح

لم يقعد برشيد رضا تأله وتنسكه عن التصدى للدعوة والإرشاد ، بل كان من ثمرات حرصه على إصلاح نفسه وتركيتها ، أن التفت إلى حال مجتمعه ، فرآى ما هو عليه من الجهل والجفوة والبعد عن الصراط السوي ، رأى الرجال يجلسون في المقاهي يتحسون النارجيلة (الشيشة) في أوقات الصلاة ، ورأى النساء يتلبسن بكثير

^{١٥٥} - ورد السحر ، ودلائل الخيرات من أورد الطريقة النقشبندية. انظر : السيد رشيد رضا: ٤٩

^{١٥٦} - السيد رشيد رضا: ٥١

^{١٥٧} - السيد رشيد رضا: ٥١

من المنكرات العقديّة والشرعيّة والاجتماعيّة ، كإسراج الشموع في القبور ، وتعليق الخرق على بعض الأشجار التي يعتقدن فيها البركة ، مع ما هن عليه من ترك الواجبات والعبادات المفروضة ، وتقصيرهن في معاشرّة أزواجهن وسوء تربيتهن لأولادهن ، فشمّر عن ساعد الجد ، وقام يدعو هؤلاء وأولئك ، فكان يلقي المواعظ في المساجد ، ويغشى أندية القوم ومقاهيهم يذكرهم ؛ يأمرهم وينهاهم ، ولما رأى أن أصل تلك المنكرات والمفاسد الجهل بالدين ، نظم دروسا للرجال في المسجد ، وأخرى للنساء في دار أهله ، كما كان يخص أهل بيته بدروس وتربية خاصة.^{١٥٨}

بدأ الوعي الإصلاحي ينمو في الشيخ رشيد رضا رويدا رويدا ، مع نموه العلمي ، ونضجه العقلي ، وازدياد تجاربه ، وتراكم خبراته ، فتراءى له ما يعاينيه المجتمع من الخلل ، وما يساوره من الأمراض القاتلة ، في مختلف المجالات التعليميّة والدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة ، فكان عليه الجهر بدعوة الإصلاح وأن يعذر نفسه إلى الله في أداء الأمانة العلميّة التي حملها العلماء ، فجهر بالدعوة إلى الإصلاح ، غير عابئ بما قد يناله في ذلك من الأذى. "وإن في تلك النشأة السلفية الصوفية لما يوقظ الآخذين بها من أهل العلم إلى نوع من المراقبة الفردية والاجتماعية يقيمهم على نهج تغيير المنكر ، والنهي عن الفساد والدعوة إلى إصلاح حال المسلمين ، وتجديد معالم معالم الدين الإسلامي".^{١٥٩}

ومن الأمور التي لم يستسغها رشيد رضا ، وهو لا يزال في مقاعد الدراسة يتلقى عن أساتذته ، بعض المقررات الدراسية ، وطريقة التدريس التي يتبعها بعض أساتذته ، فقد كان يراجع شيخه حسين الجسر في المقامات الحريية التي كان يتضجر من أسلوبها ، ويقترح عليه تغييرها ، واستبدال كتب أدبية أخرى بها أصح منها أسلوبا ، مثل مقامات بديع الزمان الهمداني ، ونهج البلاغة وكتاب الأغاني ، وغيرها من الكتب الأدبية التي تحوي مختارات أدبية رفيعة خالية من التكلف : " لأن جودة المقروء والمحفوظ تفيد في طبع ملكة الإنشاء".^{١٦٠} بل كان يرى أن كتاب

^{١٥٨} - السيد رشيد رضا : ١٠٣

^{١٥٩} - التفسير ورجاله: الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، مطبعة الأزهر

١٩٧٠ ، ص ١٦٩

^{١٦٠} - السيد رشيد رضا: ١٢٣

إحياء علوم الدين أولى وأجدى على الطلاب من المقامات الحريية لما يشتمل عليه من المباحث التربوية النفيسة ، التي تحتاج إليها الناشئة ، إضافة إلى أسلوبه السلس المحرر الخالي من التعقيدات والالتواءات ، وهو وإن لم يكن كتاب أدب بالمعنى الذي تدل عليه كتب النصوص الأدبية ، فصلاته به من حيث المعنى قريبة ، وليست بعيدة عنه من حيث اللفظ.

كان رشيد رضا يرى أن من أقتل ما أصيب به التعليم في البلدان الإسلامية إهماله للتربية ، وتعهده أخلاق الطلاب وسلوكهم بالتهذيب والتقويم حتى أصبح علم الأخلاق والتربية من العلوم المهجورة المندرسه ، ولذلك نجده عندما أسس مدرسة الإرشاد والدعوة في مصر بعد هجرته إليها ، يعنى بهذا الجانب عناية كبيرة ، لأنه لا يرى فائدة لتحصيل العلم مع الخلو من التربية السوية ، التي تستثمر هذا العلم وتوجهه إلى الخير والإصلاح وتزكية النفس والمجتمع.^{١٦١}

ويعجب رشيد رضا بمنهج شيخه حسين الجسر في التعليم حيث كان يفضل كتاب شرح ابن عقيل وحاشيته الخضرى ، ويفضلها على شرح الأشموني وحاشية الصبان ، لما في أسلوب ابن عقيل من الوضوح في العبارة . ويمدح شيخه أيضا بأنه " كان له أسلوب خاص في التعليم غير أسلوب الأزهر ، يتحرى فيه السهولة في البيان ، ويتجنب المناقشات اللفظية ، واستطرادات الحواشي ، فلم يكن يذكر منها إلا ما لا يتم تحرير المسألة العلمية بدونه . " ^{١٦٢}

وكان للشاميين منهج يخالف منهج الأزهريين في مضمونه وأسلوبه يقوم على " إثارة جانب المنقول من جانبي الثقافة الإسلامية على الجانب المعقول منها ، والجنوح إلى طريقة التوسع في المقاصد من العلوم الدينية عن طريق التعمق في الوسائل والآلات ، مع الالتزام بخطة من السلوك الصوفي." ^{١٦٣} ولهذا يستغرب رشيد من يخالف طريقة أهل الشام من علمائه ، فيقول فيه : " ولم أر أحدا من علماء بلدنا ،

^{١٦١} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٣٢

^{١٦٢} - السيد رشيد رضا: ٣٩

^{١٦٣} - التفسير ورجاله: ١٦٩

يسلك طريقة الأزهر في التدقيق والتحليل والمناقشة في عبارات الكتب ، إلا صديقي الأستاذ محمد الحسيني عقب رجوعه من المجاورة ثم تركها.^{١٦٤}

مارس السيد رشيد رضا قبل هجرته إلى مصر الكتابة العلمية ، فقد ندب إليه شيخه حسين الجسر الإسهام في جريدة "طرابلس" التي أسسها وكان رئيس تحريرها الفعلى ، فأعد رضا مقالا طويلا في فلسفة الأخلاق نشر في أعداد متفرقة من الجريدة ، ونال المقال استحسان القراء.^{١٦٥} كما ألف رضا في هذه الأثناء كتابا بعنوان "الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية" يرد فيه على أبي الهدى الصيادي - شيخ البلاط العثماني - الذي نشر كتبا كثيرة ، بث فيها دعاية لنفسه وأهل بيته ولطريقته الرفاعية ، تتضمن تفضيله للشيخ أحمد الرفاعي والمنتسبين إليه على الشيخ عبد القادر الجيلاني والمنتسبين إليه غير أنه لم ينشر الكتاب بكامله بل نشر أجزاء منه فيما بعد في مجلة المنار.^{١٦٦} هذا عدا الرسائل الإخوانية ، والخطابات ذوات الطابع العلمي ، التي أنشأها وأرسلها إلى بعض العلماء والشيخوخ.

١٦٧

هجرته إلى مصر

عندما اكتمل النضج العلمي لرشيد رضا في بلده ، وحصل على أعلى الشهادات العلمية والإجازات التدريسية من أساتذته في مختلف الفنون العقلية والنقلية قرر الرحيل إلى مصر لأسباب عدة يمكن تلخيصها فيما يلي :

١- أنه كان شديد الإعجاب بالسيد جمال الدين الأفغاني ، ويتلقف أخباره وأفكاره عن طريق مجلة "العروة الوثقى" وعن تلاميذه والمتصلين به ، ويتحين الفرص للالتحاق به ، والأخذ عنه مباشرة ، وقد كتب إليه يستأذنه في ذلك ، ويعرض عليه خدمته وخدمة آرائه ومذهبه في الإصلاح ، فلما توفي الأفغاني قبل الاتصال به ، لم يجد بدا من

^{١٦٤} - السيد رشيد رضا: ٤٢

^{١٦٥} - السيد رشيد رضا: ١١٧

^{١٦٦} - المنار: ٥٣٤/٢٨/١

^{١٦٧} - تاريخ الأستاذ: ٨٤/١

الارتحال إلى وراث علمه كما يقول : " فلما قضى السيد جمال الدين نحبه بالأستانة ، في شوال سنة ١٣١٤ هـ ، مارس (١٨٩٦م) أجمعت الرأي على الهجرة إلى مصر ، للاتصال بوارث علمه وحكمته الأستاذ الإمام لتلقي الحكمة منه ، والوقوف على آرائه ونتائج اختباره في الإصلاح." ^{١٦٨}

٢- لما انتهى من التحصيل العلمي في بلده ، شعر بأنه مستعد لاستزادة من العلم والاختبار ، لا يجدهما في وطنه ، وأنه قادر على خدمة دينه وأمتة بما لا تبيحه سياسة الحكومة في بلده. ^{١٦٩}

٣- لما قوي في نفسه هاجس الإصلاح ، رأى أن أفضل مكان يناسب هذا الإصلاح هو مصر ، لكثرة من ينتفع بالإصلاح فيه من أهله ومن سائر الأقطار المتصلة به. ^{١٧٠}

٤- اختار مصر على غيرها "لما فيها من حرية العمل باللسان والقلم ، ومن مناهل العلم العذبة الموارد ، ومن طرق النشر الكثيرة المصادر " ^{١٧١} ما يجعله مفيدا ومستفيدا في آن واحد ، وينشر إصلاحه على أوسع نطاق ، ويعرضه لأقل الأخطار.

ويصور السيد رشيد رضا حاله عند هجرته إلى مصر ، وجملة المؤثرات التي أسهمت في تكوين شخصيته وصياغتها فيقول : " فعلم مما تقدم أنني جئت مصر مستعدا لهذا الإصلاح كأنني خلقت لهذا الإصلاح ، وتعلمت وربيت لأجله ، وكان أول ما علق بذهني من تقصير علماء الدين ، وحاجتهم إلى الإصلاح ، ما قرأته في كتاب الإحياء للغزالي ، من التفرقة بين علماء الدنيا الذين ، يلقبهم بعلماء السوء وعلماء الآخرة ، وشركهم الذين يتقربون إلى الملوك والأمراء ، وبين العلوم المحمودة والعلوم المذمومة ، ثم ما استفدته من شيخنا الجسر من حاجة علماء الدين إلى معرفة علوم العصر ، وعدم إمكان الدفاع عن عقائد الإسلام وشريعته بدون ذلك ،

^{١٦٨} - تاريخ الأستاذ : ٩٩٨/١

^{١٦٩} - السيد رشيد رضا: ١٢٨

^{١٧٠} - السابق: ٤٤

^{١٧١} - السابق: ١٢٨

ثم ما استفدته من جريدة العروة الوثقى ، من توقف نهضة الإسلام ، ودفع دول الاستعمار عن ملكه ، واستعادة ما سلبوه منه على نهضة علماء المسلمين بالدعوة إلى ذلك ، ثم ما استفدته من كتب التاريخ القديم والحديث ، ولا سيما الحكيم بن خلدون ، وتاريخ جودت باشا الوزير التركي الشهير ، واستفدت اختبارا كثيرا ، وعلمنا بحالة هذا العصر من مذكرتي لأدباء النصارى الأحرار ، ولدعاة الدين (المبشرين) التابعين لجمعية الولايات المتحدة الأمريكية ، والاطلاع على كتبهم وجرائدهم ، ومن مطالعة مجلتي المقتطف والطبيب منذ طلب العلم ، ولا أزال أطلع المقتطف ما وجدت له فراغا ، ثم كان ما استفدته بعد ذلك من الأستاذ الإمام وغيره ، ومن معرفة الأزهر بنفسه ، مادة عظيمة لما أقصده من إنشاء المنار ولا أزال أزداد علما واختبارا في كل يوم استعين بهما على خدمتي للأزهر وسعيي لإصلاحه في كل وقت بما يناسبه ، واني لأراه في هذا العهد أشد حاجة إلى الإصلاح منه في كل وقت".^{١٧٢}

هاجر السيد رشيد رضا إلى مصر (١٨٩٨م) واتصل فور وصوله بشيخه الذي كان أكبر مقصده من الهجرة ، فشرح له مراده ، وفوض إليه أمره إلا ما يتعارض مع مبدأ الاستقلالية في الرأي الذي كان قد آمن به ، وفي ذلك يقول : "قلت اني أعاهدكم على أن أكون معكم كالمرید مع أستاذه ، على نحو مما يقول الصوفية ولكن أحفظ لنفسی شیئا واحدا ، أخالفهم فيه وهو أن أسأل عن حكمة ما لا أعقله ، ولا أقبل إلا ما أفهمه ، ولا أفعل إلا ما اعتقد فائدته. قال هذا ضروري لا بد منه".^{١٧٣} فتقبله أستاذه قبولا حسنا ، وأنزله من نفسه منزلة الابن من الأب^{١٧٤} وكانت حاجة الشيخ إلى الطالب والمرید لا تقل عن حاجة الطالب إليه ، لأن الشيخ كان بحاجة إلى من يحمل عنه العلم والحكمة والفلسة الإصلاحية ، التي انتهى إليها بعد طول الطلب والتجربة ، ومصاحبة موقظ الشرق السيد جمال الدين ، ثم يؤدي كل ذلك عنه خير أداء ، وليس كل طالب بمؤهل لحمل هذا العبء الذي تتوء به الجبال

^{١٧٢} - السيد رشيد رضا : ١٣٠

^{١٧٣} - السيد رشيد رضا: ١٣٠

^{١٧٤} - قال الشيخ محمد عبده في خطاب بعثه إلى من خطب إليه السيد رشيد رضا : "ولقد رأيت أن يكون لي نصيب في السعي لديكم لتتميم ما توجه إليه خاطر ، لنزوله مني منزلة الولد البار ، وإن كان الفضل لوالده." انظر رشيد رضا صاحب المنار: ٢١٦. ويقول رشيد في العلاقة بينه وبين أستاذه : "وكننت عنده كولد الصلبي وأخيه النسبي أو أعز وأكرم." تاريخ الأستاذ : ٥٨٦/١

الراسيات ، غير أن الشيخ أنس من تلميذه من الرشد والأهلية ما يجعله محل ثقته ومعقد أمله ، فرفعه إليه ، وخصه بمودته ، وجعله لسان أفكاره ، ووارث علمه وحكمته ، حتى نفسه الجميع على هذه المنزلة ، وسعى بعض أهل النفوذ إلى التفريق بينهما ، ولكن هيهات ذلك ، لأنهما أصبحا كروح واحدة في جسدين.^{١٧٥}

كان رشيد رضا قد نضج واستوى علميا وفكريا وهو في وطنه ، وكانت هجرته جزءا من وعيه ورشده ، لأنه كان يسعى إلى تكميل نفسه بالحكمة والجهاد في سبيل خدمة الإسلام ، إضافة إلى مشاريع أخرى حملها معه وعرضها على شيخه ، واستطاع أن يقنعه بها بعد مناقشات ومدارسات ، ومن أهم هذه المشاريع:

١- حمل الشيخ على تدريس وتفسير القرآن الكريم ، بطريقة عصرية وسهلة ، تقرب معنى القرآن إلى الناس ، ويعالج فيها قضايا المجتمع الشائكة ، وكان رشيد رضا قد عهد من الشيخ هذا اللون من التفسير العصري المفيد ، عندما كان يلقي دروسا في التفسير في بعض زيارته إلى لبنان ، ولم يكن الشيخ مقتنعا في البداية بجدوى هذا التفسير ولكنه بدأه استجابة لرغبة تلميذه ، فالتفت حوله الناس من شتى طبقات المجتمع ، وعظمت فائدته ، وكان رشيد ينشره تباعا على صفحات جريدة المنار ، بعد تسجيله بعبارته وتحريره وعرضه على الشيخ وتضمين ملاحظاته ، ثم تولى بنفسه التفسير بعد أن قضى الشيخ نحيبه.^{١٧٦}

٢- إنشاء جريدة إسلامية ، تدعو إلى الإصلاح ، وتبين للناس ما أشكل عليهم من دينهم ، وتبصرهم بواقعهم المتخلف ، وتأخذ بيدهم إلى طريق التغيير والإصلاح ، وتتصدى لدعوات التضليل والتغريب ، وكان موقف الشيخ من هذا الاقتراح شبيها بموقفه من اقتراح التفسير ، ولم يؤيده إلا بعدما تأكد من قدرة رشيد رضا على تمويلها ، واتفق معه على خطتها وبرنامجه الذي ستسير عليه الجريدة ، فكان هذا بداية مجلة المنار ، التي أنارت العالم

^{١٧٥} - تاريخ الأستاذ: ٥٨٦/١

^{١٧٦} - تاريخ الأستاذ: ٧٦٧/١

الإسلامي ، وبددت ظلمات الأفكار التي كانت تملأ الساحة الإسلامية ، واستمر وهجها لما يقرب من نصف قرن.^{١٧٧}

٣- وكان من مشاريع رشيد الإصلاحية التي ينوي تنفيذها في مصر إنشاء مدرسة إسلامية فيه ، تجمع ما بين العلوم الإسلامية الأصيلة والعلوم العصرية الكونية ، مع أخذ الطلاب بالتربية الدينية ، حتى يتخرجوا دعاة هداة مهديين ، يمارسون إصلاح مجتمعهم بحكمة ووعي وبصيرة ويذكر رشيد أنه استلهم هذه الفكرة من الإرساليات التبشيرية ، التي تدير في لبنان مدارس نظامية ، على أسس تربوية وإدارية تثير الإعجاب ، وفي هذا يقول : " كنت في أيام طلبي للعلم في طرابلس الشام ، أتردد بعد الخروج من المدرسة إلى مكتبة المبشرين الأميركيين ، أقرأ جريدتهم الدينية وبعض كتبهم ورسائلهم ، وأجادل قسوسهم ومعلميهم ، وأتمنى لو كان للمسلمين جمعية كجمعيتهم ومدارس كمدارسهم ، ولما هاجرت إلى مصر وأنشأت المنار قويت عندي هذه الفكرة." ^{١٧٨}

وافق هذا الاقتراح هوى في نفس شيخه ، الذي انصرف إلى الإصلاح التربوي والتعليمي في آخر عهده ، لأنه كان يرى أن أقرب الوسائل وأرجاها في إصلاح حال المسلمين في دينهم ودنياهم بما يعود به مجد الإسلام إصلاح التربية والتعليم ، وقد حاول تحقيق ذلك في الأزهر ، فلما خاب أمله فيه ، فكر في السعي لإنشاء كلية تغني عن الأزهر في تخريج الدعاة الذين يقومون بخدمة الإسلام ، غير أنه لم يشهد ميلاد هذا الحلم الذي تحقق على يدي تلميذه بعد موته ببضع سنوات.^{١٧٩}

٤- غير أن رشيدا لم يستطع أن يتخذ من مجلته منبرا ينتقد منه سياسة الدولة العثمانية كما كان يخطط ، فقد صرفه شيخه عن هذا الأمر ، وكان رأيه في الشأن السياسي غير رأي شيخه ، الذي اکتوى بنار السياسة مرات ، ثم

^{١٧٧} - صدر العدد الأول من مجلة المنار في شوال ١٣١٥ هـ - فبراير ١٨٩٨ م ، وصدر العدد الأخير في شعبان

١٣٥٩ هـ - سبتمبر ١٩٤٠ م

^{١٧٨} - المنار: ٤٢/١٤

^{١٧٩} - توفي الإمام محمد عبده سنة ١٩٠٥ م ، وأنشئت مدرسة دار الدعوة والإرشاد بمصر سنة ١٩١٢ م

أخرجها من أولويات مشروعه الإصلاحية ، ولم يخض السيد رشيد في الأمور السياسية ، إلا بعد رحيل أستاذه ، وهذا ما يصرح به رشيد إذ يقول : "سالمنا السياسة فساورت ووثبت ، وألسنا لها فجمحت وتقحمت ، وكنا نهم بها في بعض الأحيان فيصدف بنا عنها الأستاذ الإمام ، ولم نزل منها ما نهواه إلا بعد أن اصطفاه الله." ١٨٠

وأما الشيخ محمد عبده فقد وجد في رشيد ضالته ، وجده شابا نابها فاهما "مفعم العقل والفكر والخيال والوجدان ، يحب الإصلاح" ١٨١ وجده يشاركه في الرأي ويشاكلة في العلم والجهاد ، ويقاسمه هموم الأمة ، ويحسن الفهم عنه ، ويجيد الأداء عنه ، فتنشبت به ، وآثره على غيره ، وكان يقول فيه ردا على منافسيه عليه : "إن الله بعث إليّ بهذا الشاب ليكون مددا لحياتي ومزيديا في عمري ، إن في نفسي أمورا كثيرة أريد أن أقولها وأكتبها للأمة ، وقد ابتليت بما شغلني عنها ، وهو يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد ، وإذا ذكرت له موضوعا ليكتب فيه ، فإنه يكتبه كما أحب ، ويقول ما كنت أريد أن أقول ، وإذا قلت له شيئا مجملا ، بسطه بما أرتضيه من البيان والتفصيل." ١٨٢

ومن هنا ندرك أن السيد رشيدا لم يكن آلة في يد شيخه الإمام محمد عبده سخرها لنشر آرائه وبت أفكاره والترويج لفلسفته الإصلاحية ، ومنازلة خصومه ، وخصوم مشروعه الفكري والتربوي ، وإنما كان صاحب رؤية فكرية واضحة ، وكان يؤثر في شيخه بقدر ما كان لشيخه من تأثير عليه ، ومن ثم يصح القول إن أحدهما كان يكمل الآخر. ١٨٣

مارس السيد رشيد رضا نشاطه الإصلاحية بإشراف شيخه ، حتى إذا قضى الشيخ نحبه لم يهن التلميذ ، ولم تلتن قناته ، بل حل محل شيخه وتبوأ مقعده في أستاذية الفكر الإصلاحية الإسلامي ، وواصل النضال والجهاد في مختلف المنابر العلمية والإعلامية والاجتماعية والسياسية ، وكان للمنار القدر المعلى

١٨٠- السيد رشيد رضا ، ص ١٧٩

١٨١- تاريخ الأستاذ: ١٠١٢/١

١٨٢- السابق: ١٠١٨/١

١٨٣- رشيد رضا صاحب المنار: ١٨١

والنصيب الأوفى في مشروعه الإصلاحى ، فإنه لم يمض على صدوره إلا مدة يسيرة : "حتى اشتهر واستجلب النظر ، وأخذت مقالاته ترن في الآفاق ، وصار مرجعا في الفتيا ، ولا سيما في تطبيق النوازل العصرية والأحداث الجديدة على الشريعة الإسلامية." ^{١٨٤} استقر السيد رشيد رضا في مصر واستوطنه ، ولم يعد إلى وطنه أو يخرج إلى جهة أخرى إلا بنية الزيارة ، وقضاء حاجة شخصية ، أو السعي من أجل أمته ودينه ، فقد سافر إلى أهله عقب إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨م وجاب مدن الشام ، يدعو ويحاضر ويبشر بالإصلاح ، ويوجه الناس ، ثم انتقل إلى الأستانة ومعه مشروع طموح مشروع تأسيس كلية إسلامية على نفقة الحكومة التركية ، تخرج علماء ودعاة مؤهلين لحمل عبء المشروع الإسلامي النهضوي ، الذي كانت تدعو إليه مدرسة جمال الدين الأفغاني التي انتهى ميراثها إليه.

وكان إلى جانب هذا المشروع التعليمي يسعى إلى إصلاح ما بين العرب وأسيادهم الأتراك ، فقد كان الزعماء العرب يتوجسون خيفة من الإصلاحيين الأتراك ، وينظرون إليهم بعين الريبة إلى كثير من ممارساتهم ونشاطاتهم ، وكان رشيد رضا في هذه الفترة يرى أنه يمكن معالجة أوضاع البلاد المتردية والقيام بالإصلاحات المطلوبة في مختلف المجالات في ظل السيادة العثمانية ، ودون أن يلجأ العرب إلى الانفصال عنها. أقام رشيد رضا فى الأستانة سنة كاملة ، يحاول إقناع المسؤولين بما قدم من أجله ، من الأمور التي تفيد الدولة قبل غيرها ، لكنه رجع من هذه الرحلة خائبا يائسا ، ومعرضا عن الدولة العثمانية ، لأنها لم تعد في نظره تحمل هم الأمة الإسلامية التي تحمل شعار سيادتها. ^{١٨٥}

وعقب انتهاء الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء ، سافر إلى سوريا ، وشارك في العمل السياسي للدولة العربية السورية الوليدة ، التي توج فيصل بن الحسين ملكا لها ، وهناك انتخب رئيسا للمؤتمر السوري (مجلس الأمة) ، ثم عاد إلى مصر بعد أن فجع السوريون والعرب باحتلال فرنسا لبلدهم ، وفي عام ١٩٢١ سافر مع مجموعة من السوريين إلى أوروبا ، لعقد مؤتمر احتجاج هناك ضد احتلال

^{١٨٤} - السيد رشيد رضا ، ص ١٤٦

^{١٨٥} - المنار: ٣٥/١/١٤

فرنسا لسورسا ، وانجلترا لفلسطين ، وفي هذه الرحلة زار كلا من سويسرا وألمانيا بدعوة من صديقه الأمير شكيب أرسلان الذي كان يقيم هناك.^{١٨٦}

وكان آخر مرة زار الشام عام ١٩٣١م عندما لبي دعوة مؤتمر إسلامي حاشد دعا إليه تلميذه الفلسطيني الشيخ الحاج أمين الحسيني مفتي القدس الشريف. كما قام الشيخ رشيد بزيارة علمية إلى الهند في عام ١٩١٢م بدعوة من ندوة العلماء في لكنو ، لقي خلالها كثيرا الإكرام والاهتمام^{١٨٧} وفي طريق عودته من الهند مر بإمارتي مسقط والكويت.

وزار السيد رشيد رضا الحجاز حاجا في عام ١٩١٦م ، والتقى في مكة بشريف الحسين الذي كان بصدد إعلان ثورته على الدولة العثمانية فأيده رشيد ، لأنه كان كما ذكرنا قد يؤس من نفع وبقاء هذه الدولة ، وزار الحجاز مرة أخرى للاشتراك في مؤتمر إسلامي عقد في مكة في عام ١٣٤٤م ، وكان ذلك في عهد سيادة الملك عبد العزيز بن سعود على الحجاز.^{١٨٨}

زواجه

تزوج السيد رشيد رضا ثلاث مرات ؛ مرة وهو في بلده لم يهاجر ومرتين وهو في مصر ، وجميع زوجاته من منطقتة. أما زوجته الأولى التي رزق منها بطفلين ماتا في الصغر ، فقد فارقها لأنها رفضت أن تلحقه في مصر بعد أن هاجر إليها ، ثم تزوج ثانية عن طريق وكالة بعض إخوانه ، ولم يدخل بها لأنها كالسابقة صعب عليها الانتقال إلى مصر ، ثم تزوج الثالثة عن طريق الوكالة أيضا ، فحملت إليه ، ومنها رزق أولاده الثلاثة الذين تركهم على قيد الحياة ، وكلهم كبروا وتزوجوا بعده.

١٨٩

مات السيد رشيد رضا بعد حياة حافلة بالجهاد والكفاح والعطاء ، مات في الطريق بين السويس والقاهرة ، وهو عائد من توديع الأمير سعود بن عبد العزيز ،

^{١٨٦} - السيد رشيد رضا: ١٥٧

^{١٨٧} - السابق: ٢٢٥/٣/١٥

^{١٨٨} - المنار: ٣٧/٥/١٩

^{١٨٩} - السابق: ٢٣٧/٣/١٤ ، ٤٠٠/٥/١٦ ، رشيد رضا صاحب المنار: ٢٢٠

وكان موته في مساء يوم الخميس ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٤هـ (٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٥م) وعمره اثنان وسبعون عاما ، ودفن في القاهرة بجوار ضريح شيخه الأستاذ الإمام محمد عبده رحمهما الله رحمة واسعة.^{١٩٠}

صفاته

سبقت الإشارة إلى التربية الروحية القوية التي صاحبت رشيد رضا منذ طفولته ونشأته الأولى ، والتي نزعت به إلى التصوف الموعغل الذي ورثه عن أسرته وأدى به إلى أن يعتزل عن الناس ، وينقطع للعبادة في خلوة خاصة اتخذها في ركن من دار أهله ، وما كان منه من المجاهدات والرياضات الصوفية التي أخذ بها نفسه ، حتى عوّدها على مداومة الطاعات ، والصبر على ملازمة العبادات ، فكان من ثمار ألفه وجدانه للعبادة ، ونشاط أعضائه فيها من الصغر أن خفت عليه في الكبر.^{١٩١}

هذه أولى الصفات التي تطالعنا في سيره السيد محمد رشيد رضا ، حيث كان عبدا ورعا تقيا ، يتهجّد في الليالي ، ويتلو القرآن بتدبر وخشوع ، ويغلبه البكاء إذا جهر بالقراءة ، ويفهم من بعض خطاباته إلى صديقه الأمير شكيب أرسلان أنه كان يختم القرآن في كل ثلاثة أيام.^{١٩٢}

ومع أن موقف رشيد من الصوفية قد تغير ، وتحول إلى السلفية ، إلا أنه لم يناصرهم العداء ، ولم يحارب إلا المتطرفين منهم ، ولم ينبذ كل ما ورثه منهم بل كان يميل إلى مذهبهم في الزهد عن الدنيا ، واحتقار زخارفها من حب الرئاسة والجاه والمال ، والتقرب إلى الملوك والحكام لنيل الحظوة عندهم وكان شديد التنويه بالإخلاص ، ويعنى به دائما في كل ما يعمله أو يقوله ، ويذكر أنه ما طلب العلم لغرض دنيوي ، ولا لكي يوصله إلى منصب ، أو ينيله حظوة عند أحد ، أو يكسبه منزلة بين مجتمعه ، وإنما ليقرّبه إلى الله زلفى ، ويقول : "إن لصحة القصد ، وتوجه الإرادة إلى الأمر ، أعظم التأثير في النجاح والفوز ، ولا شيء أنفع لطالب العلوم الدينية من الإخلاص لله تعالى فيها ، قصد تزكية نفسه وتنقيتها بمعرفته الصحيحة

^{١٩٠}- السابق: ١٥٣/٢/٣٥ ، السيد رشيد رضا: ٢١٣

^{١٩١}- السيد رشيد رضا: ٤٧

^{١٩٢}- السابق: ٣٦٣

وعبادته المشروعة ، ثم تعليم الناس وهدايتهم وأن يكون قدوة لهم في الحق والخير.

١٩٣

ومما يتصل بالإخلاص والرغبة إلى الله ، ولوعه بالإصلاح ، الذي كان ديدنه في حله وترحاله ، في سره وعلانيته ، يمارسه أينما كان ، ويقدمه على كل شيء ، "واليه قصد حين طلب العلم ، وحين وعظ ودرس وخطب وكتب ، وحين الف وأنشأ ، وحين حاور وناظر وجادل ، وحين اشتغل بالصحافة والسياسة وغيرها من شئون الحياة." ^{١٩٤} ومن صفات رشيد الحميدة نشاطه العجيب في العمل وتقانيه فيه ، وقوة صبره عليه ، وحسن استغلاله لوقته ، فقد كان ينصرف إلى عمله انصرافا كلياً فإذا جاءه زائرون وهو منكب على عمله أناب بعض أهله ومعاونيه عنه ليغنوه بقدر الإمكان عن مقابلتهم ، وحال ذلك بينه وبين استيفاء أساليب المجاملة في التحية والتسليم ، حتى اتهمه بعض من لا يقدر ظروفه من أصدقائه وأقربائه بما هو براء منه ^{١٩٥} بل بلغ من حرصه على استغلال الوقت "في التأليف والتصحيح أن يكتب في أثناء محادثته مع الناس ، ولا تقطع المحادثة عن سلسلة فكره." ^{١٩٦} "وكان يكتب أصول المنار في أثناء أسفاره إلى الشام والأستانة والهند والجزيرة العربية وأوروبا من تفسير وغيره ، ويرسلها إلى المطبعة في مصر." ^{١٩٧} وكان من نتائج إصراره على ملأ وقته بالعمل النافع كثرة الإنتاج ، وغزارة العطاء ، وحسن البلاء في كثير من المجالات ، "وحسب رشيد رضا أنه استطاع - وهو فرد - أن يصدر من مجلة المنار ما يزيد على أربعة وثلاثين مجلداً تزيد صفحات كل مجلد - في الغالب - على ألف صفحة." ^{١٩٨}

ويجلي الأمير شكيب أرسلان هذه الصفة في رشيد رضا فيقول: "ولم أكن أرى في عصرنا هذا أصبر على الكتابة ، وأجلد على الشغل ، وأسيل قلماً ، وأسرع خاطراً من الشيخ رشيد : فلو وزعنا ما كتبه بقلمه وبخط بنانه على خمسين كاتباً ،

١٩٣ - السيد رشيد رضا : ١٣٥

١٩٤ - رشيد رضا صاحب المنار : ١٨٧

١٩٥ - المنار : ٤٨٦/٦/٣٥

١٩٦ - السابق : ٤٨٦/٦/٣٥

١٩٧ - السابق : ٤٨٦/٦/٣٥

١٩٨ - الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح: محمد بن عبد الله السلطان ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، إدارة الثقافة والنشر ١٩٩٣ ، ص ٤٤

لأصاب كلا منهم قسط ، يجدر بأن يجعله في صف المؤلفين العاملين. وقائل هذا القول الآن ليس ممن يأخذه العجب في هذا الموضوع لأدنى شيء ، بل هو معروف بأنه لا يضيع دقيقة واحدة من وقته ، وأنه يتلقى أكثر من ألفى مكتوب في دور السنة ، فيجيب عليها كلها ، ويكتب زيادة عليها مائتين إلى مائتين وخمسين مقالة في دور السنة ، وينشر من التآليف بضعة آلاف من الصفحات المطبوعة تأليفاً ، فلست إذا لأغتبط أحداً من الخلق على شأو بعيد في الجد ، ولا على محصول غزير من ثمرات الأقلام ، ولكنني لا أدعي مباراة السيد رشيد رضا في هذا الشأو. ^{١٩٩}

ويكتب إليه صديقه عبد الحميد الزهراوي ، فكان مما قال : " كثرة أشغالك تحتاج إلى خمسة رجال ممن همتهم قريبة لهمتك ، أما من الكسالى فلا يغنيك العشرون منهم. " ^{٢٠٠}

ومن صفات رشيد الظاهرة ميله الشديد إلى الاستقلال الفكري ، والنفور من التقليد ، ومن والتبعية العمياء التي لا تستند إلى دليل وإلى برلاهان ساطع ، وبرزت لديه هذه الخاصية في أول حياته العلمية ، فكان لا يتحمل مناقشته إلا أستاذه ومريبه الشيخ حسين الجسر ، وعندما نصحه شيخه هذا بترك التعرض للصوفية ، طالبه بالحجة ، فقال الشيخ : " أنت أهل علم وصاحب حجة ، وليس عندي لك غير ما قلت. " ^{٢٠١} ولما هاجر إلى مصر ، وعرض خدمته على شيخه محمد عبده ، اشترط عليه ألا يحجره عن السؤال والمناقشة فيما يستشكله ولا يرى وجه الصواب فيه ^{٢٠٢} ومن آثار استقلاله الفكري كثرة النقد ، والصراحة في المناقشة ، وطلب الحق أينما كان ، وعدم التسليم بما لا يقتنع به ، وكان يطالب الآخرين بنقده ونقد آثاره العلمية وآرائه السياسية والاجتماعية ، وكان يدعو قراء المنار في كل سنة جديدة إلى نقده ، وذلك كقوله : " إننا نُذكِّرُ قُرَّاءَ المنار ، من أهل العلم الديني ، وأولي الرأي في مصالح الأمة ، بما التزمنا الدعوة إليه في فاتحة كل مجلد ، من الكتابة إلينا بما يرونه منتقداً في المنار ، لمخالفته للحق أو للمصلحة العامة ؛ لإعانتنا على هذه

^{١٩٩} - السيد رشيد رضا: ١٦٢، وانظر كذلك: شكيب أرسلان مختارات نقدية في اللغة والأدب والتاريخ: ٥

^{٢٠٠} - رشيد رضا صاحب المنار ، ص ١٦٣

^{٢٠١} - السيد رشيد رضا: ٩٨

^{٢٠٢} - تاريخ الأستاذ: ١٠٠٣/١

الخدمة ، وقيامًا بما شرعه الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد ضاق الجزء الأول عن هذه الدعوة.^{٢٠٣}

ورغم نقده الكثير وحبه للاستقلال الفكري ، فقد كان يكره الخلاف المفرق للصف المشتت للوحدة ، الذي يقوم على التعصب المذهبي والتشيع الحزبي ، ولا يرى أي سبب للافتراق وعدم التعاون ، بل يدعو إلى التحاكم إلى قاعدة المنار الذهبية : " أن نتعاون على ما نتفق عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما نختلف فيه." ^{٢٠٤}

كان رشيد رضا عزيزا وأبيا ، وكان ينأى بنفسه عن كل ما قد ينال من كرامته فعاف عن خدمة الحكومات ، واعتمد على نفسه في الكسب منذ شبابه فلم يمد يده إلى أحد ولو كان أباه ، وفي هذا يقول : "وكان لي كسب أدبي يفي بحاجتي الشخصية ، حتى ثمن الكتب العلمية ، وهو كتابة الحجج الشرعية والعقود ، ومنه جمعت نفقة السفر إلى مصر ، ولم أطلب من والدي شيئا ، وكان لي قطعة أرض أملكها أيضا ، ولم أحتج إلى بيعها." ^{٢٠٥} وفي مصر كان يعتمد في إنفاقه الذاتي ، وفي إنفاقه على مشاريعه الدعوية على كسبه الخاص ، من عائدات مطبعة ومجلة المنار ومن ريع مؤلفاته العديدة ، وكان يتعفف من أن يقبل هبة أو عطاء من أحد . وحدث أن أرسل إليه أحد الأمراء مبلغا من المال ، يستعين به على أداء فريضة الحج ، فرض قبوله ، وقال له أنا لا أقبل عطاء دون مقابل كما ردّ مبالغ جاءت من أميرين من أمراء الخليج نظير خدمة نشر اعتبرها من المصالح الإسلامية العامة. ^{٢٠٦} وكان مع ذلك كريما مضيافا ، كثير البذل لماله في أوجه البر والخير، ينفق بسخاء على طلبة العلم الذين كان يجلبهم من البلاد الإسلامية النائية ؛ من الصين وإندونيسيا ، والقوقاس ، والمغرب ، وغيرها من البلاد الإسلامية التي بحاجة إلى تعليم أبنائها ، لتواجه بهم الحملة الاستعمارية التبشيرية التي هجمت عليهم ، كما كان "مواسيا بماله القليل أهل الحاج من الأسر المستورة ، مساعدا العاملين في سبيل أمته وقومه ، فكم ساهم في نفقات الوفود والجمعيات والمؤتمرات العربية السياسية."

^{٢٠٣} - المنار: ١٦٠/٢/٢٥

^{٢٠٤} - السابق: ٤٨٧/٦/٣٥

^{٢٠٥} - تاريخ الأستاذ: ١٠٠٩/١

^{٢٠٦} - السابق: ١٠١٠/١

^{٢٠٧} ومن كرمه وسخائه كثرة ، تساهله مع مشتركى مجلة المنار ، الذين لا يدفعون الاشتراك المستحق عليهم ، فلا يوقف المجلة عنهم . يقول شكيب أرسلان : " وقد أجمع كل من عرفه أنه من أسخى الناس يدا ، وأكرمهم مهزة ، وأحسنهم ضيافة ، وأنقهم طعاما ، وأكثرهم رمادا وكان كرمه طبعاً لا تطبعاً وسجية لا تصنعاً." ^{٢٠٨} لكنه كان بخيلاً وشحيحاً بأصدقائه ، يوتر رضاهم على سخطهم ، ويحرص على صلتهم مهما فرطوا في حقه ، وغالوا في جفائه كما كان باراً بأساتذته ، عظيم الإجلال والتوقير لمعلميه ومربيه ، وكان برة بأستاذه الإمام لا يعادله شيء ، " فقد كان يعظم من قدر الشيخ محمد عبده التعظيم الذي زاد كثيراً في شهرته ، وهو الذي أطلق عليه لقب الإمام." ^{٢٠٩} بل إن "إمامة الشيخ محمد عبده لم تتأسس في الحقيقة إلا على صدور مجلة المنار." ^{٢١٠} وكان الإمام محمد عبده على دراية بهذا الأمر ، ولذلك قال في معرض الدفاع عن رشيد : " وقد رأيت في سفرى هذا (سفره كان إلى تونس والجزائر) من آثار قلمه وتأثير مناره ، ما لم أكن أظن ولا أحسب ، فهو قد أنشأ لي أحزاباً ، وأوجد لي تلاميذ وأصحاباً .. وهو قد عمل لي كل شيء ، عمل لي ما يعملها أحد ممن ربيتهم وعلمتهم ومن التزمت طول حياتي خدمتهم." ^{٢١١}

ومن صفات رشيد البارزة الواضحة صراحته في الرأي ، وعفويته في تناول الأمور ، مع ميله الشديد إلى الاستقصاء في التفاصيل ، التي قد لا تهم بل تضر وهذا ما حصل في رأيي ، عندما دون رشيد سيرته الذاتية في كتابه "أنا والأزهر" إذ تحدث عن نفسه حديثاً مستقيضاً ، تعرض فيه لما قيل في ذكائه وصواب رأيه ، وزهده وكراماته وغير ذلك من شئونه وشئون أسرته ، مسترسلاً في تفاصيل ودقائق عن حياته كان الأولى في نظر بعض الباحثين ^{٢١٢} طيها وعدم البوح بها ، لأنها تدخل في نظرهم في باب الفخر ومدح النفس ، غير أن الذي ينفي عنه هذه التهمة ما عرف عنه من الولوع بذكر التفاصيل والعناية بجزئيات الأحداث ، كقوله وهو

^{٢٠٧} - المنار: ٤٨٤/٦/٣٥

^{٢٠٨} - السيد رشيد رضا: ٢٧١

^{٢٠٩} - السابق: ٢٧٣

^{٢١٠} - التفسير ورجاله: ١٧٢

^{٢١١} - تاريخ الأستاذ: ١/ ١٠١٨

^{٢١٢} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٢٩ ، ١٨٣

يتحدث عن أهله في "القلمون": "وقد اشتهروا بالشرف وحسن السيرة ، قلما يعرف عنهم منكر من الكبائر إلا قليلا من سرقة الفواكه أو التضارب بالعصي في بعض المشاجرات ، وما يقرب من ذلك." فيعلق عليه الأمير شكيب أرسلان بقوله: " انظر إلى عادته رحمه الله في التدقيق ، وتأمل كيف أنه لم يفلت حتى هذه."^{٢١٣} والدكتور أحمد الشرباصي صاحب المؤاخذة السابقة على رشيد رضا يقر بوجود هذه الصفة الاستقصائية في رشيد ، وذلك حيث يقول معلقا على كلام لرشيد في مولود له: " وهكذا يبدو رشيد دقيقا في الوصف ، فيورد الكثير من التفاصيل ، كلون الطفل ونظرتة وإشارته ، وهذه العناية بالتفاصيل ظاهرة عند رشيد."^{٢١٤} " وما أحسن قول الأستاذ أبي الحسن حفظه الله : وكانت فيه على وفرة عقله وكثرة تجاربه طفولة العظماء ، يصدق كل الناس ويثق بهم."^{٢١٥} فلا عجب في أن يحسن رشيد ظن قرائه فيما يورد عليهم من التفاصيل التي يحتفل لها في كل كتاباته ، وأن يتوقع منهم القبول الحسن ، والتسليم البريء ، لأنه ينظر إلى الآخرين بمرآة نفسه.

ويجمل الأمير شكيب أرسلان الذي صاحب رشيدا مدة أربعين سنة ما عهد فيه من الصفات الحميدة فيقول: " إن الذي كان يزين علم الشيخ رشيد وأدبه هو ما تحلى به من الأخلاق الكريمة ، والمنازع العالية .. فكان من أعظم الناس خلقا وأمتهم عهدا وأحلمهم طبعاً وأصفاهم قلباً وأحسنهم وفادة وأصدقهم بشاشة وأكملهم إخلاصاً ، وكانت فيه صفات العلماء والأمرء معا ، وكان مع وداعته وقورا وفي تواضعه كبيرا ، وكانت رقة قلبه في مواطن الحنان تدل على بلوغ الإنسانية فيه مثلها الأعلى ، قلما اجتمع العلم والخلق اجتماعهما في الشيخ رشيد ، وقلما جرى العقل والقلب شوطا واحدا كما جرى في هذه الفطرة الشريفة .."^{٢١٦}

يذكر السيد رشيد رضا أن الأستاذ الإمام محمد عبده كان ينتقده ومجلته "المنار" في أمور منها الصراحة المفرطة في تناول الأمور وشرح القضايا ، ومناقشة

^{٢١٣} - السيد رشيد رضا: ٢٤

^{٢١٤} - رشيد رضا صاحب المنار ، ص ١٧٢ ، ٢٢٦. والجدير بالذكر أن جميع الملاحظات السلبية التي استنتجها الشرباصي من كلام رشيد رضا في هذا الكتاب نجده يقول مثلها في شكيب أرسلان في كتابه شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام. انظر فيه مثلا : ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨

^{٢١٥} - السيد رشيد رضا ن ص ٢٧٤

^{٢١٦} - رشيد رضا صاحب المنار : ٢٥٨

الأفكار ، وكان يقول له : " إنك كثيرا ما تبرز الحق عريانا ليس عليه حلة ولا حلي يزينه للناظرين ، ويهون قبوله على المبطلين ، فينبغي أن تتذكر أن الحق ثقيل ، وقلما يكون للداعي إليه صديق ، وأنه لا بد من شعور من يعرض عليهم كيلا يزداد إعراضهم عنه. " ٢١٧

كان في طبع رشيد حدة وقلّة تحمل لمن يخطئ عنده أو يلاحظ فيه ما لا يستسيغه ، فلا يملك نفسه عندئذ ، بل يزجره ويوبخه. يقول أحد تلاميذه وهو الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي : " إنه مرشدي وأستاذي ولا أجد له عيبا سوى الحدة التي كانت تعتريه أحيانا ، كأن يسمع سؤالا غير مناسب مثلا ، فيحتد على السائل ، وكان سريع الغضب سريع الرضى. " ٢١٨ وتصفه بنته " بأنه كان طيب القلب ، متسامحا متساهلا كريما وأنه كان يسرف في إقامة المآدب لأصدقائه ومعارفه .. وكان عيبه الوحيد أنه سريع الغضب. " ٢١٩

٢١٧- السابق: ١٧٨

٢١٨- رشيد رضا صاحب المنار: ٢٠٣

٢١٩- السابق: ١٢٢٥

المطلب الثاني : حياته العلمية

تعليمه النظامي

عندما بلغ السيد رشيد رضا مبلغ التعليم ألحق بكتاب القرية ، فتلقى فيه القرآن الكريم ، وقواعد الحساب ، ومبادئ الفقه واللغة العربية ، ولم يواصل تعليمه الابتدائي مباشرة بعد تفرغه من الكتاب ، لعدم وجود مدرسة ابتدائية في قريته "القلمون" ولم تطب نفس والده عنه ، بإرساله إلى المدرسة الابتدائية في طرابلس القريبة ، كعادة أهل القرية والقرى المجاورة لطرابلس ، لأن رشيدا كان صغير السن ، وكان أبوه شديد الحرص على تربيته وتنشئته تربية تليق بمقام الأسرة الروحي ، فخاف عليه من مخالطة أبناء المدن ، قبل أن يشتد عوده ، ويكمل رشده ، فظل في البيت فترة ، منقطعا عن التعليم النظامي ، وفي هذه الفترة مال رشيد إلى القراءة الحرة والمطالعة الخاصة ، فعكف على مكتبة الأسرة ، وأولى عناية كبيرة إلى كتب الأدب والتصوف.

٢٢٠

ثم التحق رشيد بالمدرسة الرشدية الابتدائية الحكومية في طرابلس ، وقضى فيها سنة ، ثم رغب عنها ، لأن الدراسة فيها كانت باللغة التركية ، بعد أن درس فيها شيئا من الصرف والنحو والحساب ومبادئ الجغرافية ، والعقائد والعبادات.^{٢٢١}

تحول رشيد إلى مدرسة خاصة أسسها شيخه حسين الجسر ، تدعى المدرسة الوطنية الإسلامية ، وهي مدرسة تفوق المدرسة الرشدية مستوى ، وكان التدريس فيها باللغة العربية ، إضافة إلى تدريس كل من اللغة التركية والفرنسية ودرس في هذه المدرسة العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية.

تعليمه غير النظامي

لم يكتب لرشيد الاستمرار في إكمال تعليمه النظامي في المدرسة الإسلامية الوطنية ، التي كان يديرها الشيخ حسين الجسر ، العالم الطرابلسي المستنير ذو الرؤية الإصلاحية ، الذي سعى إلى تأسيس هذه المدرسة وتولى إدارتها ليجعلها منبرا

٢٢٠ - المنار: ٢١/٣/١٦٠

٢٢١ - السيد رشيد رضا: ٣٥

علميا يزوج بين العلوم الإسلامية الأصيلة ، والعلوم العصرية الضرورية ، إذ تم إلغاء المدرسة من قبل السلطات العثمانية ، لأنها في نظرها لا تستوفي معايير المدارس الدينية ، ولا تنطبق عليها شروطها ، لأنها لا تسير على منهاج المدارس الدينية التي ترعاها الحكومة ، وتحظى بدعمها ومساعدتها ، فتوقفت المدرسة وتشنت طلابها ، حيث التحق بعضهم بمدارس بيروت المختلفة ، وتحول الآخرون إلى المدارس الدينية في طرابلس.^{٢٢٢} أما رشيد رضا فلم يلتحق بأي مدرسة نظامية بعد ذلك ، بل شرع في طلب العلم على طريقة القدماء ، وأخذ يحضر الدروس المختلفة على أجلاء علماء بلده مثل الشيخ حسين الجسر والشيخ محمود نشابة والشيخ عبد الغني الرفاعي^{٢٢٣} والشيخ أبي المحاسن القاوقجي.^{٢٢٤} كان للشيخ حسين الجسر أكبر الأثر في تربية وتنشئة وتعليم السيد رشيد رضا فكان مدرسه منذ المرحلة الابتدائية ، حيث كان في مدرسته ، وكان شيخه الأول الذي حمل رشيد عنه معظم العلوم الشرعية والعقلية التي برع فيها ، وكان مرشده في طريق الإصلاح ، ومدرسه على أسلوب الكتابة والتأليف ، وهو الذي خرج في النهاية ، وزوده بشهادة العالمية وإجازة التدريس ، وفي هذا يقول رشيد : " كتب لي أستاذنا العلامة الشيخ حسين الجسر في شهادة العالمية أو (إجازة التدريس) أنني طلبت العلم عنده ثماني سنين تلقيت فيها المنقول والمعقول." ^{٢٢٥}

ومن أساتذته الذين كان لهم بالغ الأثر في تعليمه وتخريجه ، الشيخ محمود نشابة الذي أخذ عنه علم الحديث والفقہ الشافعي - وكان رشيد شافعي المذهب - وكان شديد الإعجاب بقوة علمه ، وتفوقه على أقرانه ، وتمكنه في الفنون التي يقوم بتدريسها. يقول رشيد في ذلك : " وقد أدركته في أوائل الطلب ، وقرأت عليه الأربعين النووية ، وأجازني بها ، قبل الشروع في طلب العلم ^{٢٢٦} ثم كنت أحضر درسه لشرح البخاري في الجامع الكبير ، وأقرأ عليه صحيح مسلم وشرح المنهج بداره ، وحضرت عليه طائفة من شرح التحرير ، وهو في فقه الشافعية كالمنهج ، وما عرفت قيمته ،

^{٢٢٢} - المنار: ١٦٠/٣/٢١

^{٢٢٣} - السابق: ١٥٤/٣/٢١ ، ١٥٦ ، ١٥٩

^{٢٢٤} - السيد رشيد رضا: ٣٩

^{٢٢٥} - السابق: ١٣٤

^{٢٢٦} - أي قبل دخوله في أي مدرسة.

وتفوقه على جميع من لقيت من علماء الإسلام في علومه ، إلا بقراءة صحيح مسلم عليه ، فإنني كنت أقرأ عليه المتن ، فيضبط لي الرواية أصح الضبط ، من غير مراجعة ولا نظر في شرح ، وأسأله عن كل ما يشكل عليّ من مسائل الرواية والدراية ، فيجيبني عنها أصح جواب ، وكنت أراجع بعض تلك المسائل بعد الدرس في شرح مسلم وغيره ، ولا أنكر أنني عثرت له على خطأ في شيء منها.^{٢٢٧}

وأخذ الحديث كذلك عن كل من الشيخ عبد الغني الرافعي ، الذي حصر عليه جزءا من كتاب نيل الأوطار للشوكاني ، والشيخ أبي المحاسن محمد القاوقجي الذي تلقى عنه كتابه في الأحاديث المسلسلة وبعض كتابه "المعجم الوجيز"^{٢٢٨} كما تلقى عنه كذلك بعض الكتب الصوفية ، مثل كتاب دلائل الخيرات ، وحصل منه إجازة عليه.^{٢٢٩}

ومن أجل أساتذته وأعظم معلميه ، الشيخ الإمام محمد عبده ، الذي هاجر إلى مصر من أجله ، ليتلقى عنه ما ورثه من الحكمة من موقظ الشرق السيد جمال الدين الأفغاني ، فقد كان رشيد معجبا بالسيد جمال الدين الأفغاني ، بل عاشقا له على حدّ عبارته ، بعد أن عرفه عن طريق مجلة "العروة الوثقى" فكان يتمنى لقاءه والأخذ عنه ، وكتب إليه بذلك كالمستأذن منه ، غير أن هذا الحلم لم يتحقق لرشيد ومات الأفغاني قبل أن يسعد رشيد بلقائه ، فعزم على الهجرة إلى مصر ، واستدراك ما فاته بملازمة تلميذه وخليفته الشيخ محمد عبده ، وفي هذا يقول رشيد : "وكنت قبل ذلك أمني نفسي بالالتحاق بالسيد الحكيم ولزامه ، ومرافقته في ترحاله ومقامه ، فلما توفاه الله تعالى إليه نصيت عني رداء التمني والتواني ، وقلت : لئن فاتني لقاء المعلم الأول فلن يفوتني لقاء المعلم الثاني."^{٢٣٠} ومع أن رشيدا لقي الشيخ محمد عبده في لبنان أيام طلبه للعلم ، إلا أنه لم يتتلمذ عليه ، ولم يتلق عنه شيئا ، لأن لقاءه به كان عرضا في طرابلس ، بينما كان الإمام يقيم في بيروت فترة نفيه

^{٢٢٧} - المنار: ١٥٤/٣/٢١

^{٢٢٨} - السابق: ١٥٨/٣/٢١

^{٢٢٩} - السابق: ٤٢٨/٦/١٤

^{٢٣٠} - السابق: ٣٧٧/٧/٢١

عن مصر بعد الثورة العربية ، وكان يلقي دروسا في المدرسة السلطانية في بيروت ، ولم يتمكن رشيد آنذ من الارتحال إليه و التلقي عنه.^{٢٣١}

فلما اجتمع به في مصر تتلمذ عليه - وإن كان ناضجا - وأخذ عنه التفسير الذي بدأه الإمام باقتراح من رشيد ، وكان رشيد يكتب ملخص ما فهمه في كل مجلس ، ثم يبضه ويضيف من عنده ما يراه مكملا للمعنى ، ثم يعرضه على الشيخ ليراجعه ، ثم ينشره في مجلة المنار ، فما توفي الأستاذ استقل " الشيخ رشيد بأعباء التفسير وحده ، فأكمل منه إلى نهاية الجزء الثاني عشر عند قوله تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)^{٢٣٢} في سورة يوسف ، فكان ما كتبه الشيخ رشيد مستقلا أكثر من سبعة أجزاء ، وما كتبه اعتمادا على أستاذه واستمدادا منه أقل من خمسة أجزاء ، فكان حظه في المجموع أغلب ، وكان بانتساب هذا التفسير إليه أحق.^{٢٣٣}

ونصّ رشيد من بين هؤلاء الأساتذة على اثنين ، يعيد إليهما أكبر الفضل في تعليمه وتخريجه ، وحصل منهما الإجازة ، وهما الشيخ حسين الجسر ، والشيخ محمود نشابة. يقول في معرض حديثه عن شيخه حسين الجسر : " وهو الأستاذ الذي تلقينا عنه العلوم العقلية والنقلية ، ما عدا الحديث وفقه الشافعية ، فإننا أخذناهما عن شيخ الشيوخ محمود نشابة (رحمه الله) وعلى يد هذين الشيخين تخرجنا ، ومنهما أخذنا الإجازة بالتدريس.^{٢٣٤}

إن ما توافر لرشيد رضا من العوامل النادرة الاتفاق ، دفعته إلى أن يصرف كل جهده إلى العلم فكان يملأ وقته إما بحضور درس على شيخ ، وإما بالمطالعة والبحث ، وإما بالدعوة إلى الله ، وبممارسة الإصلاح بالتعليم والإرشاد وكان لحسن قصده في طلب العلم ، وحبه في نشره ، أثر حميد في بركة علمه ، فإنه يقول : " إنني طلبت العلم بوازع من نفسي ، لتكميلها بالمعرفة والعمل ، لا لأجل الانتفاع به في تحصيل مال أو جاه ، وقد عرض عليّ الدخول في خدمة الحكومة أكبر أصحاب النفوذ فيها ، من أصدقاء والدي فأبيت. بدأت بمطالعة الكتب التي أراها

٢٣١- تاريخ الأستاذ: ٣٩٠/١

٢٣٢- سورة يوسف: آية ٥٢

٢٣٣- التفسير ورجاله: ١٧٤

٢٣٤- المنار: ٧/٢٠/٧٩٩

عندنا ، وكنت كلما أفدت شيئاً في نفسي ، أجد ارتياحا فيها أن أفيد غيري".^{٢٣٥} ويقول أيضا : " ولما حضرت دروس السنوسية الصغرى في المدرسة ، واعتقدت أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد ما هو مقرر فيها من الصفات العشرين وغيرها ، تعبت تعباً شديداً في محاولة إيفهام العوام فلسفة السنوسي الأشعرية ، فتعذر عليّ ذلك ، حتى كان بعضهم يبكي ، إذا لم يفهم ما أقرره ، ويخشى أن يكون كافراً بعدم فهمها ، ثم من الله عليّ بالعلم ، بأنه لا يجب على كل مسلم التقيد بها ، وأن فيها خطأ ، وأن الناس مغرورون بها ، فكتبت لهم عقيدة سهلة الفهم والعبارة ، لا يزال يحفظها الكثيرون منهم".^{٢٣٦}

تكوينه العلمي

استوعب رشيد المقررات المدرسية في مدة وجيزة ، حتى ساوي في سنة دراسية واحدة طلاب الفصل السابع الذين قضوا في مقاعد الدراسة سبع سنوات^{٢٣٧} ثم وجه عنايته إلى هضم العلوم الإسلامية ، بمختلف فنونها من عقيدة وفقه وحديث وأدب وتاريخ وتصوف وأخلاق ، فأخذ نفسه بحفظ القرآن دون أستاذ يعيد عليه ما حفظه ، وذلك بعد أن تلقى القرآن الكريم في الكتاب ، ثم اتجه إلى الأدب بمحض الميل الفطري ، فطالع كثيراً من مراجعه ، وحفظ كثيراً من نصوصه . يقول رشيد : " فكننت من أول النشأة صوفياً عبادة وتخلقا مع ميل شديد إلى الأدب ، فطالعت بعض كتبه ، وحفظت كثيراً من الشعر بغير تعمد ولا قصد ، ومنه قصيدة الشهر زوري في التصوف ونونية ابن زيدون في الغزل ، وأكثر ما كتبت بخطي من مختاره في الإلهيات والزهد والرقائق ومدح النبي (ص) " ^{٢٣٨} وذكر أنه درس من متون اللغة المقامات الحريية ، ومقامات بديع الزمان الهمذاني ، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي ، ومقصورة ابن دريد التي عارضها كما سيأتي ، وديوان الباكرا لشكيب أرسلان ، كما حفظ ألفية ابن مالك ودرس شروحها ، ومن الكتب الفقهية التي درسها

^{٢٣٥} - المنار والأزهر: ١٧١

^{٢٣٦} - السابق: ١٧٧

^{٢٣٧} - السابق: ١٤٤

^{٢٣٨} - السابق: ١٤٠

شروح المنهج في المذهب الشافعي ، وكتب الشعراني كالميزان ، واليوافيت والجواهر ، والموافقات للشاطبي ، ودرس معظم كتب التفسير ، وذكر أن الشيخ محمد عبده زارهم في المدرسة في طرابلس فسأل الطلاب إن كانوا يدرسون تفسير القرآن ، فكان الجواب بالنفي ، ثم سأل رشيد الشيخ : " أي التفاسير أنفع لطلبة العلم ؟ قال الكشاف . قلت : ولكن فيه كثيرا من نزعات الاعتزال . قال تلك مسائل معروفة ، لا تخفى على طالب التفسير ، الواقف على أقوال الفرق ، ومذاهب السنة فيها ، وإنما فضله لدقته في تحديد المعاني ، ونكت البلاغة بالعبارة الدقيقة المختصرة. " ^{٢٣٩} فكان هذا تحفيذا لرشيد على الاهتمام بتفسير القرآن ، فلما هاجر إلى مصر كان أهم ما شغل به أن يحمل الأستاذ الإمام على تفسير القرآن ، وأعانه على تدوينه ونشره في المنار ، ثم خلفه عليه بعد موته. ثم نجده يذكر بعض ما درسه من كتب العقيدة والزهد والمنطق والأخلاق كجوهرة التوحيد ، والسنوسية الصغرى ، والفتوحات المكية ، ومتن السلم في المنطق ، وإحياء علوم الدين ، ومحك النظر ، وفيصل التفرقة بين الإسلام والنصرانية ، وكثير من كتب الغزالي ، والزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي ، وتهذيب الأخلاق لابن مسكويه. ^{٢٤٠} وبعد أن تبحر في علم الحديث ، وقوي حسه النقدي ، اطلع على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، فمال إلى مذهبهما في تقرير العقائد ، وعكف على دراسة كتبهما ، ونشر كثيرا منها ، كما نشر كثيرا من كتب السلف العقديّة ، مثل كتاب الاعتصام للشاطبي. ^{٢٤١} ثم كان لاتصال رشيد بالملك عبد العزيز بن سعود ، وتوافقهما في كثير من الأمور ، ومنها التوافق في المذهب السلفي ، أثر كبير في تعميق وتضخيم رصيد رشيد في الدراسات الإسلامية ، حيث أسند إليه ابن سعود نشر كتب المذهب الحنبلي بما في ذلك كتب ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب وكتب علماء نجد ، واشترط عليه تصحيح تلك الكتب قبل نشرها. ^{٢٤٢}

^{٢٣٩} - تاريخ الأستاذ: ٣٩٠/١

^{٢٤٠} - المنار والأزهر: ١٤٠ وما بعدها

^{٢٤١} - السلفية حدودها وتحولاتها: د. فهمي جدعان ، مجلة عالم الفكر ، المجلس الأعلى الوطني للثقافة والفنون

والآداب ، الكويت ، م ٢٦ ، العددان ٤ ، ٤ ، ١٩٩٨ م ، ص ٩٩

^{٢٤٢} - السيد رشيد رضا ، ص ٧٥٣

فأتاح هذا للسيد رشيد فرصة إضافية ، للاطلاع الواسع على مصادر العلوم الإسلامية ، ولا ننسى أنه كان لرشيد رضا مطبعة تجارية ، هي مطبعة المنار في وقت كانت المطابع نادرة جدا في المناطق الإسلامية ، وكان رشيد رضا يتولى مهمة المصحح في المطبعة ، وتلك مهمة صعبة ، تتطلب تخصصا علميا وفنيا ، فمكنت له المهمة من الوقوف الدقيق على كثير من المواد العلمية التي تنشر في مطبعته ، ومعظمها مواد دينية. ٢٤٣

كذلك نجد رشيد رضا يولي اهتماما خاصا بالحديث ، وما يتصل به من العلوم فيقرأ الصحاح وشروحا ؛ معظمها على شيخه محمود نشابة ، ويدرس كتب الجرح والتعديل ، حتى أصبحت له قدم راسخة في علم الحديث سندا وممتا رواية ودراية . وقد وافق علم الحديث هوى في نفسه ، وميلا في طبعه إلى الاستقلال الفكري ، والوقوف مما يتلقاه من المشايخ أو يقرأه من المراجع موقف الناقد ، فلا يقبل منه إلا ما يصمد أمام النقد والتمحيص ، ولهذا اتكأ على علم الحديث في محاربه للبدع والخرافات والتقليد من العامة والعلماء ، على حد سواء. ٢٤٤

كان لرشيد رضا عقلية بحثية ، فكان وهو يتلقى العلوم على أساتذته ، يزوج بين التلقي والبحث ، فكان إذا انصرف من الدرس استعاد شرح الشيخ للدرس ثم يبحث في مسائل الدرس من مظانها ، فيقرأ بما ورد منها في المراجع وأمهاات الكتب ، والشروح المطولة ، فيقف على آراء العلماء في كل مسألة ، فيزيده ذلك وضوحا وتوثيقا ورسوخا فيها ، وقد يجد في المصادر ما يخالف رأي شيخه في بعض المسائل ، فلا يمنعه ذلك من قبوله والتسليم به إذا قوي دليل المخالف. يقول رشيد : " وكانت طريقتي في طلب العلم أن لا أقبل شيئا بالتسليم من غير فهم واقتناع ، وإذا لم أسمع من الأستاذ ما يقنعني في مسألة ما ، ولاسيما المسائل الدينية ، فإنني أراجعها في جميع ما أعرف من الكتب إلى أن يستقر فهمي على ما يطمئن به قلبي. " ٢٤٥

٢٤٣ - السيد رشيد رضا : ٣٥١

٢٤٤ - المنار والأزهر: ١٤٢

٢٤٥ - السابق: ١٤١ ، ١٤٥

تمكن رشيد رضا في مدة طلبه للعلم في مدينته طرابلس - وهي مدة ليست بالمديدة - من العلوم الإسلامية الأصيلة ، والفنون الدينية العريقة ما جعله على رتبة ذات قرار ومعين ، لا تساميه ولا تدانيها رتبة أخرى ، وأصبح مرجعا فيها يلجأ إليه الجميع عند الملمات ، وكان أستاذه ومربيه حسين الجسر لا يستكف عن سؤاله عما يستشكله من مفردات اللغة في بعض مجالسه الخاصة حيث لا توجد معاجم يراجعها ، لثقتة برصيد تلميذه اللغوي ، كما كان الشيخ يستشيريه ويسأل رأيه في بعض مؤلفاته العلمية.^{٢٤٦}

لم يكن رشيد رضا الوحيد الذي استقل بتكوين علمه بل "كان هذا العصر من ناحية كتابته وكتابه عصرا عصاميا ، برز فيه طائفة من الرجال ، لم يطل انتظامهم في حجرات المدارس ، وقاعات المعاهد ، ومدرجات الجامعات ، بل اعتدوا على الله تعالى ، ثم على أنفسهم ونشاطهم ، فهم يطالعون ويكتبون ، ويتابعون خطواتهم في تثقيف أنفسهم بأنفسهم." ^{٢٤٧} "ورشيد رضا أحد هؤلاء الأعلام لأنه كون معظم ثقافته بجهده وعصاميته ومطالعاته وملاقاته العلماء ، حيث لم يبق في المدرسة إلا قليلا ، ومع أن لأساتذة رشيد فضلا كبيرا عليه لا ينكر ، نراه يكسب الكثير من معارفه ومعلوماته بقراءاته الشخصية." ^{٢٤٨}

اكتسب السيد رشيد رضا خبرة عظيمة من طول مصاحبته للكتب ، وتنوع مطالعاته وتشعب مناحيها ، فكان يقسم المؤلفات إلى قسمين ؛ مؤلفات ذات طابع جمعي ، فليس للمؤلف فيها سوى حظه من اختيارها وترتيبها وخدمتها بالشرح والتعليق ونحو ذلك ، ومؤلفات مبتكرة ومبتدعة ومن بنات أفكار مؤلفيها ، فهي إضافة حقيقية إلى المكتبة الإسلامية ، لا يمكن الاستغناء عنها بغيرها ، ومن الكتب التي جعلها من القسم الثاني إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ومقدمة ابن خلدون ، والمواقف للشاطبي. يقول معلقا على ما نقله من التاج السبكي من أن كثرة التأليف في الزمن القليل يعد نوعا من أنواع الكرامات : " ولكننا نقول : إنها همة الرجال ، تجعل الوقت كالمادة المرنة القابلة للتمدد أضعاف مساحتها ، على أن أكثر تأليف

^{٢٤٦} - المنار والأزهر : ١٤٥

^{٢٤٧} - رشيد رضا صاحب المنار : ٦٥

^{٢٤٨} - السابق : ٢٧٣

العلماء في تلك القرون المتوسطة كانت من قبيل النسخ ، لأن كل واحد ينقل عن من قبله ، فيختصر أو يطيل ، ويضيف إلى القول أقوالا ولو من غير الفن الذي يؤلف فيه ، وليس بين أيدينا من الكتب العربية التي يصح أن يقال : إن ما فيها نابع من صدور مؤلفيها ، وفائض من سماء عقولهم ، إلا العدد القليل كإحياء العلوم وكالموافقات والاعتصام للعلامة الشاطبي ومقدمة ابن خلدون وغيرها.^{٢٤٩}

ثقافته العصرية

أتيح للسيد أن يفتح على الثقافة العصرية من خلال مجلة العروة الوثقى ومن خلال جرائد وصحف الإرساليات التبشيرية التي كان كثير التردد على مكنتاتها ، فقويت رغبته في الاطلاع على العلوم العصرية ، وأولى اهتماما ملموسا إلى تحقيق هذه الرغبة ، إذ نجده يعكف على دراسة بعض الكتب العلمية مع صديقه الشيخ محمد كامل الرافعي مثل كتاب " النقش على الحجر " للدكتور فانديك ، وهو كتاب في مبادئ العلوم ، ثم وسع من مدارسته ومطالعه في الكتب العلمية والثقافة العصرية ، فكان من الكتب التي طالعها : أصول الطب الشرعي لجاي وفريير ، والتربية الاستقلالية لألفونس ، وروح الاجتماع لغوستاف لويون ، وسر تقدم الإنجليز لفتحي زغلول ، كما كان يتابع ويلازم قراءة بعض المجلات العلمية والثقافية مثل مجلة الطبيب ، ومجلة المقتطف.^{٢٥٠}

أظهر السيد رشيد اهتماما خاصا بعلم التربية والاجتماع ، وكان لمداومته قراءة مقدمة ابن خلدون أثر بارز في هذا الاهتمام ، فكان يكتب سلسلة مقالات تربية في مجلة المنار ، ويبدل جهدا كبيرا في إصلاح المدارس والنظام التعليمي الإسلامي ، بتبني الأسس التربوية العصرية ، مع المحافظة على القيم والمسلمات الإسلامية ، وقد أشار في العدد الأول من مجلة "المنار" إلى أن الغرض الأول من إنشائها "هو الحث على تربية البنات والبنين .. والترغيب في تحصيل العلوم والفنون .. وإصلاح كتب العلم وطريقة التعليم ، والتنشيط على مجارة الأمم المتمدنة في

^{٢٤٩} - المنار: ٣/١٤/٣٢٢

^{٢٥٠} - السابق: ١٣/١٤/١١٣

الأعمال النافعة ، وطرق أبواب الكسب والاقتصاد ، وشرح الدخائل التي مزجت عقائد الأمة ، والأخلاق الرديئة التي أفسدت الكثير من عوائدها ، والتعاليم الخادعة التي لبست الغي بالرشاد.^{٢٥١}

كان رشيد رضا شديد الحرص على متابعة ما يصدر في الغرب من البحوث العلمية والابتكارات التقنية ، والكتب الثقافية ، وما يتوصل إليه علماء الغرب من الاكتشافات في شتى المجالات ، وكذلك جهود علماء الاستشراق وما ينشرونه من البحوث عن الإسلام وحضارته ، كما كان يشجع حركة الترجمة التي تستهدف تراث الغرب ، ونتاجه العلمي والفكري ، ويتيح لها مساحات واسعة في مجلته ، بعد تقريظ إصداراتها ، وتقديم المسهمين فيها بأحسن النعوت وأفضل الصفات ، تقديرا لجهودهم ، وتشجيعا لنشاطهم الذي تشتد إليه حاجة المثقفين المسلمين في نظر رشيد ، فكان له ما أراد ، وأصبحت "المنار" موئلا للباحثين والكتاب كما يشير إليه هذا المقتبس:

"حضرة الأستاذ الفاضل صاحب مجلة (المنار) المفيدة : لما رأيت أن مجلتكم التي هي مجنى الفوائد العلمية وملتقى الشوارد الحكيمة قد وسعت في صفحاتها مكاناً لنشر ما يختص بالتربية والتعليم ، ورأيتكم تنتقون من ذلك أقوم الطرق وأجلها أنراً - رجوت أن تتفضلوا عليّ بتخصيص موضع وإن صغيراً منها أقدم فيه لقراء هذه المجلة كتاباً جليلاً في التربية العملية ، أنا مشتغل بنقله من الفرنسية إلى العربية ، وأود نشره فيها تبعاً ، الكتاب من تصنيف الحكيم المرابي ألفونس أسكيروس سماه (أميل القرن التاسع عشر) عارض به الحكيم الشهير جان جاك روسو ، في كتابه المؤلف في التربية المسمى (أميل القرن الثامن عشر)."^{٢٥٢}

عندما أنشأ رشيد رضا مجلة المنار ، أوضح أن الهدف منها هو المضي في طريق مجلة العروة الوثقى ، التي كان يحررها من باريس أستاذه محمد عبده بإشراف وتوجيه موقظ الشرق السيد جمال الدين الأفغاني ، وكان من أولى أهدافها محاربة الاستعمار والاستبداد السياسي في الدول الإسلامية وحث المسلمين على إقبال علوم ومنجزات الحضارة الغربية ، ودفع الشبهات التي تثار حول موقف الإسلام من العلم

^{٢٥١} - المنار: ١٠/١/١
^{٢٥٢} - السابق: ٤٨٩/٣١/٢

والنظم المدنية المعاصرة ، وأنه موقف يتصف بالسلبية والجمود وكان التكوين الثقافي للثلاثة ؛ الأفغاني وعبدو رضا رضا متماثلا ومتشابهها ، فكلهم نشأوا نشأة علمية عمادها الثقافة الإسلامية ، ثم عالجوا أنفسهم بالثقافة العصرية بجهودهم الذاتية ، وقد تمكن كل من الأفغاني وعبدو على الكبر من تعلم اللغة الفرنسية ما يمكنهما من الاطلاع بها ، وأما رشيد رضا فقد أتاحت له فرصة تعلم الفرنسية في المرحلة الابتدائية فلم يهتم بها ، لأن ذلك كان قبل أن يطلع على الثقافة العصرية ، ويقف على أهمية اللغات الحية للدعاة والمصلحين ، وندم على تفويته لتلك الفرصة في الصغر ، ولم يشغل بها نفسه عند الكبر ، كما فعل أستاذه.^{٢٥٣}

زعم بعض الباحثين أن رشيدا لم يهتم بغير الثقافة الإسلامية ، وشاهد ذلك عندهم عدم معرفته لأي من اللغات الأجنبية التي تطل به على مصادر الثقافات غير الإسلامية فيقول : " لعلنا لا نعلم الشيخ رشيد رضا إذا اعتبرنا أن المصادر الأساسية لثقافته انحصرت في الموروث العربي الإسلامي فهو لم يحفل كثيرا بأن يكون على إلمام كاف بالثقافات الأخرى ، وبخاصة ثقافة الغرب ، ويمكن أن نعزو ذلك ، ليس لعدم وجود رغبة عند الشيخ في التبحر والتعمق في هذه الثقافات ، وإنما لعدم وجود الأداة المتمثلة باللغة.^{٢٥٤} " وقد وصفه العقاد كذلك بأنه لم يكن يعنى بالمعارف العصرية.^{٢٥٥} وهذا غريب من الأستاذ عباس العقاد ، وتبرير غير لازم من الدكتور سمير أبو حمدان ، لأن شهرة رشيد رضا في غزارة النتاج طبقت الآفاق ولم يكن رشيد رضا شيخا قابعا في زاوية مسجد ، يستمد شهرته من اجترار الكتب الصفراء واستصفاء مؤلفاته العديدة منها ، وإنما كان رجل إصلاح ينازل الأفكار المعاصرة ، في مجال الدين والاجتماع والسياسة والتربية والتاريخ ، فيحسن البلاء في الدفاع عن الإسلام والعروبة في جميع المجالات ، فكيف تأتي ذلك لإنسان لا فقه له في ثقافة الخصم !

^{٢٥٣} - تاريخ الأستاذ: ٤٣/١

^{٢٥٤} - الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل: سمير أبو حمدان ، الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب

العالمي ، ١٩٩٢م ، ص ١٩

^{٢٥٥} - رشيد رضا صاحب المنار ، ص ١٨٣ ، المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ العقاد: ٥٤٧/١٧

وأما أن يكون عدم معرفة رشيد لغة أجنبية سببا في نفي معرفة ثقافة غير الثقافة الإسلامية عنه ، فذلك سبب ضعيف ، وعلّة واهية ، نعم هذا عائق ولكنه عائق وعقبة تعيق الكسالى ، ضعيفي الهمة محدودي الطموح ، الذين يستسلمون لأوهى الأسباب ، والسيد رشيد رضا ليس من هذا القبيل ، ولا يشاكل طبعه ذلك الطبع ، ثم إن الاطلاع على ثقافة الغير بالنسبة لعالم في علم من العلوم ليس أمرا يستعصي عليه ، إذا صرف همه إليه ، وصح منه العزم على تحقيق رغبته.

لا أحد يستهين بأهمية معرفة إحدى اللغات الأوروبية ، وخاصة الإنجليزية أو الفرنسية لمن يتصدى لخدمة دينه ، في عصر يسود فيه أهل هذه اللغات ، وتهيمن عليه حضارتهم وثقافتهم ، ويسعون إلى فرض سيطرتهم العسكرية والفكرية على الشعوب المستضعفة ، وهذا ما يصرح به أستاذ رشيد الشيخ محمده عبده حيث يقول : " ثم إن الذي زادني تعلقا بتعلم لغة أوربية هو أنني وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعي أنه على شيء من العلم ، يتمكن به من خدمة أمته ، ويقتدر به على الدفاع من مصالحها كما ينبغي ، إلا إذا كان يعرف لغة أوربية ، كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين في جميع أقطار الأرض ، وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو الخلاص من شر الشرار منهم." ^{٢٥٦}

ولكننا ننكر ما ذهب إليه البعض من أن السيد رشيد رضا كان قصير الباع في الثقافة العامة ، محدود المعرفة بالعلوم العصرية ، لأنه لم يكن على دراية بشيء من اللغات الأوربية.

إن الذي يدرس سيرة السيد رشيد رضا ، ويقف على ما خلفه من البحوث القيمة في المجالات المختلفة ليشهد له رسوخ قدمه في ثقافة عصره ، وعمق فهمه للمشكلات التي تواجه العالم أجمع ، وإحاطته بالمكر الأوربي وكيدهم للإسلام وأهله ، وقد أحسن النصح لأمته ، ودافع عنها وعن قيمها وحضارتها بأبلغ الجج وأنصع الأدلة.

إن رشيد رضا الذي أنشأ "المنار" قد نصب نفسه من أول يوم رائدا ومرشدا للعالم الإسلامي في شتى المجالات ، لأن من محرر مجلة أنشئت للإصلاح المبني على التوفيق بين التعارض المزعوم بين التعاليم الإسلامية المقدسة والمعطيات العلمية الصحيحة ، بعلم وبصيرة ، وخبرة ودراية ، ويروم إيقاظ المسلمين الغافلين ، وفتح أعينهم على الإنجازات الهائلة للحضارة الغربية ، والفجوة السحيقة التي تفصلهم عن خصومهم ، وجعلهم يتابعون الاكتشافات العلمية ، والابتكارات التقنية ، وتجارب الأمم المتقدمة ، ويقدمها إلى قرائه بأسلوب يناسب مداركهم ، ولا يجافي أذواقهم ، ولا يصطدم بالمألوفات التي ورثوها ، والمسلمات التي فطروا عليها ، لخليق ألا يقل زاده في الثقافة المعاصرة ، ولو كان الأمر كذلك لما كان لمجلته ذلك الصدى ، لأن فاقده الشيء لا يعطيه.

كان رشيد رضا صحفيا ، وطبيعة الصحفي تقتضي تنوع الثقافة ، ويصدق في حقه ما قاله بعض العلماء قديما في الأديب : من أراد أن يكون أديبا فليتوسع في الثقافة.^{٢٥٧} وكان رشيد مفتيا ، ومن صفات المفتي الجيد الرسوخ في العلم ، مع الإمام الكافي بحالة العصر ، حتى تكون فتاواه منسجمة مع روح العصر وواقع الأمة ، وكان رشيد داعية ، ومن صفات الداعية الناجح مراعاة مقتضى حال المدعوين ، وكان رشيد مصلحا ، ومهمة المصلح أصعب وأشمل ، وقد اقتحم رشيد كل هذه المجالات فلم يعثر لجواده كبوة ولا لسيفه نبوة ، بل شهد له المنصفون بالكفاية العلمية والثقافية ، وهذا شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي يقول في تأبينه : "وقد كان فقيده الإسلام السيد محمد رشيد رضا محيطاً بعلوم القرآن وقد رزقه الله عقلاً راجحاً في فهمه ، ومعرفة أسرارهِ وحكمه ، واسع الاطلاع على السنة ، وأقضية الصحابة وآراء العلماء ، عارفاً بأحوال المجتمع ، والأدوار التي مر بها التاريخ الإسلامي ، وكان شديد الإحاطة بما في العصر الذي يعيش فيه ، خبيراً بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية ، ملماً بما في العالم من بحوث جديدة ، وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الأديان ؛ فهو ممن أوتي الحكمة ، وورق الخير

^{٢٥٧} - العمدة في محاسن الشعر وآدابه: لابن رشيق ، قدم له وشرحه وفهرسه د.صلاح الدين الهراوي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ٣٢٨/١

الكثير".^{٢٥٨} ويقول تشارلز آدمز فيه: "وتدل كتاباته أيضا على إمامه ببعض العلوم الحديثة التي يجيد الانتفاع بها في تأويل الإسلام ، وفي الدفاع عنه".^{٢٥٩} ولعل في هاتين الشهادتين من عالمين أحدهما من أهل ملته ، والآخر من غير أهل ملته - إضافة إلى ما ذكرنا - ما يكفي للتدليل على ما زعمنا لرشيد رضا من قوة ثقافته العصرية.

مكانته العلمية

استوفى رشيد رضا تكوينه العلمي في وطنه ، وأخذ من شيوخه الإجازات العلمية ، وشهادات الإذن في التدريس في كثير من فروع العلم وفنونه ، وبرز من بين أقرانه بالجد والاجتهاد في تحصيل شوارد العلم وأوابده ، وسما وهو شاب يافع إلى مراتب أفاض العلماء ، وأكابر الشيوخ ثم ارتفع عنهم إلى مصاف المحققين وكبار المصلحين ، فجمع بين العلم والعمل والجهاد ، ولم يفل من عزمته في إصلاح المجتمع ما واجهه من التثبيط والخذلان من بعض شيوخه الحريصين على مراعاة تقاليد المجتمع ، ويتحاشون الخروج على المؤلف ، كما أنه لم يأبه بتطاول السفهاء عليه وعلى دعوته ، ولا بإرجاف أرباب السلطة وأصحاب الجاه ، ومضي في سبيل كفاحه لإنقاذ أمته من براثن الجهل والخرافات ، فكتب الله لدعوته القبول وبارك في جهده ، وأراه ثمار سعيه ، فأصبح - ولما يزل في وطنه - إماما يقتدى به ومرجعاً يرجع إليه في شئون الدين والإصلاح الاجتماعي.

ثم اطلع رشيد على فكر مدرسة "العروة الوثقى" عن طريق مجلتها ففتحت له أفقا جديدة ، حيث بصرت بواقع المسلمين في العالم ، والأمراض التي تفتك به والأخطار التي تحيط به من كل جانب ، والمسئوليات الجسام التي على عاتق الدعاة والمصلحين ، فغيرت بذلك مجرى تفكيره ، وانقلب من حال إلى حال أخرى كما يقول: " ثم اتفق لي أن كنت أقلب أوراق والدي (رحمه الله تعالى) فرأيت عددين من جريدة العروة الوثقى ، فقرأتها بشوق ولذة ، ففعلا في نفسي فعل السحر ، فطفقت أبحث

^{٢٥٨} - المنار: ١٧٢/٣/٣٥

^{٢٥٩} - الإسلام والتجديد في مصر: تشارلز آدمز ، ص ١٧٢

عن سائر الأعداد ، فوجدت بعضها عند والدي ، ووجدت الباقي عند الشيخ حسين الجسر الطرابلسي ، فاستنسخت الجميع ، وقرأته المرة بعد الأخرى ، فانتقلت بذلك إلى طريق جديد في فهم الدين الإسلامي ، وهو أنه ليس روحانياً أخروبياً فقط ، بل هو دين روحاني جسماني أخروي دنيوي ، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق ، ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل ، وأحدث لي هذا الفهم الجديد في الإسلام رأياً فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين ، فقد كان همي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ونهيمهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات ، وتزهيدهم في الدنيا .. فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية ، والمحافظة على ملكهم ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة ، فطفقت أستعد لذلك استعداداً. " ٢٦٠

قاد هذا الاستعداد إلى الهجرة إلى مصر ، والاتحاق بأحد قطبي هذه المدرسة الفريدة ، التي استلهم من مشكاتها رؤيته الجديدة ، واستوحى منها فهمه الجديد للإصلاح الإسلامي ، ليكون عمله وجهاده على سماع منه وبصر ، ولما خبر الشيخ محمد عبده تلميذه ومريده ، وجده فيه قبساً من روحه ، فقد أجاب لمن لأمه على تفضيله وتقديمه على من هو أسبق منه صحبة وأقرب منه رحماً : " إن هذا الرجل متحد معي في العقيدة والفكر والرأي والخلق والعمل. " ٢٦١ وكان يماثله أيضاً في البيان والفصاحة والعلم ، فلا يجد عليه مأخذاً فيما يعرض عليه من منشآت في التفسير ومجلة المنار ، وفيما يكلفه الأستاذ الإمام من الموضوعات التي تعنّ له أو تعرض عليه. وفي ذلك يقول الأستاذ : " وإذا ذكرت له موضوعاً ليكتب فيه فإنه يكتبه كما أحب ، ويقول ما كنت أريد أن أقول ، وإذا قلت له شيئاً مجملاً بسطه بما أرّضيه من البيان والتفصيل ، فهو يتم ما بدأت ويفصل ما أجملت. " ٢٦٢ وهذا أوضح دليل على علو مكانة رشيد في العلم ، ورسوخ قدمه في البيان ، وأي شهادة تعادل شهادة الإمام محمد عبده الذي قال فيه العقاد : " إنه أعظم مسلم بعد نبي الإسلام في هذا العصر الحديث ، ثم لا ننتظر أن يذكر المخالفون اسماً آخر هو

٢٦٠ - تاريخ الأستاذ: ٨٤/١

٢٦١ - تاريخ الأستاذ: ٥٨٦/١

٢٦٢ - السابق: ١٠١٨/١

أولى من اسم محمد عبده بالذكر في هذا المقام." ^{٢٦٣} ولما خلا الجو من الشيخ محمد عبده ، بانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، لم يوجد من بين تلاميذه من هو أولى بخلافته من السيد رشيد رضا ، على كثرتهم وتنوع مشاربهم ، وفحولة كثير منهم في مجالات تخصصهم ، غير أن رشيدا جمع من صفات الإمامة والخلافة ما لم يضارعه فيها أحد ، وهذا ما انتهى إلى تقريره الدكتور أحمد الشرباصي عند مناقشته لهذه المسألة ، حيث قال بعد أن استعرض عدة مرشحين لهذا المنصب: "وقد يمكن التوفيق بين الرأيين بأن نقول إن رشيدا كان "خليفة الإمام" في المجالات الدينية والعلمية والأدبية ، وأن أحمد لطفي السيد كان خليفة له في نضاله الوطني والاجتماعي ، ومع هذا أرى أن صاحب المنار أولى من غيره بلقب "خليفة الإمام" وقد قلت هذا الرأي ونشرته منذ سنوات." ^{٢٦٤}

وكما برز رشيد أساتذته في طرابلس ، وفاقهم في التزلُّع من العلوم الإسلامية ، كذلك يفضله بعض الباحثين على شيخه محمد عبده ، وملهمه السيد جمال الدين الأفغاني في العلوم الإسلامية النقلية. يقول أمير البيان شكيب أرسلان: "وهو وإن كان لا يسامي جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في العلوم العقلية على قوته فيها ، فإنه كان يفوقهما في العلوم النقلية .. وقد سبق السيد أستاذيه العظيمين في مزية الكتابة وفيض القلم." ^{٢٦٥}

ومما لا شك فيه أن نشاط رشيد المفرط في الكتابة والدعوة والإصلاح والفتيا والتعليم ، وفي غيرها من المجالات المختلفة ، قد أكسبته شهرة واسعة: "ولم تنحصر شهرته في العالم الإسلامي ، بل عرفت الأمم الأخرى مكانه في الأمة الإسلامية ، وعلمت أنه من المصلحين الكبار والمجددين المشهورين في الأقطار وأن رأيه يعول عليه ، ويؤخذ به ، وأنه لا ينازعه منازع في رئاسته الشرعية مع زعامته العقلية ، فكان المستشرقون يشيرون دائما إليه ، وينوهون بأرائه عندما يدور الكلام على الإسلام العصري ، ويحصل الأخذ والرد في منزع التجديد ضمن دائرة العقيدة." ^{٢٦٦}

^{٢٦٣} - رشيد رضا صاحب المنار: ٢٥٧

^{٢٦٤} - السابق: ٢٧١

^{٢٦٥} - السيد رشيد رضا: ٢٥٥

^{٢٦٦} - السيد رشيد رضا: ٢٥٥

إن حسن بلاء رشيد رضا في الإصلاح الإسلامي ، وخدمة الملة والدفاع عن الأمة وعن قيمها وموروثها الحضاري من أعدائها في الخارج والداخل دفع بعض العلماء الأجلاء إلى اعتباره من المجددين في هذا العصر ، ومنهم الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الذي قال فيه : " من الحق أن نعد السيد رشيدا من المجددين ، وأن نعدده من المجاهدين في إحياء السنة. " ^{٢٦٧} لأن من صفات المجدد أن يكون ذا أثر عميق يحدث تغيرا ملموسا في مجتمع ما ، سواء أكان هذا التغيير والتأثير مقصورا في ناحية من نواحي المجتمع أم كان عاما وشاملا ، وقد كان رشيد بمجلته منارا يهتدي به ، ويلجأ إليه المسلمون في شتى الأقطار ؛ يسألونه عما أشكل عليهم من أمور دينهم ، ويشكون إليه من معرة الاستعمار ، ومعاناتهم من استكباره العسكري والفكري فيسعى بما أوتي من جهد فكري وأدبي وقبول حسن لدى المسلمين أن يلبي ما أمكن من حاجات المسلمين ، ثم إنه أقام معالم مدرسة فكرية إسلامية ، قادت مسيرة العمل الإسلامي على منهاج السلف الصالح كما سيأتي في المطلب الثالث.

ومما يدل على مكانة السيد العلمية أنه ربي وخرج في مدرسته "دار الدعوة والإرشاد" بمصر التي لم تستمر طويلا طائفة من أفاضل العلماء ، تبوءوا مناصب عالية ومنابر علمية عريقة ، ومن هؤلاء فضيلة الشيخ أبو السمح الشيخ عبد الظاهر محمد ، إمام وخطيب الحرم المكي ، ومنشئ مدرسة دار الحديث في مكة المكرمة ، ومنهم الزعيم المجاهد مفتي الديار القدسية السيد أمين الحسيني ، الذي انتهت إليه الزعامة الدينية والسياسية في فلسطين ، ومنهم الشيخ يوسف ياسين ، أمير سر جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ، ملك المملكة العربية السعودية ، ومنهم الشيخ عبد الرزاق المليح آبادي ، صاحب المؤلفات ، والصحافي المشهور في الهند ، ومنهم الشيخ محمد بسيوني عمران من أهل جاوة باندونوسيا ، صاحب الجهود المهدودة في الدعوة والتعليم ، ومنهم الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة والشيخ عبد السميع البطل من علماء مصر ، وغيرهم ممن نفخ فيهم السيد من روحه ، وصنعهم على عينه ^{٢٦٨}

^{٢٦٧} - المنار: ١٨٧/٣/٣٥

^{٢٦٨} - المنار: ٧٠٥/٩/٣٥

ولو قدر لمدرسة دار الدعوة والإرشاد الاستمرار كما كان يرجو رشيد ، لكان بلاؤها
أعظم وخيرها أعم .

المطلب الثالث : حياته الفكرية

قال شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي في خطبته في حفل تأبين السيد محمد رشيد رضا : " كان خصوم السيد ثلاث فرق : فريق الملحدين الذين لا يؤمنون بدين ، وفريق أهل الكتاب من غير المسلمين ، وفريق من المسلمين الذين جمدوا على أقوال الناس ، وابتعدوا عن معرفة السنن ، وعن هدي القرآن ، وقد جاهد هذه الفرق جميعا ، ولقي من الفريق الثالث أشد العنت وأشد المقاومة. " ٢٦٩

وينضاف إلى هذه الفرق الطرق الصوفية ، وعلى هذا تكون الفرق التي كان ينازلها أربعا وهي : الصوفية ، وأهل الجمود من الفقهاء ، والمتفرنجون ، والمبشرون ، الذين قدموا مع الاستعمار واستغلوا سلطته ، وإلى جانب هذه الفرق جالد رشيد الانحرافات والسلبيات الكثيرة التي كان المجتمع الإسلامي يئن تحت وطأتها الثقيلة.

موقفه من الصوفية

فأما المتصوفة فقد نشأ رشيد في حجرها ورضع من رقائقها ولطائفها ، ورتع في بساتين كتبها ورسائلها ، وانقطع فترة غير يسيرة إلى الاشتغال بسلوك دروبها ، حتى جنى ثمار ما كان يمارسه من خلال الرياضات ، وعرض له ما يعرض للسالكين والسائرين في مراقي تهذيب النفس ، وتزكية الروح من الأدواق الخاصة والتجليات غير العادية ، وتحدث عن كل ذلك بإسهاب في كتابه "أنا والأزهر" ٢٧٠

غير أنه لما اشتغل بعلم الحديث ، ووقف على ما في بعض الأوراد وأنواع الذكر التي يلتزم بها بعض أهل التصوف مما يخالف الكتاب والسنة تركه إلى الأدعية الشرعية المأثورة ، ثم أنكر على بعض الطرق الصوفية في بلده ما تمارسه في مناسباتها مما لا يجيزه الشرع ، حتى اشتهر بمواقفه المتحفظة بل المتشددة من أهل التصوف. ٢٧١ فلما هاجر إلى مصر ، ووقف على أحوال أهل التصوف فيه ، وما هم عليه من البدع الشنيعة ، والخرافات الفظيعة ، والاستهتار بالإسلام وشعائره ، حتى وصل الأمر إلى إقامة الحفلات والرقصات الدينية للسياح وفي بيوت

٢٦٩ - المنار: ١٨٦/٣/٣٥

٢٧٠ - السيد رشيد رضا: ٤٧-٧٨

٢٧١ - السابق: ٩٥

الدبلوماسيين الأوروبيين ، بل تحولت بعض المناسبات الدينية إلى مهرجانات تعرض فيها أنواع السلع والملذات ، ويجلب إليها كل ما يهواه الفساق والمجرمون من الحشيش والبغاء - لما رأى ذلك تعجب منه أشد العجب ، وهاله ما وصل إليه أمر هذه المنكرات التي تنسب إلى الدين ، فكان موضوع التصوف أول موضوع شغل به وناقشه مع شيخه الأستاذ محمد عبده.^{٢٧٢} وعندما شرع السيد رضا في الإصلاح ، وأصدر مجلة المنار أولى عناية كبيرة إلى التصوف ، وسعى إلى الإسهام في إصلاحه ، وبذل في ذلك جهودا كبيرة ، ولم يأت إلى بيت أهل التصوف في محاولة إصلاحه إلا من بابه ، عندما عرض مشروع إصلاح الطرق وأهل التصوف على شيخ مشايخ الطرق الصوفية ؛ الشيخ محمد توفيق البكري ، الذي استجاب إلى دعوته بعض الاستجابة ، بعد التسوية والمماثلة ، فلم يكن لما قام به أثر يذكر.^{٢٧٣} ورغم حملات الشيخ رشيد القاسية على الممارسات الخاطئة التي ترتكب باسم الإسلام من قبل بعض أهل التصوف كان رشيد يقدر للتصوف الصحيح حق قدره فيقول في تعريفه : " الصوفية في الإسلام طائفة انقطعوا إلى الزهد في الدنيا والعمل للأخرة ، برياضة النفس ، وتربية الإرادة ، والأخذ بالعزائم ومحاسبة النفس ، وحسن النية والمبالغة في العبادة ، وغايتهم الوصول إلى تجريد التوحيد ، وكمال المعرفة بالله تعالى." ^{٢٧٤}

ولم يكن ينازع ما للتصوف الصحيح من اثر حميد على تهذيب النفس وتركيتها وتطهيرها من الصفات الرذيلة ، والمنازع الشريرة ، وما تورثه هذه التزكية صاحبها من البصائر الإيمانية فيقول : "إن رياضة النفس ، والتدقيق في عيوبها والحرص على تركيتها وتكميلها ، يورث علما و عرفانا بسنن الله تعالى في الأرواح ، وأسرار قواها ، وأحوالا وأذواقا غريبة ، من أعمها الكشف ، وهو معرفة بعض الحقائق والوقائع من طريق الحس والفكر." ^{٢٧٥}

^{٢٧٢} - السيد رشيد رضا: ١٧١

^{٢٧٣} - تاريخ الأستاذ: ١٢٩/١

^{٢٧٤} - السابق: ١٢٢/١

^{٢٧٥} - السابق: ٢٢/١

وهكذا نجد رشيدا يقر بمجمل أحوال أهل التصوف ، وما ينسب إليهم من الكشف والأذواق الخاصة ، والتأثير بقوة الإرادة في بعض الأشياء مثل شفاء المرضى ، والتفرد ببعض الأحوال التي لا يحس ولا يشعر بها غيرهم ، ممن لم يسلك مسالكهم ، ولم يعالج أنفسهم بمثل ما عالجوها به من القهر والحبس على الطاعات ، وإماتة الرغبات والغرائز ، بل يحكي رشيد مثل ذلك عن نفسه فيقول بعد حديثه عن ليلة أحيائها بالعبادة والطاعة والذكر: " فنزلت من الغرفة وكأنني ريشة طائر ، وشعرت بأنني لو ألقيت بنفسي من النافذة إلى الأرض لا أكون إلا كما تقع الريشة ، وأنه يمكنني المشي على الماء .. بل أعتقد حتى اليوم أنني لو تركت الطعام زمنا طويلا ، مع ملازمة مثل تلك الحال من الذكر والعلم الإلهي ، لقويت معي تلك الروحانية ، ووصلت إلى غاية ما يذكر عن الروحانيين.."^{٢٧٦}

ويؤكد رشيد رضا على أن الحكم العدل في التصوف والصوفية ، هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن أفضل التصوف وأشرف الزهد هو ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، وأن أقرب التصوف إلى سيرتهم ، وأشبه الزهد بطريقتهم ، هو تصوف وزهد أهل العلم ، الملتزمين بتعاليم الإسلام ، والمهتدين بهدي القرآن والسنة ، ويخلص رشيد من جهوده في إصلاح التصوف الإسلامي ، إلى أن الإصلاح الحقيقي في هذا المجال ، لا يرجى ولا يتحقق إلا على يد "من جمع بين العلم الصحيح والتقوى والإخلاص وقوة التأثير بالكلام وبالإرادة وهيات أن يتفق وجود أفراد من هؤلاء اتفاقا ، وإنما يوجد في كل عدة قرون منهم واحد." ^{٢٧٧} وهذا لا يعنى اليأس من الإصلاح المنشود ، بل على المصلحين أن يسعوا إلى إيجاد المرين الأكفاء عن طريق التربية الخاصة الهادفة.

^{٢٧٦} - السيد رشيد رضا: ٦٠

^{٢٧٧} - تاريخ الأستاذ: ١٣٠/١

موقفه من العلماء التقليديين

والى جانب الطرق الصوفية يعنى رشيد بإصلاح ثغرة أخرى من ثغور الإسلام الخطيرة ، التي أصيبت بخلل فادح ، وتسربت منها أفكار وتصورات ، كادت تعصف بالمفاهيم الإسلامية الأصيلة ، وهذه الثغرة هي ثغرة العلماء التقليديين ، وحملة العلم والثقافة الإسلامية النقلية والعقلية ، ممن يتصدرون مجالس العلم ، ويسيطرون على المؤسسات الدينية المختلفة في طول العالم الإسلامي وعرضه ، فقد أصبحت هذه الفئة عقبة كئودا في طريق الإصلاح الإسلامي ، إلى جانب تحملها الجزء الأكبر ، فيما آلت إليه الأمة الإسلامية من التخلف والانحسار ثم وقوعها فريسة سهلة ، ولقمة سائغة في أيدي أعدائها ، وذلك لقعودهم عما أناط الله بهم من تجديد الدين ، ونفي الخبث عنه ، وبذل النصح للمسلمين رعية ورعاة فيما يستجد لهم من النوازل بتجدد الزمان ، وما ينشأ من العوارض والمشاكل بسبب تطور العمران البشري ، ولكنهم ركدوا مع الراكدين ، وجمدوا على ما ورثوه من عصور النشاط الفكري الإسلامي ، التي تكونت فيها المذاهب الفقهية والكلامية ، التي يتشبثون بها ، ويزعمون أن مخالفتها ولو بدليل يفضي إلى الإثم والضلال : "حتى انتهى حال بعض حملة العمام وسكنة الأثواب العباغب إلى أن يقول : إن من يهتدي بالكتاب والسنة ، من دون كتب المذاهب الفقهية والكلامية ، فهو زنديق."^{٢٧٨} فحجروا واسعا ، وقيدوا الأفهام عن الإدراك ، وعطلوا العقول عن التفكير والتدبر ، وشلوا حركة العلم الإسلامي ، عن مسايرة واقع الناس ، وحالوا في النهاية بين المسلمين وبين العمل بالشريعة الإسلامية السمحاء ، والنقيد بتعاليم دينهم الحنيف في شئونهم الحياتية ، برفضهم أعمال الإسلام في واقع الأمة ، الذي لا تنطبق عليه ، ولا تتسجم معه الفروع الفقهية القديمة ، التي وضعت في عصور الاجتهاد ، فألجئوا الحكام إلى استيراد القوانين الأوربية الوضعية ، حدث ذلك ، عندما طلب الخديوي إسماعيل باشا من علماء الأزهر ، وضع قانون في الحقوق والواجبات ، وفق الشريعة الإسلامية على أسلوب وطريقة العصر من حيث السهولة والترتيب ، فرفضوا ذلك ، وعدوه خروجا على المألوف في التأليف الفقهي ، الذي لا تجوز مخالفته بتاتا ، " وكان

رفضهم هذا الطلب ، هو السبب في إنشاء المحاكم الأهلية ، واعتماد الحكومة فيها على قوانين فرنسا ، وإلزام الحكام بترك شريعتهم ، وحرمانهم من فوائدها .. ولولا جمود أهل النفوذ من علماء الأزهر ، لكانت هذه المحاكم شرعية.^{٢٧٩} وكما رفض العلماء التقليديون وضع قانون مستمد من الشريعة الإسلامية ، كذلك رفضوا إصلاح التعليم ، وتطوير المناهج في المؤسسات الإسلامية التعليمية ، وتضمينها بالعلوم العصرية ، وقد بذل رشيد رضا ، مع شيخه محمد عبده جهدا كبيرا في إقناع علماء الأزهر بإصلاح هذه المؤسسة العريقة التي يأتي إليها الطلاب من أنحاء العالم الإسلامي ، ولكنهما لم يفلحا في ذلك ، واستقال محمد عبده من عضوية مجلس الأزهر ، وبقي الأزهر كما كان مستعصيا على التطوير والإصلاح ، حتى تجاوزته الجامعات الحديثة التي نشأت بعده ، وسدت مسده في تلبية متطلبات البلد في التعليم الجامعي المعاصر.^{٢٨٠}

وكثيرا ما كانت تتشب فتن ، وتثور خلافات ، بسبب العصبية المذهبية ، فتفرق الصف ، وتصدع الوحدة ، وتورث البغضاء والشحناء ، وتذهب ربح وقوة المسلمين ، بما لا طائل تحته من المسائل والفروع الفقهية ، وهذا أضر على المسلمين ، من الضرر الذي يلحقهم من أذى أعدائهم ، من المبشرين والملاحدة ، لأن عداوة هذين معروفة ، وكيدهم متوقع ، والانتصاف منهم ممكن ، بفضح دسائسهم ، ونقض مكائدهم بالحجة والبرهان ، وأما "الانتصار على أولئك بآيات كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وسيرة السلف الصالح ، فلا يقبله إلا من أوتي من سلامة الفطرة ، واستقلال الفكر ما كان به ممن قال الله تعالى فيهم (قَبِشْرُ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) ^{٢٨١} ولا يزال أكثر طلاب العلوم الشرعية على الطريقة التقليدية ، يطلبون معرفة الحق بشهرة قائله ، أو سعة جيبته وشكل عمامته ، أو بلقبه الوهمي أو بمنصبه الرسمي ، وهم ينفرون من الدليل ومن صاحبه ، ويسبئون الظن به." ^{٢٨٢}

^{٢٧٩} - المنار: ٢١٢/٦/٧

^{٢٨٠} - تاريخ الأستاذ: ٥٤٩/١

^{٢٨١} - سورة الزمر: ١٧-١٨

^{٢٨٢} - المنار: ٣/١/٣١

ويعزو رشيد نفرة هؤلاء العلماء ، من دعوة التجديد والإصلاح إلى أمرين: أولهما خوفهم من أن تؤدي هذه الدعوة إلى الاستقلال في فهم الدين ، إلى الخروج على المذاهب الفقهية المتبعة ، ولا ضرر أكبر من هذا في نظرهم . والأمر الثاني: هو أن التجديد المنشود لو تم ، فسيؤدي إلى حرمانهم من الزعامة الدينية ، لعدم استعدادهم للنهوض به ، وقصور أهليتهم عن تحمله. ويحمد رشيد لهؤلاء العلماء المنعوتين بالجمود ، أنهم رغم مقاومتهم ورفضهم لدعوات الإصلاح والتجديد ، فإن الأمر لم يصل بهم أو بالكبار المعترين منهم إلى الرد الأدبي ؛ بوضع مؤلفات تتقضى ما يدعو إليه المصلحون ، لأنهم يعلمون أنها دعوة حق ، وإنما يماطلون في قبولها للاعتبارات السابقة. ويحاول رشيد رضا تبديد مخاوف هؤلاء ، وأن الإصلاح لا يستهدف المذاهب ولا يسعى إلى إلغائها أو استبدال غيرها بها ، فيقول : "وأذكرهم بما بينته مرارا ، من التفرقة بين الاجتهاد المطلق بوضع مذهب جديد والاستقلال في العلم واتباع مذهب السلف في هداية الدين." ^{٢٨٣} غير أن الذي لا مندوحة عن التسليم به هو أن الإصلاح وتغيير واقع المسلمين الأليم ، لا يتم "إلا بإغلاق باب التقليد الأعمى ، وفتح باب النظر والاستدلال" ^{٢٨٤} وليس كما يتوهم الواهمون ، بخروج المهدي المنتظر ، الذي كثر الافتتان بشأنه. ^{٢٨٥}

موقفه من دعاة التغريب

وكانت الطائفة الثالثة من طوائف الإسلام ، التي حادت عن الطريق ، وتكبت عن الصراط السوي ، دعاة التغريب ، وكان رشيد رضا يسميهم "المتفرنجة" ، فهؤلاء آمنوا بالتجربة الأوربية ، ونادوا باقتباسها وتطبيقها بحذافيرها ، ونبذ كل الموروث الإسلامي ، لأنه في نظرهم ، عفا عليه الزمن ولم يعد صالحا في عصر العلم التجريبي ، وسيادة العقل ، وهؤلاء ليسوا سواء في دعوتهم ، ولا طبقة واحدة في موقفهم من الإسلام ، فمنهم الملحدون المنسلخون عن الإسلام ، المنكرون لأصوله وأساسه ومبادئه ، المعلومة من الدين بالضرورة ، ومنهم قوم دون ذلك ، ولكن عميت

^{٢٨٣} - المنار: ٤/١/٣١

^{٢٨٤} - الوحدة الإسلامية: السيد محمد رشيد رضا ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، ص ١١

^{٢٨٥} - المنار: ٥٦١/٣٦/٢

بصائرهم بالانبهار بالحضارة الغربية ، وتغيرت فطرتهم بالتربية الغربية المسمومة التي تلقوها ، واهتزت قناعاتهم بالنظم الإسلامية ، ومنهم من لا يدفع الإسلام ، ولا يشك في شيء من قطعياته ومحكماته بيد أنه يبالغ في التعاطي مع النظم الغربية الوضعية ، ويسرف في الأخذ عنها. ^{٢٨٦} فأثبت لهؤلاء جميعا بالحجة والمنطق أن "كل ما يحتاج إليه المسلمون من إصلاح وتجديد حضارة وملك متوقف فيهم على هدية القرآن وتنفيذ النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين (رض) له." ^{٢٨٧}

وكان على رشيد ، أن ينازل هؤلاء جميعا ، الذين لا يكتفون باعتقاد ما اختاروه واقتنعوا به ، بل ينشطون بوسائل كثيرة وفعالة ، وبدعم دول الاستعمار ودعاة التبشير ، إلى نشره وتعميمه وفرضه على الأمة الإسلامية ، كما يقول رشيد : "إن الحملة على الإسلام قد اشتدت في هذا العصر من خصومه في الداخل والخارج ، أعني من قبل دول الاستعمار ، ودعاة النصرانية ، وهم طلائعها وخدامها ، ومن أعوانهم وأنصارهم وتلاميذهم في البلاد الإسلامية نفسها .. من ملاحدة المسلمين .. الذين سممتهم التربية الإفرنجية ، وأفسدتهم الآراء المادية ، وخنثهم الإسراف في الشهوات." ^{٢٨٨} فكان يفند دعوات المبطلين منهم ، المتحاملين على الإسلام بدوافع مشبوهة ، وكان يجادل المتذرعين بسلاح العلم ، ويقارعهم بالحجة والبرهان ، كما كان يبصر المغرورين منهم بحقيقة الإسلام ، ويدلهم على موقفه المجيد من التجديد النافع والإصلاح الحقيقي الذي لا يعادي الفضيلة ، ولا القيم الإنسانية النبيلة وأنه لا تلازم بين التطور العلمي والفلسفة الإلحادية والإباحية. وجلا بكل وضوح موقف الإسلام من كل القضايا المثارة حوله ، وكل ما نسب إليه عن جهل أو ظلم وزور ، من السلبية تجاه العلم والتطور البشري ، وبين " أن الإسلام هو دين الفطرة والعقل والفكر والعلم والحكمة والبرهان والحجة والضمير والوجدان والحرية والاستقلال." ^{٢٨٩} وكل المعاني النبيلة والقيم الفاضلة ، وأنه محال أن يتناقض الإسلام أو يصادم أي فكر صحيح ، أو نظر سليم ، أو قضية علمية ثبتت

^{٢٨٦} - المنار : ٢/١/٣

^{٢٨٧} - الوحي المحمدي: السيد محمد رشيد رضا ، دار المنار ، الطبعة الخامسة ، ١٩٥٥ م ، ص ١٢

^{٢٨٨} - المنار: ٢/١/٣

^{٢٨٩} - تفسير المنار: السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، ٢٤٤/١١

صحتها ، " فإذا وصل بحث الباحثين في أمور الكون إلي حقيقة مخالفة لظاهر الوحي فيها ، وصار ذلك قطعيا ، وجب تأويل عبارة الوحي فيها ، بحملها على التجوز أو الكناية أو مراعاة العرف ، كغروب الشمس في العين أو البحر مثلا ، وتخطب الشيطان للمصروع في قول و نعتقد نحن معشر المسلمين ، أن مزايانا كتابنا أنه ليس فيه نص قطعي الدلالة يمكن أن ينقضه دليل عقلي أو علمي قطعي. " ٢٩٠

الإسلام دين البشرية الخالد ، أنزله العليم الخبير لهداية الإنسان إلى يوم الدين ، فلا تحده حدود الزمن ، ولا حدود القطر والإقليم ، وتعاليمه نوعان نوع يزكي النفس البشرية ، ويطهر روحها بمعرفة الله ، وما تتضمنه هذه المعرفة من أصول الإيمان ، وما تقتضيه من أنواع العبادات ، فهذا النوع من التعاليم تكفل به الوحي ، وفصله تفصيلا ، ولم يدع فيه مجالا للاجتهاد البشري . وأما النوع الثاني: فهو ما يتصل بحياة الناس في هذه الدنيا ، من تشريعات تنظم السلوك البشري ، وعلاقات بعضهم ببعض ، وما يرشد إلى المنافع المختلفة التي أوعها الله في هذا الكون ، الذي خلقه الله للإنسان ليعمره بطاعة الله ، فهذا النوع من التعاليم المقدسة فيه مجال واسع للعقل البشري ، بعد التقيد بما ورد فيه من الأصول والكليات ، وبعد رعاية مقاصد الشريعة. ٢٩١

يرفض السيد رشيد رضا ، مقارنة الإسلام بغيره من الأديان السماوية ، التي اطرحها أهلها ، وأزاحوا تعاليمها عن واقعهم ، وتحرروا من سلطان رجالها ، ويعذر رشيد هؤلاء في صنيعهم ، لأن الكنيسة بتعاليمها المحرفة ، وسلطة رجالها المطلقة ، قد جرّت على المجتمعات الأوروبية الولايات ، وسامتهم سوء العذاب ، فلا يلامون على ما فعلوا بالكنيسة وتعاليمها ، ولا يكذبون فيما يزعمون ، من إصابة التقدم بعد التخلص منها. أما أن يكون ذلك تبريرا لأهل الإسلام في ترك دينه ، وهجر كتابه إذا أرادوا النجاح والتقدم ، قياسا على حال أوربا مع دينها ، فهذا قياس مع الفارق ، وباطل من القول وزور ، فتعاليم الإسلام على خلاف تعاليم أديان أهل الكتاب خالدة سرمدية ، وعامة شاملة للناس كافة ، ومنزهة عن التحريف والتبديل والعبث البشري ،

٢٩٠ - المنار: ٥٨٣/٨/٢٨

٢٩١ - السابق: ٢/١/٣٠

وقائمة على اليسر والمرونة والعدل والرحمة وأمر المسلمين شورى بينهم فلا تسلط ولا استبداد باسم الدين ، وقد قيل للرسول صلى الله عليه وسلم (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)^{٢٩٢} و(فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ)^{٢٩٣} و(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)^{٢٩٤} و(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)^{٢٩٥} "فأين هذا كله من ملة يدعي رؤساؤها أنهم وكلاء الله في الأرض ؟ هل يقاس النقيض على النقيض ؟"^{٢٩٦} ويدعو رشيد المسلمين إلى الإفادة من منجزات الحضارة الأوروبية ، والاقْتباس - على بصيرة - من علومها وفنونها وصناعاتها ، وكل ما سبقت إليه من الرقي العلمي والتقني ، فيقول : "إننا في أشد الحاجة إلى الصناعات الإفرنجية وما تتوقف عليه من العلوم والفنون العملية ، وإلى الاعتبار بتاريخهم ، وأطوار حكوماتهم وجماعاتهم ، ولكن يجب أن يقوم باقتباس ذلك جماعات منا يجمعون بينه وبين حفظ مقوماتنا ومشخصاتنا ، وأركانها : اللغة ، والدين والشريعة والآداب ، فمن فقد شيئاً من هذه الأشياء فقد جزءاً من نفسه."^{٢٩٧}

جهوده في التجديد الإسلامي

كان رشيد أحد الأقطاب الثلاثة لمدرسة التجديد الإسلامي ، التي تزعمها السيد جمال الدين الأفغاني ، ونظر لها الشيخ محمد عبده ، ونشر أفكارها ومبادئها السيد رشيد رضا ، ولم يكن الثلاثة سواء ، بل كان عبده حلقة بعد الأفغاني ، ورشيد حلقة بعد عبده.^{٢٩٨} عني الأفغاني بمحاربة الاستعمار الأوروبي والاستبداد الإسلامي وعني عبده بالإصلاح التعليمي والتربوي ، كما عني رشيد بالإصلاح العقدي والتجديد الفقهي ، وكان القاسم المشترك بين الثلاثة ضرورة الاستناد إلى الشريعة الإسلامية في الإحياء الإسلامي المنشود ، وإمكانية الجمع بين المحافظة على المقومات الإسلامية ، وبين الإفادة من منجزات الحضارة الغربية.

^{٢٩٢} - سورة آل عمران: آية ١٥٩

^{٢٩٣} - سورة الغاشية: آية ٢١-٢٢

^{٢٩٤} - سورة الأنعام: آية ١٠٧

^{٢٩٥} - سورة ق: آية ٤٥

^{٢٩٦} - المنار: ٨٤٥/٢٢/٥

^{٢٩٧} - السابق: ٥/١/١٧

^{٢٩٨} - فلسفة المشروع الحضاري: ٣٨٧/١

كان رشيد رضا أكثر محافظة من شيخه ، وأقرب إلى مذهب السلف منهما وتخلص بحكم ثقافته الحديثة الواسعة ، وميله إلى أفكار مدرسة ابن تيمية فيما بعد من شوائب وحدة الوجود ، وأفكار الاعتزال ، ودسائس الماسونية وغيرها من السلبات ، التي لابتست المدرسة الإصلاحية الإسلامية إبان نشوئها وفي عهد الشيخين المؤسسين لها. ^{٢٩٩}

تزعّم رشيد المدرسة الإصلاحية الإسلامية ، في وقت شهد تطورات قاسية على الأمة الإسلامية ، وخير ما يستعار لوصف هذه الفترة قول الأستاذ محمد الخير عبد القادر : " وعندما تم القضاء على الثورة العرابية في مصر ١٨٨٢م وتوفي الأفغاني في سنة ١٨٩٧م وأطيح بالسلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٩م إثر انقلاب عسكري في الأستانة ، وأسقطت الخلافة الإسلامية في عام ١٩٢٤م خلا الجو لسلطات الاحتلال الأوروبي ، ومن سار في ركابها من دعاة "التغريب" ، للهجوم على التراث الإسلامي ، والتبشير بالفكر الغربي اللاتيني ، وتوجيه السياسة التعليمية ، وتسخير أدوات الإعلام في الأقطار الإسلامية لتحقيق أهداف السياسة الغربية." ^{٣٠٠} في هذه الفترة الحرجة ، قاد رشيد سفينة الإصلاح الإسلامي ، في بحر لحيّ تتلاطم فيه أمواج عاتية ، تستهدف السفينة الإسلامية ، دون غيرها من السفن الليبرالية والقومية والوطنية والتبشيرية والاستعمارية ، والغريب في الأمر أن خصوم الفكر لرشيد رضا ، كان معظمهم من تلاميذ شيخه محمد عبده ، لأن الفكر التوفيقي الذي أرساه شيخه ، كان بمثابة المحولة التي انطلقت منها تيارات مختلفة ، بل متنافرة الاتجاه ، أصبحت فيما بعد مفترق الطرق لأهم التيارات الفكرية السلفية والليبرالية والعقلانية المدنية والفلسفية التي نشأت فيما بعد في العالم العربي. ^{٣٠١}

تطورت المدرسة الإصلاحية على يد رشيد رضا ، وأخذت سمتا جديدا عندما نأى بها عن النهج الاعتزالي والفلسفة العقلانية ، وأخذ يوصل للعودة إلى الأصول السلفية المأمونة ، "ومن خلال آرائه ، وتشبع طائفة كبيرة من الناس بها صمد الوعي

^{٢٩٩} - قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين: ٨

^{٣٠٠} - الإسلام والغرب دراسة في قضايا الفكر المعاصر: محمد الخير عبد القادر ، دار الجيل ، بيروت والدار السودانية للكتب ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، ص ١٠

^{٣٠١} - رضوان زيادة ، ص ٦١

الديني في خطوط المواجهة ، أمام استعلاء الوعي القومي ، بعد ثورة ١٩١٩ من ناحية ، وأمام الانقلاب التركي من ناحية ثانية." ٣٠٢

دوره في نشوء الحركات الإسلامية

ويكاد الباحثون يجمعون ، على ما لآراء وأفكار السيد رشيد رضا من التأثير المباشر ، على نشوء الأصولية الإسلامية المعاصرة بمختلف تجلياتها. يقول أحد الباحثين : " كانت مصر ، وكان السيد رشيد رضا ، البيئة التي ظهر فيها الفكر الإسلامي المعاصر ، أو ما نسميه فكر الهوية الإحيائية." ٣٠٣ ويقول آخر بعد حديثه عن تشتت مذاهب تلاميذ الشيخ محمد عبده : " كما أن إسلاميا ، كان أحد أبرز تلاميذه أي : الشيخ (رشيد رضا) قد ساعدت آراؤه المتلاقية مع أفكار (ابن تيمية) ، على التمهيد الفكري لنشوء الأصولية الإسلامية ، في عام ١٩٢٨ " ٣٠٤ ويقول ثالث : " ثم لاح فجر اليقظة الإسلامية الحديثة ، عندما التقت جهود تلاميذ الأفغاني - أمثال الشيخ رشيد رضا - بعطاء رواد الفكر الإسلامي المعاصر ، فبدت طلائع الحركة الإسلامية المعاصرة ، خلال النصف الأول من القرن العشرين." ٣٠٥ وكان رشيد قد أرسى قواعد المدرسة الإصلاحية ، وأقام معالم الحركة التجديدية التي تطورت على يديه ، من خلال مجلة المنار التي كانت تعتبر مؤسسة فكرية قائمة بذاتها ، ومن خلال التلاميذ الأذكياء الذين تربوا على يديه والذين قامت بجهودهم مؤسسات الصحوة الإسلامية بعد التمهيد الفكري ، والتنظير الأدبي لمدرسة المنار ، التي وصفها الشيخ محمد الغزالي بأنها " أنكى مدرسة في العصر الحديث .. التي صالحت بين السلف والخلف ، والعقل والنقل والاجتهاد والتقليد ، ورسمت أهدافا واضحة للنهوض بالعقل الإسلامي والطبّ لأمة عليلة." ٣٠٦ ومن هؤلاء

٣٠٢- الصراع بين القديم والحديث في الأدب العربي الحديث: د. محمد الكتاني ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م ، ٨٩/١

٣٠٣- تعقيب على "السلفية حدودها وتحولاتها" ، ندوة الفكر العربي المعاصر تقييم واستشراف: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، م٢٦ ، العددان ، ٣ ، ٤ ، ١٩٩٨م ، ص ١٠٠

٣٠٤- عصر النهضة ، محمد سيد رصاص ، الاجتهاد ، العددان ، ٥٥ ، ٥٦ ، السنة ١٥ ، عام ٢٠٠٢ م ، ص ٢٤٥

٣٠٥- الإسلام والغرب دراسة في قضايا الفكر المعاصر ، ص ٣٤

٣٠٦- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل: محمد الغزالي ، دار الشروق ، الطبعة الرابعة ، ص ٥٣

التلاميذ الأذكياء ، الشيخ عبد الحميد بن باديس ، العالم الرياني والزعيم السياسي الجزائري ، الذي يقول في التأثير الحميد لأستاذه على الفكر الإسلامي المعاصر : " فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم - إصلاحا وهداية ، بيانا ودفاعا - كلها من آثاره. " ٣٠٧ ومنهم الإمام حسن البنا ٣٠٨ مؤسس حركة الإخوان المسلمين ، الذي يقول في افتتاحية العدد الأول لمجله "الشهاب" عن مجلة المنار : " أسست مدرسة فكرية تقوم على قواعد هذا الإصلاح الإسلامي الجليل ، لا زالت آثارها باقية في نفوس النخبة المستتيرة من رجال الإسلام إلى الآن. " ٣٠٩ ومنهم الشيخ محمد حامد الفقي ، مؤسس جمعية أنصار السنة المحمدية في مصر ومنشئ مجلة "التوحيد" التي تصدر حتى اليوم في مصر. ٣١٠ وغيرهم من تلاميذه في مدرسة الدعوة والإرشاد ، وقراء مجلته الإصلاحية وكتبه الإحيائية الذين نشروا فكره في شتى الأقطار الإسلامية.

مواقفه السياسية

إن من مقومات الإصلاح الديني الإصلاح السياسي المدني "على أن الإصلاحين متلازمان في الأمة الإسلامية ، لا يقوم أحدهما حق القيام إلا بالآخر ، والشريعة الإسلامية هادية للإصلاحين ، إذ كل صلاح للعباد يتعلق بالمعاش والمعاد فقد قرره الإسلام. " ٣١١ هذا ما اقتنع به السيد محمد رشيد رضا بعد أن انفصل من جاذبية أستاذه ، واستقل بالكفاح والجهاد في سبيل الإصلاح الذي جمع بينهما ، حيث كان لأستاذه رأي آخر في السياسة ، فكان يوجه جهوده وجهود تلاميذه ، إلى الإصلاح الديني والتربوي والاجتماعي ، وينفرهم من التعاطي السياسي ، ولا يمكنهم من الخوض في غماره. يقول رشيد مشيرا إلى ذلك : " سالمتنا السياسة فساورت ووثبت

٣٠٧ - عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ، مصطفى محمد حميداتو ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ،

قطر ، الطبعة الأولى ، ص ٧١

٣٠٨ - فلسفة المشروع الحضاري: ٤١١/١

٣٠٩ - الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح: ١٥٩

٣١٠ - السابق: ١٦٣

٣١١ - المنار: ٧٦٤/٣٩/١

، وأسلمنا لها فجمحت وتقمحت^{٣١٢} ، وكنا نهم بها في بعض الأحيان فيصدف بنا عنها الأستاذ ، ولم نزل منها ما نهواه إلا بعد أن اصطفاه الله،" ^{٣١٣}

اعتدل رشيد في تعاطيه السياسي ، فكان وسطا بين شيخيه ؛ الأفغاني وعبداه ، إذ كان الأول مغرما بها ، صارفا إليها كل همه ، ومعظم جهوده وكفاحه بينما كان الثاني ضاربا الصفع عنها ، كارها لها وللمشتغلين بها ، فكانا كما وصفهما رشيد بقوله : " بيد أن كلا منهما حكيم عاقل ، وأن السيد جمال الدين رجل دين وإن غلبت عليه السياسة. والشيخ محمد عبده رجل سياسة وإن غلب عليه الدين." ^{٣١٤} أما هو فقد "استفاد مما ذهب إلىه ، ومضى على سننهما ، وجمع بين خطتيهما ، وبنى على أساسهما ، ، فله رأي صائب في السياسة ، وأثر محمود فيها." ^(٢) وكان من علماء المسلمين القلة آنذاك الذين كانت لهم جهود إصلاحية في الميدان السياسي ^{٣١٥} وأسهموا في بلورة خطاب إسلامي معتدل لكافة القضايا التي كانت تهم الأمة.

٣١٦

كانت لرشيد رضا آراء ومواقف في المعضلات السياسية التي كانت تجتاح الساحة العربية والإسلامية ، ومن أهمها ؛ الخلافة العثمانية التي أصابها الهرم واستعصت على الإصلاح والترميم ، والقضية العربية التي برزت بعد هبوب رياح العصبية على الشعوب والطوائف التي كانت تضمها الإمبراطورية العثمانية ، مما أدى إلى انفصال بعض منها ، وتململ آخرين تحت قهر الحكومة ، إضافة إلى قضايا الاستعمار الغربي ، والمبشرين واليهود وغير ذلك من القضايا الأخرى الشائكة.

أما موقف رشيد رضا من الخلافة العثمانية ، فكان موقف المؤيد لها والمنحاز إليها في جميع الظروف والأحوال ، وهو موقف يملي عليه اعتقاده الديني ، الذي يتلخص في ضرورة الحفاظ على آخر سلطة تمثل الخلافة الإسلامية مهما بلغ ضعفها وبدا من عيوبها ، وليس هذا رأيا خاصا به ، بل رأي كل عربي غيور

^{٣١٢} - تقمحت : امتنعت (القاموس المحيط : ٣٠٣/١)

^{٣١٣} - السيد رشيد رضا: ١٧٩

^{٣١٤} - تاريخ الأستاذ: /١

^(٢) مجلة المنار ، م٣٥ ، ٩ ، ص ٧٠٥

^{٣١٥} - الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح: ١٢٥

^{٣١٦} - الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل: ١٦٥

معتبر. كما يقول رشيد : " لهذا أجمع طلاب الإصلاح في العرب ، الذين يعتقد برأيهم ، ويرجى تأثير عملهم ، على أن لا يكونوا سببا لسقوط الدولة وزوالها .. وعلى أن يجعلوا همهم في إصلاح أنفسهم وعمارة بلادهم ، مع النصح للدولة والإخلاص لها." ٣١٧

ولما زار رشيد رضا عاصمة الخلافة بعد إقرار الدستور ، سعى إلى التوفيق بين العرب والأتراك ، وإزالة الشقاق والخلاف بينهما لمصلحة الإسلام والمسلمين ، لاقتناعه الكبيرة بأن في اتحاد العرب والترك عزة الإسلام والمسلمين لأن العرب مادة الإسلام وأرومته ، منهم بعث النبي ، وبلغتهم نزل الوحي ، وفي أرضهم بزغ نور الإسلام ، وفاض على المعمورة بجهود أجدادهم ، الذين اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإلى الكعبة المشرفة يقصد الناس في الصلاة وفي الحج والعمرة وللترك ما لا ينكر من المآثر الحميدة ، والبلاء الحسن في نشر الإسلام ، والدفاع عن بيضة المسلمين في وقت كاد نور الإسلام ينطفئ ، فنشروا أعلامه من جديد ، وأعلوا مناره في جزء كبير من أوربا بعد أن شرفهم الله بفتح مدينة القسطنطينية ، وأسسوا للإسلام إمبراطورية منقطعة النظير ، فإذا اجتمع هذان العنصران عظم رجاء المسلمين في بقاء خلافتهم ودوام عزهم ، وإن اختلفا ، ووقع الشقاق بينهما كان ذلك خسارة عليهما وعلى الأمة الإسلامية جمعاء. ٣١٨

وعندما استبدت العناصر التركية المتعصبة بالحكم في تركيا ، وخيوا آمال الأجناس غير التركية ، التي كانت تعول على الدستور في نيل حقوقها ، وإصلاح حال الدولة المتردي ، ثم مارسوا التنكيل والاضطهاد على الشعب العربي ، وارتكب جمال باشا ؛ السفاح التركي ، حاكم سوريا ، المجازر البشعة المعروفة ، لم يثن كل ذلك رشيد رضا عن قناعاته ومسلماته السياسية ، وعن رؤيته الإسلامية المعتدلة المستنيرة ، ولم يزد على أن أعلن الحرب الأدبي على المستبدين الجدد ، فكان يصلحهم نقده اللاذع ، ويمارس كل الوسائل الأدبية لردعهم عن غيهم ، غير أنه لم يفكر في دعوة العرب إلى العصيان ، والسعي إلى إقامة دولة عربية منفصلة

٣١٧- المنار: ٤٤/١/٢٠

٣١٨- المنار: ٨١٨/١١/١٢ ، ٩١٣/١٢/١٢

ومستقلة عن الترك ، لأن ذلك سيؤدي إلى في نظر رشيد إلى فساد كبير ، عبه بقوله : " أجهل أحد من طلاب الإصلاح العرب أن هدم آخر سلطنة إسلامية مهما يكن سببه الحامل عليه لا يعقب الساعي إليه والقائم به ، إلا لعن مئات الملايين من المسلمين إلى يوم الدين. " ٣١٩

وكل ما قام به رشيد رضا من النشاط السياسي ضد الدولة العثمانية ، من الانخراط في الأحزاب والجمعيات السياسية ، والتأييد لبعض الثورات العربية ومشايعته لبعض الانفصاليين العرب ، لم يخل من النظر للمصلحة العامة للخلافة وللأمة عامة ، فهو حين يشارك في تأسيس "حزب الاتحاد السوري" يراعي وحدة السوريين ، ويسد في وجه الانفصاليين اللبنانيين الذين كانت تدفعهم بعض الحكومات الاستعمارية إلى الاستقلال على أساس الدين النصراني فهو إذا يرتكب محظورا درءا لمحظور أكبر منه. يقول: "ورضي كاتب هذه السطور بأن يكون من مؤسسي هذا الحزب ، المخالف لمذهبه السياسي في الجامعة العربية ، من وجوب اتحاد جزيرة العرب بالولايات العربية العثمانية ، للحرص على تعاون المسلمين مع النصارى على طلب الاستقلال التام الناجز لسورية." ٣٢٠

وحين يؤيد ثورة الشريف حسين في مكة ، يؤيدها لأهداف ثلاثة ، ليس من بينها رغبة في السعي إلى إقامة دولة عربية ، مستقلة عن الترك ، يقول في شرح هذه الأهداف : " وكنت أرى أن مبارزته العداوة للفئة المتغلبة ، قد يقف بغي زعمائها على العرب ، عند حد ما اجترح جمال باشا من الموبقات .. وأن نفع الحركة الحجازية ، محصور في هذه الفائدة ، وفي إغاثة جيران بيت الله من المجاعة والهلكة المخيفة ، وفي الاحتياط لما يجب إذا سقطت الدولة." ٣٢١

أما لماذا لم يؤسس العرب دولة عربية بديلة عن الإمبراطورية العثمانية المتهاوية ، وقد ظهر عجزها عن سيطرة أقاليمها ، والدفاع عن ولاياتها ، مع ما عرف عنها من سوء نية حكامها الجدد ، من ذوي النزعة الطورانية تجاه العرب ، فإن رشيدا يجيب برفض ما يزعم من خوف العرب من هيبة وقهر الترك ، لأن

٣١٩ - المنار: ٤٤/١/٢٠

٣٢٠ - السابق: ٢٠٤/٤/٢١

٣٢١ - السابق: ١٧٥/٤/٢١

العرب أقوى من بعض القوميات الأوروبية التي انتزعت استقلالها بالقوة ، كما يرفض تعليل ذلك باختلاف العرب ، وتفرق أهواء أمرائها ، أو جهلهم الفادح المعمي عن العواقب المحمودة في الاستقلال والوحدة العربية ، وإنما مردّ ذلك شيئان أساسيان هما الخوف من الإقدام على تفويض أركان الخلافة الإسلامية بانسحاب العرب منها ، والخوف من أوربا التي تترص أدنى فرصة للانقضاض على الولايات العربية العثمانية "فتبيّن بهذا أن ما كان يصد زعماء العرب من المسلمين عن التصدي لتأسيس دولة عربية أمران : الإسلام والخوف من أوربة ، وكان الرجحان في بعض الأحوال للأول وفي بعضها للثاني ، ولكنهما كانا في عامة الأحوال والأوقات مانعا واحدا ، أو سببا مركبا من أمرين ، كل منهما يقوي الآخر." ^{٣٢٢}

كانت رؤية رشيد السياسية مرنة ، بحيث تتسع لأمر تبدو متناقضة ومتعاكسة ، فهو يدعو إلى الجامعة الإسلامية ، ويشارك في قضايا الجامعة العربية ، بل في قضايا الشرق ، ولا يرى في ذلك تعارضا ولا تصادما ، بل هي حلقات يكمل بعضها بعضا ^{٣٢٣} ويؤكد على هذا صديقه شكيب فيقول : " وكانت إلى جانب نزعته الإسلامية المحضة نزعة عربية لا تقل عنها تمحضا وكان يجمع بينهما دون أدنى تكلف." ^{٣٢٤}

ومما سهل الأمر على رشيد ، أن رؤيته السياسية تنطلق من الإسلام ، وتستند إليه ، فأى شيء يعارض الإسلام لفظه ورفضه ، ولهذا يقول : "وإنني أحمد الله عز وجل أن جعل مصلحة العرب السياسية في عصرنا موافقة لمصلحة المسلمين السياسية ، كما أبينه في هذه المقالة ، ولو تعارضنا لقدمت ما يوجب عليّ ديني على ما تقتضيه مصلحة أبناء جنسي." ^{٣٢٥}

كان رشيد يدرك النهاية الوشيكة للخلافة العثمانية ، وأن الدول الاستعمارية قد أعدت خططها لاقتسام ميراثها ، وأن أهم هذا الميراث هو الولايات العربية العثمانية ، وأن ما تتظاهر به الدول الأوروبية من حرصها على وحدة أراضي الخلافة ، إنما هو

^{٣٢٢} - المنار: ١٦٧/٤/٢١

^{٣٢٣} - ديوان النهضة : محمد رشيد رضا ، اختار النصوص وقدم لها أدونيس وخالدة سعيد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م ، ص ٩٧

^{٣٢٤} - السيد رشيد رضا ، ص ٢٥٩

^{٣٢٥} - المنار: ٣٣/١/٢٠

لكسب الوقت ، وترتيب الحسابات فيما بينها ، وتنبه إلى أن أخشى ما تخشاه هذه الدول الأوروبية المستعمرة وحدة العرب ، أو قيام دولة ذات شأن في مصر أو في الشام أو في أي مكان من أرض العرب ، لعلمها بأن العرب يملكون من الرصيد الأدبي والحضاري ، ما يحفزهم إلى استعادة مجدهم ، وتجديد ما اندرس من سيادتهم وملكهم ، ولهذا حرصت على أن تبقى الولايات العربية في حوزة الدولة العثمانية ، لتكون من تركة الرجل المريض وتفتسم حين يموت ، وفي ها الصدد يقول رشيد رضا : " إن هؤلاء الأوربيين لم ينسوا عداوتنا معشر العرب ، حتى إنهم كانوا الحائلين دون تأسيس (الإمبراطورية) العربية ، التي شرع فيها محمد علي الكبير في مصر وسورية والسودان ، وأكرهوه على أن يظل خاضعا للسياسة العثمانية ؛ عدوهم الكبرى في الشرق ، لعلمهم أنها سائرة إلى الانحلال والاضمحلال. " ٣٢٦

عندما حاول رشيد عقب الحرب العالمية الأولى أن يستغل العداوة بين إنجلترا والدولة العثمانية ، وأن يكسب عطف إنجلترا على العرب ، الذين ساندوها في الحرب ، اكتشف أن إنجلترا رغم كرهها الشديد لتركيا ، لا تريد للعرب خيرا فأخذ يحذر منها ، ومن نواياها السيئة تجاه العرب ، فقبضوا عليه ، وأرادوا نفيه إلى "مالطا" ثم تركوه خشية الإثارة ، وجعلوه تحت المراقبة. ٣٢٧

وكان لرشيد رضا سعي محمود ، وجهد مشكور ، في السعي للقضية العربية ، والشكوى من الاستعمار الفرنسي والبريطاني للأراضي العربية ، إلى المحافل الدولية ، وسافر مع وفد من السوريين والفلسطينيين إلى جنيف ، ورفعوا مظالمهم إلى مندوبي الدول المعنية ، وكاتب بوصفة زعيما دينيا ، ومفكرا عربيا بارزا ، إلى رؤساء بعض الدول الأوروبية ؛ مثل إنجلترا وإيطاليا ، يناقشهم في الشأن العربي ، محاولا إقناعهم بما فيه المصلحة للجميع ، حسب رؤيته ، فكان بذلك من أكثر الوطنيين العرب نشاطا وجهادا في سبيل القضايا العربية. ٣٢٨

وكان رشيد يرفض الخنوع والخور والسلبية ، من قبل الشعب الراح تحت الاحتلال ، بل كان يرى أن من أفضل الجهاد للتغلب على المستعمر هو العمل بما

٣٢٦- المنار: ٥٩٥/٨/٣٢

٣٢٧- الأمير شكيب أرسلان: ٣٥٦

٣٢٨- السيد رشيد رضا: ٣٢١

يحيي الأمة ، ويعز الملة ، من نشر التعليم والوعي الإسلامي ، وترقية مدارك الأمة وتحريرها من الأوهام والخرافات ، وإطلاق طاقاتها وقدراتها في الكسب والسعي ، وهذا أمر لا يعارضه المستعمر ، ويرفض أن يكون هذا من المهادنة أو المصانعة للقوى الأجنبية المحتلة فيقول : " وقد يتوهم ضعفاء العقول أن فيها مصانعة للمحتلين ، وما أنا بمحتاج إلى مصانعتهم .. إن أريد إلا إقناع طائفتين من الناس ، بما لو اقتنعوا به ، رجي أن تستفيد الأمة من علمهم ، الطائفة الأولى : جماعة من أهل المعرفة بما ينفع الأمة ، يصددهم عن العمل لها ، اعتقاد أن الإنجليز واقفون بالمرصاد لكل عامل لمثته ، لأنهم أعداؤها ، ولا قدرة لنا عليهم ، فعلينا السكون والسكوت ، وهؤلاء هم الواهمون ، والطائفة الثانية : مؤلفة من أفراد كثيرين ، لا يعرفون النافع للأمة والمحبي للملة ، وإنما يظنون أن الواجب على كل وطني أو مسلم ، أن يعتقد أن كل ما يعمله المحتلون للبلاد ضار ، فإن كان نافعا في الظاهر ، فهو ضار في الباطن ، وأن يقاوم بالقول ، فيذمهم ويقبح أعمالهم .. وهؤلاء هم المخدوعون ، فأولئك لجبنهم لا يعملون بعلمهم النافع ، وهؤلاء لحمقهم يقولون ما يفعلون." ^{٣٢٩}

ومما يدل على بعد نظر رشيد السياسي أنه تتبه في وقت مبكر إلى الخطر القادم على فلسطين ، فقد رأى الانجليز يسعون سعيا حثيثا في تمكين اليهود من الأراضي الفلسطينية لأمرين خطيرين : أولهما "لأن لهم ربحا ماليا وسياسيا من مساعدتهم." وثانيهما لأنهم "يبغون أن يكونوا مانعا من بقاء هذه البلاد للعرب وحدهم ، فحائلا دون تأسيس الوحدة العربية." ^{٣٣٠} فهذه الرؤية الثاقبة جعلت كثيرا من الباحثين يقفون عندها معجبين ومقدرين ومنهم الدكتور سامي الدهان الذي يقول : "وبذلك رقى رشيد رضا إلى منزلة الزعامة السياسية العاقلة ، فرأى الخطر على فلسطين قبل عشرين سنة من الكارثة الفاجعة ، التي بترت عضوا من أشرف أعضائنا في المجموعة العربية." ^{٣٣١} ويقول الدكتور حسان على حلاق : " ومن الأهمية بمكان القول ، إنه اتضح لي من خلال دراستي لمواقف الزعامات العربية

^{٣٢٩} - ديوان النهضة: ١١١

^{٣٣٠} - المنار: ٦٠١/٨/٣٢ ، ٦٠٣/٨/٣٢

^{٣٣١} - الأمير شكيب أرسلان: ٣٦١

أنها لم تكن على مستوى الخطر الصهيوني .. وبالإضافة إلى ذلك ، فقد اتضح لي من خلال البحث ، بأن الصحافة العربية لم تكن كلها أيضا على مستوى الخطر الصهيوني ، ولكن شذت عن هذه القاعدة مجلة "المنار" ووعى صاحبها رشيد رضا هذا الخطر الذي نبه إليه منذ عام ١٨٩٨. "٣٣٢ كما تنبأ رشيد من خلال تجاربه ، وتتبعه لهذه القضية ، ومن خلال علمه بالتعاليم الدينية التي يستلهم منها الصهاينة أن أطماعهم لن تقتصر على فلسطين ، بل سيسعون إلى مدّ مملكتهم إلى مناطق شاسعة من البلاد العربية وفي هذا يقول : " وهم يعلمون أن أرض فلسطين وحدها لا تكفي اليهود لتأسيس وطنهم القومي ، وإعادة ملك إسرائيل ، فلا بد لهم من شرق الأردن ، وما ضمه الانتداب من أرض الحجاز بل لا بد لهم من إعادة ملك سليمان كله. "٣٣٣ وكان رشيد عادلا وواقعا في مناقشته للقضية اليهودية ، وما يزعمونه من حق في فلسطين ، فأثبت لليهود المواطنين والمستعربين ، الذين لم يبرحوا فلسطين حقا مشروعا ، يتساوى مع حق المواطنين الفلسطينيين الآخرين ، وأما اليهود المهاجرون ، الذين جاءوا لاحتلال فلسطين ، فهؤلاء غزاة يجب طردهم. يقول رشيد في هذا الصدد : " الحق أقول لكم إن الإسلام يسمح لنا أن نتفق مع اليهود الوطنيين المستعربين ، الذين يعيشون معنا على قاعدة شرعنا (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) ولكنه لا يسمح لنا بأن نتفق مع الصهيونيين الأعاجم الذين يريدون سلب وطننا وجعله وطنا عبرانيا لهم ، فنحن خصوم لهؤلاء دون سائر اليهود. "٣٣٤ ومن أهم القضايا التي ناضل في سبيلها السيد رشيد رضا الخلافة الإسلامية وهي قضية ذات بعد ديني وسياسي ، ولها ارتباط بقضية الجامعة الإسلامية التي دعا إليها كل من جمال الدين الأفغاني ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وغيرهما من الإصلاحيين الإسلاميين ، وبما أن رشيدا عاصر إلغاء الخلافة الإسلامية ، وآلت إليه زعامة حركة التجديد الإسلامي ، فقد صاغ خلاصة فهمه وموقفه من قضية الخلافة ، التي لم تعد موجودة لأول مرة في تاريخ الإسلام المديد ، في كتابه "الخلافة أو الإمامة العظمى" الذي اعتبر "من أكثر المؤلفات التي حددت الإشكاليات الفكرية والثقافية ،

٣٣٢ - دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش: ١٠٠

٣٣٣ - المنار: ٦٠٣/٨/٣٢

٣٣٤ - السابق: ٦٠٤/٨/٣٢

التي برزت في تلك المرحلة ، وكشفت عن وعي وإدراك بطبيعة تلك الإشكاليات ،
وقدم حولها وجهات نظر واجتهادات مصممة .^{٣٣٥} فبعد أن تحدث عن مفهوم
الخلافة ، ونظام اختيار الخليفة وعن أهل الشورى وعن مؤهلات كل من الخليفة
وأهل الشورى "جلا الكتاب كثيرا من الشبه التي علقته أوهامها بعقول كثير من الناس
، وأهمها مسألتان : ما يظنه الناس من تعارض الحكم الديني مع حق الشعب في
التشريع ، وما يظنه بعضهم من أن الخلافة - كالبابوية - تنطوي على الاستبداد
الديني." ^{٣٣٦} فقال في مناقشة الشبهة الأولى : "ثبت بهذا أن للإسلام اشتراعا مآذونا
به من الله تعالى ، وأنه مفوض إلى الأمة ، يقره أهل العلم والرأي والزعامة بالشورى
، وأن السلطة في الحقيقة للأمة فإذا أمكن استفتاؤها في أمر وأجمعت عليه فلا
مندوحة منه ، وليس للخليفة - ودع من دونه من الحكام - أن ينقض إجماعها ولا
أن يخالفه ، ولا أن يخالف نوابها وممثليها من أهل الحل والعقد أيضا." ^{٣٣٧} وبهذا
ينتفي ما زعمه بعض الباحثين من تخلي رشيد عن "القول بالمماهة أو التماثل بين
الشورى والدستور والديمقراطية ، وألف كتابه الخلافة أو الإمامة العظمى الذي كان
فيه إجماعيا تقليديا وليس إحيائيا على أي حال." ^{٣٣٨} وأما شكل إقامة نظام الخلافة
فأمر اجتهادي يخضع لظروف المرحلة واجتهادات الآخذين به ، وكان من تصوره "
قيام حكومات إسلامية مختلفة تباشر الحكم في أقاليمها على أن تجتمع في صورة
نظام اتحادي إسلامي تحت رئاسة الخليفة الأعلى للمسلمين ويقوم إلى جانب كل
حكومة اتحادية مجلس للشورى." ^{٣٣٩} كان رشيد على وعي بطبيعة المرحلة ، التي
وضع فيها كتابه ، ومن ثم يخطئ من يظن أن رشيدا كان يطالب معاصريه تنفيذ ما
قرره أو اقترحه ، وإنما وضع الكتاب من باب التأسيس الشرعي ، ولئلا يقع في وهم
الناس أنه يمكن الاستغناء عن إقامة الخلافة ، ولدفع هذا الوهم يقول رشيد : "مسألة
الإمامة لم أقصد بما بينته من الحقائق فيها أن أكلف مسلمي اليوم إقامتها على
الوجه الذي بينته ، بنصب إمام يتولى أمورهم كافة ، فإنني لا أعيش في عالم الوهم

^{٣٣٥} - صدمة زوال الخلافة العثمانية في الفكر الإسلامي في العشرينات: ٢٨٥

^{٣٣٦} - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط ٦ ، ٦٥/١

^{٣٣٧} - الخلافة: ١٠٤

^{٣٣٨} - رضوان السيد ، ص ١٠٠

^{٣٣٩} - الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث: ٨٩/١

والخيال ، فأكلف هؤلاء المساكين .. أمرا عظيما أعتقد أنه منتهى الكمال .. وإنما
قصدت أن أعرف المستعد للعلم والفهم الصحيح هذه الحقائق .. عسى أن يسعوا له
بالتعاون على وضع خطة لإحياء الإسلام." ٣٤٠

الفصل الثاني

أدب السيد رشيد رضا

المبحث الأول :

شعر السيد رشيد رضا

المبحث الثاني :

نثر السيد رشيد رضا

المبحث الثالث :

نقد السيد رشيد رضا

المبحث الأول : شعر السيد رشيد رضا

توطئة : رشيد رضا الشاعر

لعل الميل الفطري إلى الأدب ، الذي تحدث عنه رشيد أنه وجدته في نفسه في صباه كان إرهابا بالموهبة الشعرية الكامنة في نفسه ، فحركته إلى الاهتمام بكتب الأدب والشعر في وقت مبكر من صباه ، بعد تعلمه القراءة والكتابة في المكتب ، وقبل أن يلتحق بالدراسة الابتدائية ، فعكف على مراجع الأدب ، ودواوين الشعراء ، فحفظ الكثير من الشعر العربي الجيد ، ووضع لنفسه مختارات وكان من نتيجة ذلك - مع الموهبة الشعرية المودعة في طبعه - أن بدأ في قرض الشعر في مناسبات تعرض له ، فكان في البداية ينشده لأترابه ولا يذيعه بين الناس ، إلى أن مات أحد أقربائه ذات يوم ، فنظم مرثية فيه ، أنشده في حفل التأبين ، وعرف صاحبها ، ومنذ ذلك الحين ، بدأ رشيد يكرس في إظهار شاعريته ، فتوالت مرثياته فيمن فجع بهم من أساتذته ومشايخه ووجهاء بلده ، وشارك بشعره في مختلف المناسبات الاجتماعية ، فرثى ، ومدح ، وهنأ ، فلما امتد به العمر ، ونبغ في علوم الشريعة ، وتصدى للدعوة والإرشاد ، خبت جذوة شعره ، لتحول اهتمامه عنه ، وربما كان لتدينه الشديد ، وزهده الذي تذبذب فيه بين الصوفية والسلفية في مرحلة شبابه ، أثر في نضوب معين شعره ، ولعل ما يصور طرفا من ذلك قوله في معرض حديثه عن زهده : "وكننت قد تعودت قبل ذلك ، إنشاد الشعر في الخلوة وأوقات الفسحة ، فاستبدلت بذكر الله تعالى غالبا ، وقد تغلبنى العادة ، فأتذكر وقد أنشده نصف البيت فلا أتمه." ^١ فإذا كان يتحرج من مجرد إنشاد الشعر ، فكيف ينشط في قرضه ؟ وأيا كان السبب ، فقد تخفف رشيد من قول الشعر ، حتى لا يكاد يذكر به ، وهذا ما يشير إليه بعض من ترجم له ، مثل الزركلي الذي يقول : "ونظم الشعر في صباه." ^٢ ومحمد علي كردي الذي يقول : "كان ينظم الشعر قبل أن يحذق العلوم الدينية." ^٣ بل إن رشيد رضا نفسه صرح بأنه ترك الشعر قبل هجرته إلى مصر ،

^١ - السيد رشيد رضا : ٩٣

^٢ - الأعلام: خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م ١٢٦/٦

^٣ - المعاصرون: محمد كردي علي ، علق عليه محمد المصري ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، مطبعة دار أبي بكر ، ١٩٨٠٣٣٤م

وذلك حيث يقول معتذرا عن عدم رثاء شيخه حسين الجسر : "وما رثيته ، لأنني تركت الشعر من قبل الهجرة إلى مصر ولذلك لم أرث شيخنا الأستاذ الإمام أيضا ، إلا أنني زدت في مقصورتى أبياتا فيه وفي السيد جمال الدين ، رحم الله الجميع ، وجزاهم خيرا." ^٤

وإذا استثنيت زيادات مقصورته ، وما تضمنه ديوانه ، فإنه يبدو محقا في زعمه بترك الشعر قبيل هجرته إلى مصر ، إذ لا يوجد له شعر منشور في جريدة المنار قاله بعد هجرته ، سوى مقطوعتين ، كلتاهما في التهئة ، إحداها في تهئة عباس توفيق ؛ خديوي مصر بمناسبة ولادة ابن له ، والأخرى في عيد الجلوس للسلطان عبد الحميد الثاني ، وكلتا القطعتين نظمتا في سنة (١٣١٦هـ) ، وكانت هجرته في سنة (١٣١٥هـ)

أما المقصورة الرشيدية فتعتبر قصيدة واحدة طويلة ، بدأ نظمها قبل الهجرة وأما شعر ديوانه فلم ينشره إلا في الديوان ، ولا أظن أنه أنشده في أي مناسبة ، فهو أشبه بمذكرات شعرية احتفظ بها ، ولم ينشرها إلا في آخر حياته ، كما أنه تعبیر عن أواخر أيامه ، أو بالأحرى السنوات العشر الأخيرة في حياته ، لأنه من بين ثلاث قصائد أرخ لها ، تكون أقدمها قد نظمت في سنة ٢٩٢٥م ، وكانت وفاته في سنة ١٩٣٥م .

مصادر شعره

استمدت شعر السيد رشيد رضا من ثلاثة مصادر ؛ المصدر الأول شعره المنشور في مكتباته ، وأهمها مجلة المنار ، وقدمت شعر هذا المصدر ، لأنه يحوي باكورة شعره ، والمصدر الثاني المقصورة الرشيدة ، وقد نشرها شكيب أرسلان في كتابه : " السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة ، والمصدر الثالث ديوانه ، وهو مطبوع.

^٤ - المنار: ١٥٣/٣/٢١

المطلب الأول: شعره المنشور في كتبه

أما القسم الأول من شعر السيد رشيد رضا ، المنشور في مکتوباته فمعظمة في مجلة المنار ، وفي كتابه : "أنا والأزهر" ، ومجموع ما حصل عليه الباحث في هذه المصادر ستة أبيات ومائتان ، وأغلبه يمثل شعره الذي قاله في صدر شبابه ، وفي أيام طلبه للعلم ، في طرابلس الشام ، قبل أن يهاجر إلى مصر ، وهذا القدر ضئيل بالنسبة لهذه الفترة من عمره ، التي كانت أخصب فترة في حياته الشعرية. ويظهر من دراسة شعره ، أنه لم يعن بنشر شعره كله ، لأسباب ربما من أهمها: ضياع أصولها ومسوداتها ، وهذا ما يشير إليه قوله : "ولا أحب أن يؤثر عني من الشعر غيرها^٥ إلا أن أجد مسودة القصيدة الشرقية وأنقحها."^٦ فالقصيدة الشرقية التي تحدث عنها في موطن آخر ، وذكر أنها في عتاب الأمم الشرقية على تخلفها^٧ مفقودة الأصل ، فلم ينشر منها شيئاً ، ومن ثم لا يعرف عنها سوى اسمها. ومن شعره الذي لم ينشره ، ما لا يراه - على ما يبدو من كلامه - جديراً بالنشر ومن ذلك قصيد قالها في هجاء شخص دعاه إلى بيته لتناول الحلوى ، فلم يحمد الدعوة ، وظن أنه خداع ، فقال قصيدة يهجو فيها الداعي ، وظلت عنده هذه القصيدة إلى أن أتقن علوم العربية ، فأراها صحيحة الوزن والإعراب ، غير أنه لم ينشر منها شيئاً ، ولم يذكرها إلا في معرض حديثه عن ساليقته ، وصحة طبعه الشعري ، حتى إن شعره في صغره ، وقبل طلبه للعلم كان صحيح الوزن والإعراب ، وهذا أهم ما دعاه إلى ذكرها ، ولذلك قال : "ولم أذكر ذلك إلا للأتراب من أمثالي."^٨

ومن شعره ما اكتفى منه بنماذج ، ربما لأن المقام لا يتسع لذكره كله لطوله ، أو لعدم مناسبته للمقام ، أو لأنه اختار منه أحسنه ، ولهذا النوع شواهد كثيرة منها قوله : "وقد كان من أول نظمي للشعر في عهد طلب العلم في طرابلس الشام قصيدة هذا مطلعها .."^٩ ثم أورد ستة أبيات فقط ، لها صلة بالموضوع الذي كان يعالجه في مجلة المنار ، (الجمع بين الذكران والإناث في المدارس ، ومسألة التجديد

^٥ - أي : المقصورة الرشيدية.

^٦ - السيد رشيد رضا: ١١٥

^٧ - السابق ١١٤

^٨ - السابق : ١٠٨

^٩ - المنار: ١١٥/٢/٣

والتجدد) ، ومنها قوله في تقديم (قصيدة الجاذبية) : "وهي نحو من مائة وعشرين بيتا ، نأتي على بعضها هنا على سبيل النموذج." ^{١٠} ومنها تكريره في أثناء نشر بعض قصائده : "ومنها" مما يدل على أنه اكتفى باختيار نماذج منها ، وهذا كثير .

١١

إن شعر رشيد رضا المنشور في مجلته وكتبه المطبوعة ينتظم في ست عشرة قصيدة . تتراوح في حجمها وعدد أبياتها ما بين بيتين وسبعة وسبعين بيتا فإذا حذف منها ثلاثة تدخل في مقصورته ، يكون الباقي منها ثلاث عشرة قصيدة ومقطوعة ، وعدد أبياتها كما سبقت الإشارة إليه ستة ومائتان (٢٠٦) أبيات ، أربع منها مراث في شيوخه ، وبعض أقاربه ، ووجهاء مدينته ، وأربع في التهاني ، وثلاث في الغزل ، وواحدة في المدح ، وأخرى في الشأن الاجتماعي . ومن هنا يعلم أن أكثر شعر السيد رشيد رضا في هذه المرحلة شعر مناسبات ؛ مرات ومدائح وتهان .

أما الرثاء فهو أكثر غرض في هذا النوع من شعره في هذه المرحلة ، وفيه قال أولى قصائده ، وربما تكون مرثيته في صهره الشيخ محمود النصري أولى مراثيه ، وكان نظمها في سنة ١٢٩٩هـ ، وهي السنة الأولى من دخوله في المدرسة الوطنية الابتدائية ورثا بعده كثيرا من شيوخه ، الذين تلقى عنهم العلم في طرابلس وغيرهم من أعيان مدينته . ولم يبق من هذه المراثي الكثيرة إلا أربع فقط ، منها التي قالها في صهره الشيخ محمود النصري ، ووصفها بأنها طويلة ، غير أنه لم يورد منها سوي خمسة أبيات هي : ^{١٢}

هو المنونُ فقَصِرَ دونه الأملُ لا حولَ للخلقِ منه بالخلّاصِ ولا
تغرّتك الدنيا بزُخرفها فإنها كخيالٍ عند من عقلا
أو كالهشيم إذا ما الذاريات أتتْ تذروه قد ضرب الرحمنُ ذا مثلا
يا نائماً وصروفُ الدهر توقّظهُ إن كنتَ في غفلةٍ فاللهُ ما غفلا
وأنتَ يا ذاهلاً عما يُراد به مؤذن الموتِ نادى الناسَ حيّ على

١٠- السابق: ١٩١/١١/١

١١- المنار: ١٧٦/١٢/٢ ، ١٥٣/٣/٢١ ، ١٩١/١١/١ ، ٦٢/١/٣٠

١٢- السيد رشيد رضا: ١٠٩

والثانية في الشيخ محمود نشابة ، أحد جلة العلماء في طرابلس ، وكان رشيد قد تلقى عنه ، وبصفه في هذه المرثية بأنه شيخ الشيوخ ، لأن بعض شيوخ رشيد تتلمذ عليه أيضا ، ويخلع عليه كل الصفات الحميدة من الرسوخ في العلم والزهد والتقوى ، مات هذا الشيخ فارتاعت لموته المشارق والمغرب ، وبكى له أتباع المذاهب ، لكن العزاء فيه أن روحه الطاهرة طارت إلى جنة عدن.^{١٣}

شَيْخُ الشُّيُوخِ إِمَامُ العَصْرِ أَوْحَدُهُ ووارث المصطفى فينا ونائبه
فَلَكُ الطَّرِيقَةِ أَوْ دُرُّ الحَقِيقَةِ فِي يَمِّ الشَّرِيعَةِ رَاسِيهِ وَرَاسِبُهُ
ومرجعُ الكل في حَمَلِ النُّصُوصِ وَفِي حل العويص إذا أُعِيَتْ مَصَاعِبُهُ
رَبُّ الحَقَائِقِ مِكَشَافُ الدَّقَائِقِ مَحْمُودِ الخَلَائِقِ مَن جَلَّتْ مَوَاهِبُهُ
خَطْبٌ أَصَابَ فُؤَادَ الشَّرْقِ فَانْفَطَرَتْ مَرَارَةُ الكَوْنِ وَارْتَاعَتْ مَغَارِبُهُ
لئن بَكَى تَابِعُو النُّعْمَانَ مَذْهَبَهُ فالدين من بعده ضاقت مذاهبه
هذا ابن إدريس بعدَ الشَّيْخِ قَدْ دَرَسْتُ دُرُوسَ مَذْهَبِهِ وَارْتَاعَ طَالِبُهُ
للهِ مَثْوَى بَبْطَنِ الأَرْضِ مُدَّ بِهِ بحر تفيض بلا جُزْرِ ثَوَائِبِهِ
لئن دَفَنَّا بِهِ شَخْصَ الكَمَالِ ضَحَى فالروح طارت إلى عدن نجائبه
ثم رثي شيخه عبد الغني الرافعي ، وكان قد توفي في مكة المكرمة حاجا ، فهناه على أن اختاره الله لجوار بيته الحرام :^{١٤}

طُوبَى لِمَن بَجَوَارِ اللهِ قَدْ نَزَلَ وقد أعدَّ له جناته نزلاً
وَيَا هَنِيئاً لِمَن أَسْقَاهُ سَيِّدُهُ فِي مَعْهَدِ القُرْبِ مِن كَاسِ الشُّهُودِ طَلَا
وبعد أن وصف الفراغ العلمي الذي خلفه موت الشيخ ، ذكر أن عزاء الناس فيه أنه ترك ، أولادا نجباء ، ورثوا عنه العلم والأدب فقال :

لئن بكاهُ بِنَا عِلْمُ اليَقِينِ فَقَدْ قرت به عينه مذ كأسها نهلاً
وإن غداً فيه كلُّ الفضلِ مُجْتَمِعاً فقد تفرَّقَ في أبنائه النُّبَلَا
فللمعارف والإرشاد كاملهم من حالفَ العِلْمُ فيه الهدْيَ والعَمَلَا
وفي البلاغة كم عبد الحميد سَمَا وللتحدي بها آي البيان تلا

^{١٣} - المنار: ٥٣/٣/٢١

^{١٤} - السابق: ١٥٨/٣/٢١

وأما المرثية الرابعة فهي في أحد وجهاء بلده ، رثاه بتوجيه من والده ، منها قوله: ^{١٥}

إن المنية غاية الميلاد والنعش مثل المهد للأولاد

والله قد برأ الخلائق للبقا بعد الفنا وزيارة الأحاد

والموت باب النشأة الأخرى لنا وبها كمال الخلق والإيجاد

لم الجزع من الموت إذا كان غاية لا يعدوها أحد ، وبابا لابد من الولوج فيه إلى دار الخلود ، ولماذا تختلف مشاعر الناس تجاه المحمول في المهد عن المحمول في النعش وكلاهما يجرى على سنن لا تتبدل ولا تتغير ، وينكر أن يكون هذا الحزن مما أوجبه الشرائع ، أو قضى به العقل السليم ، ولا أن يكون فطرة فطر الناس عليها بل هو ضرب من المعتاد ، ينبغي خلع سراويله ، إذ لا فرق بين الموت والميلاد ، بل هما طرفان مستويان لمسيرة الإنسان ، وآخرهما أولى بالفرح ، لقربه من سعادة الإنسان الأبدية.

أطبيعةُ ذا الحُزن ليس يشدُّ عن ناموسه فردٌ من الأفراد

أم ذاك مما أوجبه شرائع الأديان من هدي لنا ورشاد

أم ذلك العقل السليم قضى على كل الشعوب بهذه الأصناف

كلا فليس الأمر ضربية لازب لكنه ضرب من المعتاد

فاخلع سراويل العوائد إن تكن ليست بنهج العقل ذات سداد

وتقلد الحزم الشريف كصارم كيما تنافح جيشها بجهاد

فانظر لموت الناس بالعين التي ترنو بها لولادة الأولاد

هاتيك مبدونا وهذا تمنا طرفان مستويان للنقاد

بل آخر الطرفين خيرهما فخذ بالاعتبار به والاستعداد

ثم نعى فيه الكرم الذي اشتهر به بين الناس في حياته ، حتى كأن الموت بعض ضيوفه ، فسأله نفسه فسحا بها كما يسخو بكل غال يملكه.

قد جاءه هذا الحمام فلم يكن إلا كبعض الضيف والقصاد

لم يرص إلا نفسه منه قرى فسحا بها فاعجب لذي الإزفاد

وقضى الأمير وما قضى إحسانه بل ظل كالأطواق في الأجياد

ويقارن بين موكب جنازته ، ومواكبه في المناسبات العديدة في حياته ، فلا يرى فرقا ، غير أنه في هذا محمول على أعناق الرجال ، لا على متون الجياد ، كما جرت به العادة :

حُفَّتْ بِهِ زُمْرٌ وَسَارَ كَشَأْنَهُ بمواكبِ الأعراسِ والأعياد
دَلْفًا عَلَى الْأَعْنَاقِ لَا عَنَقًا كَمَا قد كان إذ يَعْلُو مُتُونِ جِيَادِ

والغرض الثاني الرئيسي في شعر السيد رشيد رضا في هذه المجموعة هو المدح والتهنئة ، فقد هنا عبد الحميد بك الرافعي في زفافه بموشح ، ويقول رشيد عن نفسه ، إنه كان آنذاك تلميذا مبتدئا. يقول في مدح العريس بعد غزل مهد به :^{١٦}

لسن إن نظم الشعر غداً يتراءى فوق طوق البشر
تنصت الناس إذا ما أنشدا كيف تصغي لاستماع السور
كلما كرر يحلو مورداً وهو لم يهجر لفرط الخصر^{١٧}
ما أبو الطيب إما نظما وابن هاني شاعر الأندلس
ليس يهنئك إذا شعرهما وبه لم تلق طيب الأنفس

وهنا خديوي مصر بولادة ابن له ، ولم يكن له ولي عهد من قبل ، لأنه لم يكن له ولد ذكر ، فسر بولادته القصر والحاشية وعموم الشعب المصري ، كما يقول رشيد ، وكان هو من بين المهنيين للخديوي فقال :^{١٨}

ألا يا بشير السعد كرر لنا البشرى ويا أيها الأقوام حسبكم بشرا
فقد أنجز (الإقبال) ربي وعده وجاد على مصر بما أتلج الصدرا
هلال تيفتا بحسن نموه بأن ستراه في سما قطرها بدرا
أحبّ بنوها أن يدوم أميرهم بأبنائه طولَ المدى لهم ذخرا
مرامٌ توقعناه قبل وقوعه فكان وحققتنا العيافة والزجرا
فقم أيها العباسُ لله شاكرًا وإن كنت لا تحصي على فضله شكرا
وقل للذي أنجبت قم وارق للعلی معي فهو واعٍ يعقل النهي والأمر

^{١٦} - المنار: ٦٣/١/٣٠

^{١٧} - (الهجر) بالضم الفحش وهو اسم من (هجر) (يهجر) من باب قتل وفيه لغة أخرى مصباح المنير:

(٦٣٤/٢)

^{١٨} - السابق: ٩٣١/٤٨/١

وعش يا ولي العهد بالله واثقًا بمنّة تاريخ نغيث بها مصرًا

وفي الشطر الأول من البيت الأخير تأريخ هجري للسنة التي ولد فيها الابن وهي (١٣١٦هـ) ، وفي الشطر الثاني منه تأريخ ميلادي لنفس المناسبة وهو (١٨٩٩م) ومن مدائح وتهاني رشيد رضا ما هنا به السلطان عبد الحميد الثاني في عيد الجلوس الهمايوني ، الذي كانت الدولة العثمانية ، والجهات التابعة لها تحتفل له في كل سنة ، فشارك رشيد في احتفالات عام ١٣١٦هـ في مصر بقصيدة بأثية هنا فيها السلطان بهذه المناسبة السعيدة ، فجعل هذا العيد أجل عيد ، لأهمية هذا المنصب ، ومدح السلطان بأنه قام على شئون المسلمين خير قيام ، وأنه يحمي الملك والدين ، ووصفه بسداد الرأي ، وبالاستقامة في الدين ، وبحسن التدبير في المملكة التي كانت تواجه الأخطار المهطعة ، وأنه جلب التطور للبلاد ، وخاطبه بخادم الحرمين الأشرفين ، ثم دعا له بالنصر والتأييد ، فكان مما قال :^{١٩}

يوم الجلوس على العرش الحميدي	أجلُّ عيد على الدنيا سياسي
ذاك الجلوس قيامًا بالأمانة أو	نوم مع الأمن أو نيل الأمانى
قيامه بشؤون الملك تابعة	حكم الخلافة في الدين الحنفي
مقرونة طاعة الباري بطاعته	كما قرأناه في النص القراني
تقلد الملك والأخطار مهطعة ^{٢٠}	من كل صوب كأعناق البختي
فاستل صارم عزم من إضاءته	تصّلت صبغة الخطب
الدجوجي ^{٢١}	

فلم يدع هام خطب غير منفلق	ولم يذر عنق كرب غير مفري
وشاد للدولة العظمى دعائمها	من دنيوي به تسمو وديني
شكت له البؤس والضرا فأتحفها	بمعنوي من النعمى وصوري
وبث روح الترقى في عناصرها	من عسكري ومالي وعلمي
وكف عنها زحوف الطامعين وقد	كانت تهدد منهم بالآلاني
مآثر كهتون المزن هامية	تواترت بين مروى ومرئي

^{١٩} - المنار: ٤٤٢/٢٤/١

^{٢٠} - مُهْطَعَةٌ : مصوبة الأعناق. (القاموس المحيط : ١٠٠١/١)

^{٢١} - والدَّجُوجِيُّ : دون العَيْهَبِ في السَّوَادِ وهو صائى لَوْنِ السَّوَادِ (لسان العرب : ٦٥٣/١)

قد طوقت كرة الدنيا مناطقها
 بالكَمِّ والكيف تأبى الاشتراك بها
 يا خادم الحرمين الأشرفين ويا
 وحاملاً راية السلم الشريف وميد
 يخشى خلافك بل يرجى خلافك من
 يهنئك عيد به عاد السرور على
 وعش لأمثاله بالله معتصماً
 منها بنور ولكن غير شمسي
 بالرغم عن هذيان الاشتراكي
 رب النفوذيين حسي وروحي
 زان السياسة للقطر الأوروبي
 ملوكة كل مرجو ومخشي
 على كل الرعية من عرب وتركي
 مؤيداً منه بالنصر الإلهي

ومن أهم مدائحه "قصيدة الجاذبية" التي هنا بها محمد باشا نجل الأمير عبد القادر الجزائري بمناسبة توليه منصباً كبيراً في الدولة العلية ، والقصيدة طويلة ، ويذكر رشيد أنها نحو مائة وعشرين بيتاً ، والقطعة التي أورها منها في المنار خمسة وخمسون (٥٥) بيتاً ، موزعة بين الغزل ، وبين مدح السلطان عبد الحميد ، والأمير محمد باشا ، وأولها : ٢٢

نصرت دولة المهى التركية بلحاظ قامت بها العصبية

ثم جعل الغواني عدواً مسلحاً بعوالي القود السمهرية ، وحراب السواعد ، وخناجر الحواجب ، وغدائر البنادق ، ثم أنكر على الشعراء تعلقهم بهذا العدو ، وأي حسن رأوا فيه ، وكيف صاغ لهم أن يشبهوا الحسان بالطباء ، وهي تفتك بالعشاق فتك الأسود الضواري ، ويستعذبون الغرام ، وهو عين العذاب ، ويربأ بالشعراء من أن ينساقوا لهذا التقليد السقيم.

أي حسن نرى بهذي الغواني كل عضو كآلة حربيه
 ما لنا نحسب الحسان طباء ولها فتكة بنا قسوريه
 ونُسمى خدر الفتاة كِناساً ونرى الغاب يدعي الأولويه
 ونذوق الغرام عذباً وإن كما ن عذاباً لدى النفوس الأبيه

ثم يصور ما يعانيه الحبيب والعاشق من السهر وتسمع أخبار المحبوبة ، والتسلي بالأمانى الكاذبة ، والوقوف على أطلال الرسوم الدارسة حزينا غارقا في بحر دموعه

، ثم يسجل عليه أن سبب شقائه اختياري وليس قسريا لتحديقه نحو الحسان والغواني.

يَفْتَرِي عَنْ ضَاوِعَةِ الْمَفْرِيهِ	كَمْ تَنَاجِي الدُّجَى وَمَا أَنْتَ مِمَّنْ
وَرَوَّاحِ شَوْوَنِكَ السَّرِيهِ	وَتَبِيحُ الرِّيَّاحِ كُلِّ غُدْوٍ
جَوَابًا يَأْتِي مِنَ الْعَامِرِيهِ	وَتَصِيحِ الْآذَانَ تَسْتَرْقُ السَّمْعَ
دَارِسَاتٍ مَا تَمَّ مِنْهَا بَقِيهِ	وَعَلَامَ الْوُقُوفِ حَوْلَ رَسُومِ
بُخَارًا عَنْ نَارِكَ الْقَلْبِيهِ	تُمْطَرُ السَّحْبُ مِنْ عَيُونِكَ مَا ثَارَ
سَيَّرْتَهُ أَنْفَاسُكَ الصَّدْرِيهِ	بَحْرُ دَمْعٍ وَقُلُوكَ جَسْمِكَ فِيهِ
إِنَّمَا الْحَبُّ لَذَّةٌ وَهَمِيهِ	خَلَّ عَنْكَ التَّمْوِيَةَ بِالْغَيْدِ وَأَسْلِمِ
نَحْوَ الْحَدَائِقِ الْحُسْنِيهِ	أَنْتَ أَشْعَلْتَ نَارَ قَلْبِكَ بِالْتَحْدِيقِ

ثم مدح الخليفة الذي أسند هذه الوظيفة الخطيرة إلى الممدوح ، الذي أنشأ القصيدة في تهنئته ، فوصفه بعلو الهمة ، ونفاز الرأي ، وأنه نهض بأعباء المملكة ، ونشر العمران ، وجلب التقدم إلى شتى المجالات الزراعية والصناعية والصحية والمعارف العامة ، ثم فضله على كل حكام المسلمين ، بعد الخلفاء الراشدين ، فقال :

وَزِ هَامِ الْجُوزَاءِ بِالْفَوْقِيهِ	جَرِ ذِيلاً عَنِ الْمَجْرَةِ إِذْ جَا
مِنْ عَوِيصِ الْمَشَاكِلِ الْفِكْرِيهِ	نَافِذِ الرَّأْيِ مُسَقَّبٌ ^{٢٣} كُلَّ نَاءِ
فِيهِ عَيْنِ الْإِسْلَامِ وَالْحُرِيهِ	حَرَّرَ الْمَلِكَ بَعْدَ رِقِّ فُقَرَّتْ
لِنَفُوسِ الْجَمْعِيَةِ الْبَشْرِيهِ	فَأَبَاحَ الْعِمْرَانُ سَرَ التَّرْقِيِ
أَيَقْظَتُهَا الصَّنَائِعُ الْعَمَلِيهِ	فَأَفَاضَتْ مَاءَ الزَّرَاعَةِ عَيْنٌ
أَوْ تَوَلَّى مِنْ عَهْدِ آلِ أُمِيهِ	هَلْ كَعْبِدِ الْحَمِيدِ يُلْفِي مَلِيكَ
سَطْوَةً وَالسَّمَاتِ عَثْمَانِيهِ	عُمَرِيٌّ عَدَالَةً عَلَوِي

ثم مدح الأمير محمد باشا ، فوصفه بالمجد العريق ، والأصل الكريم ، بعد أن فخر بانتمائهما معا إلى العترة النبوية الشريفة ، وعبر له عن حبه العميق له :

وَكَفَانِي قُرْبُ الْقَرَابَةِ أَنَا بَوَاتِنَا الْبُنُوةَ النَّبَوِيهِ

^{٢٣} - مُسَقَّبٌ : مُقَرَّبٌ (القاموس المحيط : ١/١٢٥)

وبكلي له تسلسل ودّ دار فيه كالدّورة الدّمويه

المطلب الثاني : المقصورة الرشيدية

المصدر الثاني من مصادر شعر السيد رشيد رضا هو مقصورته الموسومة بالمقصورة الرشيدية ، وهي مطولة من بحر الرجز ، وقافية الألف المقصورة ، ولم ينظمها دفعة واحدة ، بل على فترات متباعدة ، وكان ابتداء نظمها في عام ١٣١٥ هـ بمناسبة زفاف صديقه الأستاذ عبد القادر المغربي ، وكان يضيف إليها ويزيد عليها كلما هتف به هاتف الشعر ، حتى كان منها جزء اعتبره آخر شعره لقوله : "وكان آخر ما نظمته من الشعر المقصورة الرشيدية." ^{٢٤}

تكاد المقصورة تكون أهم آثاره الشعرية من حيث الشهرة ، لطولها ولما تحويه من أفكاره الإصلاحية ، وقد عدها بعض الدارسين ^{٢٥} إحدى الملاحم الإسلامية ، التي شهدها عصره ، مثل ملحمة حافظ إبراهيم "العمرية" وملحمة أحمد محرم "دول الإسلام" وكان السيد رشيد رضا كثير التنويه بها ، ويعرضها على كبار شعراء عصره ، مثل البارودي ، وحافظ إبراهيم ، وينقل عنهم إعجابهم بها ، بل تمنى أن لا يروى عنه شيء من شعره غيرها ويضع قصائد أخرى ، كما تمنى أن يجد فرصة لشرحها وطبعها . يقول رشيد في بيان أصل ومناسبة المقصورة ، وما يعتقده فيها : "وكان آخر ما نظمته من الشعر المقصورة الرشيدية التي عارضت بها مقصورة ابن دريد ، وكان سبب نظمها اقتراح صنوي ، وزميلي في طلب العلم ، ومذاكرات الأدب ، الشيخ عبد القادر المغربي ، أن أنظم مقصورة أهنته فيها بزفافه ، فنظمت مائة بيت ونيفا ، ثم بدا لي أن أتممها في معارضة الدريدية ، بإيداعها معاني من فلسفة هذا العصر ، وفنون الأدب والاجتماع المناسبة له ، ولاسيما الإصلاح الإسلامي ، الذي وقفت كل حياتي على السعي له ، ثم هاجرت إلى مصر لأجله ، فزادت على أربعمئة بيت." ^{٢٦} ثم يقول بعد أن يذكر إعجاب البارودي وحافظ بها : "وعسى أن

^{٢٤} - المنار والأزهر: ١٨٤

^{٢٥} - الصراع بين القديم والجديد: ١٠٢/١

^{٢٦} - المنار والأزهر: ١٨٤

أجد فرصة أشرح فيها غريب هذه المقصورة ، وأطبعها ، ولا أحب أن يؤثر عني من الشعر غيرها.. " ٢٧

مصادر المقصورة وعدد أبياتها

سبقت الإشارة إلى أن رشيد رضا كان يتمنى لو أتيح له وقت وكاف لمراجعة المقصورة وشرحها وطبعها ، غير أنه لم يتمكن من ذلك ، فلم يفردها في كتاب ، ولا نشرها كاملة في مجلة المنار ، ولا في غيرها من المجلات والجرائد التي كان يكتب فيها على ما يبدو ، إذ لم يذكر ذلك أحد ، ممن تعرض لها ، وكل ما نشره منها أربع قطع إحداها في مدح شيخه الإمام محمد عبده ، وفي التنويه بما قام به من الإصلاحات ، ونشرها في مجلة المنار ، وفي كتابه تاريخ الأستاذ الإمام ، وعدد أبيات هذه القطعة تسعة عشر بيتا^{٢٨} والقطعة الثانية طويلة من سبعة وسبعين بيتا ، ويتحدث فيها عما صار إليه حال الأمة ، بعد الرفعة والعزة ، وأن علة هذا التخلف إعراضها عن هدي الإسلام ، وفساد حكامها وعلمائها ، ونشر هذه القطعة في مجلة المنار^{٢٩} والقطعة الثالثة من واحد وثمانين بيتا ، ومنشورة في كتابه تاريخ الأستاذ الإمام^{٣٠} وهي مدح لإمامي الإصلاح ؛ جمال الدين وعبده ، وشرح لجهودهما الإصلاحية ، ودفاع عنهما وعن خطتهما في إحياء الإسلام ، وإيقاظ الأمة. وأما القطعة الرابعة فقد نشرها في كتابه "المنار والأزهر"^{٣١} وعدد أبياتها تسعة وعشرون ، وهي حديث عن فتنة امرأة تعرضت له ، وحاولت أن توقعه في إثم باسم الدين ، وكيف وقاه الله وحفظه من ذلك.

وما سوى ما تضمنته هذه القطع الأربع من مقصورته لا يوجد له ذكر أو بالأحرى لم ينشره في كتبه المطبوعة ، ومنها مجلة المنار ذات الخمسة والثلاثين مجلدا.

إن أهم مصدر للمقصورة الرشيدية هو كتاب "السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عاما" الذي وضعه الأمير شكيب أرسلان في ترجمة السيد رشيد رضا بعد

٢٧- المنار والأزهر: ١٨٥

٢٨- السابق: ٦٩٨/٩/٢٥ ، تاريخ الأستاذ: ٥٦٧/٢

٢٩- المنار: ٢/١/٢٥

٣٠- تاريخ الأستاذ: ٩٧٨/١

٣١- المنار والأزهر: ١٦٨

وفاته ، فقد أورد منها قطعة كبيرة من قسمين ؛ القسم الأول أصل المقصورة ، وعدد أبياته مائة وتسعة وعشرون (١٢٩) بيتا ، والقسم الثاني الزيادة على أصل المقصورة ، وعدد أبياته مائة وخمسة وستون (١٦٥) بيتا ، ومجموع القسمين مائتان وأربعة وتسعون (٢٩٤) بيتا. ^{٣٢}

ذكر شكيب أرسلان أن الأستاذ عبد القادر المغربي ، الذي أنشئ أصل المقصورة في تهنئته بزفافه ، قال له : "إني مرسل إليك صورتها عن النسخة التي عندي بخط السيد رحمه الله ، وهي ١٢٩ بيتا ، قرأها بنفسه ليلة الزفاف في طرابلس الشام ، في ملأ من الناس ، فيهم شيخنا حسين الجسر ، وذلك سنة ١٣١٥هـ في شهر ربيع الأول." ^{٣٣} ولم يذكر شكيب من أين استمد زيادات المقصورة ، ولا كم أصبح عدد أبياتها بعد الزيادات ، غير أنه يتضح من كلامه أنها أكثر مما أثبتته ، وأنه حذف بعضها ، وذلك لقوله مرتين وهو يسردها : " إلى أن يقول " ، وتأكد الباحث أنه حذف بعد إحدى مقولتيه تلك سبعة وعشرين بيتا ، وذلك بالمقارنة بما نشره رشيد. ^{٣٤}

أما عن عدد أبيات المقصورة الحقيقي ، فلم يصرح به رشيد رضا ، بل قال في ذلك : "ثم بدا لي أن أتممها في معارضة الدريرية .. فزادت على أربعمئة بيت" ^{٣٥} وكذلك سكت شكيب عن تحديد عدد أبياتها ، واكتفى بقوله بعد ذكر القسم الأول منها : "هذا أصل المقصورة الرشيدية ، ثم أخذ كلما هتف به هاتف الشعر يزيد عليها." ^{٣٦} ويقول الأستاذ أنور الجندي بشأن عدد أبيات المقصورة : "وقد ذكر في بعض المراجع أنها بلغت ٥٠٠ بيت ، غير أن أحمد الشرباصي ، وهو يعد أطروحته عن رشيد رضا ، قد عثر على قدر كبير من شعر هذه المقصورة ، مما أبلغها أكثر من ألف وثلاثمئة بيت." ^{٣٧} وهذا الأخير في رأي الباحث بعيد ، إذ لا يستبعد أن تقارب خمسمئة بيت ، لأن صاحبها قال إنها زادت على أربعمئة بيت

^{٣٢} - السيد رشيد رضا: ٢٨٥

^{٣٣} - السابق: ١١٤ (الهامش)

^{٣٤} - السابق ، ص ٢٩٦ ، فبين ما بعد قوله " إلى أن يقول " وما قبله ٢٧ بيتا

^{٣٥} - المنار والأزهر: ١٨٤

^{٣٦} - السيد رشيد رضا: ٢٩٤

^{٣٧} - تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي : أنور الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٠ ، ص ١٠٨

وأما أن تكون قد وصلت إلى ألف بيت أو ما يزيد على ذلك فأمر يصعب قبوله ، لأن رشيد رضا قال قولته السابقة "فزادت على أربعمئة بيت" في آخر حياته ، والبون شاسع بين الرقمين ، ولو كانت وصلت إلى ألف لما كان تعبير رضا صائبا على أنه يجوز أن يكون ما رآه الدكتور أحمد الشرباصي مسودة ، انتقى منها رشيد المشهور من مقصورته.

موضوعات المقصورة

الجزء الأول من المقصورة ، الذي نظمه رشيد بمناسبة زفاف صديقه عبد القادر المغربي ، يحتوي على غرضين رئيسيين ، وهما الوصف والمدح ، ويتناول بالوصف ثلاثة أشياء :

١- ما أبدعه الله في الكون من بديع مخلوقاته ، وما أضفاه الله سبحانه وتعالى على هذه المخلوقات من إتقان الصنع ، وما نصب لأرباب الحجى من دلائل قدرته وعجائب صنعه ، فهو أنشأ الخلق كله من العدم فسمك السماء ، وخلق الأشياء أزواجا ، ثم سواها وهداها ، ولا تفاوت أو خلل في شيء من مخلوقات الله ، وهذا أكبر دليل على الخالق الحق. ومن بديع خلق الله قانون الزوجية ، الذي يقوم عليه هذا العالم ، ويتجلى ذلك في الحيوانات الناطقة ، وفي العجماوات والنباتات والعجماوات ، كما كشف عن بعض ذلك العلم الحديث. يقول رشيد في ذلك :^{٣٨}

تبارك البارئ مُبدعُ الورى بحِكمَةٍ تَرُوقُ أربابَ الحجى
براهُ من حيث رصاه فانبرى مُستحِصِفٌ^{٣٩} المريرِ مَشْدُودِ العرى
أنشأ من السديم^{٤٠} كلَّ صورةٍ فسمك السماء والأرض دحا
وخلق الأشياء أزواجا وقد قضى بناموس تنازع البقا
من جري هذا قيل لا إمكان في أبداع مما كان قبلُ وجرى
من ذاك أن الازدواج سنة قام بها التوليدُ في هذي الورى
يظهرُ هذا في المواليد التي تألفت منها طبيعةُ الدنا

^{٣٨} - السيد رشيد رضا : ٢٨٥

^{٣٩} - مستحصف : مستحكم (القاموس المحيط : ١٠٣٤/١)

^{٤٠} - والسديم الماء المندفق (لسان العرب : ٢٨٣/١٢)

فاجتله في الحيوان ناطقا وأعجمًا وفي النبات المجتني
 والماء والتربة إذ تقارنا تولدت صنم الصخور والحصا
 والقمر المنير لما قارن الشد مس تولد الهلال في الدجى
 والكهربا زوجان إما التقيا تألق البرق وشيكا وخفا

٢ - ثم وصف روضة ذهب إليها للتنزه ، فوجدها خضراء ، رصعها النور بأصناف
 الحلي ، لم تتل من نضارتها الريح الباردة ، ولم يذبل شيء من أفنانها الغضة ، بل
 إنها روية دائما ، لأنها تجتذب السحاب المطير بأغصانها الباسقة ، وتمتص من
 الهواء الكربون الصافي ، وتطلق إلى الناس الأكسجين النقي ، كما تمد على الصعيد
 ظلا وارفًا ، فلا ترى الشمس إلا ما يفلت من شعاعها أحيانا عندما يعبث الريح
 بأغصانها الباسقة ، وكأنها غادة حبية لا ترنو إلا من خلال الأستار: ^{٤١}

وروضة تجلى بثوب سندس رصعها النور بأصناف الحلى
 ما صوح البارح غصن نجمها ويانع الأفنان منها ما ذوى ^{٤٢}
 والباسقات رفعت أكفها تستنزل الغيث وتطبب الندى
 تمتلج ^{٤٣} الكربون من ضرع الهوا إذ آثرنا بالأزوت المنتقى ^{٤٤}
 مدت على الصعيد ظلا وارفًا فلا ذأى ^{٤٥} العود ولا الظل أرى ^{٤٦}
 والشمس تبدو من خلال دوحها آونه تخفى وطورا تجتلى
 كغادة وضاحة قد أتلتت من خلل السجوف ترنو والكوى
 تلقى على الروض نضير عسجد فتحسب الروض عروسا تجتلى

٣- وكان بصحبته في هذه النزهة صاحبان أحدهما مجلة علمية ، والآخر صديق
 فاضل ، أما المجلة العلمية فقد حوت عوالم الأرض والسماوات العلى بحديثها عما في
 هذه العوالم ، رغم حجمها الصغير ، ورغم ما تحوي هذه العوالم من الأمور التي لا
 تتفق عادة ، والأشياء التي لا تأتلف طبعًا ، غير أن المجلة جمعت هذه المتناقضات

^{٤١} - السيد رشيد رضا : ٢٨٧

^{٤٢} - التبت ذوى جفَّ : جفَّ (القاموس المحيط : ٣٨٠/١)

^{٤٣} - امتلج اللين : امتصه . (القاموس المحيط : ٢٦٣/١)

^{٤٤} - الأكسجين الصافي (السيد رشيد رضا : ٢٨٧)

^{٤٥} - ذأى : ذوى (القاموس المحيط : ١٦٥٧/١)

^{٤٦} - أرى الظل يأزو : قلص (القاموس المحيط : ١٦٢٥/١)

بسر القلم الذي سطر عليها ما يبدو في الظاهر سرياً من النمل الأسود ولكنه في الواقع شعاع ينبير العقول بالمعارف التي لا تنتاهى. يقول :^{٤٧}

وصاحباي دَفْتَرٌ فِي طَيْهِ مِثْلُ مَدَبِّ النَّمْلِ يَسْعَى فِي الرُّبَى
فَرْدٌ وَلَكِنْ قَدْ حَوَى إِهَابَهُ كَلَّ شُعُوبَ الْعَالَمِينَ وَحَوَى
وَقَاتِمُ الْأَعْمَاقِ لَكِنْ كَمْ بَدَا مِنْ أُنْفِقِهِ بَدْرٌ وَكَمْ نَجْمٌ هَوَى
وَجَمَعَ الْأَضْدَادَ فِي غُضُونِهِ وَأَلْفَ الْأَشْتَاتِ مِنْهَا وَضَوَى
فَالضَّبُّ وَالنِّينَانُ تَرْتَعِي مَعاً وَالشَّاءُ وَالسَّرِحَانُ يَسْرَحْنَ سِوَى
لَوْ جَالَ طَرْفُ الطَّرْفِ فِي سَاحَاتِهِ وَطَافَ مَا بَيْنَ الرَّجَا إِلَى الرَّجَا
عَتَّتْ لَهُ عَوَالِمُ الْأَرْضِ كَمَا لَاحَتْ لَهُ بِهَا السَّمَوَاتُ الْعُلَى
كَمْ عَالِمٍ أَمْوَاهُ مَدَّهُ طَعَّتْ وَعِلْمٌ بُرْكَانٍ نَارُهُ التَّظَى

وأما صاحبه الثاني في المنتزه فهو صديقه العريس ، الذي أنشأ من أجل تهنئته المقصورة ، وشرع في مدحه بأنه عفيف طاهر الثياب ، لم يعرف الغرام الحرام ، ولم يرفع رأسه إلى مغازلة النساء ، بل كان منصرفاً إلى التحصيل العلمي ، الذي بذ فيه الأقران ، كما وصفه بالحزم والصدق والتجربة والوفاء لأصدقائه ، والبعد عن التملق والطيث ، كما وصف أسرته بالنجابة أصلاً وفرعاً وبالرئاسة العلمية وبالكرم والسخاء ، ثم تحدث عن العلاقة الحميمة والعريقة التي تجمع بينهما ، وهنأ الوطن على هذا الابن النجيب :^{٤٨}(٢)

وَأَرُوْعِ تَلْقَاهُ فِي رِيْعَانِهِ رِيَّانٌ مِنْ مَاءِ الْعَفَافِ وَالْحَيَا
مَا خَاصَرَتْ يَمِينَهُ خَصْرًا وَلَا غَازَلَ فِي الْعَرَامِ غَزْلَانَ النَّقَا
قَدْ أَنْجَبْتَهُ أُسْرَةً لَقَدْ زَكَتْ أُصُولُهَا وَفَرَعُهَا قَدْ اعْتَلَى
قَوْمٌ لَقَدْ كَانُوا مِنَ الْبَدِءِ وَمَا زَالُوا مِثَالَ الْعِلْمِ فِينَا وَالتَّقَى

وفي الجزء الثاني من المقصورة يصف الشاعر ما انتابه من الهم والغم ، ليس لفقد حبيب أو مال ، وإنما لما أصاب أمة الإسلام من التخلف والهوان ، بعد الرفعة والعزة ، وذلك بسبب إعراضها عن دين الله ، الذي فيه عزها ، والذي بتمسكه ساد

^{٤٧} - السيد رشيد رضا: ٢٨٨

^{٤٨} - السابق: ٢٨٩

(٢) السابق ، ص ٢٨٩

أسلافهم منذ فجر الإسلام ، وفي عهود الدول الإسلامية القوية ؛ في العهد الراشدي والعباسي والأندلسي ، وينوه بفضل الحضارة الإسلامية ، على العالم ، وأن نهضة الأمم الأوربية مدينة لها ، ويتعجب من منطلق متفرنجة المسلمين ، الذين ينسبون تخلف المسلمين إلى التمسك بالدين الإسلامي ، ثم صور طرفا من استبداد السلطان التركي ، وفساد أعوانه ، ومعاناة الرعية من ظلمهم :^{٤٩}

كم ليلة أبيتها مفكراً	يفي ليّ السهد ويخلف الكرى
لو أنما أبكي لمحبوب جفا	أو مالٍ اغتيل و ذي قربي قضى
وأعوز الصبر فقيل جازع	أشبه ربات الحجال في البكا
لراعني القول بصدقه وقد	يقصد من يصدق إن قيل رمى ^[٥٠]
لكنما أبكي لمجد أمة	ثلث عروشه ^[٥١] و حُلت العرى
ووطن ذل فأمسى حوضه	(مدعثر الأعضاء مهدوم الحبي) ^[٥٢]
و ملة حكيمة رحيمة	قد تركت للجهل كالشيء اللقى ^[٥٣]
و قال فيها الأخسرون إنها	علة هذا الانحطاط والشقا
فكيف كانت علة السعادة الـ	تي مضت لنا و ذاك الارتقا
(بها) أصبنا الملك والحكمة والـ	علم (بها) فما عدا مما بدا ^[٥٤]
فارجع إلى تاريخ خير أمة	قد أخرجت للناس وابعث الأسى
يريك عصر الراشدين المثل الـ	أعلى لِكُنْه العدل زانه الهدى
والمجد والزينة والقوة في الد	ين حوى قصرُ الرشيد ووعى
و جنة الزهراء ^[٥٥] في أندلس	حيث الإمام الحكم العدل ثوى

^{٤٩} - المنار: ٢٦/١١/٢

^{٥٠} - يُقصد بضم الياء : يصيب المرمى (المنار)

^{٥١} - أي عروش المجد . (المنار)

^{٥٢} - المدعثر المهدوم اسم مفعول ، والأعضاء ما حول شفير البئر من البناء كالصفائح وغيرها ، ومثله مهدوم الحبي ، وهي جمع حبوة ، ما يحيط بالبئر من البناء كالثوب ، الذي يحتبي به الإنسان ، والشطر لابن دريد

^{٥٣} - اللقى بالفتح ما يلقي وي طرح لهوانه وعدم الحاجة إليه . (المنار)

^{٥٤} - بها الثانية تأكيد للأولى التي تفيد الحصر بتقديمها على الفعل وجملة (فما عدا مما بدا) من كلام علي (عليه السلام) ومعناها هنا : فما الذي صرف هذه الملة عن مثل ما كان لها من التأثير مما بدا وظهر بعد ذلك ؟ وهو رد على زعم متفرنجة العصر المرتدين أن الإسلام عائق عن العمران والعزة والقوة والثروة (المنار)

^{٥٥} - معطوف على قصر الرشيد .

والجمع ما بين علوم النقل والد
عقل إلى المأمون عهده انتهى
أحيا ببغداد فنوناً درست
إذ كان عمران ذويها قد عفا

والجزء الثالث ، وعدد أبياته (٨٨) خاص بالإمامين المصلحين ؛ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وفيه يتحدث عن جمال الدين أولاً ، وعن سعيه في إيقاظ الأمة ، ونضاله في بث الوعي ، ومحاربة الجهل والاستبداد ، وما أصابه في ذلك من النجاح في فارس ومصر ، وما قاساه في تركيا من رفض إصلاحاته ثم أفاض في وصف السيد جمال الدين بنفاز البصيرة ، ومضاء العزيمة ، حتى رفع منزلته على كافة أهل عصره ، وعلى أهل العصور السابقة ، إلا من اختص بالوحي ، وجعل شاهد ذلك ، ما أحدثه في مصر من اليقظة الفريدة ، بتربيته الحكيمة ، وخطبه البليغة ، ودروسه العلمية المفيدة ، ثم قرن به تلميذه النجيب الإمام محمد عبده ، الذي كان منه بمنزلة هارون من موسى ، فجعله وارثه في كل شيء ؛ في الحكمة التي تكشف أحلاك الدجى ، والغيرة المتأججة ، والهمة العالية ثم شرح ما كان من تآزرهما في السعي لإنقاذ الأمة ، وإصدارهما لمجلة العروة الوثقى. ثم تحدث عن جهود الإمام محمد عبده الإصلاحية في مصر ، بعد أن فارق جمال الدين الأفغاني ، ومحاولاته في إصلاح الأزهر الشريف خاصة والتعليم الديني عامة ، وما كان لدروسه وحلقاته العلمية من الأثر الجليل في تخريج جيل من المثقفين ، يحمل دعوته ، ويرث عنه رسالته.^{٥٦}

لولا صياح مُنذِرِ أَهَابِ أَنْ هُبِّي وَعَنْ عَيْنَيْكَ فَامسَحِي الْكُرَى
قد طَلَعَ الصُّبْحُ ففُومِي وانظُرِي ما فَعَلَ المُسْتَيْقِظُونَ فِي الْوَرَى
قد رَكَّبُوا البُخَارَ والبرقَ إِلَى ما يَنْتَحُونَ ثم طَارُوا فِي الهوى
وأنتَ بعدَ الخَيْلِ والجَمالِ والِدِ شَرَّاعٍ قد صِرْتَ إِلَى مَشْيِ الحَفَا
ذاك جَمالُ الدينِ فيلسُوفُنَا وتِلْكُمْ دَعْوَتُهُ التي دَعَا
أنفدُ أَهلَ عَصْرِهِ بِصِيرَةٍ وَغَيْرِ أَهلَ عَصْرِهِ مِمَّنْ مَضَى
إِلَّا مَنْ اخْتارَ العَلِيمُ واصطَفَى فيمَا لَهُ اخْتارَ الحَكِيمُ واصطَفَى
يَخْتَرِقُ الحُجْبَ شُعاعُ عَقْلِهِ ويشهدُ الغُيُوبَ كلما رنا

عنه سألوا مِصرَ وذلك الرِّجا تُبْنِكُمْ الآثَارُ ثُمَّ والصُّوى
 ثمتَ قامَ بالإصلاحِ بعده مُريدُهُ الوارثُ كلَّ ما حوى
 من حِكْمَةٍ تَكشِفُ أخلاكَ الدُّجى وَغَيْرَةٍ تَأْكَلُ فيها الجُدَى
 وهِمَّةٍ إِنْ جُرِدَتْ لِحادِثٍ تُبِيحُ أسرارَ تصاريفِ القضا
 تآزراً لِيُنقِذا الأُمَّةَ مِنْ فِرْعَوْنِها الذي استبدَّ وَعَلا
 قد ورثا موسى وهارونَ بما تآخيا والمُصطفى والمرضى
 واعتصما (بالعروة الوثقى) فذا حرَّ ما أملاه ذاك أو هدى
 واقتسما الإصلاحَ شَطْرَيْنِ فذا آثرَ إصلاحِ العُلومِ والحِصا
 وذاك للسياسةِ التي قضى بها وأما وطراً بما^{٥٧} قضى
 ما تمَّ للإمامِ ما أرادَ مِنْ خُطْبَي الإصلاحِ هَدْمًا وبِنا
 ولم يفتَهُ كُلُّ ما شاءَ فقد خَرَجَ مَنْ يُتَمُّ كلَّ ما بنى
 إذ استجابَ اللهُ ما به دَعا وزالَ ما حاذرُهُ بما رجا
 وعَلَّمَ الأزهرَ كي يَفقهَ الـ دِينَ وَيَطْلُبَ العُلومَ واللُّغى
 مِنْ غيرِ بَحْثٍ في مقالٍ مِنْ خَلُوا يَكثُرُ فيها الاحْتِمَالُ والمِرا
 فَإِنْ يَكُ الأزهرُ لم يَصْلُحْ بها فقد نأى عن سُبُلِ مَنْ كان مَأى
 وَنَبَتَتْ مِنْ غَرَسِهِ نَابِتَةٌ ستَلَامُ الصَّدَعِ وَتَرَابُ النَّأى
 وَتَرَفَعُ الحَجَرُ عن المَعهَدِ أو يَعُودُ جُحْرُ الصَّبِّ رَحْبًا كالفِضا
 حَتَّى يَنالَ وهو قد أَشْفَى الشِّفا مِنْ مَرَضِ باتَ به عَلى شِفا

وأما الجزء الرابع والأخير ، والذي لا تتجاوز أبياته خمسة وعشرين بيتا ، فهو
 نصح وإرشاد وتوجيه للدعاة ، بقصد التثبيت على سبيل الحق ، ولو كان سالكوه قلة
 ، فإنه ليس من طبيعة دعاة الحق الخور والضعف ، أو الاستسلام والانقطاع
 لطغيان الباطل ، وإنما عليهم مواصلة الجهاد ، واصطناع الوسائل الكفيلة لمناصرة
 الحق ، وعلى رأسها المال ، إذ ليس من الزهد ترك الكسب أو الاستهانة باقتناء المال

^{٥٧} - هكذا في المطبوع ، ولعل الصواب : "فما" بدل "بما"

، فالمال خير وسيلة ، لنيل الثناء والثواب ، وإنما الزهد أن لا تعبد المال ، بل تعبده
 لخدمة الدين والخير : ^{٥٨}

فَرُبُّمَا كَانَ حَصَاها كالحَصَا	لا تُعْجِبُكَ كَثْرَةُ جَاهِلَةٍ
كثيرةً بالاتِّحَادِ والنُّهْيِ	كَمْ فَنَةٍ قَلِيلَةٍ قَدْ غَلَبَتْ
تَعْجَزُ عَنْهُ مِنْ فُجُورٍ وَخَنَا	وَلَيْسَ تَقْوَى اللَّهِ أَنْ تَتْرَكَ مَا
يُرِيدِي وَأَخَذِ مَا اسْتَطَعْتَ مِنْ قُوَى	وَأِنَّمَا التَّقْوَى اجْتِنَابُ كُلِّ مَا
تُنْقِضُ أَنْكَاشًا بِفَقْدِكَ الْقُوَى	وَالْمَالُ عُدَّةٌ لِكُلِّ قُوَةٍ
وَلَا تَكُنْ عَبْدًا وَإِنْ قِيلَ فَتَى	فَاكْتَسَبَ الْمَالَ وَكُنْ رَبًّا لَهُ
وَعَابِدُ الْمَالِ لَنَيْمٍ يُجْتَوَى	مُعَبَّدُ الْمَالِ كَرِيمٌ يُرْتَجَى
تُنْفِقَ مِمَّا نِلْتَ فِي نَفْعِ الْوَرَى	وَالزُّهْدُ أَنْ لَا تَعْبُدَ الْمَالَ وَأَنْ
وَرُبَّ زُهْدٍ كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى	كَمْ مُمْلِقٍ وَهُوَ حَرِيصٌ طَامِعٌ
عَلَى يَدِ الْإِفْلَاسِ تَابَ وَاهْتَدَى	وَكَمْ فَقِيرٍ تَابَ أَوْ مُهْتَدٍ
سَارَعَ فِي الْإِثْمِ وَضَلَّ وَغَوَى	وَهُوَ إِذَا أَصَابَ فَضْلَ ثَرْوَةٍ
مُرْتَدِيًا بُرْدِي عَفَافٍ وَهُدَى	وَرُبَّ ذِي وَفْرِ تَرَاهُ تَائِبًا
صَلَابَةَ الدِّينِ وَنِعْمَةَ الْغِنَى	قَدْ جَمَعَ اللَّهُ الشَّتَيْتَيْنِ لَهُ
أَزَلَّ رَبَّاتِ الْخُدُورِ وَاصْطَبَى	وَهُوَ إِذَا شَاءَ بِفَضْلِ مَالِهِ

بين المقصورة الرشيدية والمقصورة الدريدية

عارض السيد رشيد رضا مقصورته بمقصورة ابن دريد ؛ العالم اللغوي الشهير ، وصاحب معجم "جمهرة اللغة" (٢٢٣-٣٢١) ، وكان رشيد معجبا به وبأدبه . أنشأ دريد مقصورته في مدح أحد الولاة^{٥٩} ولكنه أودعها كثيرا من الموضوعات التاريخية والأدبية ، وضمَّنَها حِكْمًا ووصفا للفرس والسحاب والخمر ، فهي تجمع أغراضا كثيرة .^{٦٠}

اشتهرت مقصورة ابن دريد شهرة عظيمة ، لما حوته من الثروة اللغوية الكثيرة ، وخاصة في الأسماء المقصورة ، فقد جمع فيها ما تفرق في شتى المعاجم من كل مقصور^{٦١} ولهذا عنيت باهتمام الأدباء والعلماء ، فكثرت معارضاتها وشروحها ، حتى ذكر في بعض المصادر أن شروحها تربو على الثلاثين .

تتفق المقصورتان في الوزن والقافية ، فكلتاها من بحر الرجز ، وعلى قافية الألف المقصورة ، وتتعدد الأغراض في المقصورتين ، وإذا كان الغرض الرئيسي في الدريدية مدح الأمير أبي العباس إسماعيل بن عبد الله بن محمد الميكالي ، فالغرض الرئيسي في الرشيدية مدح صديقه عبد القادر المغربي ، وتهنئته بمناسبة زفافه ، "وإذا كان ابن دريد له صاحبان ؛ السيف والحصان ، فإن رشيد رضا له صاحبان هما الروضة والكتاب" .^{٦٢} وتتميز المقصورة الرشيدية بطولها ، حيث أربت على أربعمائة بيت ، وأما الدريدية فأبياتها مائتان واثنان وخمسون فقط.

استعار رشيد رضا كثيرا من أساليب الدريدية ، ومن ذلك محاكاته لابن دريد في اصطناع صاحبين ، ومع هذا فهو يرى أن مقصورته أفضل من مقصورة ابن دريد ، وحكى عن الشاعر المصري حافظ إبراهيم أنه فضل مقصورته على مقصورة ابن دريد ، وقد سبقت الإشارة إلى أن رشيد رضا تناول في مقصورته القضايا العصرية التي تهتم مجتمعه ، وعلى رأسها الإصلاح الإسلامي ، وكان يرى أن الأدب

^{٥٩} - ديوان ابن دريد ، وشرح مقصورته للخطيب التبريزي ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه ، راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي ، ص ٢٦٢

^{٦٠} - محمد بن دريد وكتابه الجمهرة ، د. شرف الدين علي الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ، إسكندرية ، ١٩٨٥ م ، ص ١٩٩

^{٦١} - شرح مقصورة ابن دريد ، الأستاذ عبد الوصيف محمد ، المكتبة الشعبية ص ٣

^{٦٢} - محمد بن دريد وكتابه الجمهرة ، د. شرف الدين علي الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ، إسكندرية ، ١٩٨٥ م ، ص ١٩٩

الصحيح هو الذي يخدم أمته ، ويتبنى قضايا ، ويدافع عن قيمها العليا ، فلعله من أجل ذلك رأى أن مقصوده أولى بالتقديم من مقصورة ابن دريد الذي لم يلتفت إلى هذا ، بل ناقض ذلك بوصفه الخمر ومجالسها ، وإلا فمقصورة ابن دريد نالت من تقدير أهل العلم والأدب ما لم ينله كثير من الشعر الجيد في عصره وبعد عصره .

المطلب الثالث : ديوان السيد

والمصدر الثالث لشعر السيد رشيد رضا هو ديوانه الذي فرغ من طبعه أو جمعه وإعداده قبيل وفاته ، والديوان وعنوانه : "ديوان السيد" صغير الحجم ، يحوي ثلاثين قصيدة ، لم نجد لها منشورة في أي مكان آخر ، وكتب السيد له تمهيدا وخاتمة ، وذكر في الخاتمة أنه سيعقبه بديوان آخر ، حيث قال : "وسأعقبه - قريبا بعون الله - بديواني الثاني "ديوان الرشيد"^{٦٣} وذيل الخاتمة بهذا التاريخ : " في ١٠ شعبان سنة ١٣٥٤هـ" ، وهذا تاريخ غريب ، لأن السيد مات في ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٤هـ بإجماع المصادر ، وكتب مقدمة للديوان الأستاذ طه عبد الباقي سرور مؤرخ الفلسفة الإسلامية ، كما يعرفه به رشيد رضا وسكرتير تحرير مجلة الإسلام ، كما وقع هو في المقدمة ، وذلك في غرة محرم عام ١٣٥٤هـ ، فلعل رشيدا كتب الخاتمة إما في شعبان من عام ١٣٥٣هـ ، وليس عام ١٣٥٤هـ ، أو بعد مقدمة الأستاذ طه عبد الباقي سرور ، ووقع خطأ في اسم الشهر ، وأيا كان الأمر ، فليس بين الفراغ من الديوان الأول ، وموت السيد رشيد رضا إلا بضعة أشهر على الأكثر ، ومن ثم لا يتوقع في هذه المدة الوجيزة صدور ديوان الرشيد الذي بشر به في حياته.

أما عن المادة الشعرية التي كان سيضمونها في ديوان الرشيد ، هل هي مادة جديدة أم من شعره القديم ؟ فليس هناك ما يشير إلى شيء من ذلك ، سوى أن الاسم قريب من اسم المقصورة الرشيدية ، فلعل ديوان الرشيد كان سيتضمن المقصورة وحدها أو مع غيرها ، وقد سبقت الإشارة إلى اعتزازه بالمقصورة ورغبته في شرحها وطبعها.

ديوان السيد كما سبق يحتوي على تمهيد لرشيد ، ومقدمة للأستاذ طه عبد الباقي سرور ، وثلاثين قصيدة ، وخاتمة لرشيد رضا ، وخمسة تقارظ ، كلها بالشعر إلا واحدا ، ويخلو الديوان من الهوامش ، ما عدا هامشا واحدا ، كتبه رشيد في تعريف كاتب مقدمة الديوان ، وليس في التمهيد والمقدمة والخاتمة والتقارظ أي

^{٦٣} - ديوان السيد: ٩٠

معلومات عن الديوان أو شعر رشيد رضا بصفة عامة ، غير ما أشار إليه رضا في الخاتمة من أنه عازم على إصدار ديوان آخر في وقت قريب .
وأما تصنيف قصائد الديوان حسب موضوعاتها فنجد أن عشرًا منها في الوطنيات وأربعًا في الغزل ، وخمسة في الوجدانيات ، وثلاثًا في الاجتماعيات ، وأربعًا في مدح الأزهر وشيوخه ، واثنان في الإسلاميات ، وواحدة في الشرق ، وأخرى في وصف قلمه ، فتلك ثلاثون قصيدة .

الوطنيات

يستشف من نغمة وطنيات رشيد أنها نظمت في فترة الاحتلال الفرنسي والإنجليزي للبلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى ، والقصائد متشابهة كلها تفيض ألما وحسرة لما أصاب البلاد والعباد من معرة الهجمة الاستعمارية ، كما أنها تنقد حماسًا لدرجة أن قارئها يخيل إليه أن رشيدًا قال هذه القصائد في ساحات الحرب ، وميادين القتال ، يأمر المقاتلين ، ويوجه المحاربين ، كقوله : ^{٦٤}

قم فتى الغرب إلام الاضطهادوارفع الضيمَ وجاهد للبلاد
واقترح ساح الوعى بالاتحاد سوف تحظى بعد هذا بالمراد
وتنال النصر من رب العباد

وقوله : ^{٦٥}

هيا خذوا بيد الأوطان واخترقوا صمصامة الشام واجلوا باسمها الغررا
وامضوا إلى حومة العلياء واعتمدوا على القوي وكان الله مقتدرا

وقوله : ^{٦٦}

هبوا رجال الشام عن أو طانكم أقصوا الطغاة بكل أبيض صارم
لا يزدهي مجد ليعرب لم يكن تدعيمه بدم الكمي المقدم

وقوله : ^{٦٧}

^{٦٤} - ديوان السيد: ٦٥

^{٦٥} - السابق: ٧٠

^{٦٦} - السابق: ٤٧

^{٦٧} - السابق: ٥٢

هَبُوا بَنِي وَطَنِي بِالسَّيْفِ وَاقْتَحِمُوا سَاخَ الْمَعَامِعِ فِي حَزْمٍ وَإِقْدَامِ
صُونُوا حِمَى وَطَنٍ جَلَّتْ مَصَائِبُهُ وَالغَرْبُ أَثْقَلَهُ فِي جَوْرِ أَحْكَامِ
وَامْتَصَّ مِنْهُ دِمَا أْحْرَارِهِ وَغَدَا يَسُومُهُ الْخَسْفَ أَعْوَاماً بِأَعْوَامِ

وهكذا تتلاحق أوامره ، وتتوالى نداءاته ، ويتعالى صوته بالدفاع عن الوطن بالروح والدم. ويذكر رشيد أبناء الوطن العربي بماضيهم المجيد ، وتاريخهم الناصع ، وأمجادهم التي عرفها القاصي والداني ، والفتوحات العظيمة التي تمت على أيدي أسلافهم المغاوير ، والحضارة السامية التي أقاموها ، فأشرقت أنوارها على ربوع العالم قاطبة ، فكيف يرضى اليوم أحفاد خالد وسعد وطارق وعبد الرحمن الغافقي أن يستكينوا ويستذلوا لأجنبي مستعمر غاشم ، ينتهك حرمتهم ، ويستبيح بلادهم يقول :

٦٨

قَمِ يَا ابْنَ يَعْرَبٍ جَدِّدِ الْمَجْدَ الثَّمِينِ مَجِدَ الْجُدُودِ الْفَاتِحِينَ الْمَالِكِينَ
قَمِ لِلْغُلَا وَاطْرُحْ عَنِ النَّفْسِ الصَّغَارِ وَارْفَعْ لِيَوَاءِ الدِّينِ بَيْنَ الْعَالَمِينَ
الشَّرْقُ سَادَ بِجِدِّهِ أُمِّمِ الْوَرَى وَبِعِزَّةِ خَفَقَتْ بُنُودُ الْمُسْلِمِينَ
بِيَزْنَتِيَا سَلِّهَا وَسَلِّ غَرْنَاطَةَ عَنِ خَيْرِ مَجْدِ الْغُرَاةِ الظَّافِرِينَ
سَلِّ قُبْرُصَا سَلِّ رَوْدِسَا وَالْقَيْرَا نَ وَقُرْطُبَا وَالْقَادِسِيَّةَ وَالْحُصُونِ
سَلِّ خَالِدَا سَلِّ طَارِقَا سَلِّ سَعْدَكُمْ فَتَكَتْ سَيُوفُهُمْ بِجَيْشِ الْكَافِرِينَ
بُرْنَايَ سَلِّ أَبْطَالَهَا قَدِمَاؤُهُمْ ذِكْرِي لِنَصْرِ الْغَافِقِيِّ عَلَى السِّنِينَ
فَالِي الْغُلَا يَا نَسْلَ يَعْرَبِ سَارِعُوا وَتَقَدَّمُوا لِلْمَجْدِ دَوْمَا قَاصِدِينَ
وَإِلَى الْحَضَارَةِ فَارْفَعُوا أَعْلَامَهَا كَيْمَا يَعُودَ الشَّرْقُ وَضَاءَ الْجَبِينِ

هؤلاء هم الآباء والأجداد ، وهذا ماضيهم ، وأي ماض هو ؟ إنه ماض من ذهب ولا يستعاد بالبكاء على الأطلال ، وإنما بحد السيف : ^{٦٩}

جَدِّدِ الْعَهْدَ الَّذِي مِنْ ذَهَبٍ وَتَقَدَّمْ فِي الْوَعَى وَاحْتَسِبِ
لَيْسَ يُجْدِي غَيْرَ لِمَعِ الْقُضْبِ هِيَ حَدُّ الْفَصْلِ لِلْمُرْتَقِبِ
فَانْتَضَوْهَا كَالنُّجُومِ الشُّهْبِ

٦٨ - السابق: ١١

٦٩ - ديوان السيد: ٣٢

ويخص الشاعر الشام بلفتة خاصة فينوه بمجدها السالف ، الذي دام أعصرا عاليا شامخا ، بسبب التضحيات التي قدمت في سبيل ذلك : ^{٧٠}

صَرَخَ الْغَلَا لِبُيُوتِ الشَّامِ مِنْ قِدَمِ الْمَجْدِ شَيْدَهُ الْأَحْرَارُ فَاسْتَطْرَا
فَانْهَضَ هُدَيْتَ وَلَا تَحْفَلْ بِذِي حَوْرٍ وَاحْفَظْ لِيَعْرُبَ مَا قَدْ خَلَدُوا عَصْرَا
وَانْظُرْ إِلَى صُحُفِ التَّارِيخِ تَلْقُ بِهَا أَعْيَانَ مُلْكٍ عَتِيدٍ قَدْ عَدَتْ أَثْرَا
فَوْقَ النُّجُومِ أَقَامُوهُ عَلَى عُمْدٍ مِنْ الْبَسَالَةِ لَوْ تَلْقَى لَهُ نَظْرَا
إِذْ قَدَّمُوا مُهَجَّ الْأَرْوَاحِ مَهْرَ عَلَا فِي حُبِّهِ لَمْ يَنَالُوا دُونَهُ خَطْرَا

ثم يحث الأحفاد على تجديد ذلك الماضي المجيد ، لينعموا بمثل ما نعم به أسلافهم من العزة والمنعة : ^{٧١}

يَا حَفِيدَ الْعُرْبِ يَا نَسْلَ الْأَوْلَى شِيدُوا الصَّرْحَ وَجِدُّوا لِلْعُلَى
يَا ابْنَ مَنْ أَعْلَامَهُمْ بَيْنَ الْمَلَا خَفَقَتْ لِلْمَجْدِ تُحِييَ الْأَمَلَا

جَدِّدِ التَّارِيخَ وَاشْفِ الْعِلَلَا

ويعد الشاعر إلى تصوير ما لحق البلاد على أيدي الغاصبين ، ليحرك بذلك نخوة الشباب المجاهدين ، ويثير فيهم مشاعر الكراهية والغضب ، فيهبوا للدفاع عنه ، ويستبسلوا في التضحية من أجله ، ويبلوا في القتال والمقاومة بلاء حسنا : ^{٧٢}

قُمْ يَا فَتَى الْعَرَبِ الْبِلَادُ حَزِينَةٌ لِمَتَى تَتَنُّ وَلَا تَرَكَ مُجَاهِدَا
قُمْ لَبَّهَا فِدْمَاوَهَا مُهْرَاقَةٌ قُمْ فَارْفَعِ الضَّيْمَ الَّذِي فِيهَا عَدَا
هَذَا دَمُ الشُّهَدَا يَفُوحُ عَبِيرُهُ هَذَا دَمُ الْأَحْرَارِ لَنْ يَتَجَمَّدَا

ويقول في معاناة أهل لشام بصورة خاصة ، وطغيان الفرنسيين فيها ، ويطشهم للأحرار من أبنائها : ^{٧٣}

هَذَا فَرَنْسُهُ كَمْ فِي الشَّامِ قَدْ عَسَفَتْ كَمْ قَتَلَتْ وَنَفَتْ مِنْ خَيْرِ أَقْوَامِ
تَبَّتْ يَدَاكَ فَرَنْسَا كَمْ غَدَرْتِ بِنَا شَلَّتْ يَمِينِكَ وَلَنَحْيَا بِأَكْرَامِ

^{٧٠} - ديوان السيد : ٦٩

^{٧١} - السابق : ٦٥

^{٧٢} - السابق : ١٣

^{٧٣} - السابق : ٥٢

كم قد سَفَكَتِ دَمًا فَاحَتِ عَبَائِرُهُ فِي الْكَوْنِ وَانْتَشَرَتْ تَعْلُو عَلَى الْهَامِ
ويقول : ٧٤

هذي فرنسُهُ أَهْلَ الشَّامِ فَاَنْتَبَهُوا ماذا تُرِيدُ بِكُمْ يَا سَادَةَ الْأُمَمِ
الشَّامُ قَدْ سَفَكَتِ فِيهَا الدَّمَاءَ وَغَدَّتْ فِيهَا الْقَنَابِلُ تَصْلِيهَا مِنَ الْحُمَمِ
قَدْ هَدَمَ الصَّرْحَ مَدُوبٌ لَطَاغِيَةٌ تَبَّتْ يَدَاكَ لِتَحْكِي سِمْنَةَ الْوَرَمِ

ولا يستخدم الفرنسيون والمستعمرون قوة السلاح فقط ، بل يلجئون إلى شتى الحيل
لتضليل المحتلين المستضعفين ، وتوهين عزائم المقاومين ، وتيئيسهم من الانتصار
على العدو ، ليتقاعسوا عن المقاومة والدفاع ، فينبه إلى ذلك رشيد : ٧٥

أَيْنَ الْأَوْلَى ذَهَبُوا يَا قَوْمَ فَاَنْتَبَهُوا ماذا يُرَادُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ وَالْحَرَمِ
الْعَرَبُ حَاكٌ شِبَاكًا مِنْ خَدَائِعِهِ كَمْ ضَلَّلَ الْقَوْمَ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمِ
وأحيانا يستثمر الشاعر بما عرف به العربي من الشهامة وإباء الضيم ، والنفور من
النفوذ الأجنبي والأعاجم ، ليحرك بذلك نخوته ، فينشط لتلبية دعوة الوطن : ٧٦

هذي بلادك للأعاجم سِلْعَةٌ كَمْ سَامَهَا نَذْلٌ وَكَمْ فِيهَا اغْتَدَى
أَيْنَ الرِّجَالِ وَأَيْنَ مِنْهُمْ يَعْرُبُ أَيْنَ الشُّعُورُ الْحَيِّ أَيْنَ تَبَدَّدَا
أَفَلَيْسَ مِنْ قَحْطَانٍ أَصْلُ دِمَائِكُمْ أَفَيَقْبَلُنْ قَحْطَانُ أَنْ يُسْتَعْبَدَا
حَاشَا فَمَا الْعَرَبُ الْكِرَامُ بِذِلَّةٍ عَاشُوا وَلَا وَهْنَتْ جَحَافِلُهُمْ يَدَا
مَا هُمْ سِوَى أَسْيَادِ سَادَاتِ الْوَرَى كَمْ مِنْ مَلِيكَ هَابَهُمْ وَتَوَدَّدَا
ويقول [أيضا : ٧٧

٧٤ - ديوان السيد : ٤١

٧٥ - السابق : ٤٠

٧٦ - السابق : ١٤

٧٧ - السابق : ٣٢

يا فتى العلياءِ يا ابنَ الأكرمين
 كيف تَرْضَى بالطغاةِ الغاصبين
 يا منارَ الفخرِ بينَ الناهضين
 للمعالي هُبَّ يا حاميَ العرين
 وارفعن شأوَ الأولى من يعرُب

ويتوعد رشيد فرنسا بالخيبة والخسران والندامة ، وبمقاومة عنيفة من أبطال البلاد ،
 مما يحول بينها وبين تحقيق أطماعها الاستعمارية : ^{٧٨}

إيه فرنسا ضلَّ سَعِيكَ فاحذري
 لا يَخْدَعَنَّكَ يا فرنسا ما الذي
 نارا يطيرُ شرارها وستندمي
 تُلفِينَهُ من خادع مُتَلْتِم
 ليس العرينُ بفاقدٍ أشباله
 وستصلينك يا فرنسا نارها
 ولتسقينك من نقيعِ العلقم

كما يندد بالمتعاملين مع المستعمر من أبناء الوطن ، ويعتبر ذلك عقوقا ، بل خيانة
 عظمى لا تغتفر ، ولا عبرة بالمناصب التي يتبوعونها في ظل سيادة العدو ، فإنهم
 مسيرون مأمورون مهما حاولوا الظهور في أعين الناس سادة ورؤساء : ^{٧٩}

وطنَ العروبةِ كيف يجسرُ مؤمن
 لينالَ حظاً من دخيلِ غاصبٍ
 بك أن يخونَ عهودَ ودك راغبا
 يُعْطيه ما يهوى ويهوى المنصبا
 ظلماً ويظهرُ فيك حُباً كاذبا
 أنشأه من عَدَمٍ وفيه تَقَلِّبا
 ما عاش إذ نكبَ البلادَ وعذبا
 وطغأ وجاوزَ حدَّهُ وتذابا
 كم ساومَ الدُخلاءَ وهو أسيرهم

ويتألم رشيد أشد التألم أن يكون بعيدا عن الوطن في هذا الوقت العصيب ، الذي
 يبرز فيه تحت وطأة الاحتلال الأجنبي ، ويفتك المستعمر الغاصب الغاشم بالأحرار
 من أبنائه الأباة ، ولو كان في الوطن لبادر إلى فدائه بالروح والدم : ^{٨٠}

^{٧٨} - ديوان السيد: ٤٤

^{٧٩} - السابق: ٨٢

^{٨٠} - السابق: ٥١

النفسُ ثائرةٌ والله يا وطني والبُعدُ عنك يزيدُ اليومَ تهيامي
قلبي سقيماً وأحشائي مُمزقةً والعينُ في أرقٍ من جورِ أيامي

وقال أيضا :^{٨١}

كيف اصطباري عن فدائك بالدِّمَا ودَمُ العُروبةِ في عُروقي قد جَرَا

لكنه وهو في غربته يتابع أخبار البلد بقلب مقروح ، ومقلة دامعة ، فيقول متألماً:^{٨٢}

لا خيرَ في يومِ عليٍّ شُموِسُه طلعتْ ولم أدُكُرْكَ يا مَهْدَ الصبا

نفسِي تحنُّ وأدمعي هتانةً والقلبُ مُحترقٌ دِماهُ تَصِيبًا

وفي الديوان قصيدتان إسلاميتان إحداهما بعنوان : (روح الإسلام) نظمها الشاعر بمناسبة تأسيس رابطة إسلامية في القاهرة سميت برابطة الشباب الإسلامي في سنة ١٣٣٥ ، وفيها دعا رشيد الشباب إلى الانخراط في سبيل الدعوة إلى الله ، ونشر عقيدة التوحيد وإلى الاقتداء بالرعيل الأول الذين رباهم المصطفى صلى الله عليه وسلم ، والتمثل بإيمان الصديق ، وعدالة عمر ، وتقوى عثمان ، وصوله علي في الحق ، وغيرهم من الصحابة الكرام ومن أبطال الإسلام العظام الذين شادوا قلاع الإسلام :^{٨٣}

قم واذكر الصديق أولَ مؤمن وانشرْ مفاخرَ فضله لا تجحد

واذكر لنا الفاروقَ في أحكامه كالأصَّارمِ العَضْبِ الذي لم يُغمد

وكذاك ذا النورين عثمانَ الشه يدَ أختِ الفضيلةِ والتُّقى والسُّودد

واذكر لسيف الله صولةً بطشه في الحقِ يومَ الجَمعِ لم يتردد

هذي مآثرٌ من لدينِ المُصطفى شادوا القلاعَ على سماكِ الفرقد

لم لا نسير بهديهم بين الورى لنفوز بالظفرِ المُحتمِّ في الغد

ثم حيِّ شباب الرابطة ، وتوسم فيهم الخير ، ورجا أن يكونوا خير قدوة للشباب المسلم الحائر :^{٨٤}

^{٨١} - ديوان السيد : ٨١

^{٨٢} - السابق : ٨٤

^{٨٣} - السابق : ٢١

^{٨٤} - السابق : ٢٣

أَكْرِمُ بِرَابِطَةِ الشَّبَابِ طَلِيعةً تَهْدِي الأَنَامَ إِلَى الطَّرِيقِ المُفْرَدِ
وَتُثِيرُ لِلنَّشْءِ السَّبِيلَ إِلَى الهَدْيِ وَتُقَوِّمُ المُعْوجَّ مِنْ خُلُقِ رَدِي

والقصيدة الثانية بعنوان : (كفى كفى) وهي ردّ على افتراءات صدرت من بعض المنتسبين إلى الإسلام ، الساعين إلى إخضاع الإسلام للمفاهيم الغربية المادية ، فدعاهم جهالاً لبسوا ثوب الهداة ، بغية إضلال الناس باسم الشريعة : ^{٨٥}

يا صبيةً عَبَثَتْ رِيحُ الضَّلَالِ بِهِمْ ما الدين رائدكم بل كَيْدُ شَيْطَانِ
قمتم بدعوتكم لا تبتغون سوى إشباع شهوتكم في ظل إيمان
كلا ظنونكم والله خائبةٌ قد ساءَ فألُكم ما الدينُ بالجاني

وأما قصيدته التي خاطب بها الشرق ، فلا تختلف في مضمونها ونغمتها عن قصائده الوطنية ، وكان الشرق الذي يقصد به ما عدا الغرب مذهباً رائجاً في تلك الأيام ، لاستعلاء الغرب بحضارته ، وتفوقه التكنولوجي ، واستواء أمم الشرق في التخلف والتعرض لمظالم الغرب في شتى المجالات ^{٨٦} فحذر رشيد أمم الشرق من طمع الغرب وجشعه ، وذكرهم بأن الموت خير لهم من الخضوع للمستعمرين ، ويصف الشرق بأنه مطلع النور الحسي والمعنوي ، وأنه كان سيد الغرب بالأمس القريب ^{٨٧}

نظرةً يا شرقُ نحوَ الطامعين ببلاد الشرق مَهْدِ الفاتحين
مَطْلَعِ النُّورِ وَمَنْ قَدْ نَوَّرَتْ شمسُهُ العالَمَ مِنْ نورِ مَبِينِ
ما عهدنا الشرقَ إلا سيديا لبني الغرب على مرّ السنين
قد كفى نوماً فيا شرقُ انتبّه حان وقتُ الجدِّ يا حامي العرين
جاهدِ الأعداءَ في ساحِ الغلا ليُعودَ الشرقُ وضَاءَ الجَبِينِ

^{٨٥} - ديوان السيد : ٧٤

^{٨٦} - اشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية : وليم الخازن ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٢م ، ص ١٥٨

^{٨٧} - ديوان السيد: ٥٩

الأزهريات

لم ينس السيد محمد رشيد رضا الأزهر "وقد اغترب في سبيله ، ولمس في
جوه عشرة قرون في سماء المجد الإسلامي ، عشرة قرون ملئت أسراراً ، وفاضت
علماً وأدباً وفخراً ، فأضفى على الأزهر من خياله ما أضفى عليه الأزهر من حقيقته
، فجاء شعره فيه سحراً وحقاً." ^{٨٨}

نظم رشيد في الأزهر أربع قصائد ، إحداها بمناسبة اختيار فضيلة الشيخ
محمد مصطفى المراغي شيخاً أكبر للأزهر ، وكان ذا فكر إصلاحى ، وكان رشيد
رضاً كأستاذه الشيخ محمد عبده حريصاً على إصلاح الأزهر ، كثير السعي له ،
فوافق تعيين الشيخ المراغي هوى في نفسه ، وسجل ذلك شعراً ، مبيناً ما لهذه
المؤسسة العلمية العريقة من أثر خطير في حفظ تراث الإسلام ونشره : ^{٨٩}

يا طالبا لرياض العلم أزهرياً فيه الحياة إذا ما شئت ترجوها
أنواره سطعت في الكون ناشرةً آي المعارف للأرواح تهديها
فيه الثقافة والأخلاق تشهدُها دانت قطوفاً وقد طابت لجانيها
فيه الشريعة ينبوع لوارده من مائه العذب يروي النفس ظامياً

ثم يمدح الشيخ المراغي بالإخلاص والحزم والجد والأخلاق العالية ، والاجتهاد في
الإصلاح ، راجياً أن يتحقق على يديه الإصلاح المرتقب : ^{٩٠}

فيه المِراغي والإخلاص رائده بالحزم والجد والأخلاق عاليها
يا وارث العلم عن طه كفاك علماً أن الشريعة في ناديك ناديها
يا شيخ أزهرياً دُم للغلا علماً كالشمس تسطع من أعلى أعاليها
إصلاح أزهرياً قد بات مرتقباً في عهد حرّ أبي النفس سامياً
ربُّ الفضيلة للإصلاح مدخرٌ من قد أتى لعهود المجد يحييها
هذا المِراغي هذا شيخ أزهرياً هذا منارُ الغلا إن شئت تنويها

ويتحدث في قصيدة ثانية عما تعرض له طلاب الأزهر من الضرب والسجن على يد
الشرطة المصرية ذات يوم ، ويذكر رشيد أنه نظم هذه القصيدة في السجن الذي

^{٨٨} - ديوان السيد: ٨

^{٨٩} - السابق: ١٧

^{٩٠} - السابق: ١٨

قضى فيه مع بقية الطلاب أربعاً وعشرين ساعة ، وفيها تصوير لحال هؤلاء الطلاب الذين وفدوا إلى الأزهر من شتى بقاع العالم الإسلامي تحذوهم رغبة جامحة في العلم الشرعي في هذا المعهد العريق : ^{٩١}

في نمة الحق سبعٌ تَلَوها سَبْعٌ والعشرُ من بعدها ساعاتهم عَدُّ
قضيتها في ظلام السجن مَعَ نَفَرٍ من خيرة النشء بالإسلام يُعْتَدُ
جاءوا وجئنا إلى مصرٍ وغايتنا رياضُ علمٍ لنا في الأزهرِ القَصْدُ
جئنا نُرَوِّي نُفوساً جَدُّ ظامئةً من كوثرِ العلمِ فيه ماؤهُ شَهْدُ
فيه فطاحِلُ كم قد ثَقَّفوا أُمَّامكم قَوِّموا عِوجاً يا نِعَمَ ما أَسَدُوا

والقصيدتان الأخريان لم يذكر لهما مناسبة ، وإنما يشيد فيهما بالأزهر ، وبنوه ما له ولعلمائه من فضل في حفظ الدين والتراث الإسلامي ، وهذا دليل على أن رشيدا لم يكن في صراعه المشهور مع علماء الأزهر مدفوعاً من كراهية يكنها لهذه المؤسسة ورجالها ، وإنما كان ذلك ضناً بها ، وحرصاً على تطويرها وإصلاحها الذي لم يصغ إليه كثير من علمائه ، فكان نقده منصباً على هذا ، أما حبه في الأزهر ، وإعجابه برسالته عبر التاريخ فهو ما يعبر عنه في قوله : ^{٩٢}

النورُ مُنْبَجِسٌ من أزهَرٍ سَطَعَتْ أنوارهُ وغدا يَهْدِي المُضْلِينا
حَنَّتْ إليك نَفوسٌ شَقَّها سَقَمٌ ترجو الهدايةَ في ظلِ المُجَدِّينا
يا دُرَّةً في سَماءِ العُلياءِ لامعةً حماك رَبِّك من كَيْدِ المَكِيدِينا
نورَتَ في عالمِ الإسلامِ أزمناً قُرونها عشرةً أحييت مَلايينا
كم من فطاحِلٍ في علمٍ وفي أدبٍ غَدَّيت جمعهم من نورِ هادينَا
يا مَعهداً قد سما لا زلتَ مَفخَرَةً يَزهُو جمالكِ دوماً في مَعالِينا
قد صانَكَ اللهُ أزماناً بها بَرَعَتْ شمسُ الهدايةِ في دُنْيا أمانِينا
لا زلتَ كَعْبَةً آمالٍ يُحيطُ به نُورٌ من الله فيأضُّ بنادينَا

^{٩١} - ديوان السيد : ٣٣

^{٩٢} - السابق : ٧٢

ويعصور رشيد ما كان يحدوه من الأمل والرغبة في التزود من العلم ، والنهل من معين الأزهر الصافي ، عندما قدم إلى مصر كغيره من أبناء العالم الإسلامي ، وكيف تحققت رغبته على أفضل وجه وأكمله : ^{٩٣}

أَتَيْتَكَ صَادَ النَّفْسِ يَا طَيِّبَ الْوَرْدِ وَيَا مِنْهَلَ الْعِلْيَاءِ فِي مَطْعِ السَّعْدِ
 سَمَتَ بِي نَفْسِي لِلْعُلَا فَاتَّبَعْتُهَا وَوَفَّيْتُهَا حَقَّ الرَّعَايَةِ فِي الْوُدِّ
 دَعَيْتَنِي إِلَى الْآدَابِ وَالْعِلْمِ وَالْهُدَى فَلَبَّيْتُهَا لَمَّا دَعَيْتَنِي إِلَى الْمَجْدِ
 قَصَدْتُ رِيَاضَ الْفَضْلِ فِي أَزْهَرِ الْمُنَى وَنِعَمَ الْجَنَى يَهْدِي إِلَى جَنَةِ الْخُلْدِ
 هِيَ الثَّمَرَاتُ الْيَانِعَاتُ عَلَى الْحَيَا تُرِيكَ الْمَعَانِي فِي الْبَيَانِ وَفِي الْحَدِّ
 وَكَمْ مِنْ بَدِيعٍ فِي مَشَاهِدِ حُسْنِهِ أُصُولُ الْمَعَانِي لِلتَّنَاءِ وَاللْحَمْدِ
 رِيَاضُ شَدَتْ فِيهَا الْحَمَائِمُ بِالصَّبَا تُرِدُّ وَحْيَ الْأَوَّلِينَ بِمَا تُبْدِي
 بِهَا مَعْهَدُ الدُّنْيَا الَّذِي ذَاعَ ذِكْرُهُ بِنَاهِ لُيُوثِ الْغَابِ فِي سَالِفِ الْعَهْدِ

الغزل

يفرد رشيد في ديوانه أربع قصائد في الغزل ، كلها تحمل اسم دعد ؛ اسم محبوبته أو رمزا يرمز به إلى محبوبة حقيقية هاجت مشاعره ، أو رمزا عاما لا يرتبط بامرأة بعينها ، كل ذلك وارد ، وإن كان من المستبعد أن يشبب رشيد بامرأة معينة مصرحا باسمها ، لمنزلته الدينية ، التي ما كان ليفرط فيها ، مهما بلغ به الوجد والغرام ، غير أن المترجمين له أشاروا إلى ما يشبه الإخفاق في علاقاته الزوجية الأولى ، فقد اقترن في أول زواجه بابنة عم له ، أنجب منها طفلين لم يعيشا طويلا ، فلما هاجر إلى مصر أبت أن تلحق به ، حتى اضطر إلى مفارقتها رغم حبه الشديد لها ، ولم تتزوج بعده ، وكان يتعهدا ويصلها ، ثم خطبت له امرأة ، من أسرة سرية ، رفيعة الشأن ، من أهل بلدته ، وعقد عليها بالوكالة ، في مناسبة عظيمة ، نوه بها في مجلة المنار ، لكنه لم يبين عليها ، ولم يدخل بها لأنها كالسابقة تلكأت في أن تحمل إليه ، وماطلت في ذلك كثيرا ، وبعد مراجعات طويلة فارقتها أيضا ، وشارك أستاذه الشيخ محمد عبده في سعي زواج في مصر لم يكلل بالنجاح ، كما

^{٩٣} - ديوان السيد: ٧٩

جرت بينه وبين سيدة مصرية مراسلات ، في محاولة زواج رابعة ، انتهت إلى الاضمحلال ، ولم يوفق في زواج مستقر ودائم إلا في محاولته الخامسة.^{٩٤} ربما تكون هذه الإخفاقات الكثيرة في علاقاته الزوجية قد قدحت زناد عواطفه ، وهاجت مشاعر حبه ، ثم حركت وتر الغزل في قيثاره شعره ، على أن رشيدا كان في طبعه رقيق المشاعر ، لطيف الإحساس سريع التأثر ، غير متمت في تدينه ، وأيا كان الحال فإن رشيدا في دعياته يصور محبوبه ملكة مشاعره وأطلقت قوافيه في التغني بها ، كما في قوله :^{٩٥}

نظمت لها القوافي في هواها وصغت عقوداً درّ في رضاها
 وكم بت الليالي في اغتباطٍ أناجيها وأرشف من لهاها
 أناجيها بهمسٍ من فؤادي ودمع العين منسكبٍ يراها
 أناجيها ونجم الليل ساجٍ وعيني لم تمتع من سناها
 سليله يغرب ملكة جناني فمعدرة عزولي في هواها
 هدوء الليل سرى عن فؤادي وأتحفني ببرق من ضيائها
 وأذكرني ليالي غابراتٍ مضت كوميض برق في سماها
 عشقتك دعدّها قد همت وجداً وروحي في هواك ترى هناها
 مليكة مهجتي دومي لقلبي وآلامي وأشجاني شفاها
 ودومي لي على عهدي واني على عهد المحبة في حماها
 أظل لها وفي كل عمري وحق العُرب لا أبغي سواها

فحبه لها ملك أقطار قلبه ، فلا ينال منه لوم اللائم ، ولا يطفئ حرارة شوقه إلا عيون المحبوبة :^{٩٦}

وأنا المشوق وما لشدة لوعتي إلا عيونك أستعين بسحرها
 فهبي الفؤاد تحيةً من مثله وثقي بأن محبتي أحيا بها
 وتقبلي يا دعد خيرة تحيةٍ الورد والنسرين من ريحانها

^{٩٤} - رشيد رضا صاحب المنار: ٢٢٠-٢٢١

^{٩٥} - ديوان السيد: ٤٢

^{٩٦} - السابق: ٦١

ويؤكد على هيامه بها ، بما لا يدع مجالاً للشك ، وأنه مأسور لجمالها الفاتن
وطهرها الملائكي ، وأن أمر سعادته وشقائه بيدها : ^{٩٧}

يا دعد إني مُستَهَامٌ وإن بي ولها أطار من العيون رقادها
عيناك فتكتا بقلبي مثلما غداءً بابل حين راشت سهمها
أملاكٌ طهرٍ أم رسول محبةٍ يا دعدُ أنت أم الحياة بأسرها
فصلي إذا ترضين أو فلتحفظي قلبي وصوني مهجتي من نارها

إن محبوبته حسناء بارعة الجمال . تسلب فؤاد أولي النهى ، وتفتن الزهاد
ورجال الدين ، وتجمع إلى الجمال العفاف والأدب والظرف ، فهي كاملة الأوصاف ،
لا يلام في حبها أحد : ^{٩٨}

يا حُسْنها سَلبت عُقولَ ذوي النهى يا لِفؤادِ غرامِها أضناني
كيف الملام بحبها وعيونها فتنت رجال الزهد والأديان
حورية زان الإله جمالها بحلى العفاف فضيلة الإنسان
وبحسن آدابٍ وظرفٍ كملت أوصافها والسحر في الأجفان
هذي صفاتٌ خصها الله بمن ملكت فؤاد مُعذبٍ ولهان

بل إن دعدا تعرف مدى مقاساة الشاعر في حبه لها ، وأن عداله يتجنون عليه حين
يطلبون منه الإقلاع عن حبها : ^{٩٩}

يا لروحي إذ تبدت في حمى الغرب الأمين
من يقيها من لحاظٍ فتكها في كل حين
سل عزولي كم تجنى دعدُ تُنبئك اليقين

الوجدانيات

كان رشيد وهو يتدرج في مدارج العلم والدعوة والإصلاح في بلده الشام ، شابا
ملتهب الحماسة ، واسع الطموح ، كبير الآمال ، فرأى أن بيئته غير مناسبة لتحقيق
طموحاته ، فهاجر إلى مصر ، واتصل بالشيخ محمد عبده ، وعرض عليه خدمته ،

^{٩٧} - ديوان السيد : ٦٢

^{٩٨} - السابق : ٧٧

^{٩٩} - السابق : ٧٨

ليأخذ بيده لتحقيق بعض ما تصبوا إليه نفسه ، وسعد بصحبته فترة لم تطل ، أفاد فيها من حكمته وشهرته ، ومن حمايته له ، وتمكينه إياه من الإقامة السعيدة في مصر ، فلما قضى الشيخ نحبه ، ومضى إلى ربه ، عانى من منافسة الأقران من تلاميذ الإمام وغيرهم.

وكان من طموحات رشيد رضا الجسام ، أن يتبوا منزلة تضاهاى منزلة شيخه ، بحيث تسلم له الإمامة من بعده ، وتلقى إليه مقاليد التوجيه والإرشاد الديني ، ومن آماله التي سعى إليها ، وبذل فيها جهدا ماديا ومعنويا ، إنشاء جامعة على غرار جامعة الأزهر ، التي استعصت أمام الإصلاحات ، لتخريج دعاة وعلماء يجمعون ما بين العلوم الإسلامية الأصيلة والمعارف العصرية الضرورية كما سعى إلى التوفيق بين عنصرى الأمة ، ودعامتي الخلافة الإسلامية ، وهما الأتراك والعرب ، وحل ما بينهما من الخلافات وسوء التفاهم المتبادل ، لأنقاذ الخلافة الإسلامية من الإنهيار ، وساهم رشيد رضا بجهد كبير في نشاط الحركة العربية ، التي كانت تسعى إلى إقامة دولة عربية كبرى ، كما كان إلى جانب ذلك عضوا فعالا في حركة تحرير سوريا من الاستعمار الفرنسي. ومن أنقل الهموم التي أفضت مضجعه ، كيفية إحياء الخلافة الإسلامية ، بعد إلغائها على يد القائد التركي العلماني ؛ مصطفى كمال أتاتورك.

هذه بعض الآمال العظيمة التي أفنى في تحقيقها السيد رشيد رضا عمره المديد ، وبذل فيها النفيس من وقته وجهده وماله ، فلم يتحقق أي منها على النحو الذي أمله رشيد ، ثم واجهته في أخريات حياته أزمات مالية وصحية واجتماعية كادت أن تعصف بحياته وبمشاريعه الأدبية ، التي من أهمها مجلة المنار .

كل هذه الأمور وغيرها من السلبيات الكثيرة ، التي حالت بين رشيد رضا وبين بلوغه إلى آماله أو بعضها ، رغم التضحيات الجسام ، طفت على صفحة ذاكرة الشاعر ، وانعكست على مرآة مشاعره ، في أواخر أيام شيخوخته وعجزه ، فزأر كالأسد الجريح ، بطائفة من قصائد الشكوى ، تترجم عن شعوره العميق بالحسرة والألم لنتيجة حصاد العمر والغربة :^{١٠٠}

بالله يا أملي كم بتُ مرتقباً منك الوصال فهلاً جُدت يا أملي

قل لي بربك ما ذنبي تعذبني
 نفسي تحن إلى لُقيائك يا أُملي
 بالهجر والبُعدِ لم ترحم ولم تصل
 طال الغيابُ فحَفِّفِ لوعتي وصل
 ناجيت طيفك كي يأتي على عجل
 والنجمُ يسبحُ في حلٍ ومُرتحل
 أسعى إليك على عيني بلا مهل
 ناديت يا أُملي أين المُقامُ لكي

لكنه الأمل يستشعر في القلب ، ولا يرى إلا في الخيال ، أما في الواقع الملموس ،
 فلا يعرف له مكان ، حتى يصار إليه : ^{١٠١}

أفي السماء مُقيمٌ أم ببادية أم في الخفا أم تُرى في ذرّوة الجبل
 ما الذي أودى بأمله ؟ واغتال طموحه ؟ إنه الدهر الغدار الذي يجرحه علقم الحياة
 صباح مساء ، فلا وفاء من حبيب أو صديق ، ولا أمل ولا رجاء في تحقيق مأمول
 بل خيانة وحرمان واضطهاد ، ولكنه ماض في السعي والكفاح : ^{١٠٢}

إيه دهر الغدرِ أقبلُ أو فأدبر لستُ إلا زارداً حبلَ الخناق
 بنستُ الأيامُ تأتي بعدما أشبعتني علقماً مرّ المذاق
 ها فؤادي منه فككت العرى وقطعت الوُدَّ من بعد التلاق
 أفبغد الغدرِ يا من خانني من وفاءٍ أو صفاءٍ واتفاق
 ما أرى يا دهرُ إلا أنني بين كأسين اصطباجٍ واغتباق
 كلما أهرقت صباحاً جرعةً أرسلتها في المسا كأساً تراق
 أفل السعدُ وحلت بعده كربة العيش بنايٍ وافتراق
 وتوالت بعد هذا مَحَن صيرت مني الحشا نضو احتراق
 خانني الدهرُ وقد أمَلتُه خانني الدهرُ وخانتني الرفاق
 من مُجيري يا إلهي من أسى يابني الدنيا إلى الله المساق
 قد كفاني يا إلهي ما أرى من عذابٍ وشقاءٍ واختناق
 من همومٍ وشجونٍ سَعَرَت واضطهادٍ بين خُلفٍ وشِفاق

^{١٠١} - ديوان السيد : ١٦

^{١٠٢} - السابق : ٢٧

وذنبه في كثير مما يقاسيه أنه لا يحابي أحدا ، ولا يرأى فيما يفعل أو يدع ، وإنما هو رجل مبادئ وأهداف عليا سامية ، لا يخاف في السعي لها لومة لائم : ١٠٣

ضِفْتُ ذَرَعاً بِالذِي أُغْيَا الْوَرَى عَبْدَ الْحَرِّ لِأَرْيَابِ النِّفَاقِ

ليس ذنبي يا إلهي غير أن لا أحابي لا أرائي لا ارتزاق

لي ضميرٌ عاش حياً يقظاً لست أرضى عيش ذل لا يُطاق

إن ما يؤلم السيد رشيد رضا أو يروعه ، هو ما اغتاله الدهر من آماله ، وهذا هو مصابه ، ولا أعظم من الإخفاق والخذلان وضياح العمر : ١٠٤

وهكذا الدهر يُولِينِي مَصَائِبَهُ وَاسْتَنْزَفَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِي تَرِيدَا

واغتال من أُملي ما كُنْتُ أَرْقُبُهُ وخانني الحظ فيما كان منشودا

تلك المآسي والآمي تُروِّعُنِي والبؤسُ أفرغَ في نفسي أَعَارِيدَا

وليس اغتيال الأمل عن ضعف في الساعي ، أو خمول في همته ، أو خور في طبعه ، بل إنه كثير الجد ، بعيد الخطوات إلى تشييد صروح المجد : ١٠٥

هذي الحياةُ وكَم فيها خَطُوتُ خُطَيَّ كَم ذا طَرَقْتُ طَرِيقاً كان مَسْدُودَا

والدهرُ يُزِعِجُنِي عن غَايَةِ عَظُمَتِ مِنْ بَعْدِ ما أُملي قد كان مَعْفُودَا

كَم خانني زمني والدهرُ يَمْنَعُنِي عن أن أشيِّدَ صَرَحَ المَجْدِ تَشْيِيدَا

لكنني أبدا بالجدِ مُعْتَصِمٌ مهما رأيتُ من الأيامِ تَكْيِيدَا

ولكن الغاية التي يسمو إليها الشاعر عظيمة والدهر نكد عنيد ، ولا صاحب أو معين يوثق به ويستعان عليه ، فالطريق موحش وكثير الصعاب : ١٠٦

هلا نظرتُ إلى من كان يَصْحَبُنِي يَوْمَ النِّعَمِ وقد أوردتُهُ الجُودَا

قد كان لي عَضُدا يُمسي وَيُصبحُ في شتَّى المَواقِفِ يُولِينِي المَقَالِيدَا

لكنه اليوم أَمسى نائياً عَجَبَا قد أنكرَ الوُدَّ إذ لم يُوفِ مَوْعُودَا

١٠٣ - ديوان السيد : ٢٨

١٠٤ - السابق : ٥٤

١٠٥ - السابق : ٥٦

١٠٦ - السابق : ٥٧

إن آمال العلاء بعيدة المنال دائماً ، غالية مثل الدرر المصونة ، وإن تراءت في خيال مبتغيها سهلة المنال ، وأبعد ما تكون من ضعيفي الهمة ، قليلي التضحية:

١٠٧

يلعبُ الدهرُ بآمالِ الفتى وأمانِي العلاءِ دُرَّ مَصُونٍ
بينما النفسُ ترى في ساحِها مُبتَغَى الآمالِ في كافٍ ونونٍ

الاجتماعيات

التفت رشيد إلى الشأن الاجتماعي ، فتحدث عن هموم المحرومين ، والفقراء والمساكين ، كما تحدث عن الظلم والعدالة ، وشكا من شيوع الأول وفقدان الثاني ، فقد أصبح العدل نادر الوجود إلا في خيال الضعفاء والمظلومين ، يرددون اسمه ولا يعرفون رسمه : ١٠٨

ما لأهل الأرض صُبْحاً ومساءً يَطْلُبُونَ العَدْلَ والعَدْلُ هَبَاءٌ
قد سمعنا باسمه لم نَرَهُ بِئْسَ عَدْلُ الأَرْضِ فِي طَيِّ الخَفَاءِ

أما الأقوياء من الملوك والرؤساء وأصحاب النفوذ ، فلا يعبأون بشيء في سبيل الوصول إلى مآربهم ، ولا يردعهم خوف ظلم ولا مراعاة عدالة من اعتساف الطريق ، وركوب ظهور الضعفاء لتحقيق أغراضهم : ١٠٩

كم ظلامٍ في قُرُونٍ قد خَلَّتْ كان فيها العَدْلُ إِهْرَاقَ الدِّمَاءِ
كم قَوِيٍّ شَادَ مُلْكَاً واسعاً وَبِحَدِّ السِّيفِ سَادَ الضُّعْفَاءِ
كم مَلِيكٍ فَتَكَتْ أَطْمَاعُهُ بِأُلُوفٍ مِنْ نُفُوسِ الأَبْرِيَاءِ
عنهم التاريخُ يَرَوِي للمَلَا آيَةَ الظُّلْمِ وألوانَ الشَّقَاءِ

هذا الذي حير الحكماء والعلماء ، وجعل الشاعر يبأس من العدل في هذه الدنيا ، ولا يعول إلا على عدل الحاكم الحق ذي العدل المطلق ، في الفصل بالقسطاس المستقيم : ١١٠

١٠٧- ديوان السيد : ٨٧

١٠٨- السابق: ٢٩

١٠٩- السابق: ٢٩

١١٠- السابق: ٣٠

أين عدلٌ ضلَّ ذو العقلِ به
 ضلَّ من ينشُدُه يوماً على
 فاطرِخٍ يا صاحٍ من أسَماله
 لا ترى من غايةٍ منشودةٍ
 وانتظِرْ إن رُمتهُ حقاً يرى
 يوم تلقى النفس ما قد قدّمتْ لآلهِ العرشِ من حُسنِ الولاءِ

ويهوله منظر مسكين يمد يده لأولي الخيرات ويسألهم بصوت خافت خجول ، فيقرأ في وجه السائل أمارات البؤس والفقر المدقع ، ويلوح له من مخايله أنه ذو أدب ومنطق ، وعفاف وشهامة ، لولا أن الدهر ألجأه إلى الاستمناح ، وأحاله إلى متسول : ١١١

رأيتُه باكياً مما يروِ عَه
 يشكو الزمانَ بصوتِ خافتٍ ويدٍ
 يرجو القليلَ ويشكو الجوعَ من ألمٍ
 في وجهه ارتسمت آياتُ محنته
 يرجو الكفافَ وكم ذا جدَّ طالبه
 ساءت معيشته والنفسُ عاليةً
 لا يُبدين ملاً من سوءِ موقفه
 من سوءِ حالٍ وقد جادت مدامعه
 ممدودةٌ لأولي الخيراتِ تدفعه
 والوجهُ مكتئبٌ قد ساء طالعُه
 يا للمصيبةِ ما للبؤسِ يفزعُه
 في أيما عملٍ والدهرُ يقطعُه
 إذ ما تراه تظنَّ الخيرَ يتبعُه
 عَفُّ اللسانِ أديبٌ حينَ تسمعه
 لا يسألُ الناسَ إلحافاً وفي خجلٍ يرنوُ إليك بعينٍ كم تُصدَّعه

لكن الشاعر لا يجد ما يسعف به هذا المسكين ، الذي تألم لحاله ، فيزيده ذلك حزناً على حزن : ١١٢

يا ليت لي سعةٌ أعطيه ما وسعت
 لكن ربي قد شاءت إرادته
 كفاي من ذهبٍ أو كنتُ أنفعه
 أن لا أرى درهماً في الكفِ أدفعه
 فيه أروحُ عن نفسٍ تُروِّعه
 ما كنت مُمتكاً حتى ولا ورقاً

١١١ - ديوان السيد : ٤٧

١١٢ - السابق : ٤٩

فلا يجد الشاعر أمامه إلا أن يدعو المسكين إلى الصبر ، ويذكره بأن لا حال يدوم في هذه الدنيا ، وأن الله قد يدل له قريبا : ١١٣

صَبْرًا أَخِيَّ فَمَا الْأَيَّامُ دَائِمَةٌ يَوْمٌ سُرُورٌ وَيَوْمٌ سَاءَ مَطْلَعُهُ
كَفَكَفَ دُمُوعَكَ لَا تَحْزَنُ لِضَائِقَةٍ مَا مِنْكَ تَأْخُذُهُ الْأَيَّامُ تُرْجِعُهُ

ويتوجه إلى الأغنياء ، فيطلب منهم مساعدة الفقراء ، بما أفاء الله عليهم من الأموال ، ويصور لهم حال الفقراء : ١١٤

قُلْ لِلأُولَى جَمَعُوا الذَّهَبَ إِنَّ الْفَقِيرَ لَفِي سَعَبٍ
قَدْ بَاتَ يَطْوِي لَيْلَهُ وَالْجِسْمَ أَضْنَاهُ التَّعَبَ
أَحْشَاؤُهُ فِي جَوْفِهِ كَالنَّارِ مَشْبُوبِ اللَّهَبِ
أَعْضَاؤُهُ مِنْهُوَكَةٌ مِنْ عَيْنِهِ دَمْعٌ سَكَبَ
قَدْ بَاتَ يَشْكُو حَظَّهُ مِمَّا يُلَاقِي عَنْ كَثَبِ
مَنْ هَمَّهُ مِنْ فَقْرِهِ مِنْ سُوءِ حَالِ الْمُتَقَلِّبِ
دُيُونُهُ كَثِيرَةٌ وَالْجُوعُ أودَاهُ الْعَطْبُ ١١٥

ويذكرهم بما يلزم عليهم من الشفقة على هؤلاء المعوزين ، كما يذكرهم بما أعده الله للمحسنين من الأجر المضاعف : ١١٦

قُمْ يَا غَنِيٌّ وَسَارِعِنِ وَاعْطِ الْفَقِيرَ مِنَ الذَّهَبِ
قُمْ نَحْوَ مُحْتَاجِ غَدَا يَرْجُو النَّجَاةَ مِنَ الْعَطْبِ
وَاعْمَلْ لِأَخْرَاكِ التِّي مِنْ أَجْلِهَا وَجَدَ السَّبَبِ
تَلْقَى النَّعِيمَ مُؤَفَّرًا تَلْقَى الْهِنَاءَةَ وَالْأَرْبِ
وَاللَّهُ خَيْرٌ مُضَاعِفٍ خَيْرًا لِمُحْتَسِبٍ يَهَبِ

١١٣ - ديوان السيد: ٥٠

١١٤ - السابق: ٧٦

١١٥ - هكذا في الأصل.

١١٦ - ديوان السيد: ٧٦

المبحث الثاني : نثر السيد رشيد رضا

المطلب الأول : رسائله

من الفنون الأدبية النثرية الرسائل بشقيها الرسمي والشخصي ، وقد عرف أدبنا العربي القديم النوعين ، وأبداع فيهما أيما إبداع ، وكان يسمى النوع الأول الرسائل الديوانية ، وهي التي تصدر من جهة حكومية ، والنوع الثاني الرسائل الإخوانية وهي التي يتبادلها النظراء من الكتاب والأدباء أيا كان غرضها ، ولم تخل فترة أو عصر من عصور الأدب المتلاحقة من هذا اللون من النثر الفني ، لتوافر دواعيه وإن أصابه ما أصاب الأشكال الأدبية الأخرى من الضعف في العصور المتأخرة حتى إذا كان عصر الإحياء ، وعاد المجددون والإحيائيون إلى عصور الازدهار الأدبي ، يستلهمون منها ، عادت الإشراق إلى فن الرسائل.

لم يتول السيد رشيد رضا قط منصبا حكوميا ، ولم يتقلد وظيفة رسمية ، ومن ثم لا نبحت عنده عن نماذج رسمية في رسائله الموروثة ، وإن راسل وراسله الرسميون من الملوك ورؤساء والحكومات وأصحاب الوظائف العالية والمناصب الحكومية الكبيرة ، لا عن موقع التبعية أو الدونية ، بل بوصفه داعية مرشدا وعالما مصلحا ووطنيا مناضلا.

اشتهر السيد رشيد رضا بسيلان القلم ، وغزارة الإنتاج ، وسهولة الكتابة عليه ، وقد تقدم ما قيل فيه من ذلك ، ومنه قول الأمير شكيب أرسلان ، وهو من هو في علو كعبه في المنثور والمنظوم ، وفيض قلمه ، وكثرة تأليفه : " فأما السيد رشيد فانصرف لكليته إلى أعمال القلم ، وصار يكتب في الساعات ما لا يقدر أن يسوده غيره في الأسابيع ، حتى لو قيل إن محصول قلمه يتوزع على عشرة كتاب كبار ، ويصيب كلا منهم نصيب وافر ، لم يكن في ذلك أدنى غلو ، لأن سهولة الكتابة ، التي كانت عند صاحب المنار ، بما أوتى من اجتماع القوتين الحافظة والحاكمة ، وانتظام المنتين المطبوع والمسموع ، كانت آية باهرة ، لا يتمارى فيها إلا حاسد أو معاند." ^{١١٧} وكان إلى جانب ذلك ذا علاقات واسعة ، كثير الأصحاب والأصدقاء

^{١١٧} - السيد رشيد رضا : ٢٥٦

والمعارف ، وأسهمت في ذلك طبيعة عمله ، حيث كان صاحب مدرسة ، تقبل الطلاب من شتى بقاع العالم ، وكان صاحب مجلة واسعة الانتشار ، إضافة إلى أنشطته السياسية ، وانتظامه في عضوية كثير من الجمعيات ثم إنه كان مغتربا عن وطنه ، بعيدا عن أهله ، وفوق كل ذلك كان همه الإصلاحى يحمله على البحث الدائم عن شركاء ، يتعاون معهم في الذود عن حياض الدين والأمة. يقول في إحدى رسائله: "كنت كلفت السيد أمين الحسيني ، عند سفره إلى الشرق لأجل المؤتمر الإسلامى ، أن يكتب لي كشفا بأسماء وعناوين أعلى من يرى من الرجال في سياحته همة وغيرة وعزما في كل البلاد التي يطوفها فكتب" ^{١١٨} علاوة على ما جبل عليه وفطر من الحرص على أصحابه ، والاهتمام بهم أشد الاهتمام فهو "يعيش في اتصال دائم مع إخوانه ، إن قربوا فبالمشاهدة ، وإن بعدوا فبالمراسلة " ^{١١٩} وكان من محصول ذلك كله ، أن أصبح محط أنظار العلماء والوجهاء في العالم الإسلامى ، يفزعون إليه إذا رابهم أمر ، ويشاورونه في قضاياهم ، ويستفتونه في أمور دينهم ، ولا بد أن يكون لكل ذلك صدهاء في رسائله ، وأن نتوقع أنه خلف كماً هائلا من الرسائل ، بدليل أننا رأينا أن رسائله إلى أحد أصدقائه ، بلغ المنشور منها إلى خمسمائة صفحة ، مع تصريح الناشر بأنه حذف كثيرا منها ، مما لا تسمح الظروف بنشره ، أو لا يناسب النشر لتعلقه بقضايا شخصية لا تفيد القراء.

رسائل رشيد رضا ، التي أتاحت لي دراستها ، مستمدة من كتاب "السيد رشيد رضا أو إزاء أربعين سنة" ، لصديقه الأمير شكيب أرسلان ، ومن الكتب التي ألفت فيه ، مثل : "رشيد رضا صاحب المنار" للدكتور أحمد الشرباصى ، ومن مجلة المنار بقلم غيره ، ممن كتبوا عنه بعد موته ، ولم أعتبر من رسائله ردوده على بعض مراسليه في مجلة المنار ، لأن تلك الردود العلنية ، غالبا ما يتوخى صاحبها الموضوعية ، وتبتعد عن خصائص فنّ الرسائل.

^{١١٨} - السيد رشيد رضا : ٧٥٧

^{١١٩} - السابق : ٢٥٧

رسائله في كتاب "السيد رشيد رضا" لشكيب أرسلان

ذكر كل من السيد رشيد رضا ، والأمير شكيب أرسلان أنه لم يحتفظ شيئاً من رسائل الأخر ، أو أيّ رسائل على العموم ، قبل هجرة الأول إلى مصر^{١٢٠} والثاني إلى أوروبا.^{١٢١} وصرح شكيب ، أن رسائل رشيد المحفوظة لديه تبدأ من عام ١٩٢١م ، وذكر في عددها ، أنها تروى على مائتي مكتوب.^{١٢٢} وقال في مكان آخر إنها تزيد على مائة وخمسين مكتوباً.^{١٢٣} كما ذكر أنه لا يورد كلها ، بل يحذف منها ما قد يمس الأحياء بما لا يرضون عنه ، وما لا حاجة إلى ذكره ، مما يتناول القضايا الشخصية التي كانت بينهما.^{١٢٤} وفيما أورده حذف كثير يدل عليه بقوله " إلى أن يقول " وقد أحصيت هذه الرسائل ، فوجدتها مائة واثنتين وخمسين (١٥٢) رسالة ، وهي كما قال شكيب متفاوتة في طولها وقصرها ، فمنها الطويلة التي تصل إلى عشرين صفحة^{١٢٥} ، ومنها القصيرة التي لا تزيد عن صفحة واحدة .^{١٢٦} وكان معدل تبادل الرسائل بينهما رسالة في الغالب أو رسالتين في كل شهر ، والرسائل مرتبة على حسب التسلسل الزمني إلا نادراً^{١٢٧} ومؤرخة بالتاريخين الهجري والميلادي في الغالب ، أو بأحدهما في أحيان قليلة ، وقد يستعمل التاريخ الرومي بدل الميلادي ، وأما موضوعات الرسائل فمتعددة في الغالب ، ولبعض هذه الرسائل حواش يستدرك بها ما نسيه ، أو تجدد لديه بعد ختم الكتاب ، كما يقول في حاشية أحد كتبه : " بعد ختم الكتاب أمس في الصباح ، جاءت الصحف فإذا فيها برقية باقتراح عقد مؤتمر إسلامي ، لتقرير جعل اللغة التركية لغة الإسلام ، التي يتخاطب بها شعوبه في شئونهم المشتركة .. نسيت أن أكتب إليك أننا شرعنا في طبع كتاب أعمال المؤتمر السوري الفلسطيني .."^{١٢٨} وقد يكتب لهذه الحواشي تاريخاً جديداً

١٢٠ - السيد رشيد رضا: ١١٩

١٢١ - السابق : ٣٠٦

١٢٢ - السابق : ٣٠٦ ، ٣٥٧

١٢٣ - السابق : ٢٨٠

١٢٤ - السابق : ٣٠٩

١٢٥ - السابق : ٣٨٣

١٢٦ - السابق : ٣٧٧-

١٢٧ - السابق : ٣٠٩ ، ٤٢٤

١٢٨ - السابق : ٣٢٨

١٢٩. وأحيانا يثبت تاريخا جديدا في أثناء الخطاب ، يدل على أن كتابة هذا الجزء لاحق لأوله ، بدون أن يشير إلى أنه حاشية .^{١٣٠} وسنتناول فيما يلي نماذج من رسائله تشمل :

١- رسائله إلى أساتذته .

٢- رسائله إلى أئداده وأقرانه من العلماء .

٣- رسائله إلى الملوك ورؤساء الدول .

٤- رسائله إلى تلامذته .

٥- رسائله إلى أهل بيته .

رسائله إلى أساتذته

من رسائل السيد رشيد رضا ما خاطب به بعض أساتذته ، ومن ذلك رسالة رفعها إلى موقظ الشرق السيد جمال الدين الأفغاني ، يعبر له فيها عن إعجابه الشديد به ، وحبه العميق له ، ورغبته الجامعة في الالتحاق بركبه ، والتلمذ عليه والاعتزاز من بحار حكمته وفلسفته ، ليتخرج عليه داعية ذا بصيرة فيقول: " الحمد لله على أفضاله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ، وعلى سيدي ، بل السيد المطلق ، ذي القدح المعلي ، والجواد المصلي الأسبق ، سدرة منتهى العرفان ، وحجة مأوى المحاسن والإحسان ، الذي له في كل جو متنفس ، ومن كل نار مقتبس ، الإمام المفرد ، والعقل المجرد ، حجة الإسلام ، وعلم الأعلام ، أخطب الخطباء ، وأبلغ الكتاب ، من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، بدل الأبدال ، سيد الآل ، الإنسان الكامل ، الوارث الكامل المرشد الكامل ، مهبط الفيض ، مصعد الكلم الطيب ، مجلّي سرّ الجمال الأكمل ، جمال الدنيا والدين ، وبقية رجاء المسلمين ، أيده الله تعالى ، وزاده رفعة وكمالا .

إن فرط الشغف بالجمال ، ومساهمته بالانتساب للال ، قد حملاني على غارب المجرة ، والإقدام على خطابه خطاب نسيب لنسيب ، ومحِب لحبيب ،

١٢٩ - السيد رشيد رضا : ٥٤٣

١٣٠ - السابق : ٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥٠٧ ، ٥١١

ومغادرة الأحرى ، بل الواجب الذي لا تخيير فيه ، من مخاطبته مخاطبة مملوك لمليك كريم ، وخادم لسيد عظيم ، وعليه قلت : إنني منذ لاحت عليّ مخايل التمييز ما نمى إليّ خبر ألد وأشهى ، ولا أنبل وأسمى ، من خبر سيدي (جمال الدين) نبأ عظيم ، غرس في قلبي حبة الحب والشغف ، وسقاها بماء الحياة ، فنبتت نباتا حسنا ، وامتدت أغصانها ، وتشعبت أفنانها ، حتى لم تذر في أرض الجسم ذرة من دقائقه إلا وجذورها راسخة فيها ، شجرة طيبة (أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها)^{١٣١} جنبت منها ثمرة حب الحكمة ، واقتطف الناس منها ثمار الثناء على حكيم الحكماء ، أعزه الله تعالى ، ولم تزل تنمو حتى كأنها من عناصر جسدي ، وتقوى بقواي العاقلة حتى كأنها من مقومات ماهيتي ، وهي الآن أرسخ الملكات في نفسي ، لا أنتبأ مجلسا ، ولا أفيض في كلام ، إلا ويكون ذكر الجمال فاتحته أو ختامه ، أو متخللا أجزاءه وأقسامه ، إن لم يكن هو موضوع الكلام ، حتى عرفت بين المعاشرين بعاشق جمال الدين ، وربما دعاني بعض الأصدقاء بالداعي له (واحد الدعاة) لاسيما وأنا أعد له ما يعد عليه (كدخول المأسونية والجلوس في الأماكن العامة وطول الإقامة في أوربا ، وتقريب وإرشاد غير المسلمين في البلاد الإسلامية .) فله أنت من ذي نفس زكية ، وروح قدسية ، ما هبت نفحة من معارفها في جو قوم ، إلا ونفخت في رممهم روح الفضل ، ولا تدفقت أمواه فضائلها في أرض أمة ، إلا وجرفت منها أردان الجهل ، بل أقول لا تنبث من ذلك الذهن المشتعل بالأنوار ذرات الفكر في فضاء قطر من الأقطار ، إلا تكوّن منها في سماء العقل من كواكب العرفان ، ما هو أفيد من النظام الشمسي في عالم الحس والعيان ، وعلى هذا فما أجدركم بقول القائل :

أبدا تحنُّ إليكم الأرواحُ ووصالكم ريحانها والراحُ

وما أعذرنِي ، وأنا أعدّ قريكم أفضل القربات ، ولقاءكم غاية الغايات ! وإنني أسير كتابي هذا ليكون مستمنا عواطفكم ، ومستجديا مكارمكم ، قبولي لديكم بصفة مريد ، يتلقف الحكمة وتلميذ يقوم ببعض الخدمة ، يساهمكم السراء والضراء (وقاكم

الله) ويسايركم في الزرع والرخاء (حماكم الله) ولا أراني أردّ عن أبواب فضلكم فما جزاء من أحب إلا أن يحب ، وللرحم حقوق مثل سيادتكم من يراعيها ويصلها .^{١٣٢} بعد المقدمة الفخمة يعتذر إليه من جرأته في مخاطبته مخاطبة الحبيب للحبيب ، والنسيب للنسيب ، والند للند ، بينما كان الأولى أن لا يسلك هذا المسلك ولا ينتهج هذا النهج في مخاطبته أحكم الحكماء وفيلسوف الفلاسفة ، غير أن له مبررا ومسوغا في ذلك ، وهو أنه يمت إليه بصلة رحم إضافة ، إلى ما يكن له من الحب الغامر ، الذي أفاض في التعبير عنه ، وبالع في تصويره وشرحه ، وإن لم تكن مبالغة مصطنعة - في نظري - بل كانت تعبيراً صادقا عن مشاعر رشيد الحقيقية تجاه معشوقه ، ثم تلتف في السؤال بأن يقبله مريدا وتلميذا متوسلا إليه بحق الرحم وحب المرید .

ومن رسائل رشيد رضا إلى شيوخه وأساتذته خطاب اعتذار ، بعثه إلى شيخه الأول الشيخ حسين الجسر في طرابلس الشام ، بعد جفوة حدثت بينهما ، لتباين موقفهما في قضية الإصلاح والتجديد الديني ، فقد كان شيخه على سعة إطلاعه ، وأخذة حظا من العلوم العصرية ، ووقفه على طريقتها الاستقلالية ، شديد المحافظة على التقليد في جميع العلوم الدينية .^{١٣٣} وكان رشيد على النقيض من ذلك ، فحدثت بينهما ردود ومناقشات على صفحات الجرائد ، عكرت صفو علاقتهما ، فرأى رشيد أن يعتذر إلى شيخه فقال : " سيدي ومولاي الأستاذ المعظم ، متع الله تعالى الوجود بشريف وجوده ، إن كان الذنب الواحد يقطع الصلة بين الوالد وولده ، والأستاذ وتلميذه ، فكتابي هذا جدير بأن لا يقابل من مولاي الأستاذ بالقبول ، لأنني أذنبت بذكر اسمه الكريم حيث لا يجب أن يذكر ، وإنني بما غلبت على أمري أرى لي عذرا ، ولكن الأعذار إنما تكون حيث تكون الذنوب ، فأنا مذنب ، والذنب لا يقطع الصلة إلا مع الإصرار ، وأنا قد استبدلت بالإصرار التوبة والاستغفار ، فلا جرم أن صلتني مع مولاي وأستاذي تبقى على حالها .

^{١٣٢} - تاريخ الأستاذ : ٨٥/١

^{١٣٣} - المنار : ٢١،٣،١٢١

أما كون الذنب الصغير يكون بإزاء الكبير كبيرا ، فيقابله أن اللحم والعفو عند الكبير ، يجعلان الكبيرة صغيرة فذنبني إذن - مهما عظم - صغير ومغفو عنه .
وأما العذر فإن تحامل (طرابلس) الذي احتملته في غضون الفتنة الأولى لم ينته بانتهائها ، بل ظلت تتال من (المنار) كلما سنحت مناسبة ، حتى أظلمتني سحب هذه الفتنة الحاضرة ، ورأيتني مضطرا لأن أعيد الكرة على مثار الفتنة ، وعلمت أنه لا توجد جريدة تصادمني في سوريا إلا (طرابلس) ، التي لا ينكر سيدي أن الظروف مكنت القوم من استخدامها ، فحرارة الشباب ، وتعدد الأسباب ، وعظيم المصائب ، وما أشير إليه ، ويمكن فضيلتكم فهم رموزه من ناقل كتابي ، دفعت بي إلى ما كان مني ، اعتقادا بأنه لا مجن يدفع عني سهام طرابلس ، فيما أستقبله من الكرة المشار إليها إلا هذا ، وقد كان ونجوت في الفتنة الثانية من هذه السهام ، ولولا المجن الذي قدمته لكانت أفتك جراحا ، وأكثر اجتياحا ، ولا أنكر أنه كان يجب عليّ الاحتمال ، ولو تكسرت النصال على النصال ، لكنني غلبت - كما قدمته - على أمري ، وهذا هو حقيقة عذري .. هذا إيماء إلى الذنب والعذر ، ولقد كان سيدي أكبر من هذا ، حيث أخذ على نفسه في الفتنة الحاضرة مساعدة إخوتي ، والدفاع عن شرفي وشرف أسرتي ، كما أخبرني بهذا أخي الروحي الذي في خدمته .

أما المصائب العظيم فهو أن الرجل المعروف ، إنما أظهر المسالمة لأجل أن يأخذني إليه ، ويستخدمني بما يريد ، فلما لم يتم له هذا ، رمانا من تحت ستار الهدون^{١٣٤} ، فبحقك يا سيدي ألا تطيش لهذه الصدمات أحلام من مارسوا الزمان فضلا عن الذين تربوا في مهاد الراحة والأمان .

هذا وأعود فأقول : إنني بعد ما كان مني ، عظم الأمر في نفسي ، حتى صرت أتخيل ، أن دخول طرابلس يذييني خجلا ، ولقد كنت أتوقع من قبل ، أن يكون (المنار) و (طرابلس) في تناصر ، تحيل كل منهما على الأخرى ما تأباه بيئتها (حالها ومحلها) وتخدم كل منهما الأخرى حيث يكون لها نفوذ ، إلى ما يتبع

^{١٣٤} - الهدون : السكون . لسان العرب ، المؤلف : محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري ، الناشر : دار صادر - بيروت ، الطبعة الأولى ، ٤٣٤/١٣

ذلك ، ولكن فاجأنا الزمان بما ليس في الحساب. وبالختام أقبل يد سيدي ، وكل ما أرجوه لنفسي من أستاذي الرضا والدعاء ، والسلام." ^{١٣٥}

هكذا قبل السيد يد أستاذه ، وطلب منه العفو والمسامحة والرضا والدعاء ، بعد أن بين له ما كان منه ، وشرح له السبب ، وأنه كان دفاعا عن النفس بعد أن أطال الصبر ، وأنه لولا هذا الدفاع لما توقف الإيذاء ، ويظهر من تلميح السيد رشيد رضا وترميزه في قوله: " أن ذلك الرجل" أن أبا الهدى الصيادي اتخذ مجلة طرابلس ، التي كان يحررها أستاذه منبرا للنيل من السيد رشيد رضا ومجلته المنار ، بعد أن أخفق في استمالته ، كما نال بأذاه من عشيرة رشيد وأهل بيته في طرابلس بجريرة ابنهم رشيد ، غير أن شيخه حسين الجسر دافع عنهم ووقف بجانبهم ، وهذا ما أثلج صدر رشيد وجعله يدبج هذا الخطاب الاعتذاري إليه .

رسائله إلى العلماء

كان رشيد بحكم اهتمامه الإصلاحية في الساحتين الإسلامية والعربية يحرص على صلة العلماء ، للتعاون والتشاور وتبادل الآراء والخبرات ، فجرت بينه وبين بعضهم مراسلات كثيرة ، نجتزئ منها هذا النموذج الجوابي ، الذي بعثه إلى الشيخ محمد مصطفى المراغي ، الذي أصبح فيما بعد شيخ الأزهر ، وكان عندئذ رئيس المحكمة الشرعية العليا بمصر ، وكان الشيخ المراغي قد طلب من السيد رشيد رضا المشاركة في لجنة الخلافة فقال : " أخي الأستاذ الكامل والقاضي الفاضل الشيخ محمد مصطفى المراغي ، رئيس المحكمة الشرعية العليا بمصر. كتبت إليّ - لا حرمت من كتبك حين أحرم من رؤيتك- بأن أصرح لك تصريحاً بما فهمته من تحاورنا في مسألة الخلافة تلويحاً ، بأنه لا مانع لدي من الانتظام في لجنتم ، التي ألفها كبار العلماء تحت رئاسة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، لأجل تقرير ذلك . لم أكتب إليك مرجوع كتابك إثر وصوله ، لأن انتفاء المانع من الانتظام في اللجنة ليس معادلاً لما ذكرت من المقتضى بتأييدها وترجيحها على غيرها ، ولا يزال كل من المانع والمقتضى غير قطعي إلا في تفضيل اللجنة على غيرها ، فالتعارض واقع

^{١٣٥} - رشيد رضا صاحب المنار : ٢٤٠

، والترجيح فيه يتوقف على بحث آخر معك في المسألة وفي موضوع اللجنة وخطتها ، لهذا عازمت على الإمام بالمحكمة الشرعية العليا في أثناء الأسبوع الماضي ، والحديث معك على ذلك أو ضرب موعد قريب له ، ولكنني أصبت في أثناء الأسبوع بزكمة فنزلة شعبية ، مع حمى كادت تبلغ حرارتها ٣٩ اشتدت وطنتها في أيام الثلاثاء^{١٣٦} الماضية : الأربعاء والخميس والجمعة ، ورأيت الحرارة في صباح هذا اليوم (السبت) طبيعية ، والسعلة خفيفة ، فعسى أن يمن الله عليّ بالإبلال منها في هذا الأسبوع ، ويتيسر لنا التلاقي فيه ، وتمحيص المسألة . هذا ولو استحسنتم أن تسموني مستشارا لجماعتكم لقبلت بلا بحث ، لأنني لا أراني حينئذ مسئولا عن كل شيء مما وطنت عليه نفسي ، فلا يضرنني خفاء شيء من أمرها علي".^{١٣٧}

يتضح من الرسالة تردد رشيد فيما دعي إليه من المشاركة في لجنة الخلافة الإسلامية ، فإما أن يقنعه الداعي له ، وهو الشيخ محمد مصطفى المراعي بما يراه من إزالة الموانع التي تحول دون الانتظام في اللجنة ، وإما أن يجعل مستشارا للجنة لا عضوا فيها ، أو يقبل اعتذاره عن المشاركة في القضية كلها ذلك كما اعتذر إلى الشيخ المراعي عن تأخر رده عليه بشيء ، لأنه أراد مقابله أولا ثم مرض.

رسائله إلى الملوك والرؤساء

أما رسائله إلى الملوك ورؤساء والدول ، فقد كان معظمها من باب النصح والإرشاد إلى مصالح العباد والبلاد ، والتحذير من التقصير في حق الرعية ، كما كان يكثر من السعي للإصلاح بين المتخالفين منهم ، وكان يجل من بينهم الملك عبد العزيز بن سعود ملك السعودية آنئذ ، ويخصه بالاهتمام ، ويعلق عليه آمال الأمة العربية والإسلامية ، ويراه أكثر رشدا وبصرا بمصالح الأمة من غيره ، ومع ذلك لم يكن يداجيه أو يداهنه ، بل كان يصرح له أن نصرته له مشروطة فيقول : "ولا أزال كذلك أجاهد معكم ، ما دمتم تجاهدون في سبيل الله ، وإعزاز دينه"^{١٣٨}

^{١٣٦} - هكذا في الأصل ، ولعله أراد : "الأيام الثلاثة الماضية" فسبق القلم. (رشيد رضا صاحب المنار ١٩٦)

^{١٣٧} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٩٧

^{١٣٨} - المنار: ٤٨٠/٦/٣٥

وقال في خطاب أرسله إلى الإمام يحيى بن حميد ؛ إمام اليمن - وذكر أنه أرسل مثله إلى الملك عبد العزيز بن سعود - إثر نزاع حدودي اندلع بينهما :

" (بسم الله الرحمن الرحيم)

من محمد رشيد آل رضا إلى حضرة صاحب الجلالة الإمام الهمام ، سليل الأئمة الأعلام عليهم السلام .السلام ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ، أما بعد فقد أزعجنا وأمضنا نبأ مرضكم ، وما كدنا نبتهج نبأ نقاهاكم ، إلا وتلاه النبأ الصادع بوقوع الشقاق بين حكومتكم والحكومة السعودية ، المنذر بقرب وقوع الحرب ، وبخيبة الأمل الذي كان ينتظره (كل)^{١٣٩} عربي مخلص لأمته وكل مسلم لملته ، وحريص على سلامة مهد دينه ، من عقد الحلف بينكم وبين الدولة العربية السعودية بمساعي الوفد السعودي الذي كان في رحابكم منذ أشهر ؛ إذ تجاوزت الأنباء بأن الوفد كان في صنعاء كالمحجور عليه ، وأنكم أنتم له بالرجوع أدراجه بعد إلحاح ملكه بالطلب ؛ فانقلب خائباً مخذولاً ، إلى ما أنتم أعلم به ، ولا يعنينا تفصيل جزئياته ، ولا تحقيق مقدماته ، وإنما تعيننا النتيجة ، وهي تسوء كل عربي وكل مسلم ، إلا الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، ولو علمتم بسوء تأثيرها في مصر ، و سورية ، وفلسطين لهالكم ، ولتجافى بجنبكم عن مضجعكم ، ولعلمتم أنه لولا عذر الناس لسيادتكم بمرضكم لخسرتم بهذه الحادثة ما لكم في القلوب من السيرة الحميدة في العقل والرأي والتقوى ، والحرص على حفظ سلطان الإسلام وحكمه ، واستقلال الجزيرة العربية ، وسد ذرائع تسرب النفوذ الأجنبي إليها ، وخطره على بلادكم أشد ، ولا شك أن حرم الله تعالى ورسوله عليكم أعز ، ولكن الأمل فيكم لم ينقطع ، ولن ينقطع إن شاء الله تعالى ، وقد تضاعف الإعجاب بأخيكم الملك السعودي : دينه وعقله وحكمته ؛ إذ علموا بما أبرق إليكم في الخطاب المدلهم .

أيها الإمام الحكيم ، التقى الحليم : لقد علم الرأي العام الإسلامي ، ولا سيما العربي ، أنه لو فُجعت الأمة بكم في هذا المرض ، لقضى ولي عهدكم الشاب على جزيرة العرب ، فهو - أي : الرأي العام - يرجو أن تبادروا قبل كل عمل إلى الاتفاق مع أخيكم الملك الحكيم ، على التحالف والتعاون على حفظ هذه الجزيرة المقدسة من

^{١٣٩} في الأصل (كان)

دسائس الأجنبي والمفسدين ، وعلى عمران المملكتين اللتين وكل الله أمرهما إليكما ، وتعزيز قوتهما في حياتكما الشريفة العزيزة قبل أن يؤول أمرها إلى أنجالكما ، الذين لا تضمن أمتكما وملتكما أن يكون لهما من الحكمة والخبرة والروية مثل ما آتاكم الله تعالى ، إلا أن يتربوا في كنفكما ، وظل ما تضعان من النظام ، وما تنفذانه منه لإعزاز الإسلام بعز العرب في جزيرتهم ومنبت أرومتهم ومهد دينهم و (إذا ذلت العرب ذل الإسلام) كما قال الصادق المصدوق عليه وعلى آله السلام ، ولا ذل للعرب إلا إذا ذلوا في جزيرتهم ، وحصن دينهم ، ومأرزه الوحيد في هذا العهد - عهد تداعي الأمم عليهم - كما نطقت به الأحاديث النبوية الصحيحة الصريحة وسيادتكم أعلم بها .

أيها الإمام العليم ، الحكيم الحليم

مهما يكن عليه أمر الحدود بين اليمن السعيدة و المملكة السعودية من حق سياسي أو جغرافي ، فلا قيمة له تجاه الاتفاق والتحالف بين المملكتين ، فكل منهما واسع الأطراف ، قابل لأضعاف ما هو عليه من العمران ، فلا يعذر أحد منكما بتعريضه للخراب ؛ لأجل توسيع حدوده بحق أو باطل ، وأما إذا اتفقتما وتحالفتما تحالفاً صريحاً ، وعاهدتم الله تعالى والأمة على الإخلاص في الولاء والتعاون ، فإن كلاً منكما يأمن على حدوده ، ويخلو له الجو لعمران بلاده ، وجعل استعداده الحربي موجهاً إلى أعداء الله وأعداء قومه ، وذلك ربح لا يعلوه ربح ، وهو ما يطالبكم به الدين وأهله أجمعون .

أيها الإمام : إن جزيرة العرب هي تراث محمد رسول الله ، وخاتم النبيين ، للإسلام والمسلمين ، لا لعبد العزيز الفيصل السعودي ولا ليحيى حميد الدين ، فاختلفكما وتعاديكما يضيع الإسلام ، ولئن ضاع في جزيرة العرب فلن تقوم له قائمة في غيرها ، فجميع المسلمين تحت سلطان الأجنبي ، إلا قليلاً من الأعاجم ، أنتم تعلمون حالهم ، وما ينتظر من مآلهم ، فيجب أن تتذكرا هذه التبعة ، وتتقيا الله ، وتحرصا على حسن الخاتمة والسلام .

منشئ المنار

محمد رشيد رضا

(حاشية) قد كتبت إلى الإمام عبد العزيز ملك العربية السعودية بهذا المعنى
أيضاً. ^{١٤٠}

ينم هذا الخطاب عن جرأة رشيد في مخاطبة الملوك والرؤساء ، وعدم تهيبه
منهم في إبداء ما يراه صواباً ، كما يدل على وعيه الناضج ورشده الكامل ، حيث
رأى أن المساحات الشاسعة ، التي يملكها كل قطر تفيض عن حاجاته العمرانية ،
فلم التقاتل على شريط حدودي صغير .

وكتب ناصحاً إلى الملك غازي ؛ ملك العراق الذي تولى العرش بعد وفاة
والده الملك فيصل بن الحسين " . . . معتصمين بحبل الهداية الإسلامية التي اشتدت
إليها في هذا العصر حاجة شعوب المدنية كلها ، إذ هدت الأفكار المادية دولها
بالانحلال ، والإباحة الإلحادية حضارتها بالزوال ، ولم يبق لها منقذ إلا الهداية
الروحية ، الجامعة بين المصالح الدينية والمدنية ، فإن تحرص على هداية دينك
القوم ، ولغة قومك ، وحضارة أمتك ، وشرف بيتك ، وتضم إليها الفنون العصرية
المرقية للزراعة والصناعة والتجارة والنظم المالية والقوى العسكرية تكن - إن شاء الله
- من الملوك المجددين ، الجامعيين بين سيادة الدنيا وسعادة الدين " ^{١٤١}

إن ما نصح به رشيد الملك هو ما كان يدعو إليه ، من الجمع والتوفيق بين
التمسك بالتعاليم الإسلامية الثابتة ، والأخذ بمعطيات العصر العلمية والفنية والفكرية
النافعة ، وكان يجاهد طائفتين ؛ طائفة الفقهاء المقلدين الرافضين لكل ما هو
عصري وتطويري ، وطائفة المتفرنجين - كما كان يسميهم - الداعين إلى تقليد أوروبا
، وقطع الصلة بالتراث الإسلامي ، لأنه سبب التخلف في زعمهم ، ولهذا نرى رشيدا
ينصح الملك بالحرص على هداية الدين ولغته وحضارته ، مع الاستفادة من معارف
العصر ونظمه ، التي تساعد على الرقي في شتى مجالات الحياة .

ومما يدخل في هذا الباب المذكرات التي كانت يرفعها رشيد إلى الدول
الأوربية المستعمرة ، محاولاً إقناعهم أو إسماعهم وجهة نظر الشعوب الخاضعة لها ،
والمكتوبة بنار تعسفها الاستعماري ^{١٤٢} فقد رفع مذكرات - على حسب قوله - إلى

^{١٤٠} - المنار : ٤٢/١/٣٤

^{١٤١} - السابق : ٤٨٤/٦/٣٥

^{١٤٢} - المنار : ٤٤٥/٦/٢٤/

الحكومة البريطانية بشأن الأمتين العربية والإسلامية ، ورفع مذكرة إلى الحكومة الإيطالية ، وصفها شكيب أرسلان بقوله : " وكتابه هذا من أهم ما كتب في السياسة" ^{١٤٣} ودعا رشيد إيطاليا إلى انتهاج سياسية أساسها : " أن تجعل هذه الدولة نفسها مناط آمال الأمة العربية ، فيما توجهت إليه من إحياء مدنيها ، فتساعدها عليه بالعلم والعمل ، وتكتفي من الجزاء بالمنافع الاقتصادية والسياسية والأدبية " ^{١٤٤} ولم ينشر هذه المذكرات في مجلة المنار ولو بعد حين من إنفاذها ، ربما لخصوصيتها ، التي قد يوقعه نشرها في حرج ، كما يفهم ذلك من حديثه عن خطاب بعثه إلى مصطفى كمال أتاتورك ووصفه "بأنه من الكتب التاريخية المهمة وسيأتي يوم ينشر فيه كله أو بعضه" ^{١٤٥} ولم يات ذلك اليوم في حياته كما يبدو ، وإلا لوجدناه في مجلة المنار. ويستثنى من هذه المذكرات أو الخطابات المرفوعة إلى الحكومات خطاب نشره في مجلة المنار ، لأنه خطاب مفتوح أساسا وليس بسري وعنوانه : (خطاب مفتوح من روح الإسلام والجامعة العربية إلى الشعب الإنجليزي والحكومة البريطانية) ومما جاء فيه " فعلتم ما فعلتم في الدولتين العثمانية والإيرانية ، وكدتم ما كدتم للشعوب العربية ، فاتركوا لنا قبلة صلاتنا ، ومشاعر حننا، وأمهات مساجدنا ، وقبر نبينا ، ولا تحسبوا أن الفرصة قد سنحت لكم للقضاء على ديننا ، كما حسبت حين أردتم القضاء على دولنا ، اغترارا بقوتكم وضعفنا ، واجتماعكم وتفرقنا ، فرب قوة أحالها الغرور ضعفا ، ورب ضعف أعطاه اليأس قوة ويأسا . أردتم استعباد الشعب الأفغاني بفرصة زوال المعارضة الروسية فحررتموه وأنتم كارهون ، وأردتم استعمار بلاد الشعب الفارسي بفرصة الحرب العظمى فغادرتموه وأنتم عاجزون ، وأرتم إماتة الشعب التركي بفرصة انكسار دولته فأحييتموه وأنتم مرغمون ، وخذعتم أكثر رؤساء الشعب العربي بالأموال والتغريير بالوعود والآمال ، فسترون سوء العاقبة والمآل وأنتم الغارمون الراغمون إلا أن ترجعوا عن سياستكم فيهم قبل أن يخرج الأمر من يديكم وأنتم بذلك جديرون ... لقد جئت أيتها الحكومة البريطانية في فلسطين بمثار شرور لم يأت بمثله أحد من الظالمين ، ألا وهو

^{١٤٣} - السيد رشيد رضا : ٣٢١

^{١٤٤} - السابق : ٣٢٢

^{١٤٥} - السابق : ٤٣٥

محاولة انتزاع شعب من وطنه أو وطن من أهله ، وإحلال شعب آخر في محله ، وإيقاد نار العصبية الدينية بين اليهود والعرب وسائر الأمم الإسلامية ومن يشايعها من الشعوب المسيحية ، فإن غرض اليهود من تجديد ملكهم في هذه البلاد لا يتم إلا بالاستيلاء على المسجد الأقصى لإعادة هيكل سليمان ، وإذا تمت لهم القوة لا يأمن المسلمون أن ينسفوه نسفا فيذروا أرضه قاعا صافصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمّتا ، ثم يبنوا أنقاضه هيكلهم ويذبحوا لدى صخرته قرا بينهم ، فإذا عجز أهل فلسطين عنهم بنصركم إياهم وحمائتكم لهم فماذا يفعل سائر العرب والعالم الإسلامي بقوله تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)^{١٤٦} ثم ماذا يفعلون بما ورد في الأحاديث النبوية التي لا أذكرها لكم ، لئلا تدعو أنني أريد بها الإغراء التي تطرق سيادتكم أبوابه وتمهد له أسبابه ، على أنها مشهورة في كتب السنة التي يتداولها جميع علماء الملة. أيها الشعب الإنجليزي الحكيم اعلم أن حكومتك الحاضرة إنما تضع الألغام لنسف ما شيّدته لك حكوماتك الغابرة.. بل اعلم أيها الشعب الحكيم وأعلم حكومتك بما لا يمكن أن تعلمه حق العلم إلا منك ، لأنها تحتقر جميع البشر من دونك.. أن العالم الإسلامي لا يرضى لمهد دينه وموضع إقامة شعائره إلا أحد أمرين لا ثالث لهما (أولهما) أن تكون الحجاز في كفالة خليفة المسلمين عندما تتجدد الخلافة الإسلامية على وجهها الشرعي.. أن تكون الحجاز قطرا سلميا على الحياد باعتراف جميع الدول الإسلامية وغير الإسلامية.. وحينئذ تعلم الدولة البريطانية إن لم تعلم اليوم أن سمسارا اسمه (ناجي الأصيل) لا يستطيع أن يضع معاهدة بين حسين بن علي موكله وبين وزارتي المستعمرات والخارجية البريطانية في شأن الحجاز وبلاد العرب ، بحيث تنفذ على الأمة العربية والشعوب الإسلامية كلها ، وتذل رقاب ٣٠٠ مليون من المسلمين لها ، ثم اعلم أيها الشعب الإنجليزي الحكيم أن كل ما تتفقه حكومتك الحاضرة من أموالك ، لأجل السيطرة على بلاد العرب واحتكار خيراتها ، ستضيع كما ضاعت الأموال التي بذلتها في سبيل الحجاز ، فإياكم أن تتبعوها فتبذلوا أموالكم في تأليف لما عقدته أو تعقده لكم

في جزيرة العرب من الامتيازات ، فإنكم لن تتألوا من هذه الامتيازات - والحالة هذه - إلا الخسار." ١٤٧

الخطاب شرح لسياسة حكومة بريطانيا آنذاك وتخطئتها وتفنيدها ، وبيان أنها سياسة عقيمة ، لا تعود على الشعب البريطاني ولا على الأمم والشعوب التي تمسها بفائدة ، كما أنه تحذير وتهديد لبريطانيا من المضي قدما في هذه السياسة الخاطئة ، لأنها ستؤدي إلى حروب دينية في فلسطين ، لا تقتصر على أهل اليهود وأهل فلسطين ، بل ستكون حربا يخوضها المسلمون ضد اليهود ومن يقف وراءهم ، وفي الخطاب محاولة لاستمالة الشعب البريطاني ضد حكومته ، بقدر ما هو تحريض للمسلمين على هذه الحكومة المستعمرة الجائرة ، التي لم تلق بالاً للمذكرات الكثيرة التي رفعها إليها الكاتب ، وربما فعل كذلك غيره من عقلاء الأمم المستعمرة من قبل بريطانيا .

رسائله إلى أصدقائه

ومن رسائله إلى أصدقائه ، رسالة عتاب إلى صديقه شقيب أرسلان ، بعد جفاء ومقاطعة دامت ثماني سنوات ، بسبب خلاف في الرؤية السياسية ، فلما تغير الظرف السياسي وتقاربت مواقفهما ، بادر السيد رشيد رضا إلى المصالحة ، فبعث إلى صديقه القديم خطاب عتاب ، رقيق اللهجة لطيف العبارة ، يعاتبه فيه على بدء القطيعة فقال: " صديقي التلبد أحبيك حامدا الله على قرب المزار ورجاء اللقاء ، مبتدئا إياك بالتحية والكتابة ، وأنت الأجدر بالبدء وبالاستعتاب ، لأنك بدأت بالجفوة بل أنت الذي جفوت وقاطعت ، بل زدت على ذلك ما علمت ، وما كان ذلك الخلاف في الاجتهاد ، يقتضي كل تلك الظنة ، والقبح باللسان والقلم ، ولقد كان في بني عم شقيق رماح ، ولكنها لحرب الأعداء وإن لبسوا لباس الأصدقاء ، لا لحرب الأوداء في المصلحة المشتركة والشائج المشتبكة وإن تقلدوا سلاح الأعداء ، ولا أمن عليك بأنني كنت لك خيرا منك لي ، فإنني ضننت بك ، ولم أسمح لأحد بأن ينال منك أمامي ، على اعتقادي بأنك مخطئ بل كنت قبل الخلاف الأخير أدافع وأدود عنك

فريقا واحدا ، فصرت بعده أناضل الفريقين من أبناء وطننا ، وأبرئك بكل قوة من النفاق واتباع سبيل المنافع الشخصية ، لا من الخطأ والإفراط في الحدة " ١٤٨

يعاتب رشيد صديقه ، لأنه بدأ بالمقاطعة ، ونال من صديقه بالقلم واللسان علاوة على ما يعتقد من خطئه فيما اختلفا فيه وتفرقا بسببه ، وما كان اختلاف الرأي ليضر لولا فظاظة وحدة وتمادي شكيب ، التي حالت دون تدارك الموقف ، ومهما كان الأمر فإنه ينزه صديقه ويبرئه مما أتهم به من موالاته الأتراك لمنافع شخصية ، وكان رشيد صريحا مع صديقه دائما ، لا يقره على ما يراه من خطأ ولا يجامله فيما يظن أنه جانبه الصواب فيه ، وكثيرا ما كان يؤدي نقد رشيد لشكيب إلى احتدام المناقشة بينهما ، ومن ذلك أن شكيبا كتب في الجرائد عن الخلاف الحدودي بين اليمن والسعودية ما ظن رشيد أنه تحيز لطرف دون الآخر ، فكتب إليه يعاتبه على ذلك: " ولم يلبث أن طلع علينا مقالك في مسألة الخلاف بين الإمامين العربيين منشور اللواء في جريدة "الجهاد" فرأيتك فيه قد خالفت الخطة التي التزمها جميع الذين كتبوا في هذه المسألة ، ووافقت الشيخ التفتازاني وحده ، وهو الذي نصب نفسه للدعوة إلى العلويين وآل البيت والقبوريين والدفاع عنهم ، والنيل من ابن سعود وقومه ، وإن كان غرضك أنزه من غرضه ومقصدك أشرف من مقصده ، وأما الجمهور من الجماعات والأحزاب واللجان وأصحاب الصحف والأفراد الذين كتبوا في الجرائد ، والذين أرسلوا البرقيات إلى الإمامين فقد اجتنبوا كلهم إظهار أدنى تحيز إلى إمام من الإمامين أوفئة من الفئتين ، ولقد كنت أحق منهم بذلك ، فما بالك صرحت بما صرحت به ، من ترجيح اليمن على الحجاز في محل النزاع ، وهو مسألة عسير في هذا الوقت العسير.. كل أولئك لم أكن أحبه لك ، على ما أعتقد من حسن نيتك فيه ، وما كل ما تحسن النية فيه يحسن الفعل وهو يسوء الملك السعودي ورجاله ، بما يبعدهم عن قبول كلامك في غير هذا إلا فيه وحده فما الفائدة منه إذا ؟..

إن مثلك يا أخي في علمك الواسع بسياسة الأمة ومصالحها ، وجهادك الطويل ، وسنك ونسبك ومركزك ، يجب أن تكون موضع اتفاق عند ملوك الأمة وسوقتها ، وخاصتها وعامتها ، وزعمائها وجماعاتها وأحزابها ، حتى لا يكون لأحد

مما ذكرت صارف عن الانتفاع باختبارك ، ولكن هذا الاتفاق لا ينال تاما ولا ناقصا قليلا ، إلا بانتفاء المنفردات الصاعدة والصرحة المرببة ، وبمراعاة الاستعداد للكلام ، وانتهاز فرص الشعور بالحاجة إليه ، فما كان معقولا عندك ربما لا يكون معقولا عند غيرك ، إلا بعد درس طويل واختبار عميق. " ١٤٩

كان رشيد حريصا على منزلة ومكانة صديقه شكيب ، الذي كان مشهورا بالعلم والفضل والجهاد ، والتفاني في خدمة القضايا العربية والإسلامية ، حتى أصبح مسموع الكلمة مقبول الرأي لدى الجميع ، فعزّ على رشيد أن تُمسّ هذه المنزلة ولو عند بعض الناس ، بسبب خوضه في المسائل الخلافية ولو بحسن نية ونشدان الحق ، ولهذا قال رشيد لصديقه ، عندما دافع عن نفسه بأنه ما قال إلا ما اعتقده حقا "ومثل هذا في الغرابة قولك إنك لم تقل إلا الواقع ، فهل كان مقالك في "الجهاد" مقال دعوة إلى صلح أم حكما قضائيا ؟ أم جرحا لرواة حديث ضعيف أو موضوع لا بد من بيانه ، لئلا يغتر الناس بالحديث في أمر من أمور دينهم ؟" ١٥٠

ومع ما تقدم ذكره ، من تعدد غرض الرسالة الواحدة في ديوان رسائل رشيد رضا الخاصة بصديقه شكيب أرسلان ، بحيث يتناول في الرسالة الواحدة عدة قضايا معظمها في الشأن العام الإسلامي أو العربي أو السوري أو غيرها - مع هذا كله فإن الديوان حوى كثيرا من الموضوعات الاجتماعية كالتهنئة والتعزية وغيرها ، ومن ذلك تهنئة صديقه بقاء الأهل والأحباب ، وخاصة بأمه بعد غيبة طويلة في أوربا "أهنئك مرة ثانية أفضل التهاني وأنهاها بالتلاقي مع السيدة الوالدة وحظوتك بتقبيل يديها الكريمتين ، وحظوتها بتقبيل وجنتيك المنيرتين ، وبضمك إلى صدرها البر الرحيم شيئا كبيرا ، وأميرا وقورا ، كما كانت تضمك طفلا صغيرا ، وسماعك لترحيبها ودعائها المستجاب إن شاء الله تعالى ، ورؤية كل منكما لدموع السرور تتفرق في مآقيكما ، وهي ألد وأشهى وأبهى من كل ما يرى في هذه الدنيا من آيات الحب الخالص ، الذي لا يعلوه في هذه الحياة ولا في الآخرة إلا حب الله تعالى ، وقد رجوت في تهنتي الأولى منك أن تبلغها تهنتي مقبلا ليديها عني ، ومطالبها لها

١٤٩ - السيد رشيد رضا: ٧١٩

١٥٠ - السابق : ٧٢٦

بأن تشركني بشيء من دعائها لك ، جزاء على إخلاصي في حبك ، وإخلاصك في حبي ، الذي تعد به والدة لي بالروح ، فأبني لأشعر بذلك في صميم قلبي ، ولو رأيتي الآن ، لرأت شاهدي على صدق قلبي في دموع عيني كنتيهما ، تلمعان وتجريان بما هو أفصح من شهادتي القلم واللسان ثم أهنتك في المرتبة الثانية بجهدك بمالك ونفسك في سبيل الله وخدمة أمتك وملتك ."

كان رشيد كما يظهر في هذا الخطاب رقيق المشاعر ، سريع التأثر ، تفيض دموعه لأدنى التأثر .

رسائله إلى طلابه

ومن رسائله إلى بعض مريديه وطلابه ، ما أرسله إلى الأستاذ عبدا لله أمين من القسطنطينية يقول فيه : " إني ألقى إلي كتابك الذي نمقته آدابك ، يحدث عن إخائك ويروي عن وفائك ، فذكرني ما لم أكن نسيت من ودك ، ووثق ما لا يقبل النقص والانتكاث من عهدك ، والكامل يقبل زيادة الكمال ، قلت إن حب الإصلاح غلب على قلبي .. صدق الله قولك ، ومثلك في صفائه وإخلاصه من يعرف قيمة الإصلاح ، وقلت إنه سدّ علي حب غيره المسالك ، وما كنت في قولك إلا صادقا فو الله إني به لفي شغل عن زيارة الوالدة والأشقاء ، وناهيك بالحب المتبادل بيننا في ذلك ، إن صح أن يقال هذا ، ولكن يدخل في حب الإصلاح حب أهله ومحبيه فنتسع في القلب مسالكهم ، وإني لأعدك من هؤلاء المحبين ، حتى إن التفكير في المدرسة ليجر أحيانا إلى ذكرك في نفر من أصدقائي بمصر ، فإن كان هذا مما يجعل لك علي سبيلا تسلكها في العتاب ، وكنت لم تسمّ ما كتبت عتابا ، فهلم عتابك فما أحب أن أبقى منه في أمان .

ولكم يميل إلى كلامك سمعه ولو أنه عتبٌ تُشِبُّ حروبه

وقلت إنه أمتنع عليّ فتح مدرسة في سنة ، على حين أن كثيرا من القواد فتحوا مدنا في أيام ، ولو أطلت التفكير في هذه المدرسة لعلمت أن فتحها فتح لممالك كثيرة لا

لمدن قليلة ، واني لعاجز عن فتح بيت صغير أو كوخ حقير ، وإنما أستعين بالله العلي الكبير ، وهو على كل شيء قدير والسلام." ^{١٥١}

الخطاب جواب على خطاب يشبه العتاب ، في لبث السيد الطويل في عاصمة الخلافة ، سعيا بشأن مدرسة الدعوة والإرشاد ، التي كان ينوي تأسيسها بمساعدة الدولة العثمانية ، التي لم تتحقق له ، فعاد خائبا بعد سنة كاملة ، شغل فيها عن الأهل والأحباب والأصدقاء ، لأن الإصلاح الإسلامي مقدم عند السيد رشيد رضا على كل شيء آخر مهما كان عزيزا.

رسائله إلى أهل بيته

من نماذج رسائل رشيد إلى أهل بيته رسالة وجهها إلى أخيه حسين وصفي رضا ، بشأن زواجه قال فيها : " بعد إرسال المکتوب السابق الذي فوضتك فيه الأمر في المسألة الخاصة ، جاعني رجل فحدثني بحديث غريب. قال : "إن فلانة هانم ، من بنات الباشوات الوارثات ذوات المال والأطيان ترغب في الاقتران بك وهي تتحدث بهذا منذ زمن ، وأوعزت إليّ أن أكلمك ، وهي ثيب كانت تزوجت بأحد الوجهاء المفتونين بفسق الأزكية ، فلم تكن تراه إلا في آخر الليل ، جائيا من الأزكية ، يترنح سكرًا ، ويعربد هجرا ، فألجأته إلى طلاقها ، وأقسمت لا تتزوج بلبس طربوش ، وهي تحترم مقامك الأدبي ودينك واستقامتك ، وتود لو تشرف دارها لتخاطبك أو تخطبك ، وإن شئت جأءتك لتسمع كلامها ، وتقف على أفكارها.. أليس هذا بحديث عجيب ؟ وما رأيك ورأى الوالدة فيه ؟ هل نضرب عنه صفحا ، أم نستخبر ونسأل ، وتوقفون أنتم سعيكم ، حتى تقفوا على نتيجة ما يكون هنا ؟

كان رشيد قد كلف أسرته بالبحث عن مخطوبة له من بلده ، بعد إخفاق محاولة زواج في مصر ، أسهم فيها شيخه محمد عبده ، ثم اتصل به أحد معارفه ينقل إليه خبر رغبة امرأة ثيب غنية متعلمة في الاقتران به ، فدهش له ، وأرسل إلى أهله يستشيرهم في الأمر.

^{١٥١} - رشيد رضا صاحب المنار : ١٨٧

المطلب الثاني : مقالاته

الصفة الغالبة على رشيد رضا بعد مكانته الدينية هي أنه صحفي ، فقد هاجر إلى مصر ، وفي نيته أن يؤسس مجلة ، على غرار مجلة "العروة الوثقى" لنصرة الإسلام ، ونشر تعاليمه السمحة ، ونشر أفكار المصلحين ؛ السيد جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده الذي اتخذه أستاذه في العلم ، وإمامه في الدعوة والإصلاح ، وما إن حط رشيد رحله في مصر حتى بادر إلى الاتصال بالشيخ محمد عبده ، وعرض فكرة المجلة عليه ، وبعد أن سمع منه ما يتطلبه العمل الصحفي من الجهد المالي والذهني ، وما يكتنفه من الصعوبات ومخاطر الكساد والفشل ، والتي لا يصمد لها إلا من له سند قوي ، والعوائق الخاصة بالصحافة الهادفة من إسلامية ووطنية ، التي تنتشر قيم الأمة الخالدة ، وتقف إلى جانب الشعب ضد الاستعمار ، ولا تجاري حاكما مستبدا ، ولا تهاب مستعمرا غاشما - بعد أن سمع من شيخه رأيه في الموضوع ، أكد له عزمه على إصدار المجلة مهما كانت التضحيات ، فأصدر مجلة المنار بعد ثلاثة أشهر فقط من قدومه إلى مصر ، حيث كان مقدمه في رجب من عام ألف وثلاثمائة وخمسة عشر (١٣١٥هـ) ، وصدر العدد الأول من المجلة في شهر شوال من نفس العام ، وداوم رشيد رضا على إصدار المجلة ، حتى وفاته في شهر جمادى الأولى من عام ١٣٥٤هـ ، وبهذا يكون إصدار المجلة قد تواصل أربعين عاما إلا عاما واحدا على يد منشئه ومحرره الرئيسي كما سيأتي ، عانى فيها من إعراض القراء ومن كنود المشتركين ما جأر منه بالشكوى ، فقال له شيخه ومرشده في تثبيته: "الناس في عماية عن النافع ، وفي انكباب على الضار ، فلا تعجب إذا لم يشرعوا بالاشتراك في المنار ، فإن الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل إلى تغيير الحاضر بما هو أصلح للأجل ، وأعونه على الخلاص من شر الغابر ، ولا يزال ذلك الميل في الأغنياء قليلاً ، والفقراء لا يستطيعون إلى البذل سبيلا ، ولكن ذلك لا يضعف الأمل في نجاح العمل" ١٥٢

لم يضعف أمل رشيد في نجاح المنار ، وبلوغها أقصى غاياته في إرشاد الناس وإصلاح المجتمع ، ولذلك تابع في إصدارها رغم كل الصعوبات التي واجهته

، حتى تبوأ المكانة الأولى من بين المجالات الإسلامية في ذلك الوقت ، واعتبرت موسوعة إسلامية لا يستغني عنها أحد ، وفي ذلك يقول الأستاذ أنور الجندي: "يعد السيد رشيد رضا واحدا من كتاب الموسوعات الدورية الأربع التي عرفتھا الصحافة العربية في أوائل هذا القرن ، وهما: الدكتور يعقوب صروف (المقتطف) وجرجي زيدان (الهلال) والأب لويس شيخو اليسوعي (المشرق) والسيد رشيد رضا (المنار) وقد قامت هذه الموسوعات الدورية بالجهد الفردي سنوات طويلة ، وصمدت في وجه الزمن ، واستطاعت أن تحقق نجاحا كبيرا ، وأن تترك أثرا ضخما في مجال الفكر العربي كله" ١٥٣

بدأت المنار في أول أمرها مجلة أسبوعية ، ثم تحولت إلى مجلة نصف شهرية ، ثم آلت في النهاية إلى مجلة شهرية ، وصدرت أعداد كل سنة في مجلد واحد ، تتراوح صفحاته في الغالب ، ما بين ثمانمائة وتسعمائة وستين صفحة ، ويبلغ مجموع صفحات المنار الخمسة والثلاثين مجلدا تسعة وعشرين ألفا وستمائة وستين صفحة يمكن تصنيفها على النحو الآتي :

المجلدات	الأعداد	السنة
١	٤٩	١٨٩٨-١٨٩٩
٢	٤٨	١٨٩٩-١٩٠٠
٣	٣٢	١٩٠٠-١٩٠١
٤-٨	٢٤	١٩٠١-١٩٠٦
٩-١٧	١٢	١٩٠٦-١٩١٤
١٨-٣٥	١٠	١٩١٥-١٩٣٥

وقد أحصيت مقالات مجلد المنار من فهرس مجلداتها الخمسة والثلاثين مجلدا ، فوجدتها أربعة آلاف وأحد عشر مقالا ، منها ألفان وتسعمائة وثمانية وثلاثون مقالا

١٥٣ تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي ، أنور الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م، ص ٩١

بقلم السيد رشيد رضا ، وألف وسبعون لكتاب آخرين ، ومعنى هذا أن أكثر من سبعين بالمائة من مادة المجلة ، كتبها السيد رشيد رضا وحده .

كان رشيد رضا ينفرد بكتابة أعداد كثيرة من المجلة ، وخاصة في مرحلتها الأولى ، ومع هذا فقد كان يحافظ على تنوع مادة المجلة ، لتشمل كل الموضوعات التي تطرقها عادة المجلات الشهرية ذات النفس الطويل ، يقول رشيد مشيرا إلى استحوازه أو انفراده بكتابة مادة مجلته : "إننا لكثرة أعمالنا ، ومنها انفردنا بالتحريير والتصحيح للمجلة ، ولكثير من مطبوعات دار المنار ، لا نجد فرصة نطلع فيها على ما يهدى إلينا من المطبوعات ، لنقضي حق أصحابها وحق الأمة علينا بتقريبها ونقدها ، فكنا نرجئه من سنة إلى أخرى ، رجاء اقتناص الفرص ولا تزال تفر منا ."^{١٥٤} ولم يكن هذا الاستحواذ ناشئا عن قلة المعين أو المساعد ، فقد كان كثير من أهل بيته وأصدقائه كتابا قديرين ، وعلى رأسهم أخوانه : حسين وصيفي رضا ، وصالح مخلص رضا ، وابن أخيه محيي الدين رضا ، ومن أصدقائه وتلامذته عبد القادر المغربي ، ومحمد بهجت البيطار ، كما كانت المجلة منبرا لأقلام كبيرة ، مثل شيخه الإمام محمد عبده ، والشيخ جمال الدين القاسمي ، وخير الدين الزركلي ، والشيخ محمد مصطفى شيخ الأزهر ، وعبد الحميد الزهراوي ، وأحمد فتحي زغلول ، والشيخ محمد أمين الحسيني ، وأحمد زكي أبو شادي ، والأمير شكيب أرسلان ، ورفيق بك العظم ، والشيخ محمد خضري ، والشيخ أحمد محمود شاكر ، والشيخ مصطفى عبد الرزاق وغيرهم من العلماء والأدباء وعلماء الطبيعة .

وإنما كان السبب في استحوازه على المجلة استثنائه بتلك المساحة المحدودة من المجلة الشهرية ، التي لا تلبى بما لديه من الفيض العلمي والفكري ، ولهذا كان إلى جانب انفراده بتحريير المنار ، يكثر من الكتابة في الجرائد والمجلات الأخرى ، إضافة إلى اشتغاله بالتأليف والتصنيف .

أخلص من هذا إلى تقرير ما يؤدي إليه ذلك من وفرة نتاج السيد محمد رشيد رضا ، وخاصة في مجال الكتابة الصحفية ، في شتى موضوعاتها الدينية والأدبية

والسياسية والاجتماعية والتربوية ، وكلها تندرج تحت المقالة الصحفية التي فيها هذه الدراسة .

وقد حاولت أن أقوم بتصنيف مقالاته في مجلة المنار إلى موضوعاتها الرئيسية ، فوجدت ذلك صعبا ، بل أقرب إلى المستحيل ، وليس ذلك راجعا فقط إلى كثرتها ، التي ناهزت ثلاثة آلاف مقال كما سبق أنفا ، وإنما كذلك لتداخلها وتشابك بعضها في بعض ، بحيث تبدو معها محاولة التصنيف عبثا أو تضليلا يقود إلى نتائج خاطئة ، ولهذا عدلت عنه إلى دراسة نماذج متنوعة من مقالاته .

مقالاته السياسية

من القضايا السياسية الشائكة ، التي كانت تواجه المصلحين في عصر رشيد رضا ، وخاصة الإسلاميين منهم "المسألة العربية" ، التي برزت إلى الساحة بقوة ، بعد أن ضعفت الدولة العثمانية ، وأخذت القوميات الأوربية تتفصل عنها قومية تلو الأخرى ، بتشجيع من الدول الأوربية القوية ، كما أخذت هذه الدول الاستعمارية تحرض العرب على الدولة العثمانية ، بغية إضعافها وانتزاع هذه الأجزاء العربية منها بالتواطؤ مع أهلها ، فتعددت الاجتهادات السياسية في المنطقة منها ما يدعو إلى الاستقلال التام من الإمبراطورية العثمانية في ظل دولة عربية موحدة ، ومنها ما يدعو إلى تبني الحكم اللامركزي في ظل الرابطة العثمانية ، ومنها ما كان يدعو إلى قيام كيانات عربية مستقلة على أسس إقليمية أو طائفية ، وكان الشيخ محمد رشيد رضا من الحزب المعتدل ، الذي دعا أولا إلى إصلاح نظام الخلافة ، ثم إلى الأخذ باللامركزية ، ولم يعارض أخيرا عندما تطورت الأمور إلى الأسوأ بالنسبة للنظام العثماني قيام دولة عربية مستقلة ، لا تعادي تركيا ولا غيرها من الشعوب الإسلامية ، التي كانت منضوية تحت الحكم العثماني كما دعا إلى وحدة عربية ، لا تفرقها التنوعات الدينية والمذهبية ، ويؤكد أن في هذا مصلحة للعرب قاطبة مسلمين وغير مسلمين ، للرابطة الأخوية الحميمة التي تربط فيما بينهم ، والتي لا يمكن أن يكون أي دين حربا عليها ، فيقول : "إنما مصلحة العرب السياسية أن تكون لهم دولة مستقلة ، وهذا أمر بديهي ، لا يختلف فيه عاقلان ، فالعرب أمة من أقدم أمم

الأرض وأعرقها في الاستقلال ، ذات مجد عظيم ، ومدنية عالية في التاريخ القديم والحديث ، ولغة ممتازة في لغات العلم والأدب ، وشريعة هي أعدل الشرائع المنزلة للبشر ، وقد ضعفت هذه الأمة الكريمة ، وضعفت مزايا لغتها ، وأهمل معظم شريعتها ، وكادت تفنى بفنائها ، كل ذلك لعدم وجود دولة لها ، إذ يستحيل أن ترتقي أمة بغير دولة ، إن السواد الأعظم من العرب يدينون بدين الإسلام ، واللغة العربية هي لغة هذا الدين ، فلا تصح لمسلم عبادة بغير هذه اللغة ، فبالدولة العربية تحيا لغة القرآن ، وتحيا بحياتها شريعة الإسلام ، فمن البديهي إذا أن يكون الخير للمسلمين في هذه الدولة إذا وجدت ، وأما غير المسلمين من العرب فهم الآن كالمسلمين ليس لهم دولة ، ولأن يكون لأبناء جنسهم دولة خير لهم من أن يكونوا تابعين لدولة أعجمية ، لا يشاركونها في النسب ولا في اللغة ، ولا في العادات والتقاليد ولا في الوطن الجغرافي ولا في الدين ، ولا لدولة أعجمية ، يشاركها بعضهم في الدين والمذهب أو في الدين دون المذهب ، دون سائر مقومات الأمم ومشخصاتها ، وهم يعلمون أن الدين أو المذهب لا يحملها على جعلهم مساوين لأبناء جنسها ووطنها"^{١٥٥}

مقالاته الاجتماعية

يبحث رشيد في هذا المقال في مكونات الروابط الجنسية أهي النسب ؟ أم اللغة ؟ أم الدين ؟ أم الدولة ؟ ثم ينتهي إلى أن أشمل الروابط الجنسية هي الدولة المستندة إلى قانون عادل ، يحقق المساواة بين رعاياها ، ولا يصل إلى هذه الغاية القصى نظام غير النظام الإسلامي ، فيقول في هذا الصدد بعد أن يمهد له بهذا التمهيد الرائع : "لا تفاوت بين أفراد نوع من أنواع المخلوقات نعلمه كالتفاوت بين أفراد البشر ، يتسع وجود زيد منهم فيملاً الآفاق ، ويضيق وجود عمرو حتى يضيق به قفص جسمه ، يشعر ذاك بروحه الكبيرة أنه خلق لينهض بأمة كبيرة أو ليفيد جميع الأمم ، ويحار هذا في خدمة جسده ويرى نفسه عاجزة عن تغذيته وتوفير لذته ، فإذا ازدوج فصار له بيت كان همه أكبر ، لأنه أعجز عن سياسته وأصغر ، وبين

هذين الطرفين سواد عظيم ، لكل منهم سهم من سعة الوجود على قدر قوة الإنسانية فيه وضعفها ، فإذا كثرت أصحاب السهام العظيمة في أمة من الأمم ، اتسع وجودها ببسط سلطانها على الأمم التي قلت سهامها ، وخف بها ميزانها ، فينقبض وجود هذه بمقدار اتساع وجود تلك ، وإذا كانت الجنسية في الأمة هي النسب كانت بسطتها في الوجود ضئيلة ، كذلك الوطن إذا كان بلادا محدودة كمصر أو الشام أو العراق ، وليس نشر اللغة وجعلها جنسية بالأمر السهل ومثلها الدين إذا كان خاصا كاليهودية ، وأما الحكومة فهي أوفى جميع ما ذكر ، وبها تكونت الأمم الكبرى ، كإمبراطورية الإسكندر والإمبراطورية الرومانية في الزمن الماضي ، وكالسلطنة العثمانية ، والحكومات الاستعمارية في هذا الزمان ، ولكن الجنسية في الحكومة لا تعد جنسية حقيقية ، إلا إذا كانت الشريعة أو القوانين التي تحكم بها الرعايا المختلفين في النسب والوطن واللغة والدين مبنية على قواعد العدل والمساواة بينهم ، وكان القائمون بها من لفيفهم لا من طائفة معينة منهم... فالنتيجة لما تقدم من القواعد ، أن أكمل الجنسيات وأنفقها للبشر ، ما كانت أعم وأشمل للطوائف والجمعيات المختلفة في النسب والوطن واللغة والدين والحكومة ، بأن يقصد بها الخير للجميع والمساواة بينهم في الحقوق ، وتمكينهم من الرقي إلى ما أعدتهم له الفطرة البشرية من الكمال الاجتماعي ، وإنها لجنسية يتحسر عليها نوابغ الحكماء وهي موجودة في الملة الإسلامية. " ١٥٦

مقالاته في الاستعمار

دأب رشيد في مجلته المنار على تبصير المسلمين والشرقيين على السواء ، وتبئهم إلى خطط المستعمرين ومكائدهم التي لا تنحصر في استخدام القوة العسكرية كما يبدو لقصارى النظر ، وقليلي الخبرة ، بل إن ما يصطنعونه من الأساليب الماكرة ، والوسائل الخادعة ، التي تظهر في أشكال التجارة أو التعليم أو الخدمات الإنسانية والاجتماعية ، وما ينشرونه في خلال الأمم المستضعفة من عاداتهم وتقاليدهم ، كل ذلك أمضى من السلاح العسكري في ترويض الشعوب

وتهيئتها للاستغلال الاستعماري ، وهذا ما يشرحه السيد رشيد رضا في مقال له بعنوان : "الجيش الغربية المعنوية في الفتوحات الشرقية" قائلاً : "الغرض من الفتوح والاستعمار تكثير المال وتنمية الثروة ، والمال مبدأ الأعمال المدنية وغايتها ، وبه تتألف مقدمات العمران ، وتحصل نتائجها ، ولما علم الغربيون أن الحروب تتلف الثروة ، وقد يستوي في خسائرها الغالب والمغلوب عمدوا إلى الفتوح من طريق الكسب ، والتغلب على الأمم بالقبض على أزمنة معاشها ، وامتلاك نواصي مكاسبها ، ثم بتقطيع روابطها ، وإبطال الجوامع التي تضمها وتجمعها ، إلى أن يقضي التفرق على الأمة بقضائه الذي رددناه مرارا ، وبمثل هذا التفرق يتسنى للعدد القليل الاستيلاء على شعب كبير وأمة عظيمة...

علم الأوربيون بما أفادهم البحث في طبائع الأمم ، أن الترف مدعاة الدمار والفناء الاجتماعي ، إذا لم يقرن بتربية صحيحة ، تقي من أدوائه ، وتعصم من بلائه ، وعلموا بالاختبار أن الشرق فقدت منه التربية ، وانفصمت عرى الوحدة التي كانت لأممه ودوله ، ولم يبق لهم من روابط الاجتماع إلا بقايا موروثه، لا متعهد لها ولا حافظ ، فيكفي لتقطيعها جذبة لطيفة من جذبات الترف ، فكروا على الشرق بجنود منه لا قبل لأهله بها ، وحملوه أوزارا أثقل من الجبال ، فحملها وكان الشرق ظلوما جهولا ، ساقوا عليه خمسة فيالق ، وهي : الخمر ، والميسر والربا ، والبغاء ، والتجارة ، فنسفوا بذلك ثروته ، وقتلوا غيرته ، وأضعفوا همته وأفسدوا ما كان من بقايا أدب ودين ، فتكت هذه الفيالق والجحافل في الأمم الشرقية فتكا ذريعا^{١٥٧} ثم أخذ يفصل في الآثار السيئة التي أحدثه كل فيلق من هذه الفيالق الخمسة في البلاد الإسلامية والشرقية ، من الإفلاس في الأخلاق والأموال والأعراض ما جعلها كلاً مباحا ، وحمى مستباحا لألوان شتى من تدخل المستعمر وتحكمه في مصائر الشعوب الغافلة

مقالاته في الحرب العالمية الأولى

كتب رشيد رضا كثيرا عن الحرب العالمية الأولى ، مبينا دوافعها ومصورا ما أورتته العالم من الدمار والخراب ، ومحلا ما يستفاد منها من الدروس والعبر ، ومن ذلك مقالة له بعنوان : "حرب أمم المدنية لا الملل الدينية" ومما ذكر فيه أنها حرب أمم وشعوب لا حرب حكومات منفردة ، فقال : "تسمي الجرائد العربية والأوربية هذه الحروب المشتعلة في أوربا حرب الأمم ، ولا نرى لها مخالفا في صحة هذه التسمية ، فقد أجمع الناس على أن جميع الأمم الأوربية المتحاربة موافقة لدولها ، على الاستمرار على هذه الحرب ، إلى أن يفنى آخر رجل يقدر على استعمال السلاح فيها ، وينفق آخر دينار في صناديقها ، أو تقهر عدوها قهرا يخضع به لحكمها ، ويذعن صاغرا لشروط الصلح التي تضعها حكومتها." ^{١٥٨} ثم يذكر رشيد قراءه بأن المتحاربين في هذه الحرب الضروس هم الأمم الأوربية المتحضرة ، التي كانت تدعونا إلى نبذ الأديان للخروج من الفرقة والخلاف والحروب الدينية "أذا تمهد هذا فاعلم أيها القارئ أنني لم أقصد به المدح أو الذم للأمم المتفقة على الحرب أو المختلفة فيها ، ولا التخطئة أو التصويب لموقدي نارها ، وإنما أريد أن أثبت أنها حرب المدنية الأوربية الحديثة ، لا حرب دينية ولا مذهبية ، وهذه المدنية مادية لا روحية ، دنيوية لا دينية ، وغاية أصحابها ، ومقصدهم منها هو التمتع بالشهوات البدنية ، والعلو والعظمة في الأرض ، والتكاثر في الأموال وضروب الزينة... فهل يعتبر بهذه الحرب أولئك الخادعون المخدوعون ، الذين كانوا يعيبون الأديان ، بزعمهم أنها مثار البغي والعدوان ، ومسعر نيران الحرب بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وأنه لولاها لآخت المدنية بين الناس ، وجمعت بين ما تفرق من الأجناس ، كلا إن الحياة المدنية هي التي تولد في النفوس المطامع التي لا حد لها ، وتقرن التنافس بالتحاسد ، وتسوق الحسد إلى البغي والتقاتل ، وإن الدين ينهى عن ذلك كله ، ولكن الناس كثيرا ما يخطئون في فهمه... فالحرب سنة من سنن الاجتماع ، قد يخفف الدين شرورها بقدر ارتقائه واستمساك أهله به... وليس للمدنية المادية مثل هذا التأثير في نفسها فإن وجد في أمم المدنية من يقبح الحرب ، أو يقبح ارتكاب القسوة

فيها غيرة على العمران ، ومحافضة على حقوق البشر غير مهتد في ذلك بتربية الدين ، ولا متأثر بفضائله ، فهو لا يكون إلا كالتاجر الخوان لا يحجم عن صفقة إلا خوفا من الخسارة"^{١٥٩}

مقالاته الدينية

من مقالات السيد رشيد رضا الدينية ما قصد بها الدفاع عن الإسلام وتعاليمه الربانية ، مما رمي به من النقص والتخلف عن مجارة المدنية ، ومناقضته لمقتضيات العلوم الطبيعية ونتائج الاكتشافات العصرية ، فكان من ذلك مقال له بعنوان : "الشريعة والطبيعة" بيّن فيه أن الشريعة والطبيعة كلاهما وحي من الله ، فالشريعة وحي نقلي ، والطبيعة شواهد نصبها الله تعالى للاستدلال بها على خالقها ومبدعها ، ومحال أن يتناقض أو يتعارض وحي صدر من مصدر واحد ، وأي شيء يوهم ذلك فإنما هو قصور في تأويل الوحي المتلو من جانب علماء الشرع ، أو خطأ في نتيجة النظرية العلمية من قبل علماء الطبيعة ، يقول رشيد: "إن الله تعالى خليفة منها جميع ما نعرفه في هذه الأكوان ، وشريعة اختلفت أحكامها باختلاف أحوال الاجتماع لنوع الإنسان ، ثم ثبتت أصولها وقواعدها العامة بالسنة الصحيحة والقرآن على وجه ينطبق على مصالح البشر في كل آن ، ولولا هذا لم يصح أن تكون شريعة عامة لكل زمان ومكان ، فالخليفة أو الطبيعة من الله ، كما أن الديانة والشريعة من عند الله (فذلكم الله ربكم الحق) ^{١٦٠} وما كان من الحق فهو حق ، فمن قال : إن الطبيعة أو علمها باطل كمن قال : إن الشريعة أو العلم بها باطل ، كلاهما مجترئ على مقام الربوبية بنسبة الباطل إلى الحق ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً... وما شذوذ بعض الناظرين في علوم الطبيعيات والهيئة اشتغالا بالصنعة عن الصانع إلا كشذوذ الناظرين في علوم الشريعة المتوسعين فيها عن العدالة في الأحكام ، والعفة في المعاملة وهما روح الشريعة ، فإننا نسمع الناس يرمون رجالا من أوسع العلماء والقضاة الشرعيين علما بالأحكام بما لا يرمون به سائرهم ، وما

^{١٥٩} المنار: ١٨/١٠/١٤٦٦

^{١٦٠} - يونس : ٣٢

كان الزيغ والانحراف من هؤلاء وأولئك من علمي الطبيعة والشريعة فيكونان باطلين ، وإنما هو فساد في التربية زاد بالعلم فسادا... نتيجة هذا كله أنه يجب أن لا يكون في الدين والشريعة شيء مخالف لما في الخلق والطبيعة ، لأن كلا من عند الله ، وحاشا أن يصدر عن تلك الذات العلية التناقض والاختلال ، وأي أمر ينافي الكمال ، وما عساه يوجد في الكتب الدينية ، أو يجري على السنة رجال الدين من قول يذم علوم الخليفة ، أو يرمي إلى بطلانها ، أو ينهى عن تعلمها ، فهو من الناس لا من الله ، ألصقوه بالدين لشبهه عرضت لهم ، أكثرها لفظية أو لمحض الجهل ، على أنه يوجد في كتب العلوم الطبيعية مثلما يوجد في كتب العلوم الشرعية من الأقوال والآراء المبنية على الظن والخرص.. فهذه المسائل اليقينية لا ينافي شرعيها طبيعيتها أبدا ، ومتى نافي قطعي من قسم منها ظنيا من القسم الآخر يترك الظني للقطعي ، إلا إذا أمكن الجمع بينهما ، وإذا تعارضت الظنيات يرجح الشرعي على غيره" ^{١٦١}

مقالاته الوصفية

كان رشيد ميالاً إلى الوصف والاستطراد ، وتصوير تفاصيل القضايا التي يتناولها بالحديث والدراسة ، فيتحول وصفه الذي ربما قصد به التمهيد لموضوع إلى نص وصفي بارع الجمال ، مستقل الكيان ، كما أن له مقالات مفردة للوصف ومنها مقال له بعنوان : "رمضان في عاصمة الخلافة" صوّر فيه مظاهر هذا الشهر الفضيل في إستانبول ، من عمارة المساجد وكثرة الوعظ والقراء فيها ، وتهيئة المساجد وتزيينها بشكل خاص ، وارتياح الصائمين المنتزهات والحدائق والشوارع الجميلة في الآصال ، كما صور إقبال النساء على المساجد للصلوات المكتوبة والتراويح ، ومن المفارقات أن ليالي رمضان الإستانبولية ليال صاخبة بالموسيقى والسهرات الليلية ، وقرع الطبول في الشوارع الكبيرة ، صوّر رشيد رضا كل ذلك بدون تدخل من تحليل أو نقد ، ولولا أن المقال طويل نسبيا لأثبتته بكامله ، لدلالته على حسن رشيد وذوقه في الجمال الطبيعي . قال رشيد : "لهذا الشهر في هذه العاصمة مظهر غريب ، لا نعرف له نظيرا في غيرها من بلاد الإسلام ، وهو يرى على أكمله

وأتمه في قسم إستانبول منها ، أما في النهار فترى أكثر المطاعم والمشارب والملاهي والمجامع العامة مقفلة ، لا يختلف إليها أحد ، وترى أمارات الصيام ظاهرة على أكثر الناس ، فلا تكاد ترى أحدا يدخن ، وترى المساجد الشهيرة عامرة بالمصلين والواعظين والمستمعين والمتفرجين الطوافين ، ولهذا كله نظير في البلاد الإسلامية الأخرى ، وإنما رونقه ههنا بجمال المساجد وزينتها ، واختلاف الناس من جميع الطبقات إلى المشهور منها ، ولاسيما جامع أيا صوفيا العظيم ، وبيتدئ هذا من وقت صلاة العصر إلى قرب المغرب ، فمن الناس من يسمع الوعظ ، ومنهم من يسمع الحفاظ ... وبينما يكون الخلق الكثير من الناس في المساجد بين العصر والمغرب ، يكون شارع (شهزاده) مكتظا بالرجال والنساء ، الذين يؤمنونه من جميع أرجاء المدينة ، فيكون كالمعرض العام لهم ، حتى إن كثيرا من أفراد الأسرة السلطانية يجيئونه كل يوم في هذا الوقت .. وليس لهذا الشارع مزية في السعة أو الجمال على غيره الآن ، ولعله كان في وقت ما أوسع الشوارع وأجملها ، على أن السكان في تلك الجهة جلهم أو كلهم من المسلمين ، وكان يكون فيه في هذا الوقت من تبرج النساء بزينتهن ، ومغازلة الرجال لهن ، ما لا يكون في مكان آخر في وقت آخر إلا في معاهد النزهة في أزمنتها الخاصة ، ككاغد خانة ، ومروج (قاضي كوي) و(حيدر باشا) و (بكقوز) وغيرها من المروج والوديان والغدران ، وموارد المياه والشواطئ والغابات ، وكل ذلك كثير في ضواحي هذه العاصمة التي لا نظير لموقعها في الدنيا ، وكل معهد من معاهد نزهة موسم من أيام الربيع والصيف والخريف ، يؤمه فيه الرجال والنساء بحللهن الزاهية الألوان متبرجات بزينتهن الخاطفة للأبصار ، حاسرات عن وجوههن المميلة للأعناق ، ولا تسل عما يكون هناك من المغازلة ، ولكن مع الوقوف عند حدود الأدب ، قلما يتعدونها إلا في المجامع الكبيرة ، التي يجتمع فيها عشرات الألوف من النساء والرجال ، كمجمع عيد الخضر في الكاغد خانة... ذلك ما أحببنا بيانه في أيام رمضان ، وأما لياليه فهي ليال سرور ولهو وعزف وقصف ورقص ، وتسمع المعازف الوترية كالعود والقانون والكمنجا ، وغير الوترية في أكثر الملاهي ، التي تدعى في البلاد العربية بالقهاوى ، وفي البلاد التركية ببيوت القراءة (قراءتخانه لر) وسبب ذلك أن لأهلها نساء ورجالا

عناية بالعزف والموسيقى ، ويتعلمون ذلك في المدارس الخاصة ، وترى أصحاب الطبول الكبيرة يجولون في الشوارع من أول الليل إلى وقت الإمساك قبيل الفجر ، وناهيك بدور التمثيل والرقص... وقد ظهر لي أن لصلاة الجماعة وصلاة التراويح من الإقبال والعناية في الآستانة فوق ما لها في مصر ...

يمتاز نساء الآستانة على نساء البلاد العربية بالصلاة في المساجد ، يقل ذلك منهن في غير رمضان ويكثر فيه ، حتى إن من المساجد الصغيرة ما هو خاص بهن ... وقد اتخذ لهن في هذه السنة حظائر في مؤخر المساجد ، يحجبهن عن الرجال فيها ، ويدخلن من باب خاص بهن...

إنني أرى أن اختلاف النساء في المساجد يعلي نفوسهن ، ويرفع قيمتها في نظر صواحبها ، وقد كن يصلين في المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما حمل المسلمين على منعهن منها في أكثر البلاد إلا شدة الغيرة ، كراهة بعضهن في غدوهن ورواحهن ، ولنساء الآستانة من هذا التبرج حظ عظيم وناهيك بالمتبخرات في الشوارع والسبح في أيديهن ، يعبثن بها فتكون أشدّ جذبا لأبصار الرجال إليهن من سائر حليهن وزينتهن ، وكأني بهن يجبن من يعترض عليهن في ذلك بقول تلك الشاعرة العربية:

ولله مني جانب لا أضيعه ولله مني والخلاعة جانب^{١٦٢}

المطلب الثالث : أدب رحلاته

رحلات رشيد وبواعثها

يعد أدب الرحلات من أهم الفنون الأدبية ، وأكثرها متعة وإثارة ، لما يشتمل عليه من التجارب الإنسانية الخصبة ، والفوائد العلمية الجليلة ، ومعظم الرحالين علماء وأدباء حنكتهم التجارب ، بالسفر في مناكب الأرض ، والاعتبار بأحوال العباد والبلاد ، فكان لما دونوه عن مشاهداتهم وعما استفادوه من طبائع البشر وعوائدهم ، قيمة علمية وأدبية كبيرة "وأما القيمة الأدبية فهي تتجلى في كون كثير مما أورده هؤلاء الرحالون في مذكراتهم يمكن أن يأخذ سبيله إلى علم الأدب والخيال كأنموذج من أرق النماذج على الوصف الفني الحي".^{١٦٣}

قام رشيد رضا برحلات كثيرة ، قادتته إلى الشام والقسطنطينية والهند ومسقط والبصرة والكويت والحجاز وأوربا ، وكان ذلك بعد أن اشتهر بالعلم الواسع وممارسة الإصلاح ، والاهتمام الكبير بقضايا الأمة العربية والإسلامية ، والتصدي لمناهضة الاستعمار وأذنبه من المتفرنجين الداعين إلى نبذ الإسلام وخلع تعاليمه ، والسير في ركب الحضارة الأوربية من غير تمييز ولا تمحيص ، ومقارعة حاملي لواء الجمود ، ورافضي كل جديد من مقلدي المذاهب ، الذين كانوا يرون بوجوب التقيد بالفروع الفقهية والعقدية ، التي ورثت من عصر الاجتهاد ، ولا يبيحون لأحد مهما بلغ علمه ، وكبر عقله ، وصفا ذهنه ، أن يعيد النظر في تلك المقررات الفقهية ، أو يجتهد فيما يستجد من قضايا العصر ، كما نازل السيد كذلك شيوخ الطرق الصوفية ، الذين انحرف كثير منهم عن هدي الإسلام ، وابتعد عن الزهد الحقيقي الذي يقوم عليه فكر التصوف الإسلامي ، فكان رشيد بجهاده ومجلته الشهيرة مناراً ، تعشو إليه نواظر الحيارى في ظلمات الجهل والتخلف والاستعمار ، التي تردى فيها العالم الإسلامي آنذاك.

لم ينشئ رشيد رضا هذه الرحلات لمجرد الترويح عن نفسه فراراً من زحمة العمل ، أو استجماما من وقدة الحر في صيف مصر ، ولا كانت بواعثها طلبا في مغنم

^{١٦٣} - الرحلات وتطوره في الأدب العربي ، أحمد أبو سعد ، دار الشرق الجديد ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦١م ، ص ٦

دنيوي من تجارة ونحوها ، بل كانت كلها جزءا من جهاده الإصلاحية ونضاله في سبيل الدين والوطن ، ما عدا رحلة الحجاز التي كان سببها أداء فريضة الحج ، ومع ذلك لم يخلها من السعي للقضية العربية - التي كانت ساخنة آنذاك - بما يوافق رؤيته الإسلامية في الجمع بين استثمار وتوجيه الحركة العربية وبين الحفاظ على كيان الخلافة الإسلامية ، التي كانت تمثلها الدولة التركية .

يقول رشيد رضا في رحلته إلى القسطنطينية : "رحلت في العام الماضي - وهو العام الأول للدستور- إلى الديار السورية لصلة الرحم التي قطعها الاستبداد عليّ إحدى عشرة سنة ، ولاختبار حال البلاد بعدما عاثت به فيها حكومة الاستبداد وللوعظ والإرشاد ، والحث على الاتفاق والاتحاد وبيان مزايا الدستور وفوائده ، وما يجب على الأمة من العمل للتقدم في عهده ، وقد نشرت في المنار ملخص تلك الخطب والدروس ، فعرفها قراؤه ، ورحلت في هذا العام - وهو العام الثاني للدستور- إلى القسطنطينية عاصمة الدولة ، لأسعى في أمرين عظيمين ، أحدهما وهو أجلهما : خدمة للدين الإسلامي ولجميع المسلمين ، وثانيهما : خدمة للدولة العلية من حيث هي حكومة الدستور القائم على أساس العدل والمساواة ، ولعنصري الأمة العثمانية الكبيرين .

أما الأول: فهو إنشاء معهد ديني علمي في العاصمة للتربية الإسلامية الصحيحة الكاملة ، وأما الأمر الثاني الذي سعيت إليه فهو : إزالة ما وقع أخيرا من سوء التفاهم بين عنصري الدولة الكبيرين - العرب والترك.. "١٦٤

ورحل إلى سوريا ثانية للمشاركة في بناء الدولة السورية ، التي قامت برئاسة الملك فيصل بن الحسين ، بعد انحسار ظل الدولة التركية عنها في الحرب العالمية الأولى ، وكانت مشاركة رشيد في هذه الدولة - التي لم تدم طويلا - مشاركة جليلة ، تجلت في اختياره رئيسا لمؤتمرها الوطني ، الذي كان بمثابة الهيئة التأسيسية لمجلس الشعب أو البرلمان^{١٦٥} كذلك كان الشأن في رحلته إلى سويسرا ، حيث كان مقر عصبة الأمم المتحدة ، إذ كان سببها المشاركة في مؤتمر للأحزاب السورية ،

١٦٤ المنار : ١٢/١٢/١٢-٩٥٦-٩٥٧

١٦٥ السابق : ٢٣/٥/٢٩٦

دعا إليه حزب الاتحاد السوري ، الذي كان رشيد رضا من زعاماته ، وكان رشيد من مهندسي هذا المؤتمر ، الذي كان الهدف منه صياغة موقف موحد لجميع الأحزاب السورية تجاه انتداب الاستعمار الفرنسي على سوريا ثم رفع القضية إلى عصبة الأمم^{١٦٦} وأما رحلة رشيد رضا إلى الهند فكانت تلبية لدعوة جمعية ندوة العلماء ، كبرى الجهات الدينية والتعليمية في الهند للمشاركة في اجتماعها العام باعتباره رئيس شرف له .^{١٦٧}

استطاع رشيد رضا أن يجمع بين أداء المهام وقضاء الحاجات التي كانت وراء كل رحلة ، وبين استغلال هذه الرحلات في تكميل عقله وتجاربه بالاختبار والاعتبار بما يرى ويسمع^{١٦٨} ، وتسجيل كل ذلك بشكل موضوعي وفني ، "ومن هنا فإن الرحلات التي قام بها ، منطلقا من مصر إلى سوريا والقسطنطينية والهند والحجاز وأوربا ، إذ تسلط مزيدا من الأضواء حول سيرته ، والدور الإسلامي الذي لعبه ، تقدم لنا في الوقت نفسه كشفا بما كانت عليه يومذاك المجتمعات العربية والإسلامية ، يضاف إلى ذلك أن الشيخ رشيد رضا ، المنتقل إلى رحمة ربه في الثاني والعشرين من آب عام ١٩٣٥م قدم لنا زيادة على أفكاره الإصلاحية المسندة إلى الإسلام ، نوعا من أدب الرحلة ، يمزج بين هدف الإصلاح ، ومتعة السياحة ، وحب الاستكشاف"^{١٦٩}

لقي رشيد في رحلاته من الترحيب والضيافة والاحتفاء به ما يسر له أمره وسهل له كل صعب ، فقد كان في معظم رحلاته في ضيافة الدول أو الجمعيات الإسلامية ، وكان سهل الوصول إلى الوجهاء والمسؤولين وصناع القرار في كل بلد يزوره ، وكانت البرقيات تتقدمه إلى كل ناحية يرحل إليها ، إما من أوليائه لغرض استقباله واستضافته ، أو من سلطات الاحتلال لمراقبة تحركاته ومتابعة نشاطه ، والتحذير من أفكاره ، وهذا يدل على منزلة رشيد وخطر أمره .

^{١٦٦} المنار: ١١٥/٢/٢٣

^{١٦٧} السابق: ٦٢١/٨/١٥

^{١٦٨} السابق: ١١٥/٢/٢٣

^{١٦٩} الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل، سمير أبو حمدان، ص ٥٤

كان رشيد رضا على وعي وإدراك جيد بما كان يقوم به من تسجيل ملاحظاته ومشاهداته ، وما كان يحرره من الكتابة عن رحلاته ، فكان يراجع ما كتبه الرحالون قبله في بعض الأقاليم ، مستفيدا منها ومناقشا لبعض ما جاء فيها ، فقد نقل كثيرا عن الرحالة الأندلسي ابن جبير في وصفه لمدينة مكة ومشاعر الحج^{١٧٠} كما ناقش ما ورد في كتاب "الرحلة الحجازية" لصديقه محمد لبيب بك البيانوني الذي ألفه في سنة ١٣٢٨هـ^{١٧١}

أما منهج رشيد في كتابة رحلاته ، فكان يقوم على وصف مشاهداته وتسجيل ملاحظاته ، والتركيز على استخلاص العبرة واستنتاج الخبرة دون التقيد بالتسلسل اليومي في الكتابة ، وإن كان يلجأ إليه أحيانا ، كما صنع في الرحلة الحجازية^{١٧٢} يقول في رحلته الثانية إلى سوريا : "جريت فيما كتبت في هذه الرحلة على طريقة بيان أحوال سورية الاجتماعية والأدبية والسياسية في هذا الطور الجديد الذي دخلت فيه بعد الحرب ، لا على طريقة بيان تفصيلي في البلاد بتاريخه ، وذكر المشاهدات وما يتبعها في الآراء تبعا له كما اعتاد المؤرخون^{١٧٣} ومع أن رشيد رضا كان مولعا في وصفه للأمور بالاستقصاء والتفصيل كقوله في وصف (الترمس) في الرحلة الحجازية : "وهذا الإبريق من نوع الروايات الوارد (أوعية الماء للسفر) الإفرنجية التي يسمون واحدها (ترمس) وأكثر هذا النوع عمودي الشكل ، وهو يحفظ ما يودع فيه من بارد وحر يوما وليلة بالتقريب... وسبب حفظ الترمس لما يودع فيه مدة طويلة هو أنه مؤلف من إناعين أحدهما وهو الظاهر معدني ، وثانيهما زجاجي باطنه كالمرآة ، وظاهره مغشي بمادة من المواد البطيئة التوصيل للحرارة والبرودة ، ويوضع الزجاجي في باطن المعدني منفصلاً عنه ، ويكون الاتصال بينهما من أعلى الفوهة ولهذه الفوهة صمام (سداد) من الفلين على رأسه قطعة من معدنه الأبيض ، ويكون فوقها غطاؤه المعدني المتصل به ، فإذا رفع الصمام قليلا أمكن صب الماء من بلبل الإبريق"^{١٧٤} مع كل ذلك كان يجمع قلمه حيث لا يرى فائدة في الإطالة

^{١٧٠} المنار : ١٥٥/٣/٢٠

^{١٧١} السابق : ١٩٥/٤/٢٠

^{١٧٢} السابق : ١١٤/٢/٢ ، ٦٩٦/٩/٢٣

^{١٧٣} السابق : ٢٣٥/٣/٢٣

^{١٧٤} المنار : ١١٠/٢/٢٠

بالوصف فلا يصف الحرم المكي لأن "وصفه مبين بالتفصيل في كتب المتقدمين والمتأخرين من المؤرخين والرحالين"^{١٧٥} ويقول في معرض حديثه عن مدينة "تريسته" الإيطالية في رحلته الأوربية: "ولو شئنا لنقلنا من كتب التاريخ شيئاً من وصفها كما يفعل كثير من الناس فيما يكتبون في رحلاتهم ، ولسنا من مستحسني هذه الطريقة بإطلاق ، وإنما يحسن فيها تقييد بعض الشوارد المبعثرة ، والنوادر التي لا تنال باليسير من المراجعة ، والنوادر التي تزدان بها المحاضرة ، وما يستتبطه السائح من العبرة والفائدة حتى فيما صورته الفكاهة والتسلية"^{١٧٦} ومما يدل على أن رشيد رضا راعى في كتابة رحلاته أسلوب وطريقة فن الرحلات ، أنه لم يدخل فيها ما كان يلقيه من الدروس والمحاضرات ، وما كان يمارسه من الأنشطة السياسية والاجتماعية أثناء رحلاته ، بل نشر ذلك في مجلة المنار مستقلاً عن الرحلات^{١٧٧}

لم يجمع رشيد رضا ما كتبه في رحلاته الست في كتاب مستقل ، ولو فعل ذلك لخرج في كتاب كبير الحجم ، تربو صفحاته على الثلاثمائة صفحة ، وذكر في رحلة الهند أنه عازم على إفرادها في كتاب ، فقال: "وقد استفدت في رحلتي إلى الهند والبلاد العربية الشرقية فوائد كثيرة جديدة بأن تنتشر في المنار ، وأن تدون في كتاب مستقل ، ولذلك عزمت على تأليف رحلة خاصة في ذلك"^{١٧٨} ولعل هذا هو السبب في قلة ما نشر عن هذه الرحلة في المنار ، حيث لم تزد عن أربع حلقات ، اثنتان منها في شكر من استقبلوه هناك ، غير أنني لم أجد في مؤلفاته كتاباً عن رحلته الهندية أو عن غيرها من رحلاته الأخرى .

الرحلة السورية

إن ما يستوقف القارئ في رحلة رشيد الأولى إلى سوريا هو ما حظي به رشيد من الترحيب المنقطع النظير من كل فئات الشعب ، من السياسيين والعلماء

^{١٧٥} السابق : ١٥٠/٣/٢٠

^{١٧٦} السابق : ٣٠٦/٤/٢٣

^{١٧٧} السابق : ٩٥٦/١٢/١٢

^{١٧٨} السابق : ٤٤٩/٦/١٥

والحكوميين الرسميين ، ومن عامة المجتمع ، وخاصة في طرابلس وقريته القلمون ، فعندما رست السفينة التي كانت تقله في ميناء طرابلس "كان في الانتظار على رصيف الجمرک في الميناء جماهير من جميع الطبقات وجوقة موسيقية أرسلتها جمعية الاتحاد والترقي"^{١٧٩} ثم انتقل من طرابلس بعد أسبوع إلى قريته "القلمون" فتلقاه جمع غفير في الطريق قبل وصوله إلى القرية ، وشرع الشبان في إطلاق الرصاص في الهواء تسليما عليه وترحيبا به ، يقول رشيد : "وكان من حفاوة أهل القلمون بي ، أن حمل بعض نسائها مجامر العود الهندي وغيره من البخور أمامي من طرابلس إلى القلمون ، وكان فيمن خرج للقاء ممن بقي فيها من يحمل المجامر أيضا... وكان النساء يغنين ويزغردن ، ولهن في ذلك أغاني مناسبة للمقام ، وهذه العادة قديمة عند نساء البادية والقرى والبلاد التي لم يتسع نطاق الحضارة فيها"^{١٨٠}

يواصل في شرح مظاهر الاحتفال له فيقول: "بدأت الوفود تفر من الكورة على القلمون للسلام علينا منذ اليوم الثاني من وصولنا إليها ، كرئيس دير البلمند ووجهاء البلاد من المسلمين والنصارى ، وقد نزل معظم أهل (دره) وهي على قمة الجبل بإزاء القلمون على الساحل بعد العشاء ، وهو يطلقون البارود من بنادقهم ، والرصاص من مسدساتهم ، ويهزجون بالأغاني ، فتلقاهم شباب القلمون في خارجها وأدخلوهم باحتفال يناسب ما هم فيه ، وقد قيل لي : إن من الرسوم المعتادة في ذلك ، أنه لو لم يخرج شبان القلمون للقائهم لما دخلوه ، لأن ذلك يعد من الإهانة في عرفهم ، وعند وصولهم إلى دارنا تحلقوا أمامها ، وطفقوا يهزجون ويطلقون العيارات النارية إلى قريب من نصف الليل ، ثم انصرفوا مشيعين مشكورين"^{١٨١} ويقول رشيد رضا كالمعتذر عن حكايته لبعض ما ورد في الاحتفال له من الألعاب الشعبية "وقد ذكرت هذا ، لأنه من العادات التي لم أكن أعرفها من قبل"^{١٨٢}

كانت رحلته الأولى إلى سوريا بعد غيبة دامت إحدى عشرة سنة ، فلما أتت له أول فرصة لزيارتها ، بعد إقرار الدستور ، وأمن الناس من بطش الدولة

^{١٧٩} المنار: ٧١٠/٩/١١

^{١٨٠} السابق: ٨٧٤/١١/١١

^{١٨١} السابق: ٨٧٨/١١/١١

^{١٨٢} المنار: ٨٧٤/١١/١١

بادر إلى زيارة بلده وأهله ، فلما دخل مدينة طرابلس راعه ما رآه فيها من عدم التطور والتغير ، كأن عجلة الزمن الدوارة غفلت عنها ولم تلاحظها ، فبقي كل شيء فيها على ما كان عليه ، قبل أكثر من عشر سنوات ، فوصف لنا هذا الأمر قائلاً: "رأيت داخل طرابلس على ما تركتها عليه منذ إحدى عشرة سنة ، كأنه لم يتبدل ولم يتحول فيها شيء ، حتى خيل لي أن ما رأيته في الدكاكين ومخازن التجار هو الذي تركته فيها بعينه ، وقلما رأيت أحداً ممن أعرفهم انتقل من دكانه سواء كان مالكا أم مستأجراً"^{١٨٣}.

ينتدبر رشيد في طبائع الناس وعوائدهم وهو يتجول في مدن الشام الشهيرة فيستوقفه أن أهل حمص أقل تأنقا في المأكل والمشرب ، وأبعد عن الترف في الطعام من أهل بيروت وطرابلس ، وبعد ذلك محمداً لأهل حمص ومبالغة وإسرافاً من أهل طرابلس ، وأهل طرابلس في رأيه يفوقون في التوسع على أنفسهم في الطعام ، وتخير الجودة فيه ، على أثرياء القاهرة حيث يقول : "واني لأعلم أن المصري المقيم في القاهرة نفسها ، الذي يزيد دخله في الشهر على دخل الطرابلسي في السنة ، لا يأكل من الحلوى في السنة كلها ، بقدر ما يأكل منها الطرابلسي في شهر واحد."^{١٨٤} ومما تحدث عنه رشيد رضا في رحلته الثانية إلى سوريا ، إثر الحرب العالمية الأولى ، وخروج الأتراك من الأراضي العربية ، ما لحق بالبلاد من الدمار والخراب جراء الحرب^{١٨٥} وما عاناه الشعب من الفقر والعدم وهلاك خلق كثير بسبب الجوع ، يقول رشيد في هذا الصدد: "وما جرى في السواحل وجنوب لبنان ولاسيما قضائي التين ، وكسروان منه ، فهو فوق ما كانت تشرحه الجرائد في مصر ، ويظنه أكثر أهلها من المبالغات التي يقصد بها الطعن في حكومة الترك ، فالحق أن كل ما وصفته كان دون الذي وقع ، وقد ثبت عندي أن بعض الناس كانوا يأكلون ما يجدونه في المزابل والطرق ، إن كان رطباً يمضغ ، أو يابساً يكسر... وثبت عندي

^{١٨٣} السابق: ٧١٥/١١/١١

^{١٨٤} السابق: ١٥١/٢/١٢

^{١٨٥} السابق: ٤٣٠/٨/٢١

أكل الناس الجيف ، حتى ما قيل من أكل بعض النساء لحوم أولادهن والعياذ بالله
١٨٦» .

الرحلة القسطنطينية

وفي رحلته إلى القسطنطينية عاصمة الخلافة العثمانية ، يسترعي نظر رشيد ما وجد عليه أهلها ، من الدمثة في الخلق ، والنظافة في كل شيء ، "فلا تكاد تتكر على رفيع ولا وضيع قولاً خشناً ، ولا كبراً ولا ترفعاً ، ولكنك كثيراً ما تتكر عليه إخلاف الوعد وما في معنى الإخلاف ، حتى يقل أن يثق المختبر بقول يسمعه ، وسبب ذلك تأثير الاستبداد الشديد"^{١٨٧} كما أن رشيد رضا تنبه إلى خلاف ما كان يعتقد ، وينشره في مجلة المنار وغيرها ، من أن القسطنطينية أرقى البلاد العثمانية في العمران ، فلما زارها ومكث فيها سنة كاملة ، وخبر حالها عن كثب كتب يقول : "كنت كتبت في المنار ، وقلت في بعض الخطب التي ألقيتها في العام الماضي بالبلاد السورية ، أن أرقى البلاد العثمانية الأستانة ، وما يقرب منها من ولايات الروملي ، وسورية ، وأدناها العراق والحجاز واليمن ، وقد تبين لي أن هذا القول خطأ ، والأستانة لا تفوق سوريا إلا بكثرة عدد المتعلمين من الرجال والنساء ، وبالآداب الاجتماعية كما تقدم... وأما النسبة بين الأستانة ومصر فهي أن عامة أهل الأستانة أرقى من عامة أهل القاهرة ، وخاصة أهل القاهرة النابغين أرقى من خاصة أهل الأستانة النابغين ، وأما من جهة الثروة والعمران فمصر أغزر ثروة وأرقى عمراناً"^{١٨٨}

^{١٨٦} المنار: ٤٩٨/٩/٢١

^{١٨٧} السابق: ٣١٦/٤/١٣

^{١٨٨} السابق: ٣١٦/٤/١٣

الرحلة الحجازية

حج السيد رشيد رضا في عام ١٩١٧م في بعثة مصرية كبيرة ، قدمت لها الحكومة المصرية كثيراً من التسهيلات ، وكانت معه أمه وشقيقته ، وكان هذا أول حج له ، لأنه كان يخاف قبل ذلك من بطش الحكومة التركية ، التي كان كالمعارض لها ، فلما زال ذلك المانع بادر إلى أداء الحج ، ونزل على ضيافة الشريف الحسين بن علي ؛ ملك الحجاز ، وأفاض رشيد في الحديث عن هذه الرحلة ، التي كتب فيها عشر حلقات في مجلة المنار ، في وصف مكة المكرمة والمشاعر المقدسة ، والحالات الروحية التي تنتاب الحاج ، أثناء أدائه لمناسك الحج الطاهرة ، وما يملأ قلوب المنتسكين من هيبة وجلالة المشاعر ، وذلك بعد وصفه لمشهد الوداع ، عند شروع الفراق للأهل والأولاد قائلاً : "وقد كنا بلونا لوعة الوداع بتعدد الأسفار ، وكان أشجاها وداغ والوالدين والأقربين والأصدقاء عند الهجرة إلى هذه الديار ، ولكنني لم أذق قبل هذا اليوم توديع الأهل والأولاد ، لأنني لم أكن في حال سفر من أسفاري السابقة زوجا ولا والداً"^{١٨٩} وكان لرحلته هذه أهمية متميزة ، لأن "الكتابة في الرحلة إلى الحجاز تحتل مكانا بارزا في أدب الرحلات العربية ، فدواعي الرحلة مستمرة ، وأثرها في النفس عميق ، وتفاعل المشاعر معها عين تثر بالأعمال الأدبية."^{١٩٠}

خرج رشيد من جدة إلى مكة بعد صلاة العصر وحده بعد أن أرسل أهله في الصباح ، ولم يكن معه إلا خفيران أو جنديان ، لحراسته من نهب قطاع الطرق ، ووصل إلى مكة ضحى اليوم الثاني ، ولم يسترح في الطريق إلا قليلا ، وقطع عامة المسافة ، التي بين جدة ومكة في الليل ، وهو على حمار ، فوصف ما لقيه في الطريق ، وما سمع به ، ومنه اعتداء وقع على بعض السالكة من قطاع الطرق ، فكان من أحسن ما كتب ، وصفه لمشاعره في هذه الليلة ، وهو في الطريق فقال : "كنت قبل عودة المشيعين لي من جدة ، ألبى في السير قليلا ، وأتكلم معهم كثيرا ، فلما عادوا وولى النهار بأنسه وبهائه ، وأقبل الليل بوحشته وظلماته هدأت المشاعر ،

^{١٨٩} - المنار: ٤٤٩/٨/١٩

^{١٩٠} - الرحلة إلى الحجاز في الأدب العربي الحديث ، د. أحمد محمد على حنطور ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م ص ١٠

وقرت النواظر ، وخشعت السرائر ، وتزاحمت الخواطر فكان الغالب منها على الفكر والقلب ، ما يثيره تأثير الزمان والمكان ، وزى الإحرام في النفس ، فأما الزمان فهو شهر ذي الحجة الحرام ، وأما المكان فهو الطريق إلى بيت الله الحرام ، وأما زى الإحرام فهو الذي كان يتزيا به إبراهيم خليل الله ، وإسماعيل ذبيح الله ، ومحمد خاتم رسل الله ، وغيرهم من رسل الله الكرام ، وكل من حج البيت أو اعتمر من أصحابهم وأتباعهم هداة البشر ، فيا لها من ذكرى لذي اللب ، يخشع لها القلب ، ويرجى بها رضوان الرب بما تثمره من قوة الإيمان وطهارة الوجدان ، وخلوص السر والإعلان ، ولو لم يفترن بها ذكر لسان ولا عمل أركان ، فكيف إذا صاحبها تكرار التلبية ، التي تزيد حرارتها تذكية وإخلاصها تزكية ، لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، تأملت في نفسي في تلك الليلة الليلية ، والطريق الجرداء ، فرأيتني حاسرا حافيا ، في إزار ورداء ، غير مبال بما يكون من تأثير الهواء ، وهي حال لم أعهد لها في سالف الأيام إلا بين جدر الحمام .^{١٩١}

الرحلة الهندية

رحل السيد رشيد رضا إلى الهند في عام ١٩١٢م بدعوة من جمعية العلماء بلكنؤ ، لحضور مؤتمرها السنوي كضيف شرف ، فكانت هذه الدعوة فرصة أخرى للتعرف على البلاد الإسلامية ، ومعرفة أحوالها ورجالها عن كثب . وصف رشيد رحلته إلى الهند والبلاد العربية الشرقية بأنها جديرة بتأليف كتاب فيها ، لما حوته من الفوائد الجليلة ، بل عزم على ذلك ، غير أنه لم يتمكن منه ولم يكتب عن تلك الرحلة التي شملت الهند ومسقط والبصرة والكويت ، ولقي فيها من الترحيب والتوقير من وجهاء وعلماء الهند وأمراء مسقط والكويت ، ما جعله يخصص حلقتين في شكر هؤلاء القوم ، وأما عن مشاهد الرحلة نفسها فلم يزد فيها على حلقتين ، وربما أرجأ أكثر حديثها إلى حين إصدار الكتاب الذي وعد به قراء مجلة المنار ، والذي لم ير النور على ما يبدو.

من أولى العبر التي استفادها رشيد في رحلته إلى الهند ما شاهده وهو في السفينة من اهتمام الإنجليز بالرياضة البدنية التي لم يغفلوا عنها أو يسأموا من ممارستها أثناء السفر ، وهذا ما أثار إعجاب رشيد إذ يقول: "لا يرى المسافر في سفينة إنجليزية عبرة تهديها عيناه إلى فكره أعظم من انهماك الإنجليز في الرياضة البدنية في عامة أوقاتهم ، فإذا هو زار الهند بعد ذلك ، ورأى فيها حكامهم وعسكرهم يعيشون في ذلك الحر المحرق بلا ضرر ولا ضجر ولا سأم ، يعلم من أسرار تلك الرياضة البدنية ومنافعها ما لم يكن يعلم ، ويرى كيف وصل العقل البشري إلى الجمع بين الترف والنعيم والبأس والقوة ، وكان هذا في العصور السابقة مجهولاً"^{١٩٢}

لما وصل إلى الهند وصف عوائدهم في اللباس والطعام ، كما وصف أصناف المجتمع الهندي وطبقاته ، وحال التعليم والعمران في البلد ، فكان مما قال: "إن أزياء أهل الهند أول ما يشغل نظر السائح فيها ويثير ، يرى في بمبي - وهي زينة بلاد الهند في حضارتها وعمرانها - ألوفاً من النساء مكشوفات البطون والسوق والأفخاذ ، ويرى الرجال حتى الأغنياء منهم مشدودي الأوساط بأزر بيضاء ، مرفوعات الأطراف بين الرجلين ، بحيث يرى باطن الفخذ والساق ، ويرى كثيرا من الرجال والولدان عراة الأجسام ، لا يسترّون منها إلا السوءتين فقط وهم يبيعون في الأسواق"^{١٩٣} وذكر من عادات الهند في الأكل أن الوثنيين منهم يأكلون على ورق الشجر ، ولا يؤاكلون أحدا سواهم ، وليس هذا لأنهم أكثر طبقات الهند تخلفا ، وإنما لأن هذه من عاداتهم المتأصلة التي يضمنون على التفريط فيها ، وأما من حيث الرقي فهم "أرقى أهل الهند حضارة ومدنية وعلما وثروة ، والسبب في ذلك أن الإنجليز عنوا بتربيتهم وتعليمهم ما لم يعنوا بغيرهم ، لحاجتهم إلى الاستعانة بهم على بعض الأعمال الوطنية ، وعدم خوفهم من عاقبة ارتقائهم لأنهم قليلو العدد"^{١٩٤} ومن عادات أهل الهند العجيبة "في الدعوات والمآدب أن يضعوا في عنق الضيف قلادة من أنواع الزهر الذي يوجد في البلد ، ويعطوه بيده باقة منها مؤلفة تأليفا حسنا ، وهي التي يسميها المصريون الصحبة ، فإن لم يوجد زهر يجعلون في عنقه قلادة من الزهر

^{١٩٢} المنار : ٤٤٩/٦/١٥

^{١٩٣} السابق : ٤٥١/٦/١٥

^{١٩٤} السابق : ٤٥٢/٦/١٥

الصناعي أو ما يشبه الزهر ، ولا يستثنى من هذه العادة عالم ولا حاكم ولا شيخ كبير السن^{١٩٥} وأما من حيث التقدم العمراني والتطور الصناعي فلا تفوق الهند فيهما أمة من أمم الشرق إلا اليابان^{١٩٦} ومما أعجب به رشيد من حال أهل الهند قلة تأثرهم بالاستعمار والأجانب عموماً فيما يستعملونه من الملابس وماعون البيت^{١٩٧}

الرحلة الأوروبية

زار السيد رشيد رضا عدة بلدان أوروبية في رحلة واحدة ، كان هدفها خدمة الوطن السوري ، بالمشاركة في مؤتمر وطني كان هو من الداعين إليه ، لتقديم مطالب السوريين بالاستقلال الكامل من الانتداب الفرنسي إلى عصبة الأمم ، التي كان مقرها في جنيف ، فسافر عن طريق البحر من الإسكندرية ، وشق إيطاليا في طريقه إلى جنيف عاصمة سويسرا ، حيث كان قصده ، ثم بعد انتهاء المؤتمر واصل رحلته إلى ألمانيا.

وصف رشيد رضا مشاهد الطبيعة في البلاد الأوروبية التي زارها ، بما يدل على إعجابه الشديد بجمالها المنقطع النظير ، الذي يتجلى في كل مظهرها من جبال ووهاد وبر وبحر وبادية وحاضرة ، فأطلق العنان لقلمه ليمعن في تصوير ما التقطته ذاكرته ، واستوعبه ناظره ، من سحرها الفائق ، وجمالها الأخاذ ، فلما استوى على قطار أوربا الدولي من مدينة تريسته الإيطالية ، وانطلق به إلى سويسرا ، بدت له مشاهد الطبيعة الخلابة ، فطفق في تصويرها بقلمه البارح : "سار بنا القطار في خيف شجير من ذلك الجبل النضير ، فكانت شجراؤه عن يميننا في الجبل ، وعن يسارنا فوق البحر ، وما زال يتسلق بنا ، متلويًا كالأرقم في الأجم ، حتى استوى على تلك السهول الفيحاء ، والسهوب الشجراء ، ذات المروج الخضراء ، والرياض الغناء ، الكثيرة النوار ، والمفتحة الأزهار ، حتى كأن الزمان قد استدار ، فتحول الشطر الثاني من آب إلى مثله من نيسان وأوائل أيار... وأجمل مناظر هذه البلاد - على الإطلاق - البحيرات ، فقد مررنا ببعضها عن بعد ، وبعضها من كثب ،

^{١٩٥} المنار: ٤٥٦/٦/١٥

^{١٩٦} السابق: ٤٥٥/٦/١٥

^{١٩٧} السابق: ٤٥٦/٦/١٥

ولم^{١٩٨} أنس لا أنسى أصيل ذلك اليوم ، إذ بلغنا بحيرة ماجورا (ميجارو) فراعني ذلك المنظر البهيج ، الذي لم أر له فيما سبق من عمري من شبيهه ولا نظير ، وإنما رأيت نظيره بعد ذلك في سويسرة فأقول : إن مثل هذه البحيرة وبحيرة "لوسرن" التي بين الجبال هو أجمل ما خلقه الله في هذه الأرض ، البحيرة واسعة ، بين جبال شاهقة ، مزدانة بالجنت الألفاف والأجم الغيباء^{١٩٩} من أدنى الغور المساوي للماء ، إلى الشماريخ التي تتأطح السماء وترى فيما يدنو من هذه الجنت المعروشات منها وغير المعروشات أصناف الأعناب وأنواع الثمرات ، وهي ذات تعاريج كثيرة ، وفيها جزائر صغيرة بنيت فيها قصور نضيرة يصلون إليها بزوارق جميلة ، ومياها زرقاء صافية ، وهي تتسع في مكان وتضيق في آخر ، وأخفاف^{٢٠٠} الجبال المحيطة بها تمتد على بعض الضفاف وتتقلص عن بعض ، ولبعضها ألسنة مستطيلة فيها ، ورؤوس مقنعة في بعض نواحيها ، والقطار يسايرها في جوانبها ويلتف على معاطفها فيدنو ويبعد ، ويغير وينجد ، ويصوب ويصعد ، ونحن فيه متلعو الرؤوس شاخصو الأبصار ، نقلب الطرف ذات اليمين وذات اليسار ، فمنظر البحيرة العجيب عن أيماننا ، ومنظر الجبال الغريب عن شمائلنا ، وفي كل منهما آيات للناظرين ، ومعان للمتفكرين تثير في الخيال هواجس الشعر ، وتنفث في الوهم رقى السحر ، وتلقي في العقول معاني الفنون ، وتوحي إلى القلوب حقائق الإيمان بمن يقول للشيء كن فيكون^{٢٠١} لم يقل رشيد شعرا استجابة لتلك الطبيعة الخلابة التي ملأت نفسه إعجابا وخياله إحساسا ولكنها ذكرته بأمرين :

أحدهما: أبيات من مقصورته في وصف روضة في بلده استقلها بجانب شموخ وعظمة ما رآه في أوربا.

والأمر الثاني: سرّ تهافت الأغنياء في البلاد العربية على الديار الأوربية وتعلقهم الشديد بها وهرعهم إليها كلما تغيرت الأجواء في بلادهم ، وإن كان لامهم فيما علم

^{١٩٨} - هكذا في الأصل ، ولعل الصواب : "وإن أنس"

^{١٩٩} - شجرة غيباء : مُتَّفَعَةٌ وَغُصْنٌ أَعْبَى . (القاموس المحيط : ١/١٦٩٧)

^{٢٠٠} - الخَيْفُ ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء (مختار الصحاح (١/١٩٦))

^{٢٠١} - المنار : ٣٠٧-٣٠٦/٤/٢٣

من إسرافهم الشديد وتبذيرهم الفظيع لثروات البلاد في ملذات وملاه لا تعود عليهم ولا على بلادهم إلا بالخسران والبوار.^{٢٠٢}

المطلب الرابع : تراجمه الأدبية

تراجمه الغيرية

تناول السيد رشيد رضا كثيرا من الشخصيات الكبيرة المؤثرة بالترجمة والدراسة بعضهم كانوا معاصرين له ، قضاوا نحبهم في حياته ، فترجم لهم وبعضهم شخصيات تاريخية استتارت إعجابه ، فأحب إحياء ذكراهم للاعتبار بسيرتهم والاستلها من عبقرياتهم ، فمن الصنف الأول من كانوا زعماء وقادة سياسيين منهم الملك فيصل بن الحسين ؛ ملك سوريا ثم العراق ، وأحد ألمع قادة العرب في فترة الانتداب الاستعماري للبلاد العربية ، ترجم له رشيد رضا في مجلة المنار في عشرة حلقات ، أربت صفحاتها على خمسين صفحة ، يدور معظمها حول تجربة فيصل السياسية في سوريا برأه فيها من الخيانة والانتهازية ولم يبرئه من الخطأ وسوء التدبير^{٢٠٣} ومنهم الزعيمان مصطفى رياض باشا^{٢٠٤} وسعد زعلول^{٢٠٥} المصريان ومن هذا الصنف من كانوا علماء أو أدباء ومفكرين كالشيخ محمد كامل الرافعي السوري^{٢٠٦} والشيخ علي يوسف الأديب الصحفي المشهور^{٢٠٧} والأديبة باحثة البادية^{٢٠٨} وفي كل هؤلاء كتب حلقات في تراجمهم تتفاوت في الطول والقصر. وأما الصنف الثاني فمنهم الإمام الشافعي والإمام الغزالي الذي أطال ترجمته حتى بلغت أربعاً وتسعين صفحة في ثماني حلقات ، ونقف بالعرض والدراسة عند ترجمتين تميزتا بالطول والأهمية ، إحداهما ترجمته لشيخه وأستاذه الإمام محمد عبده في كتابه تاريخ الأستاذ الإمام ، والثانية ترجمته الذاتية في كتابه المنار والأزهر .

تتلمذ رشيد رضا على مدرسة العروة الوثقى قبل أن يعرف شخص صاحبها ، فأعجب بها غاية الإعجاب وهام بحب محرريها ، وعزم على أن يلتحق بهما ويستمد من روحهما الإصلاحية ، فمات أولهما قبل أن ينعم برويته ، فأسرع بالهجرة إلى مصر لملاقاة الثاني وهو الشيخ محمد عبده^{٢٠٩} فوجد عنده بغيته فكان معه ثماني

٢٠٣- المنار : ٣٤/٤/٣١٧

٢٠٤- السابق : ٣٤/٦/٤٧٤

٢٠٥- السابق : ٢٨/٨/٥٨٤

٢٠٦- السابق : ٢١/٣/١٥٣

٢٠٧- السابق : ١٦/١١/٨٧٣ - ١٧/٣/٢٣٩

٢٠٨- السابق : ٢١/٢/١٠٥

٢٠٩- تاريخ الأستاذ : ١/٩٨٨

سنين يغرف من علمه وينهل من حكمته ويتربى عليه في طرائق الإصلاح الديني والمدني ، وينشر أفكاره في مجلة المنار التي أنشأها في مصر باستشارته ، فلما مات الأستاذ الإمام في عام ١٩٠٥م انهدم منه ركن ركين كان يستند إليه في كل أموره^{٢١٠} ولم يكن الوحيد في اليتيم بل شاركه فيه تلاميذ الإمام الكثيرين من الحزبين المدني والديني ، ومن ورائهم خلق عظيم ممن امتد إليه تأثير الإمام ، فشرع فوراً في كتابة ترجمته لتكون مناراً يهتدي به ، بدأها بمقالات كان ينشرها في مجلة المنار^{٢١١} ثم طلب منه بعض كبار تلاميذ الإمام أن يكتب تاريخ الإمام بتفويض منهم ، وأن يشركهم في الأمر ولا ينفرد به وأن يتحملوا معه نفقات الطبع والنشر^{٢١٢} غير أن ظروف مصر السياسية حالت دون إنجاز التاريخ على الوجه المرجو ، فاكتفى بإصدار الجزء الثاني والثالث من هذا التاريخ ، أما الثاني فيتضمن إنتاج الإمام من مقالاته الاجتماعية والأدبية ، ولوائحه في إصلاح التربية والتعليم ، ورسائله الدينية والأدبية للعلماء والأدباء ، وأما الجزء الثالث ففي التآبين والتعازي والمرثي التي قيلت فيه إثر وفاته ، ولم يصدر الجزء الأول الذي يتضمن التاريخ الحقيقي لأستاذه ، ويصور ما خاضه من الصراعات المريرة وما تعرض له من المحن الأليمة ، وما جرى بينه وبين السلطات الثلاث: سلطة الوزارة والسلطة الملكية وسلطة الاحتلال ، وما قاساه من معاناة في إصلاح المؤسسات التعليمية وعلى رأسها الأزهر والمؤسسات القضائية - لم يصدر هذا الجزء الذي اعتبره رضا جوهر ترجمته إلا بعد ربع قرن من صدور الجزء بين الثاني والثالث ، حيث أصبحت الفرصة سانحة والظروف مناسبة والحرية مضمونة ، وأمكن كتابة تاريخ نزيه لا يخضع لرقابة خارجية عن ضمير كاتبه^{٢١٣} صور رضا في هذا التاريخ حياة أستاذه منذ ميلاده إلى مثواه الأخير ، فذكر أنه ولد في أسرة متواضعة لا يميزها نسب شريف^{٢١٤} ولا يسندها ثراء وريث ولا وجاه وسلطان عريق أو وليد ، فكان في نشأته الأولى كأحد أبناء قريته " محلة النصر" من مديرية البحيرة بمصر ، ولما بلغ مبلغ التعليم أرسله

٢١٠- السابق : ٢/١

٢١١- السابق : ٣/١

٢١٢- السابق : ٢/١

٢١٣- السابق : ٤٠٢/١

٢١٤- تاريخ الأستاذ : ٩٧٥/١

والده بعد أن حفظ القرآن في القرية إلى المسجد الأحمدى بطنطا ، لتجويد القرآن الكريم وتلقى الدروس الدينية فيه على منهاج الأزهر الشريف ، ليلتحق بعد ذلك بالأزهر في القاهرة^{٢١٥} وكان آنذاك شابا غير أنه لم يستسغ طريقة التعليم في المسجد ، مما كره إليه العلم وجعله ينقطع عن الدرس ، ويعود قافلا إلى قريته عازما على الاشتغال في شيء آخر غير العلم ، وتزوج أثناء ذلك غير أن والده أصر على أن يعود إلى الاشتغال بطلب العلم ، ونزولا على رغبة والده كر راجعا إلى المسجد الأحمدى ومدرسته ، وفي الطريق عرج على قرية فيها بعض أقاربه ، فقيض الله له فيها شيئا من صلحاء الصوفية يدعى الشيخ درويش ، فتلطف في استمالته وقرأ له شيئا من معارف الصوفية وطرفا من كلامهم في آداب النفس ، وترويضها على مكارم الأخلاق ، وتطهيرها من دنس الرذائل ، وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا^{٢١٦} فكان هذا الشيخ سببا في رجوعه إلى التعلم في المسجد الأحمدى ، ثم مواصلة التعليم في الأزهر الشريف ، حتى تخرج فيه ، ونال منه إجازة التدريس العالية^{٢١٧} وكان يتردد على الشيخ في فترات الإجازة ويستزيد منه التربية الروحية حتى انتقل الشيخ إلى رحمة الله^{٢١٨} ويذكر السيد رشيد رضا أن أستاذه محمد عبده لم يفارقه نفوره وعدم إطمئانه إلى كثير من الدروس التي كانت تلقى عليهم في الأزهر ولا إلى طريقة تدريسها ، وبعد أن قضى في الأزهر ثلاث سنوات فقط استوعب أهم الفنون التي كانت تدرس فيه ، وممل من التكرار والشروح التي لا نفع فيها^{٢١٩} وتاقت نفسه إلى العلوم العقلية والعصرية التي كان نصيبها في الأزهر قليلا ، وفي أثناء ذلك قدم إلى القاهرة السيد جمال الدين الأفغاني ، فسمى خبره إلى الشيخ محمد عبده فزاره على الفور مع بعض مشايخه ، فلاح له من كلامه وحديثه ما لم يتنبه إليه من كان معه ، فصحبه من لحظته وانقطع إلى الأخذ عنه " فسكنت نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها وأقصى أمنيته"^{٢٢٠} وأهم ما أفاده

٢١٥ - السابق : ٢٠/١

٢١٦ - السابق : ٢٢/١

٢١٧ - السابق : ١٠٣/١

٢١٨ - السابق : ٢٤/١

٢١٩ - السابق : ٢٥/١

٢٢٠ - تاريخ الأستاذ : ٢٥/١

الأفغاني إضافة إلى العلم الغزير الذي لم ير مثيلاً له عند غيره إخراجاً من خمول أزهريته إلى ميدان الإصلاح السياسي والاجتماعي والتربوي^{٢٢١} ويلخص رضا مراحل تعلم أستاذه فيقول: " فكان له في طلب العلم ثلاثة أدوار أولها الطلب على طريقة الأزهر المعروفة ، من المناقشة في عبارات كتب المؤلفين وقراءة المتون مع الشروح والحواشي والتقارير ، سلكها زمنا حتى ملها وتوجهت نفسه إلى علم أعلى وفهم أجلي ، ففيض الله تعالى له ذلك العلامة الحكيم السيد جمال الذين فقرأ له علوما أخرى على طريقة أسهل مسلكا وأقرب غاية ، فانتشله من الإخلاق إلى أرض العبارات الركيكة والأساليب الضعيفة والاحتمالات البعيدة ، ورفعته إلى سماء عرفان الحقيقة والإفصاح عنها بالعبارة البليغة بعد إطلاقه من قيود تقليد المؤلفين وتعويده الحكم باليقين ، فهذا هو الدور الثاني ، وهو خاص كسابقه بالعلوم الإسلامية التي كتبت باللغة العربية مع شيء قليل من العلوم الحديثة ، وتطبيق العلم على حال المسلمين الأخيرة ، وأما الدور الثالث فهو النظر في علوم الإفرنج. قرأ رحمه الله كثيرا مما ترجم من الكتب ، ثم تعلم الفرنسية فصار يقرأ الكتب فيها لا يكاد يتركها يوما من الأيام ، وكانت عنايته بعلوم الأخلاق والنفس وأصول الاجتماع الإنساني والتاريخ وفلسفته وفن التربية أشد من عنايته بسائر العلوم ، وقلما علم بكتاب لإفرنجي يتكلم فيه عن الإسلام إلا واستحضره وقرأه " ^{٢٢٢} ويقف رضا عند سلوك أستاذه في تلقي العلم ليستخرج منه العبر وليستدل به على تميزه بل عظمته وعبقريته فيقول : " هذا ما يقال في طلبه العلم ، وفيه عبر كثيرة لمن يعتبر بسيرة العظماء وتاريخ أفراد الحكماء ، أولها نفوره من التقليد والتسليم للشيوخ بما يقولون من غير أن يفهمه ، وهذا هو مبدأ استقلاله بنفسه الذي فاق به أبناء جنسه ، وأوسطها عدم اكتفائه بما ألقى عليه شيوخه في أكبر معاهد العلم في بلاده ، حتى صار يبحث عن علوم أخرى ويلتمس أساتذة آخرين ، وخاتمتها عدم الغرور بنفسه والرضا بما حصله على تفوقه فيه بل عمل بقول السلف " أطلب العلم من المهد إلى اللحد " ^{٢٢٣}

^{٢٢١} - السابق : ٢٦/١

^{٢٢٢} - السابق : ١٠٤/١

^{٢٢٣} - تاريخ الأستاذ : ١٠٥/١

ويصل رشيد رضا بأستاذه في تحصيل العلوم الشرعية إلى مرتبة الاجتهاد فيقول: "وأما العلوم الشرعية فقد كان فيها إماما مجتهدا ، وإن كبرت هذه الكلمة على الدين سجلوا على أنفسهم الحرمان من فضل الله أن يؤتى المتأخرين من العلم والفهم ما آتاه المتقدمين" ^{٢٢٤} وأما في علوم التصوف فكان فيها من الراسخين وبعبارة رشيد كان في التصوف " نكرة لا تتعرف أي صاحب مقام لا تغلبه الأحوال " ^{٢٢٥} وكما تدرج رضا في تصوير حياة أستاذه العلمية ، حتى أوقفتا في نهاية بحثه على ما يعتقد فيه من الإمامة في العلوم الشرعية والرسوخ في العلوم العصرية ، كذلك يرسم لنا أطوار حياته العلمية ، فيطالعنا الشيخ محمد عبده في هذه الترجمة في طوره الأول وهو شيخ أزهرى لا كبقية الشيوخ ، يحتل ركنا في الجامع الأزهر يقرئ طلابه مباحث العلوم الكلامية على أساس جديد ، يعتمد على البراهين القطعية ^{٢٢٦} ثم مدرسا لمادة التاريخ في دار العلوم يقرأ لطلابه مقدمة ابن خلدون ، ليبصرهم بأدواء الأمم والحضارات ، وليمرنهم على تلمس الحلول للعلل الكثيرة التي تحاصر أمتهم الإسلامية ^{٢٢٧} ثم تسند إليه مادة اللغة العربية في مدرسة الألسن الخديوية فيعود بطلابه إلى بلاغة العربية في عصور ازدهارها ، ويبلغ بما كان يريد في هذا الشأن عندما أسندت إليه إدارة المطبوعات والجريدة الرسمية ، فيتمكن من إصلاح أمر الكتابة في الإدارات الحكومية ^{٢٢٨}

وتحدث الثورة العربية ويقف منها موقف المعارض الصريح ، لأنها في نظره تهدم ولا تبني ، ومع ذلك يصلي بنارها فيسجن ويبنتلى ، وهذا ختام الطور الأول من حياة الأستاذ الإمام العملية ، ويبدأ الطور الثاني بنفيه عن مصر إلى سوريا فيغادر منها إلى باريس ليلتئم شمله بأستاذه جمال الدين الأفغاني ، ويصدر مجلة العروة الوثقى التي ملأت الدنيا وشغلت الناس ، وأشعلت النار علي المستعمرين في البلاد الإسلامية ، فلما أغلقت الجريدة عاد إلى بيروت ، وتفرغ للتدريس والتأليف والتربية. درس في المدرسة السلطانية في بيروت ، وفي جامع الباشورة فيها ، الذي درس فيه

٢٢٤ - السابق : ١٠٣٢/١

٢٢٥ - السابق : ١٠٢/١

٢٢٦ - السابق : ١٣٥/١

٢٢٧ - السابق : ١٣٧/١

٢٢٨ - السابق : ١٣٧/١

التفسير على مثل منهاجه الأخير في الأزهر^{٢٢٩} وترجم رسالة جمال الدين الأفغاني التي رد بها على الدهريين ، كما شرح كتاب نهج البلاغة ، ومقامات بديع الزمان الهمذاني ، وأما الطور الثالث من حياة الشيخ محمد عبده العملية ، فببتدئ بعودته من المنفى ، ويتمكن بسرعة من نيل ثقة الملك ورئيس الوزارة ، وتغضي الطرف عنه سلطة الاحتلال ، ثم يسند إليه القضاء الشرعي ، ويترقى فيه حتى يصل إلى مستشار محكمة الاستئناف^{٢٣٠} ثم يعين مفتي الديار المصرية^{٢٣١} ويعني بإصلاح الأزهر الشريف ، ويبذل فيه ما لم يبذل في غيره من الجهد والنصح ، لأنه كان يرى في إصلاحه إصلاحاً للمؤسسة الدينية برمتها ، في مصر بل وفي العالم الإسلامي كله ، غير أنه اضطر إلى الاستقالة من مجلس إدارته بعد صراع مرير ، ويلخص السيد رشيد رضا ما وصل إليه الشيخ من جهده في هذا المجال المهم فيقول: " إن الإصلاح الذي كان ينشده الأستاذ الإمام في الأزهر قسمان: صوري ومعنوي فأما الصوري فهو (١) النظام الذي يقضي على ما كان فيه من الفوضى في التعليم والحياة البدنية والاجتماعية و(٢) توسيع دائرة العلوم والمعارف و(٣) ترقية اللغة العربية. وأما المعنوي فهو (١) إصلاح العقل بالاستقلال في العلم والفهم و(٢) صحة القصد فيه بما يفضي إلى ارتقاء الأمة في دينها وديناها و(٣) إصلاح الأخلاق بالصدق والإخلاص وعزة النفس والسخاء والوفاء إلخ.. فأما الأول فقد شرحنا ما قاساه في وضع قوانينه وتنفيذ نظمه مع أعداء النظام ، ولكن النظام وجد ولا يزال يصارع ما تربي عليه القوم من الفوضى والخلل في كل شيء ، ولا بد أن ينتهي الأمر بانتصاره ولو بعد حين . وأما الثاني فعمدته فيه ما كان يبثه هو في دروسه التي تفيض روحاً محيياً وتتألق نوراً ساطعاً.. وقد قال فيه ما معناه : إنني بذرت في الأزهر بذراً إما أن ينبت ويؤتي أكله المغذي للعقل والروح فيحيا به الأزهر حياة جديدة ، وإما أن يقضي الله على هذا المكان قضاءه الأخير ، وقد نبت ذلك الزرع فصار زرعاً أخرج شطأه ، ولكن قل من يتعاهده بالسقي ، ومنع الحشرات

٢٢٩- تاريخ الأستاذ : ٣٩٧/١

٢٣٠- السابق: ٤٢٠/١

٢٣١- السابق : ٦٠٣/١

الضارة ليستوي على سوقه ويؤتي أكله .^{٢٣٢} وأما ما دعا إليه الإمام من الإصلاح فكان ثلاثة أمور هي " تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريق السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى .. أما الأمر الثاني فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأً أو مترجماً من لغات أخرى أو في المراسلات بين الناس .."^{٢٣٣}

والأمر الثالث هو دعوة الأمة إلى التمييز بين ما للحكومة عليها من حق الطاعة وما لهم عليها من حق العدالة ، وما يلزمهم من مناصحة ومراقبة تصرفاتها ، وينقل رضا عن أستاذه الإمام محمد عبده تقييمه لمبادئه الإصلاحية هذه في أخريات حياته: "ولا أبرح أدعو إلى عقيدتي في الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح في اللغة وقد قارب ، أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأنني قد عرفت أنه ثمرة تجنّبها الأمم من غراس تغرسه وتقوم على تميته السنين الطوال ، فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعني به الآن"^{٢٣٤}

وهكذا اتجه الشيخ محمد عبده في آخر حياته إلى التربية ، ونفض يده عن الإصلاح السياسي الذي كان يدعو إليه مع أستاذه جمال الدين الأفغاني في فترة نفيه وصحبته للأفغاني في باريس ، فلما سدت السبل أمامهم بإغلاق مجلة العروة الوثقى ، نصح أستاذه بأن يتجها إلى التربية ، واقترح عليه أن يختاراً عشرين من طلاب المسلمين الأذكياء ويفيدهم ما عندهما من العلوم العقلية والنقلية وبيالغا في تربيتهم ، حتى يتخرجوا عليهما وهم مثلهما في العلم والفهم والتربية ، فإذا ربي كل من هؤلاء العشرين عشرة على مثل ذلك لتحصل مائتا عالم عامل ، وكان ذلك أرجى في إصلاح المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي ، غير أن أستاذه استصغر منه هذا التفكير^{٢٣٥} ولم تنزل هذه الفكرة تراود الإمام محمد عبده وتعاوده ويحدث بها خاصته ، فلما استقال من عضوية إدارة الأزهر سعى إلى تأسيس مدرسة خاصة تغنيه عن

^{٢٣٢} - تاريخ الأستاذ : ٥٦٧/١

^{٢٣٣} - السابق : ١١/١

^{٢٣٤} - السابق : ١٢/١

^{٢٣٥} - تاريخ الأستاذ : ١٣٠/١ ، ٥١٦

الأزهر وتحقق رؤيته الإصلاحية في التربية والتعليم الإسلامي وقضى نحبه والمشروع حي في نفسه والسعي متصل له^{٢٣٦}

وصور رشيد رضا ما اكتنف حياة الحكيم المصلح من المحن والأزمات ، وما خاضه من الصراعات والصدمات منذ بداية حياته العلمية التي لم ترق له مضمونا ومنهجاً ، وما جوبه به في أروقة الأزهر من التكر والجفاء عندما ظهرت بوادر استقلاليتها الفكرية ، حتى رمي بالاعتزال واتهم في دينه ، وكاد أساتذته يحرّمونه من نيل الإجازة العلمية في التدريس^{٢٣٧} وما ناله من أذى السجن والنفي في الثورة العربية التي عارضها بشدة ، ثم ما صادفه من المقاومة العنيفة عندما تصدى لإصلاح الأزهر والأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية "ولم يزل يخوض غمرات الثورات وتتقاذفه أمواج الأسفار وتكافحه فتن الأمراء المستبدين وجهالة حملة العمائم الجامدين" حتى لقي ربه^{٢٣٨} وأما عن خلقه فيقول رشيد: " ولقد كملت للأستاذ الإمام أصول الفضائل الأربع (العفة والشجاعة والعدالة والحكمة وما نشأ عنها وتفزع " ^{٢٣٩} وكان له في مهابته ووقار مجلسه مع التواضع نصيب وافر من شمائل الرسول (ص) الذي يشير إليها الحديث (من نظر إليه بديهه هابه ومن عاشره معرفة أحبه) ^{٢٤٠} وكان ألّوفا ودودا إلى الناس "يجتمع بحضرته علماء السنة ومجتهدو الشيعة وعقال الدروز ، وإلى جانبهم أساقفة النصارى وأخبارهم من كل فريق منهم ، وكانوا يرون التردد عليه أمرا طبيعيا ويجدون فيه مرجعا عاما) ^{٢٤١} ولم تكن هذه الجلالة التي فيه ناشئة عن سعة علمه فقط بل كانت أثر مجموع خصاله الباهرة ، من العلم المقرون بالطهارة ، ومن الذكاء المزدان بالعفة ومن الفصاحة المتجلية بالاحتشام والورع ، فكان التناسب في خصاله تاما وكان عظيما من كل جهة" ^{٢٤٢}

ولا يزال رشيد يعلى من قدر أستاذه حتى ينتهي به الأمر إلى قوله: " أنبتت تربة مصر ألّوفا كثيرة من العلماء والصلحاء والأدباء والقضاة والحكام ، ولكننا لا نعرف

٢٣٦- السابق : ٩٤٧/١

٢٣٧- السابق : ١٠٢/١

٢٣٨- السابق : ط/١

٢٣٩- السابق : ٩٥٠/١

٢٤٠- السابق : ٩٥١/١

٢٤١- السابق : ٤٠٢/١

٢٤٢- تاريخ الأستاذ : ٤٠٥/١

في تاريخها ذكرا لرجل جمع من فضائل العلم والعمل والصلاح والإصلاح مثل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، في مواهبه الفطرية والكسبية وكمالاته الشخصية ، وفي صرف حياته العملية كلها إلى إصلاح بلاده ووطنه وترقية أمته وإعلاء شأن ملته^{٢٤٣} ومع هذا الإعجاب بالشيخ الذي بلغ ذروته ، فإنه لم يكن مبراً من النواقص ولا ملكا مطهرا من العيوب في نظر مريده ومترجمه ، بل ذكر له من المؤاخذات ما يتصل بخلقه ودينه وعلمه وفكره ، أما ما يتصل بخلقه فهو أنه كان يتعاطى التدخين ثم تركه^{٢٤٤} وأما ما يتصل بدينه فهو ما أخذ عليه من الجمع بين صلاتين في الحضر مخالفاً به المذاهب الأربعة^{٢٤٥} وأما الذي يتصل بعلمه فهو قصر باعه في الحديث وعلومه^{٢٤٦} وأما ما يعد مأخذاً عليه في فكره وسياسته فمنه اصطدامه بالخدوي في قضية جزئية تتعلق بالأوقاف ، مما كان سبباً في غضب الخديوي عليه وحرمانه من دعمه في إصلاح الأزهر ، وكان الأولى رعاية المصلحة العامة وارتكاب أخف الضررين^{٢٤٧} غير أن هذه المؤاخذات لا تتال من عبقريته الفذة ، ولا من إمامته العامة التي تجلت في فقده " فقد بكاه السني السلفي وغير السلفي ، وحزن عليه الشيعي والإباضي ، ورثاه اليهودي والنصراني ، وأبناه الشرقي والغربي ، واستوى في التعزية عنه القريب بالأجنبي " ^{٢٤٨} حوى كل ذلك الجزء الثالث من هذه الترجمة ، وهو فيض من غيض ضاق عنه الكتاب^{٢٤٩} " على أن الأستاذ الإمام لا يزال موجوداً بوجود علمه مدونا ، ورأيه في التجديد مبينا ، ووجود تلاميذه في الأزهر وغيره ، أضعاف ما كان له في عهد حياته الجسدية. " ^{٢٥٠}

٢٤٣ - السابق : ١٠٦٥/١

٢٤٤ - السابق : ٩٦٧/١

٢٤٥ - السابق : ١٠٤٣/١

٢٤٦ - السابق : ٣٣-١/١

٢٤٧ - السابق : ٥٧٢/١

٢٤٨ - السابق : ٣/٣

٢٤٩ - السابق : ٧/٣

٢٥٠ - تاريخ الأستاذ : ٩٨٣/١

ترجمته الذاتية

ترجم سيد رشيد رضا لنفسه في كتابه المنار والأزهر ، بما يمكن أن يسلك به في التراجم الأدبية في حجمه وأسلوبه ، وأهميته في الاعتبار بسيرة رجل يعد بحق من رواد الحركة العلمية والفكرية المعاصرة ، ومن بناء النهضة الحديثة في العالم العربي والإسلامي ، ومع أن الترجمة الذاتية لا تقل أهمية عن الترجمة الغيرية في بواعثها وفوائدها ، فإن السيد رشيد رضا أوضح مقاصده من ترجمته لنفسه ، ربما دفعا لما قد ينتهم به من حب الظهور والشهرة ، فذكر أن ترجمته من مادة تاريخ الإصلاح الإسلامي في هذا العصر ، لكونه جزءا من رجاله ، وأن المؤرخين قد لا يجدون ما يسعفهم من تاريخه في القلمون وطرابلس ، لانقراض المعاصرين له ولكونه غير مدون^{٢٥١} ولهذا لم يتوسع في تاريخه بمصر ، بل اكتفى منه بالإشارة إلى مظانه ، لأنه مشهور بين تلاميذه وأصحابه ، ومدون في مجلة المنار وغيرها^{٢٥٢} ومما عزز شعور السيد رشيد رضا بتدوين ترجمته ما ذكره من أن جمعية علمية في شيكاغو طلبت منه مرارا أن يكتب لها ترجمته ، غير أن الأهم في نظره من هذا التاريخ هو ما ذكره بقوله " إنني أذكر قارئ هذه الخلاصة من طلاب العلوم الدينية والميالين إلى الإصلاح الإسلامي بمسائل مجملة ، عسى أن ينتفع بها المستعد لها ، ولهذا أقتصر على الكسبي منها دون الوراثة والوهبي .. وهذا ما أريد الاعتبار به مما ذكرته في هذه الترجمة ، تحدثا بالنعمة وتذكيرا بمواضع العبرة.. " ^{٢٥٣} ثم ذكر جملة مسائل اعتبرها أهم الفوائد والعبر ومنها :

١- أن طول المكث في المدارس ضار لأنه يضعف ملكة الحكم ، ويصرف هم الطالب إلى حفظ الحواشي والتقارير ، وكان هذا رأى أستاذه الإمام محمد عبده أيضا ^{٢٥٤} ونقل مثله عن بعض علماء التربية من الإفرنج ^{٢٥٥} وفي هذا ما يشير إلى أن كلا من رشيد رضا وأستاذه محمد عبده قد سلما من هذه الآفة إذ كان مكثهما في مقاعد الدراسة محدودا.

^{٢٥١} - المنار والأزهر: ١٩٤

^{٢٥٢} - السابق: ١٩٤

^{٢٥٣} - السابق ١٩٤

^{٢٥٤} - المنار والأزهر: ١٩٦

^{٢٥٥} - تاريخ الأستاذ: ٢٦/١

٢- النية وصحة القصد وتوجه الإرادة سبب لتحصيل العلم الصحيح النافع و"العلم الصحيح ما كان صفة للنفس ، والعلم النافع ما كان باعثا على العمل الصالح ، والعمل الصالح ما صلحت به نفس العامل." ٢٥٦

٣- الاستقلال وترك التقليد في طلب العلم مهم في تحصيل العلم ، ويبدأ بالاستقلال في الفهم والاستقلال في الاقتناع بالمفهوم ، وهذا أدنى مراتب الاستقلال و "ما يسمى بالاجتهاد في جميع أبواب الفقه هو مرتبة عالية من مراتب العلم الاستقلالي بالأحكام الشرعية ، سواء أريد به الاجتهاد المطلق أو الاجتهاد في مذهب واحد." ٢٥٧

وحذر طلاب العلم من التسليم بما شاع في عصور الانحطاط والجمود من أن باب الاجتهاد قد أغلق ، وما على الخلف إلا اتباع السلف دون نظر أو بحث فقال: "فلا تقلد من قالوا إن بعض العلوم قد أحاط به العلماء الأولون علما ، فليس على من بعدهم إلا أن يقلدهم في كل ما دونه فيه بغير بحث ولا محاولة تمحيص ولا تحقيق ، إنما الإحاطة بالعلم من صفات الله الخالصة به ، وقد أمر رسوله خاتم النبيين بطلب مزيد من العلم بقوله (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)" ٢٥٨

ويضيف الأمير شكيب أرسلان سببا آخر في إقدام السيد رشيد رضا على تسجيل سيرته الذاتية ، وهو أنه كان كثير الخصوم جم الأعداء ، بحيث لم يوجد في عصره " عالم تعرض للمهاجمات واستهدف لسهام الوقعة ما استهدف له الشيخ رشيد في أيامه.. فلا عجب أن اضطر إلى الدفاع عن نفسه بما يشبه أن يكون تمداحا ، وهو لم يقصد في ذلك إلا تبديد الشبهات التي أثارها أعداؤه في حقه " ٢٥٩ وردا لما وجهوا إليه من التهم في نسبه ودينه وعلمه وخلقه وسياسته ، فافتضى منه ذلك أن يبسط في هذا الكتاب ترجمته

٢٥٦- المنار والأزهر: ١٩٨

٢٥٧- السابق: ١٩٨

٢٥٨- سورة طه: ١١٤

٢٥٩- السيد رشيد رضا: ٢٣

بأسلوب يميل إلى التفصيل والاستقصاء والإحالات الكثيرة إلى شهادات الأحياء من أصحابه ومعارفه ومخالطيه.

سرد رشيد رضا حياته ، بادئاً بمحل ولادته قرية "القلمون" بضاحية مدينة طرابلس الشام وساكنيها من السادة الأشراف المتواتري النسب^{٢٦٠} وذكر ما يمتاز به أهل بيته من العلم والإرشاد والرئاسة الدينية ، وما كان له من الحظوة لدى الدولة التركية^{٢٦١} وأن رئاسة الأسرة انتهت إلى والده وورثها هو عنه^{٢٦٢} وكان رشيد كما ذكرنا سابقاً شاعراً بمنزلة بيته ، شديد الاعتزاز بها يقول في تصوير ذلك "وكان بيتنا وما زال بفضل الله تعالى بيت كرم وضيافة ، كما كتب على لوح من الرخام الذي على الباب الكبير للدار التي بناها جدي الثاني ، يقبل الضيوف من جميع الملل ، ويؤوى أبناء السبيل من جميع الأقطار ، وعهدي بأكبر علماء طرابلس وحكامها ووجهائها يغشون دارنا في أيام الصيف ، ويقيمون فيها أياماً للتمتع بهوائها اللطيف ، ومياه ينابيعها النقية ، وأصناف الطعام الفاخر عندنا".^{٢٦٣}

ثم تحدث عن نفسه وعن استعداده الشخصي ، فذكر أنه كان قليل الميل إلى اللعب واللهو كعادة الصبيان والشباب^{٢٦٤} وأنه كان يوصف بالذكاء النادر كما صور لنا رشيد تدرجه في التعلم حيث تلقى مبادئ القراءة والكتابة في مكتب القرية ، ثم درس في المدرسة الرشدية الحكومية نحو سنة وتركها لأنها كانت تتخذ التركية لغة للتدريس ، فتحول إلى مدرسة أهلية أسسها أحد علماء طرابلس المشهورين^{٢٦٥} غير أنها لم تستمر طويلاً فكان هذا آخر عهد رشيد بالتعليم النظامي ، وتفرغ بعد ذلك للأخذ عن العلماء والمشايخ في المساجد وفي الحلقات العلمية ، وممن أخذ عنهم وتخرج على أيديهم الشيخ محمود نشابة والشيخ عبد الغني الرافعي والشيخ محمد القاوقجي والشيخ

٢٦٠ - المنار والأزهر : ١٣٣

٢٦١ - السابق: ١٣٣

٢٦٢ - السابق: ١٣٣

٢٦٣ - السابق: ١٣٤

٢٦٤ - السابق: ١٣٣

٢٦٥ - المنار والأزهر: ١٣٩

حسين الجسر^{٢٦٦} وأشار إلى أنه كان في مبدأ حياته العلمية يميل إلى مطالعة الكتب الأدبية وكتب التصوف ، وأنه أعجب من بين كتب التصوف كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ، وأطال رشيد رضا في الحديث عن أثر هذا الكتاب في حياته السلوكية والفكرية ، ومضى رشيد في طريق التصوف شأوا بعيدا وأوغل فيه إيغالا شديدا وكاد ينقطع إليه ويصطبغ بصبغة مريديه ثم أقطابه لولا أن تداركه علم الحديث الذي برع به وأتقن تحصيله^{٢٦٧} وذلك قبل اطلاعه على فكر ابن تيمية الذي اتهم بالصدور عنه وقبل الاتصال بالحركة الوهابية في نجد والحجاز^{٢٦٨} فاعتدل في تصوفه ولم يعاد قط إلا الخرافات والشعوذات التي لا تمت بصلة إلى التصوف الحقيقي ، والدليل على موقفه المعتدل من التصوف المقيد بالشرع شرحه المسهب لحقائق التصوف وثمراته وما يعرض للسالك من الأذواق الخاصة والأمور الروحانية العجيبة والمكاشفات المتنوعة ، تحدث عن كل ذلك حديث المجرب العارف بصحيحه عن سقيمه ، وزاد على ذلك حكايته عن نفسه كثيرا من المكاشفات والرؤى الصالحة والرقى الشافية والدعاء المستجاب ، وانتقام الله له ولأهله في الدنيا من كل من نال منهم بأذى وغير ذلك مما اعتبره بعض الباحثين تزييدا وتمدحا لا يليق بمقام الشيخ^{٢٦٩} وكان من أثر اهتمامه بالأدب ، وميله إلى مطالعة كتبه منذ الصغر وحفظه لكثير من الأشعار الجيدة ، أن ظهرت موهبته الشعرية مبكرا فقال الشعر واشتهر به وهو بعد طالب في المراحل التعليمية الأولى.^{٢٧٠}

لم يزل رشيد يتكامل في علمه وأدبه ويزداد خبرة في الدعوة والإصلاح والتوجيه الديني حتى شعر بأن بلده يضيق عن تلبية طموحاته ، وأن السلطة السياسية التي تحكمه لا تمكنه من ممارسة الإصلاح الذي يريده ، ومن هنا جاءت فكرة الهجرة إلى مصر كما يوضحه بقوله: " تلك خلاصة ترجمتي وما

٢٦٦ - السابق: ١٤١

٢٦٧ - السابق: ١٤٠

٢٦٨ - السابق: ١٧٩

٢٦٩ - رشيد رضا صاحب المنار : ١٢٩

٢٧٠ - السيد رشيد رضا : ١٠٧

انتهيت إليه في وطني من تربية صوفية وتعليم استقلالي وآثار قلمية وشهرة علمية وأدبية ، أشعرتني بأنني مستعد لاستزادة من العلم والاختبار لا أجدهما في وطني ، وأنني قادر على خدمة ديني وأمتي بما لا تبيحه سياسة الحكومة في بلادي ، فعزمت على الاتصال بالسيد جمال الدين لتكميل نفسي بالحكمة والجهاد في خدمة الملة.. فلما توفاه الله تعالى واشتهر أن السياسة الحميدية هي التي قضت عليه ، ضاقت علي المملكة العثمانية بما رحبت وعزمت على الهجرة إلى مصر ، لما فيها من حرية العمل واللسان والقلم ، ومن مناهل العلم العذبة الموارد ، ومن طرق النشر الكثيرة المصادر ، وكان أعظم ما أرجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفاده الشيخ محمد عبده من الحكمة والخبرة وخطة الإصلاح ، التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين ، وأن أعمل معه وبارشاده في هذا الجو الحر." ٢٧١

المبحث الثالث : نقد السيد رشيد رضا

المطلب الأول : اتجاهه النقدي

عاش السيد محمد رشيد رضا في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين ، وهي الفترة التي كانت اللغة العربية تشهد حالة مخاض تفصل بين عصر انحطاط وركود طال أمده ، وعصر إحياء وتجديد وبعث تستعيد فيه اللغة العربية عافيتها ، وتسترد قدرتها وحيويتها، لتكون وعاء النهضة الجديدة للأمة العربية. تلقى رشيد رضا علومه على الطريقة القديمة ، فلازم العلماء والشيوخ في المساجد وفي الحلقات العلمية الخاصة ، يقرأ عليهم الكتب وشروحها وحواشيها فناً بعد آخر حتى برع في العلوم العقلية والنقلية ، ونال من أساتذته أعلى الإجازات في تلك الفنون وساند هذا الرصيد العلمي ما كسبه رشيد من المعارف من توفره على مطالعة ومدارسة كتب التراث منذ صباه في مكتبة الأسرة العتيقة ، فكان بهذه الثقافة مهياً ليكون شيخاً تقليدياً من أولئك الجامدين على القديم ، المتشبهين بما ورثوه وأفوه دون تمييز أو تمحيص ، الراضين لكل جديد أياً كان نوعه ، الذين أطال رشيد - فيما بعد - في مناقشتهم وردّهم ، والكشف عن سلبياتهم وجناباتهم على التراث الذي ظنوا أنهم يدافعون عنه ، غير أن رشيداً سلك طريقاً آخر غير ما كان متوقفاً بحكم تكوينه الثقافي لعوامل ثلاثة:

أولها: ما أتيح له من توجيهات شيخه حسين الجسر الذي كان له بصر بعلوم العصر، وعناية بمطالعة المجالات والجرائد ، فوجه رشيداً إلى الاستفادة من المعارف الحديثة والعمل بمقتضى معطيات العصر، وكان ينفحه بما لديه من تلك الجرائد والمجلات ، ومنها مجلة العروة الوثقى التي كان يصدرها من باريس السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ، فكانت هذه النافذة الأولى التي أطلّ منها رشيد رضا على الثقافة العصرية.

والعامل الثاني الذي أسهم في تحرير رشيد من رقة التقليد: هو اشتغاله بعلم الحديث وتضلعه منه ، فتمى فيه حسّ النقد ، وارتفع به عن كثير من الأوهام الفكرية والثقافية

التي كانت سائدة آنذاك ، وكانت خير معين له على دراسة الواقع الجديد بروح علمية تتشد الحق وتطلب العلم الصحيح.

وأما العامل الثالث: فهو ما فطر عليه رشيد من حب الاستقلال وكراهية التقليد والتسليم منذ نشأته العلمية الأولى ، حتى اشتهر بين أساتذته في الابتدائية بأنه سؤال كثير المناقشة فيما يلقى على الطلاب من الدروس ، وكان هذا سبباً فيما حصل بينه وبين شيخه حسين الجسر من الجفاء.

هذه العوامل الثلاثة تضافرت على صياغة شخصية السيد محمد رشيد رضا الفريدة ، فأخرجت منه عالماً يعتزّ بالتراث ، ويحب الإصلاح ، ويعنى بالمعارف العصرية وهي لَوْنَت أو صبغت فكره النقدي الذي سنوجز معالمه فيما يلي:

١- وعيه بما أصاب اللغة العربية من الجمود: بما أن السيد رشيد رضا عاش في عصر اليقظة فلا يستكثر عليه في التنبيه على ما آلت إليه العربية من جمود في العصور الوسطى ، ولكن الذي يحتاج إلى الوقوف عنده ملياً هو ما علّل به هذا الجمود وجعله سبباً له ، وهو أن علماء العربية انحرفوا في تعليمها عن الطريقة المثلى ، وسلكوا فيها مسلك العلوم النظرية من التعليل والتدقيق ، وشغلوا بذلك عن دراسة اللغة نفسها شعرها ونثرها ، حتى صار تحصيل ملكة هذه العلوم غير تحصيل ملكة اللغة العربية في القول والكتابة ٢٧٢ وحال الاهتمام بقوانين النحو ومدلول الألفاظ المفردة دون النظر في معاني الأساليب ومغازي التراكيب وما فيها من ألوان التجوز والكناية ٢٧٣ وهذا هو ما يعتبره رشيد رضا الصدمة الأولى التي صدمت بها اللغة ونالت من رقيها وتطورها، ثم تلتها صدمة ثانية تمثلت في انحراف الشعر العربي عن التعبير عن تجربة الحضارة الإسلامية الفريدة ، وما في الإسلام من المثل العليا والقيم الخالدة، وعن غير ذلك من التجارب الإنسانية الخاصة أو العامة التي يعايشها الشعراء. تركوا هذا المجال الواسع والفضاء الرحب وقصروا الشعر على "وصف الأناسي أحياء (بالممدح والهجاء) وأمواتاً (بالرثاء) إلى ما يلتحق

بذلك من الغزل والتشبيب الذي يستهلون به قصائد المديح ... فصار الغرض من الشعر الكدية والاستجداء (الشحاذة) وكثر فيه الكذب (في المدح) والبذاء (في الذم) فأنف منه أهل الهمم ، وترفع عنه أرباب المراتب ، فهبط لمنتحليه في مهواة عميقة مظلمة" ٢٧٤ وامتد هذا الضعف والركود باللغة العربية إلى أيام نشأة رشيد رضا العلمية التي قال فيها وهو يتحدث عن صديقه شاعر الفيحاء عبد الحميد الرافعي: "ولكن مجال الشعر في عصر نشأته كان ضيق الساحة ، وحرية الكلام كانت في الدولة التركية قليلة المساحة ، والباعث على إجادة المنظوم كان في حكم المعدوم ٢٧٥ وحينئذ تنبه جماعة من عقلاء هذا العصر وفضلائه إلى إحياء اللغة التي يئست الجماهير من إحيائها، وذلك بإصلاح كتب الفنون وطريقة التعليم (اللتين صارتا عقبة في طريق العربية)" ٢٧٦ وبالتنبيه على الطريقة التي تطبع ملكة اللغة في النفوس ومن هؤلاء العقلاء الفضلاء شيخاه: الشيخ محمد عبده المصري، والشيخ حسين الجسر الطرابلسي.

٢- الالتزام بما انتهى إليه أئمة اللغة بشأنها في عصور الاحتجاج ، فقد كان السيد رشيد رضا يرى أنه ينبغي الانطلاق من مبادئ اللغة وقواعدها التي أرساها أئمة اللغة في النقل والتفسير في عصور الاحتجاج المعروفة ، ويرى أن التساهل في هذا أو الخروج عليه بحجة التجديد والتوسع في اللغة تفريط وتقصير في حق اللغة، فقال: "إنه يجب على كل كاتب أن يتبع أئمة اللغة وفنونها فيما قرروه ، فلا يقيس على سماعي ، ولا يخرج في القياس عن حدوده ، ولا يدخل الكلمات العامية المحضنة في كتابه، ولا بأس بغير المحضنة وهو ما كان عربي الأصل ، وهو أكثر كلامهم على تحريف فيه يسهل تصحيحه ، ذلك أن التساهل ، وترك الأمر فوضى للكاتبين ، بدعوى العناية بالمعنى ، مما يفسد اللغة ، بما يجرى الجهلاء والضعفاء على التأليف

٢٧٤ المنار: ١٥٠/٩/١

٢٧٥ السابق: ٦٢/١/٣٤

٢٧٦ السابق: ١٠١/٦/١

، مع كثرة غلظهم ودخيلهم ، ويثني همة غيرهم عن التحصيل والإتقان" ٢٧٧
ويذهب رشيد رضا إلى أبعد من ذلك ، فيسحب هذا الحكم على كل من جاء
بعد عصور الاحتجاج من علماء اللغة ، فلا يقبل منهم ما خالفوا فيه القياس
، يقول: "وما انفرد به قدماء المولدين ، من أساطين علماء اللغة وأدبائها ، لا
يحتجّ به إذا خالف القواعد القياسية ، فما القول في المتأخرين من أهل القرون
الوسطى إلى اليوم" ٢٧٨ ولا يعني هذا أن رشيداً يضيف قدسية على من
وضع تلك العلوم ، ويبرئهم من الخطأ فيما استنتجوه من مقاييس اللغة ، أو
دونوه من القواعد ، وإنما قصده أن هؤلاء بنوا أحكامهم على استقراء نصوص
اللغة في عصر صفائها ، وقبل أن يشوبها اللحن ، فأما من جاء بعد عصور
الاحتجاج ، فلا يحتج من كلامه إلا ما وافق المنقول ، ولا يدخل في هذا ما
استدرك به المتأخر على المتقدم بنظر صحيح أو حجة تستند إلى الكلام
العربي الفصيح الصحيح النقل ، ومن ذلك بعض ما بنى عليه المتقدمون
أصول مذهبهم ، مثل تضيق البصريين دائرة الشواهد التي تبنى عليها
القاعدة وإلى هذا يشير رشيد بقوله: "وإني أميل إلى مخالفة المتقدمين في
بعض ما قالوا إنه سماعي ، ولكنني لا أجزئ لنفسي الانفراد بذلك ، واستعماله
لضرورة حتى يوفق الله علماء هذه اللغة لتأليف جمعية تنهض بهذا العمل ،
وعسى أن يكون ذلك قريباً" ٢٧٩

٣- الشاعر الكامل: الشاعر الكامل عند رشيد رضا هو القادر على التعبير عن
تجربته بصورة كاملة ، لا الذي يحسن التعبير عن بعضها دون بعض ، بأن
يحسن التعبير عما تؤدي إليه حواسه دون ما يحسّه بوجدانه أو يستنبطه
بعقله ٢٨٠ ثم يستمد معانيه من بيئته وتصطبغ صورته وأخيلته بصبغة عصره
ويلتزم مع ذلك في النظم في الموضوعات الشريفة السامية ، لأن الأدب
الحقيقي عند رشيد رضا هو الذي ينمي أدب النفس ويزكي الخلق ٢٨١ ، يقول

٢٧٧ المنار: ٥٢٩/٧/٩

٢٧٨ السيد رشيد رضا: ٥٤٨

٢٧٩ المنار: ٥٣٣/٧/٩

٢٨٠ السابق: ١٧٠/١٠/١

٢٨١ المنار ١٣٣/٨/١

رشيد رضا: "إن الشعر ينبغي أن يكون في كل عصر مناسباً لحالته ، وأنه ينبغي للمشتغلين بهذه الصناعة أن ينظموا في المواضيع الشريفة، ويصوغوا المعاني التي تعطيها الاختراعات الصناعية والاكتشافات العلمية ٢٨٢ إضافة إلى مراعاة الأوزان والقوافي التي يؤكد رضا على أهميتها بقوله: "ومن أراد الشعر العربي فلا بد له من معرفة أوزانه" ٢٨٣ فشرط الشعر الجيد عند رشيد تتلخص في: اللفظ الفصيح ، والمعنى الشريف ، والصورة المستمدة من الواقع المعاش ، مع الالتزام بموسيقى الشعر التقليدية المتمثلة في الوزن والقافية ، وحسن تصرف الشاعر ، وتفننه في التعبير عن تجربته دليل على بلوغه الشأو البعيد في الشاعرية.

واللافت للنظر أن رشيد رضا يعد شرف المعنى شرطاً في جودة الشعر والأدب على العموم ، بمعنى أن يكون الأديب ملتزماً بالقيم والأخلاق الرفيعة، يدعو إليها ويدافع عنها ، ناهيك أن ينقضها أو يستخف بها ، وقد التزم رشيد بهذا المبدأ في كل ما نقده من ألوان الأدب كالشعر والقصة والرواية وغيرهما كما سنشير إليه ، يقول رشيد في تقرير أهمية حسن المعنى: "التراكيب اللفظية كالأجساد، والمعاني أرواحها، وكأين من ذي جسد مليح لا تشويه في جثمانه ، لكن صفاته الروحية مشوّهة ، فهو لذلك يمقت من كل ذي طبع سليم وفطرة صحيحة:

والشكل والخفة في الأرواح أملح ما يعشق في الملاح

كذلك الكلام منظوماً ومنثوراً لا تكمل محاسنه إلا بحسن معانيه ومثانة مبانيه"

٢٨٤

٤-الجمع بين التجديد والمحافظة: دعا السيد رشيد رضا إلى التجديد ومواكبة العصر في كل الأمور ، فدعا الفقهاء إلى إعادة النظر في الفروع على ضوء قضايا العصر المستجدة ، ودعا إلى تجديد التعليم الديني بإدخال المواد العصرية ، وتبني طرق التدريس الحديثة ، ودعا الشعراء والأدباء إلى

٢٨٢ السابق: ٣٠٩/١٧/١

٢٨٣ السابق: ١٧٠/١٠/١

٢٨٤ السابق: ١٩١/١١/١

الاستلهام من روح الحضارة الإنسانية المعاصرة وما استجد فيها من العلوم الاجتماعية والبحوث النفسية والإنجازات التقنية والاكتشافات العلمية وتوظيف ذلك كله في تلوين معانيهم الشعرية وتكوين صورهم الأدبية، كما دعا إلى حفظ تراثنا اللغوي والأدبي ، وإحياء مواتها ، وعدم الاستهانة بما أرساه أساطين علماء اللغة العربية من قوانين وقواعد ومقاييس لضبط اللغة وصيانة نقائها وحفظها من الفوضى والاندراس ، ورأى أن المجدد الحق هو الذي ينطلق من هذا التراث ويستند إليه ، ويستمد من معينه ، ثم يمارس التجديد على بصيرة من أمره ، دون أن يفرط في شيء قديم نافع ، والأولى بل الواجب عنده أن يتم هذا التجديد برعاية مؤسسات علمية مختصة ومسؤولة كالمجاميع اللغوية ، توفيراً للجهد وفراراً من الاضطراب والفوضى ، يقول رشيد في هذا الصدد: "آفة الدعوة إلى الإصلاح الغلو في القدر في القديم ومدح الجديد الذي يدعى إليه ، ولا يخفى أن حالة العصر الحاضر تقتضي أن تكون الأدبيات موافقة للشؤون الاجتماعية فيه ، فنحن في أشد الحاجة إلى الشعراء والمنشئين الذين يصرفون قوتهم الخيالية إلى جذب وجدان الأمة إلى الفضائل الاجتماعية التي ترتقي بها وتساوي الأمم العزيزة ، وتجول في ميادين المعلومات التي انتهت إليها المدنية الحاضرة لأجل ذلك ، كما أننا في أشد الحاجة إلى إحياء موات لغتنا العربية الشريفة بالاستعمال ، لأن الأمة لا تحيي بدون لغة ، فإذا وجد في عالمنا الأدبي من يشتغل بإقامة هذين الركنين لا ينبغي لنا أن نهضم حقه لأنه لم يقم الركنين كليهما ..."^{٢٨٥}

كان السيد رشيد رضا يكره السجع المتكلف والمحسنات البديعية المسرفة ، ويشدد النكير عليها، ويذم من أجلها مقامات الحريري ، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي ، لأجل ما فيه من الشواهد على أنواع البديع^{٢٨٦} فإن جاء السجع عفواً غير متكلف ، فلا يذم صاحبه وإن كان عسرياً، ولهذا حمد للمستشرق مرجليوث كلاماً له فيه سجع حسن فقال: "قأنت ترى هذا

السجع الرقيق لا يأباه لنفسه أكتب كتاب العصر، فإن وجد من الكاتبين من يرى مثلاً قوله (المقة والمقت عند قديم الوقت) من التكليف في التجنيس والتسجيع فأنا ضامن بأن ابن الفارض يتمنى مثله في شعره، ولا يأباه الحريري في نثره" ٢٨٧ ومن مواقف رشيد الدالة على المرونة والإصلاح والبعد من التزمّت دعوته إلى إصلاح الخط العربي، بل تقديمه مقترحاً في كيفية إصلاحه إلى نادي دار العلوم بالقاهرة ٢٨٨ ودفاعه عن الغزل إذا لم يكن في معين أجنبي، ولم يكن فيه فحش ٢٨٩ ودعوته كذلك إلى تحسين الأغاني والأناشيد إذ يقول: "هذا وإنني أسررت إلى الأستاذ يحيى الدريدي أن يقترح على الشعراء أن يبدؤوا بوضع أغاني وأناشيد لحفلات الأعراس وغيرها يضمنونها تعظيم أمر العفة وعزة النفس والشرف وكرامة الأمة، ويلقونها إلى الملحنين فيلقونها إلى المغنين فينسخون بها تلك الأغاني (والطقاطيق) المجونية" ٢٩٠

٥- تفضيله لكتاب الجيل الناشئ على غيرهم من حيث صحة الأسلوب والبصر بالنقد اللغوي، فقد كتب السيد رشيد رضا إلى صديقه شكيب أرسلان أمير البيان، ومؤرخ الإسلام في عصره، ينصحه بنقد أسلوبه، وتحرير كلامه بتجنب ما عسى أن يغمز به، وينتقد عليه: "فإن الفئة الراقية من كتاب مصر وأدبائها في هذه السنين أرقى في النقد اللغوي ممن قبلهم من كبار كتاب هذا العصر وأدبائه، بل لم يوجد النقد الدقيق إلا في هذا العهد من عصرنا، وغرضي أن تنتقد نفسك في الحلة السندسية قبل تمثيلها للطبع" ٢٩١ والعهد الذي يشير إليه رضا هو عهد العقاد وطه حسين وأحمد أمين وغيرهم ممن عاصروهم من الأدباء والنقاد، ويعتبرون الجيل اللاحق لجيل رشيد رضا، ويدلّ على ذلك تاريخ خطاب رشيد وهو: يوليو سنة ١٩٣١م ٢٩٢ وكان

٢٨٧ المنار: ٩٤٣/٢٤/٦٦

٢٨٨ السابق: ١٩١/٣/١٣

٢٨٩ السابق: ٦٢٦/١٦/٤

٢٩٠ السابق: ١٥٩/٣/٣٤

٢٩١ السيد رشيد رضا: ٦١٤

٢٩٢ السيد رشيد رضا ٦١٢

لرشيد رضا مناظرات ومناقشات وردود مع كثير من هؤلاء على صفحات الجرائد ومنابر النوادي في القضايا الفكرية والاجتماعية، فقد ناظر الدكتور عبد الوهاب عزام ٢٩٣ في نادي دار العلوم في حرية المرأة ، وناظر الدكتور لطفي جمعة في المفاضلة بين المدنيتين الفرعونية والعربية، وجرى بينه وبين الأستاذ فريد وجدي ردود مريرة على صفحات الجرائد ٢٩٤ كما نقد كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي ، واتهمه بالدعوة إلى الإلحاد ٢٩٥ ورفض نقد العقاد لكتابه "الوحي المحمدي" كما رفض من قبل نقده لكتابه الآخر "تاريخ الأستاذ الإمام" ٢٩٦ واتهمه بالتعالي وأنه "نظر إلى كتاب الوحي المحمدي ومؤلفه بالعين التي نظر بها إلى أحمد شوقي وشعره من قبل" ٢٩٧ وشكا من الدكتور محمد حسين هيكل وجريدته "السياسة" فقال: "بلغنا أن الكاتب المغرور محمد حسين هيكل بك ؛ رئيس تحرير جريدة السياسة الغرور، لسان حال الحزب الحر الدستوري ، وحزب الملاحدة ، قد قرر لمروؤسيه محرري جريدة السياسة لا بد من قتل صاحب المنار، فوافقوه وهم يعنون بهذا القتل ما يكون بألسنة أقلامهم الطعانة ، فالمتبادر أنهم يعنون القتل المعنوي أو ما يسمونه الأدبي" ٢٩٨ ومع هذا نجد في معرض حديثه عنهم أنه يصف كلامهم بالخلابة كما يصفهم بالتمكن من الأدب ونقده ، كقوله في العقاد إنه "درس الأدب وظهر فيه الاستعداد للشعر وكذا النثر في سن الصبا ، وقويت ملكته فيه نظماً ونقداً في سن الشباب" ٢٩٩ وقوله في طه حسين: "إن من أساليب الدكتور طه حسين المعروفة في كل ما كتبه أنه يخترع مسائل يجعلها من قبيل القضايا المسلمة ، بما يزينها من خلابة القول ، ثم يستدل بها أو يورد عليها بعض الشبهات ويرد عليها دفاعاً عنها" ٣٠٠

٢٩٣ المنار: ٥٣٥/٧/٣٠

٢٩٤ السابق: ٤٦٥/٦/٣١

٢٩٥ السابق: ٦٧٨/٩/٢٧

٢٩٦ السابق: ٧٨٢/١٠/٣٣

٢٩٧ السابق: ٧٨٣/١٠/٣٣

٢٩٨ السابق: ٢٤٠/٣/٢٨

٢٩٩ المنار: ٧٨٣ /١٠/٣٣

٣٠٠ السابق: ٦٧٩/٩/٢٧

المطلب الثاني : تطبيقاته النقدية

إذا تمهد هذا انتقلنا من العموم إلى الخصوص ودراسة نماذج من نقده التطبيقي مع الإشارة بأن رشيد رضا لم يتعرض للنقد الأدبي إلا عرضاً ، ودون أن يتعمق فيه أو يستقصي كل جوانب النماذج الأدبية التي يتناولها بالنقد لأنه لم يشأ أن يكون أديباً وناقداً بالمعنى الوظيفي أو التخصصي ، وسنحصر نقده التطبيقي فيما يلي :

٣٠١

١- النقد اللغوي : النقد اللغوي أكثر ملاحظاته النقدية ، لاهتمامه البالغ بحماية اللغة من تعدي أديباء التجديد ، وحرصه الشديد على إحياء المفردات العربية المهجورة القابعة في بطون المعاجم والقواميس العربية ، لهذا كان يعتمد استعمال الكلمات الغريبة في مكثباته حتى الشخصية أو الإخوانية منها كقوله في إحدى رسائله إلى بعض إخوانه: "وقد تبين لي أنني كنت غيداراً"٣٠٢ وكان يكثر منها في المنار في سنواته الأولى حتى انتقده عليها أستاذه وشيخه محمد عبده بأن هذا يصرف الناس عن قراءة المجلة ، فقلل منها ولم يتركها البتة ٣٠٣ وكان يرى أن إحياء مثل هذه الكلمات بالاستعمال أولى من اللجوء إلى اشتقاق غير قياسي أو تعريب الكلمات الأجنبية للتعبير عن المعاني الجديدة التي أفرزها التقدم الحضاري ، وأداه هذا الحرص والاجتهاد إلى محاولة تأليف كتاب في المفردات التي يؤدي الواحد منها معنى جملة لعل الكتاب يستعملون منها ما يروق لهم ، وفعلاً شرع في تأليف الكتاب ولم يتمه ٣٠٤ ولنقد رشيد اللغوي صور منها: انتقاده لعموم كتاب العصر ، وأن أكثرهم تدقيقاً وتحريماً لا يسلم من الخطأ ، ويعذرهم بأن تعرضهم المستمر للغة الجرائد التي لا تعبأ بتحري الصواب يفسد عليهم ما اكتسبوه من ملكة الفصاحة بالعلم والممارسة ، ويحاول رشيد أن يحصر أنواع الأخطاء

٣٠١ - ملاحظاته النقدية تلتقي في عمومها بأراء نقاد التيار الإحيائي ، الذي كان من رواده الشيخ حسين المرصفي ، ومن أهم أسس هذا النقد : النقد اللغوي ، والعناية بالموازنات. انظر في : النقد الأدبي الحديث ، د. علي جابر المنصوري ، دار عمار - الأردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م ، ص ٤٨

٣٠٢ السيد رشيد رضا ، ص ٤٥٣. والغيدار هو الذي يسيء الظن فيصيب. القاموس المحيط ، ص ٥٧٧

٣٠٣ السيد رشيد رضا: ١٧٩

٣٠٤ المنار : ٢٩١/٤/١٠

التي يكثر من الوقوع فيها فيقول: "وأكثر ما يقع لنا من ذلك استعمال كلمة عامية ، أو جمع غير قياسي ، أو تعديّة فعل بما لم تعده به العرب" ٣٠٥ ومنها انتقاده لكتاب معينين ، لأنه يرى منهم تساهلاً في تحري الدقة وتسامحاً في مخالفة الأفصح أو الفصح ، وأكثر هؤلاء من أصدقائه ومحبيه ، فينبههم ويناقشهم غيرة لهم ، وصيانة لأسلوبهم من الضعف والركاكة. ولأن "الانتقاد على هفوات الكتاب البارعين والعلماء الراسخين وعلى المتوسطين بينهم وبين أولئك المتطفلين هو الذي يحيي اللغة ، ويرقى بها إلى أعلى عليين" ٣٠٦ وكان من هؤلاء صديقه الشاعر الأديب الكاتب المؤرخ شكيب أرسلان الذي لقبه بأمير البيان فاشتهر به ، والذي جرت بينهما مناقشات لغوية طويلة فيما تبادلاه من الرسائل ، كان مثارها انتقاد رشيد المستمر لمكتوبات صديقه ، وكان شكيب قليل التسليم بملاحظات صديقه في أول الأمر ، فينقب في المعاجم بحثاً عن سند يدعم استعماله اللغوي المنتقد إن كان الأمر يتعلق بمعاني المفردات ٣٠٧ ويلجأ إلى بعض علماء العربية إن كان الخلاف في قواعدها ٣٠٨ ويبدو أنه لما تبين له قوة حجة صديقه ، ونبالة قصده ، صار يرجع إليه فيما يشكل عليه أو ينتقده عليه غيره ٣٠٩ ومن أمثلة نقد رشيد على شكيب قوله: "وقبل الشروع في الجواب قرأت ورقات من قصة (آخر بني سراج) فرأيتني أعثر ببعض الكلم والجمل التي عهدتك تتحامى مثلها ، ولولا أن هذه ترجمة قديمة لاستبدلت بها غيرها ، وإنني أذكر لك نموذجاً منها يتعلق بأذيال المعاني والبيان في الأكثر، وبأصل اللغة في الأقل، وبعضها له نظر إلى الدين، كقولك في المقدمة: "وهو الزعيم بحسن المآل" فهذا صحيح باللغة ولكن صفة الزعيم لم ترد في الكتاب ولا في السنة صفة لله تعالى، وأسماء الله وصفاته توقيفية فأستحسن أن تستبدل بها المسؤول، وكقولكم: "وهم في كل خمسة أيام يقيمون في المسجد الصلاة لأجل رجوع غرناطة إلى

٣٠٥ المنار: ٥٢٩/٧/٩

٣٠٦ السابق: ٥٢٩/٧/٩

٣٠٧ السيد رشيد رضا: ٣٩٣

٣٠٨ السابق: ٣٩٥

٣٠٩ السابق: ٥٤٣

يد الإسلام" فالذي يظهر لي: أنها ترجمة حرفية، وأن ما يسميه الإفرنج بالصلاة في هذا المقام هو ما نسميه بالدعاء، وهو من معاني كلمة الصلاة لغة ، ولكن غلب عليها معنى العبادة المعروفة، وعثر فهمي في قولكم: "بل لم يكن عندهم خارجاً عن أبراج الحمراء ثمار طيبة ولا عيون صافية" فوصف هذه الأشياء بالخروج المنفي عن أبراج الحمراء فيه غموض وخفاء ، ومما قدم فيه المفعول المطلق على المفعول به بغير مسوغ قولكم: "فإنهم كانوا فارقوا فراق الأرواح للأجساد ميدان ذلك الجهاد" ويتعين هنا العكس، ومنه قولكم: "شدة الحزن الذي ليس مثله في هذه القوى الإنسانية الباطنة" فاستعمال "ليس" هذا الاستعمال الجرائدي أي بحذف اسمها أو خبرها مما لم أستطع هضمه على كثرة قراءتي له في كلام أكثر كتاب العصر، وأنزه قلمكم البليغ عنه ، فإما أن تقولوا كما قال الله تعالى: "(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)" ^{٣١٠} أو ما يقرب منه، وإما أن تأتوا بلا النافية للجنس التي نسيها جميع كتاب العصر حتى كأنها ليست من اللغة ^{٣١١}

وممن انتقدهم أيضاً على ما بينهم من المودة ، ومع الشهادة له برسوخ القدم في العربية الأستاذ جبر ضومط أستاذ اللغة العربية في الجامعة الأميركية في بيروت ^{٣١٢} الذي رآه لا يحتفل بانتقاد اللغة بل يكتفي بأن يكون ما يكتب مما فهمه القارئ ، وإن مزج بالألفاظ العامية التي ليست من اللغة والأغلاط النحوية، وأبق من أساليب اللغة ^{٣١٣} وكان نقده عليه في أمرين:

الأمر الأول: عدم تحاشيه من الأخطاء مع قدرته على ذلك ، ومن ذلك قوله في عنوان قاعدة وضعها: "الاقتصاد على فهم السامع" فالإقتصاد لا يتعدى بعلى ، والمعنى المراد من القاعدة لا يفهم منها بذاتها بل بما شرحها به ^{٣١٤}

^{٣١٠} - سورة الشورى : ١١

^{٣١١} السيد رشيد رضا: ٣٤٧-٣٤٨

^{٣١٢} المنار: ٥٣٢/٧/٩ حيث قال في آخر نقده: "هذا ما يأتي به التساهل وهو إذا كان سهلاً في نفسه ويمكن

تأويل بعضه فهو عظيم من عالم يعد من أوسع علماء اللغة اطلاعاً في هذا العصر"

^{٣١٣} المنار: ٥٢٩/٧/٩

^{٣١٤} المنار: ٥٣٠/٧/٩

ومن مخالفته القياس في مقالته (انتقاد فتاة مصر) قوله: "كما في ص ٥٤٥ المقتطف: والتقمح فيها على الخراب، لا يقال في اللغة: تقمح عليه ، كما يقال هجم عليه ، وإنما قالوا: تقمح الفرس بصاحبه إذا ندّب به، فلم يضبط رأسه" ٣١٥ ومنها قوله في ابتداء كلام: "أولاً: الاقتصاد النحوي" ثم قوله: "ثانياً: الاقتصاد البياني" الخ وهو يكثر من مثل هذه في كتبه تساهلاً في مجارة كتاب الجرائد وأمثالهم ، وهذا غير معهود في الكلام العربي الصحيح أو الفصيح ، ولا يمكن إعرابه إلا بتكلف لا حاجة إليه لمكان الاستغناء عنه بقولنا: (الأول: كذا، الثاني: كذا ٣١٦ ومنها ابتداءه الكلام بالعطف كقوله: "وأكثر كتابنا" وإدخال "قد" على الفعل المنفي، كقوله: "قد لا يعدّ، قد لا يعقل، قد لا تخلو) وقد استعمل المناطقة قد مع النفي في القضايا الشرطية السالبة، وهو يحتج بمن دونهم في الاستعمال كابن الفارض وابن عابدين" ٣١٧

والأمر الثاني الذي رده رشيد على الأستاذ ضومط: تصحيحه ألفاظاً كان يتداولها الكتاب ولم يرد سماع فيما استحدث لها من معان أو في قياسية اشتقاقها مثل "تكاتفوا" بمعنى تعاونوا، فقد رأى الأستاذ ضومط أن تكاتفوا مثل تظاهروا في الاشتقاق وفي المعنى، بل "إن وضع الكتف للكتف في التعاون أقرب للفهم ، لأنه أكثر مشاهدة من وضع الظهر للظهر" ٣١٨ وعند رشيد رضا أن معنى تظاهروا "كان كل منهم ظهيرا للآخر أي معيناً" ٣١٩ ومن تلك الألفاظ لفظ "العائلة" بمعنى الآل أو العشيرة، فهو كالعائلة لدى الأستاذ ضومط، ويرده رشيد لأن العائلة "الجماعة التي تعقل إبل الدية عن القاتل من عشيرتها ، فإذا كانت العائلة من عال عياله بمعنى كفاهم معاشهم ومؤونهم يكون معنى الكلمة: الجماعة العائلة، أي المنفقة، وإنما المنفق هنا واحد وهو

٣١٥ السابق: ٥٣٠/٧/٩

٣١٦ السابق: ٥٣١/٧/٩

٣١٧ السابق: ٥٣١/٧/٩

٣١٨ السابق: ٥٣١/٧/٩

٣١٩ السابق: ٥٣١/٧/٩

العائل، والمنفق عليهم هم الجماعة أي العيال ، ولو قيل إن الكلمة محرفة عن العاقل بإبدال القاف همزة كدأب العوام لم يكن بعيداً" ٣٢٠
ومن أمثلة نقده اللغوي قوله في الشوقيات، وقد أهداها إليه صاحبها أحمد شوقي: "وأما الانتقاد فالشوقيات أعصى منظوم العصر على الانتقاد الشديد ، معان عالية وعبارات زاهية، وأفكار دقيقة في أساليب رشيقة اللهم إلا ما لا يخلو عنه كلام المولدين ولاسيما المتأخرين من كلمة لم تتطرق العرب بها، أو لفظة وضعت في غير موضعها كلفظ(احترار) فقد استعمله شوقي ، وإنما سرى إليه من مثل ابن الفارض القائل:

وما احترت حتى اخترت حبك مذهبا : فوا حيرتي إن لم تكن فيك خيرتي
والشيخ عبد الغني النابلسي القائل:

حكم حارت البرية فيها : وحقيق بأنها تحتر

ومن هنا سمى ابن عابدين حاشيته المشهورة (رد المحتار إلى الدر المختار) وأما ابن الفارض فقد أوقعه في الخطأ الغرام بالتجنيس ، وتبعه ابن عابدين ، وأما النابلسي فلعلها سرت إليه من استعمال مثل ابن الفارض وكذلك شوقي بك وغيره" ٣٢١

٢- الموازنة والمفاضلة: يأتي كثير من ملاحظات السيد رشيد رضا على شكل موازنات ومفاضلات واستحسانات مطلقة، تتنوع صورها وتتعدد أشكالها، فقد تكون بين عملين ينتميان إلى جنس أدبي واحد، وقد تكون بين شاعرين في الشعارية، وقد تكون بين قصائد في موضوع واحد أو بين قطر وآخر، وتأتي أحيانا بين شعر الشاعر الواحد، وأحيانا أخرى بين العصور الأدبية ، ومنها التفضيل المطلق والاستحسان غير المعلل ، فمن ذلك تفضيله مقامات بديع الزمان الهمذاني على مقامات الحريري ، لأنها أقرب منها إلى السليقة العربية وأبعد عن التكلف ، فقال: "مقامات البديع أشهر من نار على علم ، وهي أحسن من مقامات الحريري أسلوبا ، فهي مفيدة في طبع ملكة الإنشاء العربي

٣٢٠ المنار: ٥٣٢/٧/٩

٣٢١ السابق: ٥٦٦/٢٤/٣

في نفوس المتأدبين ، وأسلوب الحريري ليس بعربي ، فهو لا يحتذى في الكتاب ، وإن كان قد بلغ الغاية في إتقان الصنعة ، أو إتقان التكلف كما كان يقول الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى "٣٢٢" وفضل أحمد شوقي على حافظ إبراهيم لأنه "طرق جميع أبواب الشعر القديمة والحديثة ، فتفتحت له أغلقها، وكان له السلطان الأعلى على أرواح عشاقها بما أجاد في كل فن من فنونها إلا الهجاء والمجون ، فقد نزه شعره ولسانه عنهما"٣٢٣ ولم يقبل ما كان يزعمه حافظ من أن شعر شوقي يعلو لمكانته من أمير البلاد ، بل إن شعر شوقي علا بعد دولة ذلك الأمير بنفسه فوق ما علا به في عهده ، حتى علم أن قربه من الأمير كان سببا لوقفه في استعداده ، حالت دون الوثبة التي وثبها بعد إخراج الحرب العالمية إياه من قفص قصر عابدين ، حتى أن حافظا بايعه بإمارة الشعراء"٣٢٤

ويرى رشيد أن البؤس والضحك أدعى إلى قرح زناد العظماء من الأدباء والحكماء والفلاسفة من الترف والنعيم ، كما يقول في جواب حافظ: "ولعله لو نشأ في حجر الترف والنعمة كشوقي لما كان له من نفسه ما يبعثه إلى النبوغ في الأدب النافع، فأكثر حكماء الأدباء وحكماء العلماء وأصحاب الأفكار الإصلاحية الناضجة كانوا من أهل التقشف والبؤس في بدايتهم"٣٢٥ ولولا شعر حافظ الاجتماعي وتشرفه بشرف موضوعاته العامة لما كان له أي مزية عند رشيد رضا ، وإن انتمى إلى أعظم أمير و"لما سلم من الابتذال حتى ليعجز عن إعلانه الأمير والسلطان على استغنائهم من تهذيب صبري وصقل سلمان"٣٢٦

ومن الموازنات والمفاضلات التي يجريها بين القصائد في الموضوع الواحد تفضيله قصيدة شوقي على جميع قصائد أشهر شعراء مصر في التهاني السلطانية بمناسبة عيد الجلوس للخديوي إسماعيل باشا، لأنها "لم

٣٢٢ المنار: ٦٢٩/٨/٩

٣٢٣ السابق: ٧١٩/٩/٣٢

٣٢٤ السابق: ٧١٩/٩/٣٢

٣٢٥ السابق: ٧١٩/٩/٣

٣٢٦ السابق: ٢٩١/٤/١٠

تكن مدحاً وثناءً مجرداً كغيرها، بل تمثيلاً لشعوره ووجدانه الخاص من حيث هو ربيب بيت الخديوي إسماعيل باشا وغرس نعمته" ٣٢٧ كذلك يفضل قصيدة لحافظ إبراهيم في الشيخ محمد عبده على كل القصائد التي مدح بها الشيخ لجزالتها وبلاغتها، فيقول: "ولقد هنيئ الأستاذ بقصائد كثيرة منها ما نشر في الجرائد، ولكن قلما كان أحد منهم ليداني محمد حافظ أفندي ، بل قلما رأينا في منظوم العصر مثل هذه الأبيات في جزالتها العربية وبلاغتها" ٣٢٨ ويفاضل بين شعر الشاعر الواحد، كتفضيله لشعر الجزء الثاني من ديوان حافظ إبراهيم على شعر الجزء الأول منه لأن معظمه في الأغراض العامة ، فقال في تقرّيز الجزء الثاني: "قد طبع الجزء الثاني من ديوان حافظ أفندي إبراهيم ، وهو أرقى من الأولى نظماً وموضوعاً ، فإن معظم قصائده في الأمور العامة من اجتماعية وسياسية... وبهذا صار شعر حافظ عزيزاً شريفاً" ٣٢٩ ومن ذلك قوله في تقرّيز (ديوان تذكّار راغب وصبري) للشاعر رشيد أفندي مصوبع: "ومن أحسن ما رأينا له في هذا الديوان قوله في استتكار بعض نساء الأغنياء ٣٣٠:

عار على الغيد أن تزهو وتفتخرا وتبدي التيه في الأعطاف والأشرا
بأي عطف تميل الخود تائهة ويفخر العطف إما صين واستترا
قدر الغواني بتحسين الجمال وإن تهتكت زال ذاك الحسن واندثرا
لو تترك العاشق المسكين ملتهباً شوقاً لها ظل ذاك الحسن معتبرا

وأما موازنته بين العصور الأدبية ونظرته إلى تطور الشعر وخصائص كل طور فتطالعنا في مثل قوله: "وحاصل القول في الشعر والشعراء: أن العرب كانوا مندفعين إلى الشعر من طبيعتهم ، فكانوا يتناولون بشعرهم كل ما في الطبيعة وما ينتزعه الذهن منها كالخيالات والأوهام ، وأن الجاهليين بلغوا به قبيل عصر النبوة الشأو البعيد، والغاية التي لا وراءها بالنسبة لمعارفهم ،

٣٢٧ المنار: ٥٩/١/١٨
٣٢٨ السابق: ٢٦٥/١٧/٢
٣٢٩ السابق: ٢٩١/٤/١٠
٣٣٠ السابق: ٨٧٢/١١/٩

وإن الإسلاميين ارتقت في أول الإسلام ملكاتهم في البلاغة على ملكات الجاهلية ، فكان كلامهم في المنظوم والمنثور أحسن ديباجة وأرصف مبنى وأعلى معنى وأنه جاء في القرون المتوسطة - لاسيما الثالث والرابع والخامس - من ساهم السابقين وخاطر المقرمين ... وإن المتأخرين هبطوا إلى أسفل الدرجات" ٣٣١

ومنه تفضيله كتاب وأدباء مصر في الثلث الأول من القرن العشرين على من سبقهم من كتاب العصر ، وذلك حيث قال: "فإن الفئة الراقية من كتاب مصر وأدبائها في هذه السنين أرقى في النقد اللغوي ممن قبلهم من كبار كتاب هذا العصر وأدبائه ٣٣٢ وميَّز شعراء العراق بحسن الإنشاد وجميل الأداء ، وبأنهم أقرب إلى السليقة العربية من غيرهم ، فقال في سياق الإشادة بروعة إنشاد عبد المحسن الكاظمي العراقي : "وكل أدباء العراق يخلبون الأبواب بضروب الإنشاد" ٣٣٣ ووصف شعر الكاظمي بأنه على الطريقة العراقية القديمة ، طريقة الشريف الرضي ومهيار الديلمي ٣٣٤ ثم قال: "والظاهر أن بلاد العراق لا تزال أقرب إلى السليقة العربية من أهل هذه البلاد ، وأن النابغين فيها أكثر منهم في غيرها" ٣٣٥

ومن تفضيله المطلق ، وتمييزه غير المقيد ما قاله في محمود سامي البارودي وهو يقدم ديوانه بعد أن أورد قطعة كبيرة من شعره تزيد على مائة بيت في عشر مقطوعات وقصائد: "فهو كما ترى قد ناهز الجاهليين في القوة والمتانة وخاطر المخضرمين في الفصاحة والبلاغة ، وبدَّ المولدين في الرقة والسلاسة ، فصح أن يلقب برب السيف والقلم ، وصاحب الحكم والحكم ، وفارس الميدان والبيان ، والصائل باللسان واللسان" ٣٣٦ ونحوه تفضيله لبعض القصائد تفضيلاً عاماً ، كما جاء في تقرّظ جريدة (الإخاء) ٣٣٧ : "ثم

٣٣١ المنار: ١٩٣/١١/١

٣٣٢ السيد رشيد رضا: ٦١٤

٣٣٣ المنار: ٧٤/١/٣٥

٣٣٤ السابق: ٣٢٨/١٤/٣

٣٣٥ السابق: ٣٢٨/١٤/٣

٣٣٦ المنار: ٨٣٠/٢١/٧

٣٣٧ السابق: ١٨٣/٨/٣

جاء فيها بنقد مقالة أوربا والإسلام قصيدة غراء من أرق الشعر وأعذبه في
مديح سماحة أبي الهدى أفندي الشهير ... ومنها في المديح
والاستمache" ٣٣٨

هو عدتي للحادثات وعمدتي في المشكلات أرى به ما لا أرى

إن رمته للجود رمت كنهوراً أو هجته للخطب هجت غضنفرأ

فيه الغنى كل الغنى وهو الحمى كل الحمى يثني المخوف إذا انبرى

٣- النقد التحليلي: يقوم رشيد رضا أحيانا بأعمال نقدية أقرب ما تكون إلى النقد التحليلي ، حيث يقف عند النص الأدبي ، يستكنه ويفحصه ويتلمس مزاياه أو يكشف ما به من قصور ، وهو وإن كان لا يدرس النص من جميع جوانبه اللفظية والأسلوبية والموسيقية إلا أنه يقارب ذلك ، ويكاد يقنع القارئ بنتيجة نقده ، ويبدو أنه كان لا ينقصه في ممارسة النقد التحليلي شيء ، غير أن طبيعة دراسته العابرة وغير المتأنية لم تمكنه من ذلك ، لأنه لم يكن يمارس النقد ممارسة الأديب المتخصص المنقطع إلى هذا المجال ، وإنما يمارسه ممارسة الأديب المتذوق الذي يسجل ملاحظات سريعة فيما يصادفه من النصوص الأدبية ، وفي مراسلاته إلى صديقه الأديب شكيب أرسلان ما يدل على وعيه بالنقد التحليلي الذي كان مذهباً جديداً كما يظهر من كلامه، حيث يقول: "وقد أعجبت بما كتبت له .. فإنه غاية في التمهيص والنقد الذي يسمونه في هذه الأيام بالتحليلي" ٣٣٩ أما تلك النماذج التي يمكن أن تدخل في هذا الباب فمنها ما علق به على محاضرة للدكتور محمود بك لبيب محروم في نادي المدارس العليا بالقاهرة بعنوان "تربية النفس بالنفس" ملاً فيها مصطلحات غريبة فقال رشيد في نقدها: "أما موضوع الخطاب فيعرف من عنوانه، وأما أسلوبه فيتمثل لك أسلوب بعض المتصوفة الذين كتبوا الأحكار والمصنفات في علوم الأسرار، في مزجهم اصطلاحات العلوم الكونية بما يضعونه من الاصطلاحات الغيبية الملكوتية، بل هو أغرب مفرداته وجمله

٣٣٨ السابق: ١٨٣/٨/٣

٣٣٩ السيد رشيد رضا : ٦٩٢

ومثاله ومثله، وإليك مثالا منه: "إن الحقيقة فردية لا تتجزأ وإن الكون جوهر لا يتداعى ، هؤلاء لا يفتشون عن بواطن الأشياء ، ويكتفون بعلم ظواهرها العامة ، هؤلاء لا يعرفون للكون في الكون إلا نقطا (طبعت في الأصل كقفل) واحدا فسمه المركز لأهل الكرة الأرضية ، وادعه مركز السماء لأهل السموات العلية ، وأطلق عليه قلب الفلك للسموات والأرضين السمية والدينية ، وسمه الطبيعة إن كنت ممن يصيح بأن (المادة لا تتجدد ولا تتعدم) وقل عنه الروح (بالفتح) إن سألك أحد طلبة (تناسخ الأرواح) وصفه بالجريثمة (الميكروب) إن تجهورت في نظرك الذرات، وعرفها بالتخلق إن درست علوم النشوء وتابعت (داروين). حسب القارئ هذا ، فقد ملّ أو كاد إذ لم يقرأ في حياته كلاماً كهذا الكلام ، ألفاظ في اصطلاحات العلوم الطبيعية والدينية والصوفية والجغرافية، تشبه خرزاً في أنواع شتى ، وضع في علبة وخضخض حتى اختلط ببعضه ببعض ، ثم استخرج فنظم نظماً غير مألوف ولا معروف ، فيا ليت شعري ماذا كان من أمر أعضاء النادي عندما ألقاه عليهم الدكتور؟ ماذا فهموا منه؟ هل قابلوه بتصفيق الاستحسان أم بصفير الاستهجان؟" ٣٤٠ هكذا نقد رشيد هذه الخطبة التي لم نورد كل ما اقتطفه منها ، والتي ألف الدكتور ألفاظها من مجالات متنافرة ، دون أن يقتصد في استعارة مصطلحات العلوم المتناقضة ، ثم لم يحسن تأليفها ، مما جعل رشيدا يتعجب من صنيعه ، بل يسخر من إخفاقه ، وقد رأينا رشيدا ينتقده في سوء اختيار ألفاظه التي أصاب في وصفها ، وفي كون محاكاة أسلوبه لأساليب المتصوفة في غموضه وإبهامه. ومما يشبه هذا المسلك من نقد رشيد ما كتبه في مؤلف أدبي لأحد الشيوخ ، زعم فيه أنه مبتكر ، وأن كثيرا من أجلاء العلماء قرظوه وأشادوا به كما نوهت به بعض الجرائد المعتبرة ، فما كان من رشيد رضا إلا أن درس الكتاب فوجده على غير ما زعم ، ثم كتب عنه ما يكشف عن حقيقته فقال: "(مطمح الفصحاء) كتاب ألفه الشيخ علي فؤاد المنوفي ، في شيء سماه الإنشاء ، وجعله عشرة أقسام... قال المؤلف في

فاتحة كتابه (وكل ما فيه من المنشآت ابتكاري كما أن بعض ما به من الأبيات اختياري) ونقول إنه ليس فيه شيء من الابتكار، وهاك هذا النموذج مما فيه من المنظوم والمنثور، وهو ما قاله في أول قسم الاستعطاف بعد أبيات لغيره (مهما في التجني عليّ أفرطت وأذقتني بصدك الهوان ، فروحي لموتك أو هبت يا إنسان كل إنسان)

لله أشكو غرامي وما أعاني وألقى
 قطعت حبل ودادي ولم أحن لك حقا
 وبي تبدلت غيري فالله خير وأبقى

ولا يحسبن القارئ أننا تعمدنا نشر أدني ما في الكتاب بعد البحث عنه، بل هذا من أحسنه ، فإن أساء بنا الظن أوردنا له أبياتا كتب بها إلى صديق آخر وهي:

أيا من فارق أهل العصر طرا بما أبداه من شرف الطباع
 أسأت إليك فاستوحشت مني وأبدلت التوصل بانقطاع
 فصرت أقارع الأهوال ضنكاً وأنتف شعراً رأسي من مجاعي
 وأصرخ في (الشوارع والحواري) بأصوات كأصوات الضباع
 وأزرى دمع عيني فوق خدي ومن أسفي أعض على صباعي
 ولما أن رأيت عينا موتي وأن الروح مني في النزاع
 أتيت إليك معترفا بذنبي ورجلي فوق كتفي بانخفاض
 أوئل فيك أنك تعف عني لأنك بحر جود ذو اتساع
 فألقمني بفضلك ثدي عفو لأشفي القلب منه بالرضاع

هكذا جاءت في الكتاب فلا تظن أن مطبعتنا حرقت فيها أو صحفت ، وهنا يقول القارئ: ما بال المنار أطال الكلام على هذا الكتاب وخالف عادته في مثله؟ وأنا أقول له: "إن السبب في ذلك بمكانة كتاب كتب مصنفه في أوله أنه ورد إليه ٢٦ تقریظاً له من أكابر العلماء وأفاضل الشعراء ، وذكر منها تقریظاً للشيخ سليم البشري الذي هو شيخ المالكية اليوم ، وكان شيخ الأزهر بالأمس ، يشهد فيه للكتاب بأنه مفيد ونافع... وقد كان حظه من كبر الجرائد

كحظه من أكابر العلماء ، فإن جريدة المؤيد قرظته تقریظاً جعلته في منتهى البلاغة... أفیلام المنار بعد هذا كله أن أطال القول فيه" ٣٤١

عزّف رشید في البداية الكتاب وصاحبه ، ثم كشف عن محتواه ، وأنه كتاب أدب أريد به تثقیف الأدباء وتوجيههم إلى الكلام العالي ، ثم عرض لما ناله الكتاب من العناية والشهرة بسبب تقریظ العلماء والأدباء والصحف المشهورة له ، وهذا ما حدا برشید إلى طلب الكتاب ودراسته ، فوجده دون مستوى النقد الحقيقي لعموم فساده ، وقلة الأدب الصحيح فيه ، فاكتفى بعرض ما في الكتاب من نثر ونظم ، من أحسنه وأضعفه ، لأن هذا كاف في نظر رشید في إقناع القارئ بما في الكتاب من الهزال الشديد ، الذي لا يخفى على أحد ولو كان قليل البضاعة في الأدب ونقده ، حتى إن بعض القراء ليتبادر إلى أذهانهم أنه حصل تحریف أو تصحیف فيما نقله رشید من نصوص الكتاب ، وكان قصد رشید في نقده اللاذع لهذا الكتاب ، تنبيه العلماء والأدباء والجرائد ودور النشر إلى عدم التساهل في نشر الكتب الضعيفة.

ويتجه تحليل رشید أحيانا إلى النص الأدبي دون ملبساته فيديم النظر فيه ليضع يده على مكامن سره ، ومبعث خصائصه التي تميزه بالنفرد ، كتخليه لبيتين من قصيدة لمحمود سامي البارودي في الفخر وهما:

من النفر الغر الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فجر
إذا استلّ منهم سيد غرب سيفه تفرزت الأفلاك والتفت الدهر

يقول رشید مبديا إعجابه بهذين البيتين: "ويا لله ما أرق حاشية قوله: (لها في حواشي كل داجية فجر) وما أدق غزل خياله فيه، وأما البيت الثاني فإنه ليكاد يروع ببلاغته السامع ، حتى يخيل إليه أن الأفلاك تصدعت مما تفرزت ، فيلمس رأسه مخافة أن يصيبه كسف منها ، ويتمثل له الدهر رجلا فجأه العجب فالتفت إلى السبب ، وليكاد يلفته ما يتخيل من التفات الدهر، ويلم به الدهش والذعر، أو يذهب به الوهم إلى أن التفات الدهر هو التفات أهله ، فيحسب كل فرد من الناس قد ألوى عنقه ، وشخص ببصره مقطبا ، ينظر ما

يكون من فعل ذلك السيف ، المستل في يد ذلك البهمة الأمثل ، وجملة ما يقال في البيتين: إنهما من السحر الذي يأخذ المرء عن نفسه ويحكم سلطان الخيال في عقله وحسه ، ولكنني لا أعرف صيغة (تفرع) في هذه المادة لغيره ، ولو كان أن أجزتها لأجزتها ، وقلت إنها مما يشتق قياساً ، فإنني لا أرى لغيرها مثل روعتها" ٣٤٢

هذا الشرح المسهب للبيتين قائم كله على الصور الأدبية الثلاث التي تضمنتها الأبيات (حواشي كل داجية) و (تفرعت الأفلاك) و (التفت الدهر) وهي صور قوية موحية ، تتعدد ظلالها حسب ما تؤل به من استعارة أو مجاز مرسل كما يظهر من تفسير رشيد ، وأوحت صيغة (تفرعت) إلى رشيد أن الأفلاك عندما تفرعت تمايزت وتقطرت وأصبحت كسفاً متطايرة ولهذا أعجب بهذه الصيغة غير السماعية التي كان يرد أمثالها لوجود ما يغني عنها من مادتها ، أما هنا فلا يرى في مادتها ما يضاهاها في الروعة.

وكما ركز رشيد في التحليل السابق للبيتين على الصور البيانية نجده في بعض الأحيان يتجه به إلى الإنشاد الذي يؤدي به الشاعر إلقاء قصيدته ، وهو أمر لا يقف عنده النقاد كثيراً، ويستعوضون عنه بموسيقى القصيدة ، ربما لأن الإنشاد قلّ ، لأن معظم القصائد تنشر في الجرائد أو في الدواوين الشعرية فلا يعرف كيف أنشدها الشاعر. يقول رشيد في سياق حديثه عن الشاعر العراقي عبد المحسن الكاظمي: "ولعمري إن إنشاده للشعر لأبلغ من نظمه له في إثارة الشعور بما شاء من شجو وشجن وحنين إلى سكن ووطن وشوق إلى لقاء حبيب وحنين إلى لقاء حبيب وحنين إلى لقاء حبيب .. وإن أنس فلن أنس إنشاده إياي قول الشاعر:

وارحمتا للغريب في البلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا
فلئن قال ابن المنير في بائيته:
وما المدامة بالألباب ألعب من فصاحة البدو في ألفاظ تركي

فإن لنا أن نقول: ما لعبت المدامة بالعقول، ولا عرف الفارابي بالقانون ، بما أضحك الثغور ، وأثار الشجون ، وأجرى الشؤون ، وران على العيون ولا نعى جميل لبثينة أمام دارها ، ولا كلمتها للناعي سافرة نابذة لوقارها ، بأعظم سلطانا على القلوب من إنشاد الكاظمي لهذين البيتين ، بصوته الرخيم ، ولهجته العراقية ، وتقطيعه للبيت بغير أوزانه الشعرية ، كوقوفه على كلمة الغريب والنازح والعيش ، فإنني لأتذكر الآن خفقات قلبي لسماعها ، فأجد الذكرى تعيدها سيرتها الأولى "٣٤٣

ويهدى إليه ديوان المواكب لجبران خليل جبران ، فيقرظه وينتقده ، كما ينتقد صاحبه بأنه يمزج شعره بالفلسفة النظرية ، التي يميل إليها فيشتت في الخيال ، حتى إن قارئ ديوانه ليكاد يخرج منه خاوي الوفاض ، صفر اليدين ، هذا من حيث المعنى ، وأما من حيث الموسيقى ، فمعظم قصائد الديوان من بحر البسيط ، وقافية الرء المضمومة ، وفيها أبيات لا يلتزم فيها بقافية ، وتخرج من بحر البسيط ، ثم يورد رشيد نماذج من الموكب الأول ، ويقف عند بعض الألفاظ التي تصرف فيها للضرورة الشعرية ، فيعذره في هذا التصرف ، بل يرى أن هذا هين لأنه "قد يجيز هذا الشاعر وأمثاله من العصرين في مثل هذا ما لم يجزه علماء العربية من قبل" ٣٤٤ ثم يستوقفه قوله في الناي:

أعطني الناي وغني فالغنى يرعى العقول

فلا يستسيغه ويعلق عليه بقوله: "وينظر ما معنى قوله: فالغنى يرعى العقول فهو من مبهمات التي يقف فيها الذهن حائراً" ٣٤٥

٤- نقد القصة والرواية: أفردت القصة والرواية بالحديث ، مع أن الحديث عن نقد رشيد يشملهما ، لأنه اهتم بهما بما اقتضى هذا التخصيص ، وهو أن القصة فن جديد لم يكن الأدب العربي القديم يعرفه ، وكانت في أيام رشيد وليدة وناشئة ، ومعظم نماذجها كان مترجماً من الآداب الأجنبية ، وبما أن الغالب

٣٤٣ المنار: ٧٣/١/٣٥
٣٤٤ المنار: ٥٥٩/٧/٢٧
٣٤٥ السابق: ٥٥٩/٧/٢٧

على موضوعاتها غرامي وفي لغتها تسامح كبير، فقد كان من المفترض أن لا يتحمس لها رشيد، بحكم منزلته الدينية، وجنوحه إلى الأدب الرفيع الفخم معنى ومبنى، ولكننا نجد رشيد رضا على العكس من ذلك يحتفي بها، ويروج لها، ويحث الأدباء والكتاب على الكتابة فيها، لأنه أدرك دورها الخطير في التأثير على الشباب وفي توجيه المجتمع، كما قال: "إن قراءة القصص المعروفة (بالروايات) من أنجح الذرائع في نشر الأفكار الصحيحة بين طبقات القراء، ومن أكبر وسائل التهذيب، ولها الشأن العظيم في البلاد المتمدنة، وقد انتشرت الروايات بيننا باللغة العربية، ما بين منشأة، ومعربة لكن أكثرها غرامي" ٣٤٦ ومن مظاهر اهتمام رشيد بالقصص أنه قرظ بقلمه في مجلة المنار وحدها نحو من مائة قصة، وكان يعشق قراءتها كما يفهم من قوله في تقديم بعض الروايات: "والرواية عذبة قرأتها في سهرة واحدة، على أنني لست من المغرمين بقراءة القصص والروايات" ٣٤٧ وقد لامه قراء المنار على تقريظه قصة (الحجاج بن يوسف) لجرجي زيدان لأنها تمس الصحابة ٣٤٨ علاوة على حثه الكتاب على الإسهام في كتابة القصص والروايات، في مثل قوله في تقديم بعض الروايات: "فنحث الكتابة على إنشاء الروايات في هذا الموضوع المفيد، وعسى أن يواصلها مؤلفها الأديب الجري في هذا المضمار مع مراعاة حسن السبك وسلامة العبارة مع سلامتها التي هي فيها، فما أجدر المعنى الصحيح في الأسلوب الفصيح" ٣٤٩ وفي هذه العبارة إشارة إلى ما يمكن أن نعدّه أسس بناء القصة الجيدة لدى رشيد رضا وهي الموضوع المفيد وحسن السبك وسلامة العبارة، فالمعنى الشريف أو الموضوع المفيد شرط عند رشيد في جودة القصة وفي غيرها من الأجناس الأدبية الأخرى كما ذكرنا سابقاً، وكان هذا محور نقده فيما يرد إليه أو يقع في يده من القصص أو الروايات، وخير مثال على ذلك ما أجاب به الكاتب

٣٤٦ السابق: ١٢٩/٧/١

٣٤٧ السابق: ٧٠٠/٤٤/٢

٣٤٨ السابق: ٣٩٧/١٠/٥

٣٤٩ المنار: ١٢٩/٧/١

نقولاً أفندي رزق الله الذي أرسل إليه قصته (حواء الجديدة) قبل نشرها يطلب منه رأيه فيها ، فكتب إليه رشيد رأيه ، ثم نصحه بقوله: "وأرجو أن تتوخى فيما ستكتب الغاية والفائدة أكثر مما تتوخى حسن الوضع ولطف التعبير وقوة التأثير ، وأجد بمن يعرض عمله لنقد الرجال أن يبلغ منه غاية الكمال" ٣٥٠ . وأما حسن السبك وجمال البناء ودقة ترابط أحداث القصة فعنصر مهم لا تستغني عنه القصة عنده ، لأنه يضيف عليها المنطقية ، ويقربها من الواقع كقوله: "غرائب الاتفاق قصة طويلة تدخل في ثلاثة أجزاء بنيت حوادثها على المصادفات الغريبة التي لا تكاد تقع ، ولكن حسن البناء يقربها من الأذهان" ٣٥١ وقد نقد إحدى الروايات لما ورد فيها مما يضعف واقعية الحدث وهو أن العشيقين كانا يجتمعان ويسهران معا بعلم أبيهما ، وهذا كما يراه رشيد رضا بعيد حدوثه في المجتمع المصري ٣٥٢ ونقد قصة أخرى لأن اسمها لا يطابقها أو يناسبها ٣٥٣ وأما اهتمام رشيد بلغة القصة فيأتي في الدرجة الثانية بعد المعنى من حيث الأهمية ، ولا يكاد ينسى أن يضمن نقده للقصة نقد لغتها تنويرها أو تنقيصاً ، كقوله: "أحسن القصص التي تنشر في مصر لهذا العهد عبارة ما عر به فقيد التحرير نجيب أفندي الحداد... ٣٥٤" وكلما اقتربت لغة القصة أو الرواية من لغة الأدب العربي القديم ، وأظهر الكاتب فيها التفنن في القول ، نالت استحسان رشيد ، وهذا ما نستنتجه من تقريره قصة (شفاء المحبين) للكاتب العنجوري ، حيث يقول: "قلما رأيت ترجمة لأحد من الكتاب المعروفين كترجمة هذه القصة تكثر فيها فرائد اللغة التي هجرها الكتاب لقلة اطلاعهم ، وتزين بالأمثال والاقْتباس والتضمين ، وحل المنظوم من كلام الشعراء الأولين المجيدين ، وتقل فيها الأغلاط الشائعة الآن" ٣٥٥

٣٥٠ السابق: ٧١٧/٩/٩

٣٥١ السابق: ١٢٩/٨/٩

٣٥٢ السابق: ١٢٩/٧/١

٣٥٣ السابق: ١٤١/٢/١٠

٣٥٤ المنار: ٥٩٣/١٥/٥

٣٥٥ المنار: ٣٠٢/٤/١١

الفصل الثالث

الدراسة الفنية لأدب السيد رشيد رضا

المبحث الأول :

الدراسة الفنية لشعر السيد رشيد رضا

المبحث الثاني :

الدراسة الفنية لنثر السيد رشيد رضا

المبحث الثالث :

الدراسة الفنية لنقد السيد رشيد رضا

المبحث الأول : الدراسة الفنية لشعر السيد رشيد رضا

المطلب الأول : شعره التقليدي

ذكرت فيما مضى أن شعر رشيد رضا يستقى من ثلاثة مصادر أولها : مجلة المنار ، وثانيها المقصورة الرشيدية ، وثالثها ديوانه ، الذي سماه (ديوان السيد) ، ويستقيم هذا التقسيم الثلاثي مرة أخرى عند دراسة شعره دراسة فنية ، فقد نقد رشيد شعره ، وقسمه إلى قسمين ؛ قسم تقليدي قاله في مبدأ حياته الشعرية وقسم عصري قاله بعد أن تتفك بالثقافة العصرية ، وبدا للباحث أن شعره في ديوانه لا ينتمي من حيث خصائصه الفنية إلى أي من القسمين السابقين ، فهو إذا قسم ثالث.

أما القسم الأول من شعره ، الذي وسمه بأنه تقليدي فأكثره المراثي التي قالها في مشايخه ، وفي أعيان بلده ، والمدائح التي نظمها في مناسبات مختلفة ، وهذا النوع من شعره منشور في مجلة المنار ، وفي بعض كتبه ، وهو على شكل مقطوعات ومختارات أو بالأحرى مجتزئات أوردها رشيد للاستشهاد والتمثيل ، وكأنه أراد أن لا يروى عنه ، ومن ذلك قوله في رثاء نسيب له :¹

لا حَوْلَ لِلخَلْقِ مِنْهُ بِالخَلَّاصِ وَلَا هُوَ الْمُنُونُ فَقصِرْ دُونَهُ الْأَمَلَا

فإنها كخيال عند من عقلا تغرّك الدنيا بزُخرفها

تذروه قد ضرب الرحمنُ ذا مثلاً أو كالهشيم إذا ما الذاريات أتت

ومنها:

إن كنت في غفلةٍ فالله ما غفلاً يا نائماً وصروفُ الدهر توقيظهُ

مؤذنُ الموتِ نادى الناسَ حيّ على وأنت يا ذاهلاً عما يُراد به

ويذكر رشيد أن هذه القصيدة - وهي أول قصيدة ظهرت له - نالت استحسان الناس ، بدليل أن أحد المشايخ ، المشهور بحسن صوته ، أنشدها في حفل التأبين ، نيابة عن رشيد رضا ، ولما علم شيخه حسين الجسر أن القصيدة له ، أكبرها ، وجعل ينشدها للناس في مجالسه الأدبية ، وبنوه بصاحبها ، مما يدل على مناسبتها لذوق عصرها ، غير أن رشيدا انتقدها فيما بعد ، وعدها من قصائده التقليدية ، التي لا

١- المنار والأزهر : ١٨١

تناسب العصر ، لأن أسلوبها وعظي ، وما تخلعه على الفقيد من صفات المدح لا يراعي فيه خصوصية الممدوح. يقول رشيد : "فهذا أسلوب وعظها ، ويشبهه أسلوب مدح الفقيد. وأما معانيها فهي تقليد للمألوف في المراثي من المبالغة في المدح ، بما يقصد به حسن اللفظ ، ومناسبته لصنف الممدوح ، ومركزه الاجتماعي ، دون مطابقتها للواقع أو عدمها." ²

ولا يرى رشيد رضا أن هذا القسم من شعره ضرب واحد في القيمة الشعرية ، بل إن بعضه يعلو على بعض. يقول في هذا : "ثم إنني في أثناء طلب العلم رثيت من توفي من كبار علمائنا ، وأصدقاء والدي ، بل أصدقاء بيتنا ، بما هو أرقى أسلوبا ، وأقوى مناسبة ، وأصح معنى ، وفي مقدمتهم شيخ الشيوخ محمود نشابة ، والأستاذ الشيخ عبد الغني الرافعي ، والمرشد الأكبر الشيخ أبو المحاسن محمد القاوقجي .." ³ ولكن لا يبدو أن هذا ليس على إطلاقه ، فإن مراثية الشيخ محمود نشابة ليست بأرقى في مجملها من مراثية نسيبه ، ولنتأمل فيها: ⁴

ووارثُ المصطفى فينا ونائبه شيخُ الشيوخ إمامُ العصر أوحده
يَمُ الشريعةَ راسيهِ وراسيهِ فلكُ الطريقةِ أو دُرُّ الحقيقةِ في
حلِّ العويصِ إذا أُعيتْ مذاهبه ومرجِعُ الكلِّ في حملِ النصوصِ وفي
مُودِ الخلائقِ من جلتْ مواهبه ربُّ الحقائقِ مكشافُ الدقائقِ مد
وزاحمتْ منكبَ الجوزا مناكبه من حَلَّتْ هامةَ الأفلاكِ همتُهُ
وليس تُحصى بتنقيبِ مناقبه من لا تُحدِّ بتعريفِ معارفه
ولأنَّ عن رفعةٍ للناسِ جانبه من كان عن خشيةِ الله مُنكسرًا
وأفنتُ البدعةَ السوداء قواضيه من أحيثُ السنةُ الغرا مآثره
والكتبُ كم ألفتُ منها كتائبه وما قواضيه إلا يراعته

وبقيتها تجرى على هذا المنوال ، فلا ترى فيها إلا أوصافا متراكمة ، بصورة تقريرية خالية من الخيال الشعري ، علاوة على ما فيها من المبالغات المسرفة في كل شيء

^٢ - المنار والأزهر : ١٨١

^٣ - المسابق : ١٨٢

^٤ - المنار : ١٥٥/٢١ : ٣

، فشيخه شيخ الشيوخ ، وفلك الطريقة ، ودرّ الحقيقة ، ويم الشريعة ومرجع الكل ،
وصاحب همة تحلق هامة الأفلاك ، ومعارفه ليس لها حدود.

ونحوها مرثية شيخه عبد الغني الرافعي ، الذي توفي بمكة حاجا ، فرثاه بقوله:⁵

وقد أعد له جناته نَزْلا طوبى لمن بجوار الله قد نَزلا
في معهد القرب من كأس الشهود طلا ويا هنيئاً لمن أسقاه سيده
ومنها :

شمس الرشاد ، ويدر الهدى قد أفلا⁶ نعم لقد مات علم لدين الله وانكسفت
نصاف⁷ منا وجيد الفقه قد عطلا نعم لقد قبضت روح التصوف ولا
واصطم التمكن مرتحلا⁸ ين نعم قد اخترم التبيين واحتكم التلو
وهي كسابقتها في التقريرية والمبالغة ، التي تدل على أن الشاعر لم يكن له هم سوى
إضفاء كل ما خطر في باله من الصفات الحميدة على الفقيد ، على سبيل المبالغة
المفرطة ، وهذا أشبه بكلام نائحة منه بإلهام شاعر ، حركت موهبته غائلة الموت ،
التي حلت بساحة شيخه الحبيب وهو في الغربة ، أو هو شعر عالم يعتمد على
معرفته بفنون اللغة ، لكي يصنع ما عرف بشعر العلماء ، لا شعر الشعراء الذين
يغترفون من خيالهم الشعري ، ومن وحي إلهامهم.

وأمثل من القصيدتين السابقتين ، ومن الأولى التي انتقدها رشيد مرثيته في الأمير
أحمد حسان الأيوبي ، وهي قوله:⁹

والنَّعش مثلُ المَهْد للأولاد إن المنية غاية الميلاد
بعد الفنا وزيارة الأحاد والله قد برأ الخلائق للبقا
وبها كمالُ الخلق والإيجاد والموت بابُ النشأة الأخرى لنا

ومنها :

ناموسه فردٌ من الأفراد أطيعةٌ ذا الحزن ليس يشدُّ عن

^٥ - المنار: ١٥٨/٣/٢١

^٦ - لا يستقيم وزن الشطر الأول ، والضممة في "الهدى" في الشطر الثاني تفسد الوزن ، والظاهر أن هذا من الطابع.

^٧ - هكذا في الأصل ، ولعل الصواب : الإنصاف

^٨ - في توزيع البيت خطأ ، ولعل الصواب "التمكين" بدل "التمكن"

^٩ - المنار والأزهر : ١٨٢

ديان من هَدِي لَنَا وَرَشَادُكُمْ ذَاكُ مِمَّا أُوجِبْتُهُ شَرَائِعُ الْأُ
 كُلُّ الشُّعُوبِ بِهَذِهِ الْأَصْنَافِ أَمْ ذَلِكَ الْعَقْلُ السَّلِيمُ قَضَى عَلَيَّ
 لَكِنَّهُ ضَرَبَ مِنَ الْمُعْتَادِ كَلًّا فَلَيْسَ الْأَمْرُ ضَرْبَةً لِأَرْبِ
 لَيْسَتْ بِنَهْجِ الْعَقْلِ ذَاتِ سَدَادٍ فَاخْلَعْ سَرَائِلَ الْعَوَائِدِ إِنْ تَكُنْ
 كَيْمًا تُنَافِحُ جَيْشَهَا بِجِهَادٍ وَتَقْلُدُ الْحَزْمَ الشَّرِيفَ كِصَارِمِ
 تَرْتُو بِهَا لَوْلَادَةَ الْأَوْلَادِ فَانظُرْ لِمَوْتِ النَّاسِ بِالْعَيْنِ الَّتِي
 طَرَفَانِ مُسْتَوِيَانِ لِلنَّقَادِ هَاتِيكَ مَبْدُونًا وَهَذَا تَمْنًا
 بِالْإِعْتِبَارِ بِهِ وَالِاسْتِعْدَادِ بِأَخْرِ الطَّرْفَيْنِ خَيْرُهُمَا فَخُذْ

ومنها في وصف الأمير الفقيده ووصف جنازته :

إِلَّا كِبْعُضَ الضَّيْفِ وَالْقُصَادِ قَدْ جَاءَهُ هَذَا الْحِمَامُ فَلَمْ يَكُنْ
 فَسَخًا بِهَا فَاعْجَبَ لِذِي الْإِرْفَادِ لَمْ يَرْضَ إِلَّا نَفْسَهُ مِنْهُ قِرِيَّ
 بَلْ ظَلَّ كَالْأَطْوَاقِ فِي الْأَجْيَادِ وَقَضَى الْأَمِيرُ وَمَا قَضَى إِحْسَانَهُ
 بِمَوَاكِبِ الْأَعْرَاسِ وَالْأَعْيَادِ حُفَّتْ بِهِ زُمَرٌ وَسَارَ كَشَانَهُ
 قَدْ كَانَ إِذْ يَعْلُو مُتُونِ جِيَادِ دَلْفًا عَلَى الْأَعْنَاقِ لَا عَنَقًا كَمَا
 (أَعْلَمْتَ مِنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ) وَسَرِيرُهُ الْمَرْفُوعُ أَفْصَحَ مُنْشِدَا
 (أَرَأَيْتَ كَيْفَ حَبَا ضِيَاءُ النَّادِي) مَا ذَاكَ إِلَّا الْبَدْرُ أَمْسَى آفَلًا

هذه المرثية مع تقليديتها أرقى أسلوبا ، وأصح معنى ، وأقرب مناسبة من
 سابقاتها لأن الشاعر حاول أن يتأمل ظاهرة الموت ، وأن يتدبر فيما يصاحبه من
 جزع الناس منه ، وبكائهم على صرعاة ، واجتهد في تفسير ظاهرة الموت بما قد
 يخفف من وطأته على الناس ، ثم مدح الأمير بما اشتهر به من الكرم ، وبصفات
 تتناسبه ، وإن كانت معهودة تقليدية ، ومقابلته بين موكب جنازته ، ومواكبه في
 المناسبات المختلفة في حياته ظريفة وجميلة.

أما مدائحه في هذه المرحلة فعلى نمط مراثيه في خصائصها الأسلوبية
 التقليدية ، ومنها موشح في تهنئة صديق له بمناسبة زفافه ، وقد انتقده رشيد
 واستضعفه بقوله: "وتشفع لي البداية في ضعفها." ¹⁰ ومنها :

أم لآل فوق بسط السندس ؟
 أم ثغور زينت باللحس
 أم نجوم تتراءى في السما
 وأسقط الظل في نبت الحمى ؟
 ومنه

عند فقد الحرث منه بدلا
 لم يغادر لنجاتي أملا
 بفؤادي طرفها قد فعلا
 تقف الأنجم بعد الغلس
 كنت إنساناً لفرط الأنس
 ياغريباً اتخذوا نبت اللمي
 وبقلبي قد تركتم ألماً
 لي منكم عادة لم يدر ما
 حيث قالت حين زارت ريثما
 احذر الأنس بغيري إنما

ومنه في مدحه :

يتراءى فوق طوق البشر
 كيف تصغي لاستماع السور
 وهو لم يهجر لفرط الخصر
 وابن هاني شاعر الأندلس
 وبه لم تلق طيب الأنفس
 لسن إن نظم الشعر غداً
 تنصت الناس إذا ما أنشدا
 كلما كرر يحلو مورداً
 ما أبو الطيب إما نظماً
 ليس يهنئك إذا شعرهما

فهي بموضوعها وقلبها ومعناها تسلك في قصائده في مرحلة التقليد ومحاكاة طريقة القدماء ، وفيما يلي خصائص شعر هذه المرحلة :

الخصائص الفنية لشعره التقليدي

الرؤية الشعرية¹¹

بالنظر إلى موضوعات شعره في هذه المرحلة ، يلاحظ أن رؤيته الشعرية كانت مقصورة في تسجيل المناسبات الاجتماعية ، بما يناسب ذوق المجتمع ، فكان يبادر - وكأنه يريد اعتراف المجتمع بشاعريته - إلى رثاء من تخترمه المنية من أعيان بلده ، من العلماء والشيخ والزعماء ، لكي تتشد قصائده في حفلات التآبين ، وذكر رشيد بعض من رثاهم ، فقال : "وفي مقدمتهم شيخ الشيخ محمود نشابة ،

¹¹ - أي المرجعية التي توطن فكر الأديب أو المفكر أو الطريقة التي ينظر بها إلى الكون من حوله. انظر: الرؤيا والتشكل في الأدب المعاصر: د. أحمد عثمان رحمانى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م ص ٥

والأستاذ الأكبر الشيخ عبد الغني الرافعي ، والمرشد الأكبر الشيخ أبو المحاسن محمد القاوقجي ، وقد تقدم ذكرهم في هذه الترجمة ، وكذا العالم المرشد الشيخ عبد الرزاق الرافعي ، والشيخ عبد القادر الميقاتي إمام الجامع الكبير في طرابلس ومرثية هذا نظمت في ساعة ، وقرئت عقب دفنه ، وسائر المراثي أنشدتها في حفلات التأبين ، في الجامع الكبير في اليوم الثالث للوفاة ، أو للعلم بها، فإن الشيخ عبد الغني والشيخ القاوقجي توفيا في الحجاز ، وقد دفنا في مكة المكرمة ، ولم أرث من وجهاء الدنيا إلا الأمير أحمد حسان الأيوبي ، من سروات الكورة (جبل لبنان) رثيته بأمر والدي.¹²

لم يورد من هذه المراثي إلا نماذج يسيرة لأربعة منها ، كما أنه لم يذكر من مدائحه في هذه المرحلة إلا نموذجا واحدا ، وهو الموشح السابق ، ويفهم من كلامه أنه قال عددا من القصائد في هذا الغرض ، وذلك حيث يقول : "وكنت أكره المدائح والتهاني الشعرية ، ولكنني لاشتغاري بالشعر كنت مضطرا إلى إرضاء بعض خواص الأصدقاء بشيء منها."¹³

يستخلص من هذه أن موضوعات شعره في هذه المرحلة تنحصر في الأغراض التقليدية ، وخاصة في غرضين اثنين هما المدح والرثاء ، ويرى الباحث أن الشاعر تأثر في اتجاهه هذا بعوامل عدة منها :

- 1- أن هذا الشعر يمثل باكورة شعره ، الذي توجه به إلى مجتمعه ، لانتزاع الاعتراف منه بشاعريته ، والإقرار بنبوغه ، ولهذا كان يتحين المناسبات الاجتماعية (حفلات التأبين - حفلات العرس) لإذاعة شعره.
- 2- أن ذوق المجتمع كان يحبذ مثل هذه الأغراض المألوفة له ، التي درج على اجتزارها عبر القرون ، ولهذا نجد أستاذه حسين الجسر - الذي وجهه فيما بعد إلى مجال الشعر العصري - يعجب بأولى قصائده التقليدية ، ويشيد بها في مجالسه الأدبية.

^{١٢} - المنار والأزهر: ١٨٢

^{١٣} - السابق ١٨٣

3- أنه كان يجاري المجتمع في بعض هذه القوائد ، لأنه كان مضطرا إلى استجابة بعض مطالب خواصه وأهل بيته في قول الشعر في المناسبات العزيزة عليهم ، وهذا ما صرح به في قوله السابق : "وكننت أكره المدائح والتهاني الشعرية ، ولكنني لاشتغاري بالشعر كنت مضطرا إلى إرضاء بعض خواص الأصدقاء بشيء منها." ¹⁴ وقوله : "ولم أرث من وجهاء الدنيا إلا الأمير أحمد حسان الأيوبي من سروات الكورة (جبل لبنان) رثيته بأمر والدي." ¹⁵

4- أنه لم يكن قد اطلع بعد على ثقافة العصر ، وشئون الاجتماع ، فلم يكن بمقدوره أن يخرج من فلك المألوف ، الذي تكون فيه قبل أن تتاح له فرصة الاطلاع على ما يغيّره ويثري فكره وتجاريه.

هذه هي أبرز العوامل التي طبعت شعره في هذه المرحلة بطابع التقليد ، الذي اعترف به رشيد رضا ، ووسم شعره بميسمه.

المبالغة في المعاني والصور

ومن السمات الفنية المتصلة بمعانيه ومضامينه الشعرية جنوحه إلى المبالغة في الصفات والتهويل في الصور ، ولعل طبيعة الموضوعات التي اهتم بها في هذه المرحلة كان لها صلة قوية بهذه الظاهرة ، وكل قصائده المتبقية من شعره في هذه الفترة طافحة بهذه السمة ، فمن ذلك قوله في رثاء شيخه محمود نشابة : ¹⁶

مرارة الكون وارتاعت مغاربه خطب أصاب فؤاد الشرق فانفطرت
ومن مكوكبه انقضت كواكبه قد مزق الإفك العلمي أطلسه
وعرًا تجوب مجاهيلًا جوائبه ومنهج العلم أمسى اليوم مسلكه
قامت على (مسلم) تبكي نوادبه وصدر (شرح البخاري) ضاق فيه وكم
فالدين من بعده ضاقت مذاهبه لئن بكى تابعو النعمان مذهبه
دروس مذهبه وارتاع طالبه هذا (ابن إدريس) بعد الشيخ قد درست

¹⁴ - المنار والأزهر: ١٨٣

¹⁵ - السابق: ١٨٢

¹⁶ - المنار: ١٥٥/٣٣/٢١

إن المبالغة في هذه الأبيات تبدو واضحة ، فمظاهر الكون شاركت في الحزن على المفقود ، بل كان نصيبها أوفي ، بحيث انفطرت مرارة الكون قاطبة ، بعد أن أصيب فؤاد شرقه وارتاعت مغاربه ، وتوعرت مسالك العلوم الدينية من بعده ، فلا معول عليه في علوم السنة ، ولا في فقه المذاهب ، فالشاعر يتكئ على المبالغة والتهويل في تلوين معانيه. ومثل هذا يقال في النماذج المتقدمة من مراثيه ومدائحه.

مصادر ثقافته الشعرية

تلوح في معانيه طوابع ثقافته الدينية والصوفية والفلسفية ، حيث يضيف على من رثاهم صفات التقوى والصلاح ، والزهد والتصوف ، والرسوخ في العلم ويشير إلى نوع العلوم التي برعوا فيها ، كما تتردد في شعره بعض المصطلحات الصوفية والفلسفية مما يعكس مخزونه الثقافي الذي يستمد منه معانيه الشعرية.

الخصائص اللغوية والأسلوبية

لغة رشيد رضا في شعر هذه المرحلة لغة سهلة ، قليلة الغريب ، وهذا أمر يثير التساؤل ، لأن رشيدا كان من دعاة إحياء موات اللغة باستخدام المفردات الغريبة في اللغة الأدبية المعاصرة ، كما كان يدافع عن اتهموا بالتقعر ، واصطياد أوابد اللغة وشواردها¹⁷ إضافة إلى أنه كان في هذه المرحلة مقلدا ، ومحاكيا لطريق الأقدمين ، ولعل مرد ذلك إلى قلة محفوظه للغريب في هذه المرحلة المبكرة ، وسيظهر في شعره العصري ما قد يثبت ذلك.

تشيع في لغته الشاعر ألفاظ مستمدة من قاموس الصوفية مثل : شيخ الشيوخ - فلك الطريقة - درّ الحقيقة - ربّ الحقائق - روح التصوف - كأس الشهود - ناموس)

18

يكثر من استخدام أسلوب الاستعارة ، بالمقارنة إلى الصور البيانية الأخرى وتضفي الصور الاستعارية على شعره مسحة من التفاعل والحركة ، كقوله:¹⁹ (حلقت

¹⁷ - المنار: ٤٢٢/١٨/٣

¹⁸ - السابق: ١٥٥/٣/٢١

¹⁹ - المنار: ١٥٥/٣/٢١

هامته - زاحمت همته - منكب الجوزا - كان منكسرا لخشية الله - لان جانبه -
 أحييت مآثره السنة - أفنت قواضبه البدعة - ألفت كتبه الكتاب - فؤاد الشرق -
 انفطرت مرارة الكون - ارتاعت مغاربه - مزق أطلسه - صدر شرح البخاري ..)
 وهي كثيرة وشائعة في شعره ، وإن كانت من النوع المألوف ، أما التشبيه والكناية
 فهما قليلا الورود في نماذج شعر هذه المرحلة.

يقول احتفال الشاعر بالمحسنات البديعية في شعره في هذه المرحلة ، فلم يرد منها إلا
 نزر يسير مثل :²⁰

- المقابلة : أحييت السنة الغراء .. أفنت البدعة السوداء
- الطباق : قضى الأمير وما قضى إحسانه .
- الجناس : (الكتب - كتائب) (تراب - ترائب) (الثأر - ثراه) (نُزلا - نُزلا)
- (راسيه - راسبه) (إنسانا - الأنس)
- الاقتباس والتضمين :²¹ (لا تغرنك الدنيا - إذا ما الذاريات أتت تذروه -
 حي على - أعلمت من حملوا على الأعواد - أرايت كيف خبا ضاء النادي)

ويلاحظ تكرار الشاعر لبعض الأساليب ، مثل كلمة (قد) التي كررها تسع مرات
 مقترنة بأفعال ماضية في مقطوعة من تسع أبيات ، في مرثية أحد شيوخه ، كأنه
 أراد أن يؤكد بها ما عبر عنه بتلك الأفعال من الفجيرة والفراغ الهائل الذي لا
 يصدق ، وكأنه يجادل منكرا.

وكرر كذلك كلمة (من)²² الموصولة خمس مرات في نموذج من خمسة أبيات
 متتالية ، كما كرر كلمة (مثنوى) ثلاث مرات في ثلاثة أبيات متتالية ، وكرر اسم
 الإشارة (ذا - ذاك - ذلك) ثلاث مرات في ثلاثة أبيات متتالية أيضا.

الخصائص الموسيقية

التزم السيد رشيد رضا بأصول القصيدة العربية العمودية في الموسيقى ، فلم
 يخرج عن الأوزان المعهودة ، ونظام القافية المتبع ، وإذا عدنا ما تبقى من قصائده

^{٢٠}- انظر : المنار: ١٥٥/٣/٢١ و ١٥٥/٣/٢١ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، و ٦٣/١/٣ ، والمنار والأزهر: ١٨١ - ١٨٣

^{٢١}- لقمان ، آية : ٣٣ ، الذاريات ، آية : ١

^{٢٢}- المنار: ١٥٥/٣/٢١ ، السيد رشيد رضا: ١١٠

في هذه المرحلة ، وهي أربع قصائد ، وجدنا أن اثنتين منهما في بحر البسيط ،
وواحدة في بحر الكامل ، والرابعة موشح من بحر الرمل ، وهي الوحيدة التي فيها
خروج عن النظام الخليلي إلى نظام كان يعد في أيامه من الظواهر الموسيقية القديمة
، وكان هذا الالتزام قناعة من رشيد رضا بضرورة مراعاة القوالب الفنية للقصيدة
العربية التقليدية ، ولهذا يقول : "ومن أراد الشعر العربي ، فلا بد له من معرفة
أوزانه." 23

المطلب الثاني : شعره العصري

رؤيته الشعرية

تطورت نظرة رشيد رضا إلى الشعر في هذه المرحلة ، التي رقي فيها فكره ، وازدادت ثقافته العصرية ، وسما على المؤثرات المحلية ، وتصدى للإصلاح والتوجيه ، فأمن بأن للشعر رسالة أنبل من اتخاذ زينة وتسلية في المناسبات الاجتماعية ، أو التوجه به إلى الأشخاص رثاء أو مدحا ، وتتمثل هذه الرسالة في توجيه المجتمع ، وتهذيب سلوكه ، وتنمية مداركه ، وتربيته بالفضائل الاجتماعية ، وهذا ما سماه رشيد بالشعر العصري ، وللعصرية عنده مفهومان ؛ **المفهوم الأول** أن يكون موضوع الشعر شريفا بأن يخدم القضايا العليا التي تهتم المجتمع والإنسانية جمعاء ، من الدعوة إلى الفضائل الخلقية ، والعدالة الاجتماعية وإصلاح الأمة ، ومحاربة الفساد والاستبداد والاستعمار ، وغير ذلك مما يخدم المصلحة العامة ، أو يدافع عن الحق كيفما كان شكله ، أو بتعبير نقدي أوضح أن يكون الشاعر ملتزما. **والمفهوم الثاني** أن يستوحي الشعراء أفكارهم ، ويستمدوا معانيهم من الحياة المعاصرة ، بما فيها من الفنون الجديدة ، والمكتسبات العلمية ، والمخترعات الحديثة ، حتى يكون الشعر مسايرا لعصره في معانيه وأخيلته ، وحتى لغته ، إذ كان رشيد يدعو إلى إطلاق الكلمات العربية الميته القابعة في بطون القواميس ، على المسميات الجديدة ، بدل اللجوء إلى التعريب، يقول في هذين المفهومين : "إن الشعر ينبغي أن يكون في كل عصر مناسبا لحالته ، وأنه ينبغي للمشتغلين بهذه الصناعة ، أن ينظموا في المواضيع الشريفة ، ويصوغوا المعاني الجديدة ، التي تعطيها الاختراعات الصناعية والاكتشافات العلمية." ²⁴

ويشرح معنى المواضيع الشريفة فيقول : "فنحن في أشد الحاجة إلى الشعراء والمنشئين ، الذين يصرفون قوتهم الخيالية إلى جذب وجدان الأمة إلى الفضائل الاجتماعية ، التي ترتقي بها ، وتساوي الأمم العزيزة ، وتجول في ميادين المعلومات التي انتهت إليها المدنية الحاضرة." ²⁵

^{٢٤} - المنار: ٣٠٩/١٧/١

^{٢٥} - السابق: ٤٢٢/١٨/٣

ولم يكتف في تقرير ذلك نظريا ، بل نجده مطالباً به في نقده التطبيقي ، حيث يقول في تقرير الجزء الثاني من ديوان حافظ إبراهيم : "قد طبع الجزء الثاني من ديوان حافظ أفندي إبراهيم ، وهو أرقى من الأول نظماً وموضوعاً ، فإن معظم قصائده في الأمور العامة ، من اجتماعية وسياسية .. وبهذا صار شعر حافظ عزيزاً شريفاً ، فلولا شرف معناه لما سلم من الابتذال." ²⁶

فشرف شعر حافظ بشرف معناه ، دون غيره من مقومات الشعر ، بل يصرح بأنه لا يسلم من الابتذال ، ولكن يغتفر ذلك بشرف مضمونه ومعناه. ويقول أيضاً في تقرير ديوان الشوقيات : "فإذا وفق صاحب الشوقيات ، للنظم في انتقاد العادات ونحوه ، من المواضيع الاجتماعية ، ينفع أمتة نفعاً يحفظ له التاريخ ، ويشكره له الله والناس ، وبهذا يكون الشعر من أنفع وسائل التهذيب ، وأجل حاجات العمران." ²⁷

إذا تمهدت هذه الرؤية الشعرية ، التي تبناها السيد رشيد رضا في شعره العصري ، فإننا ننقل إلى هذا الشعر ، لنقف على خصائصه الفنية ، ومرة أخرى يعين رضا الدارسين على تحديد هذا الشعر بالتعيين والتسمية ، كما يمدهم بالمؤثرات التي وجهته إلى هذه الوجهة الجديدة ، وصرفته عن المؤلف الذي قضى فيه شطراً من حياته الأدبية فيقول : "ثم إنني بعد الاطلاع على شؤون الاجتماع وسياسة العصر ، بتأثير مجالس المرحوم الوالد مع أصدقائه ، وقراءة الجرائد التي كانت تأتيه (وعنده وجدت بعض أعداد جريدة العروة الوثقى) ، ثم بتأثير صحبة أستاذنا العلامة الشيخ حسين الجسر ، ومطالعة المجالات العلمية كالمقتطف والطبيب ، مالت نفسي لإدخال المعاني العصرية في الشعر ، فكان مما نظمته في ذلك القصيدة التي سميت (قصيدة الجاذبية) ، وقد نشرت أبياتها في المجلد الأول من المنار ، والقصيدة الجمالية ، التي خاطبت بها السيد جمال الدين الأفغاني ، في السنة التي جاء بها الأستانة ، ثم نشرتها في المجلد الثاني من المنار والقصيدة الشرقية ، التي عاتبت بها الشرق على تأخره عن الغرب ، وكان آخر ما نظمته من الشعر (المقصورة الرشيدية) ، وكان سبب نظمها اقتراح صنوي وزميلي في طلب العلم .. أن أنظم

^{٢٦} - المنار: ٢٩٢/٤/١

^{٢٧} - السابق: ٥٦٦/٢/٣

مقصورة ، أهنته فيها بزفافه ، فنظمت مائة بيت ونيفا ، ثم بدا لي أن أتمها في معارضة الدريدية ، بإبداعها معاني كثيرة من فلسفة هذا العصر ، وفنون الأدب والاجتماع المناسبة له ، ولاسيما الإصلاح الإسلامي ، الذي وقفت كل حياتي على السعي له ، ثم هاجرت إلى مصر لأجله ، فزادت على أربعمائة بيت.²⁸

فقد سمى رشيد أربع قصائد من شعر هذه المرحلة ، تدخل في شعره العصري ، إحداها مقصورته التي تزيد على أربعمائة بيت ، والقصيدة الجمالية ، وأورد منها خمسة وخمسين بيتا ، وقصيدة الجاذبية ، وأورد منها أيضا خمسة وخمسين بيتا ، وذكر أنها كانت في الأصل نحو من مائة وعشرين بيتا ، وأما القصيدة الشرقية التي عدها في قصائده العصرية ، فلم يورد منها شيئا ، والظاهر أنه لم ينشرها من قبل ، وضاعت مسودتها منه لقوله : "ولا أحب أن يؤثر عني من الشعر غيرها"²⁹ إلا أن أجد مسودة القصيدة الشرقية وأنقحها.³⁰

ويمكن عدّ قصيدة مدح بها السلطان عبد الحميد من شعره العصري ، حسب خصائصها ، وعدد أبياتها ستة وعشرون بيتا ، وهذا القدر من شعره صالح لاستخلاص الملامح الفنية العامة ، التي تميزه وتفرده عما سبقه من شعره التقليدي وما لحقه مما يغايره في الخصائص الفنية.

الخصائص المعنوية

(أ) أغراضه الشعرية

رأينا أن من شروط عصرية الشعر عند رشيد رضا أن يكون شريف المعنى ، وأن هذا الشرف يحصل بأمرين بتوجهه إلى المجتمع ، وإلى المصالح العمومية ، لا إلى الأشخاص والأفراد بالمدح والرثاء ، وتضمينه المعاني العصرية التي تعطيها الفنون العلمية ، والمكتشفات الحديثة ، وذكر رشيد إضافة إلى ذلك أنه كان يكره المدائح الشخصية حتى في مرحلته الأولى ، ولكن الغريب أن يكون كل شعره العصري في المدائح الشخصية ، فقصيدة الجاذبية في تهنئة ومدح الأمير محمد

²⁸ - المنار والأزهر: ١٨٤

²⁹ - أي : المقصورة الرشيدية

³⁰ - المنار والأزهر: ١٨٥

باشا ، بمناسبة تقلده منصبا كبيرا في الدولة العثمانية ، والمقصورة الرشيدية أصلها في تهنئة أحد أصدقائه في زفافه ، والقصيدة الجمالية في مدح السيد جمال الدين الأفغاني ، والقصيدة الرابعة في تهنئة السلطان عبد الحميد في عيد جلوسه على العرش.

أفليس هذا نقضا وتقويضا للأسس التي وضعها لشعره العصري ؟ هذا ما يبدو واضحا في أول الأمر ، ولكن يمكن ملاحظة أن مدحه لجمال الدين في القصيدة الجمالية ، والشيخ محمد عبده في المقصورة ليس لشخصيهما ، بل لكونهما رمزين من رموز الإصلاح الإسلامي ، الذي يدعو إليه رشيد مثلهما ، ، ولهذا يمدحهما بما قدما للإسلام والمسلمين من نصح ، وما جاهدوا في سبيل رفع أثقال الجهل والتخلف عن المسلمين ، كقوله في شيخه محمد عبده بعد مدح خصه بجمال الدين الأفغاني :³¹

مُرِيدُهُ الْوَارِثُ كُلُّ مَا حَوَى ثَمَّتَ بِالْإِصْلَاحِ قَامَ بَعْدَهُ
وغيره تَأَكَّلَتْ فِيهَا الْجُدَى مِنْ حِكْمَةٍ تَكْشِفُ أَحْلَاكَ الدُّجَى
تُبِيحُ أَسْرَارَ تَصَارِيفِ الْقَضَا وَهِمَةٌ إِنْ جُرِدَتْ لِحَادِثِ
فِرْعَوْنِهَا الَّذِي اسْتَبَدَّ وَعَلَا تَأَزَّرًا لِيُنْقِذَا الْأُمَّةَ مِنْ
دَجَالِهِ الَّذِي بَبَدَعَهُ غَلَا تَأَخِيًا لِيُنْقِذَا الْإِسْلَامَ مِنْ
تَأَخِيَا وَالْمُصْطَفَى وَالْمُرْتَضَى قَدْ وَرِثَا مُوسَى وَهَارُونَ بِمَا
حَرَّرَ مَا أَمْلَأَهُ ذَاكَ أَوْ هَدَى وَاعْتَصَمَا (بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) فَذَا

فهو كما يلاحظ يمدحهما بتعاونهما في إنقاذ الأمة ، من الاستبداد السياسي والحكام الفاسدين ، وإنقاذ الإسلام من عبث الدجالين وغلو الغالين ، وافتراء المفترين ، فهو إذا مدح للإصلاح الإسلامي في شخص رموزه ودعاته البارزين ، ومثل هذا يقال في قصيدته الجمالية ، من أنه عشق في جمال الدين - الذي لم يلتق به ، ولم يعرفه إلا بآثاره - مذهب في الدعوة ، ومنهجه في الإصلاح الإسلامي ، وحسن بلائه في جهاده في إيقاظ الأمة ، وتبئيهما من غفلتها ، وذلك كقوله :³²

³¹ - السيد رشيد رضا: ٣٠٠

³² - المنار: ١٨٧/١٢/٢

كروض أريض باكرته النسائم فيا أيها الحبر الذي لطف طبعه
فثم الأثابي جمّة والتوائم [33] ويا أوحداً في حبه لست أوحداً
ونيطت بجثمان له الأم فاطم ومن فصلت من عالم القدوس روحه
وقد كاد يقضي وهو بالجهل نائم نفخت بجسم الشرق روح تنبه
نهوضاً فحالت دون ذاك الصواكم [34] فهبّ بنوه للمعالي وحاولوا
بأفاقهم غيم الونى متراكم فأوضحت أعلام السلوك وإنما
غزلت ولم تكسر لديك المبارم [35] غزلت ولم ينسج سواك دقيق ما
هي العروة الوثقى لمن هو حازم وأبديت من سحر البيان عجائباً
إرادتكم ما قاربتها المآزمو لو أن أعمال الإدارة قارنت
لها جاهل أو مُكره وهو عالم ولكن أباهما الحاكمون فكاهه
وللوهم سلطان على النفس حاكم يدلّيه شيطان العدا بغروره
مغانم هذا الشرق فيهم مغارم فأواه من دهر يقدم معشراً
فهذا لا يشبه مدحه التقليدي ، الذي يركز فيه على الصفات الخاصة بالشخص ،
دون أن يستثمرها فيما يتجاوز الشخص الممدوح ، وإنما لمجرد إرضائه .
ويمكن أن تفهم مدائحه الأخرى على هذه النحو ، ما عدا مدح صديقه العريس ،
فيكون مدحه للسلطان عبد الحميد الثاني إعلاء لهذا المنصب الخطير في الإسلام ،
الذي كان يتعرض لتهديد حقيقي من أعداء الإسلام في الداخل والخارج ، لاسيما وأنه
مدحه بالعدالة ، وحسن السيرة في الرعية ، والحزم وسداد الرأي ، وبعد النظر ،
والاجتهاد في تطوير البلاد في شتى المجالات ، وكأنه يرشده إلى التحلي بهذه
الصفات ، وأما مدحه لصديقه العريس ، وتهنئته له في تلك المناسبة السعيدة فمن
باب مدائحه القديمة ، والتقريبية فيها واضحة .

٣٣ - الأثابي : الجماعات ، والتوائم : الأزواج .

٣٤ - النوائب .

٣٥ - المغازل .

معانيه العصرية

أما المعاني العصرية التي زعم الشاعر أنه ضمنها شعره في هذه المرحلة فأوضح ما تتجلى فيه قصيدة الجاذبية ، التي قال في تقديمها : "وكان أول نظم نظمته في ذلك قصيدة أشرت فيها إلى مذاهب المتأخرين في الشعر بصيغة الإنكار وشيبت ذلك بالمعاني الجديدة التي تعطيها الفنون والصناعات العصرية." ³⁶ وفي هذه القصيدة يذكر من أسماء المخترعات والحقائق العلمية ومصطلحات الفنون الحديثة أسلاك البرق ، والآلة الراصدة التي تقرب البعيد (التلسكوب) والصورة الشمسية ، والموجب والسالب ، والدورة الدموية ، وتشكل السحب الماطرة من الأبخرة الصاعدة من المحيطات والبحيرات والأنهار ³⁷ كما يتحدث عن بعض النظم والمفاهيم الجديدة مثل البرلمان ، والمدنية ، والحرية ، ويمدح السلطان عبد الحميد بجهوده في تطوير العلوم المختلفة في المملكة فيقول : ³⁸

لنفوسِ الجُمعيّةِ البشريهِ فاباحِ العمرانِ سرَّ الترقِي
 أيقظتْها الصناعاتُ العمليهِ فأفاضتْ ماءَ الزراعةِ عينَ
 أحرزتْ في مجالها السبقيهِ وأقامتْ لها التجارةَ سوقاً
 صوّحتْهُ البوارحُ الدهريهِ وبغيثِ العلومِ أينعَ روضُ
 منه عرّفَ المعارفِ الحكيمهِ فيه شِمنا شمسَ الهدى وشمِنا
 بارتقاءِ الصِّناعةِ الطبيهِ ووجدنا جسمَ الوجودِ صحيحاً
 من زوايا الفنونِ كلِّ خبيهِ ورياضيِّ فكرهِ ظلَّ يبيدي
 بل عرّجنا للقبّةِ الفلكيهِ وتدلتْ زهُرُ النجومِ إلينا

وفي مقدمة المقصورة الرشيدية يشرح السيد رشيد رضا بإسهاب سنة الزوجية الكونية ، فيذكر أن الصخور تولدت من اقتران الماء والتربة ، وحباب الماء من تعاكس الماء وتيار الرياح ، والكهرباء من تلاقي الموجب بالسالب ، والمطر من

^{٣٦} - المنار: ١٩٣/١١/١

^{٣٧} - السابق: ١٩١/١١/١

^{٣٨} - المنار: ١٩٣/٢٤/١

تلاقح المعصرات والرياح ، وهكذا ، كما يذكر امتصاص الأشجار للكربون ، وانبعاث الأكسجين منها.³⁹

هذه هي المعاني العصرية التي استفادها رضا من الفنون والمعارف العلمية والفلسفات والمبادئ والنظم الحديثة ، والآلات والاختراعات التي توافرت في عصره.

الخصائص اللغوية والأسلوبية

بناء القصيدة

هناك ظاهرة أسلوبية تجلت في شعر هذه المرحلة ، وهي أن قصائده يمهد لها بمقدمة ، قبل الدخول في الموضوع ، أو الغرض المنشأ لها ، فقصيدة الجاذبية بدأت بمقدمة غزلية طويلة ، والقصيدة الجمالية افتتحها بمقدمة تحدث فيها عن همه وتفكره في حال الأمة ، تخلص منها بقوله :⁴⁰

لئن هَامَ في حُبِّ الحِسانِ فإني بحُبِّ جَمالِ الدينِ لا الجِسمِ هائمٌ

واستهل المقصورة التي أنشأها في تهنئة عريس بمقدمة طويلة في الثناء على الله ، والتدبر في عجيب صنعه ، وبديع خلقه ، وانتقل منها إلى وصف روضة ، فوصف كتاب ، وهذه من رسوم القصيدة التقليدية ، استصحبها رشيد في شعره العصري ، مما يدل على أن العصرية عنده لا تتنافى مع هذه التقاليد الفنية القديمة وإنما كان يريد التجديد في المضامين والمعاني ، وليس من المعروف ما إذا كانت هذه الظاهرة الأسلوبية خاصة بهذا القسم من الشعر الذي سماه (بالشعر العصري) أم كانت موجودة كذلك في شعره التقليدي ، الذي لم يتيسر الاطلاع على مطالع قصائده ، لأنه لم يورد منه إلا نماذج مختارة.

³⁹ - السيد رشيد رضا: ٢٨٥ ٢٨٧

⁴⁰ - المنار: ١٨٦/١٢/٢

اللغة

تحتوي لغة رشيد في هذه المرحلة على قدر غير قليل من غريب اللغة ، فسر بعضه ، ومعظمه يقع في كلمات القافية ، كأنه أُلجئ إليها ، فمن بين عشر كلمات فسرها من القصيدة الجمالية ، وقعت ست منها في القافية ، ويكثر الغريب كذلك في المقصورة ، لأنه عارض بها مقصورة ابن دريد اللغوي ، ولما عهد من حشو الغريب في قصائد الرجز ، ولطولها الذي اقتضى من رشيد رضا أن ينفذ فيها كل الكلمات المقصورة في القاموس العربي بعد التتقيب عنها ، ولذلك تمنى رشيد أن تتاح له فرصة يشرح فيها ، لما توقع من كثرة الغريب فيها ^{٤١} ومع هذا فإنها أقرب إلى السهولة ، بل هي سهلة في عمومها ، وما فيها من الغريب يكاد ينحصر في الكلمات المقصورة الواقعة في القافية كما سبقت الإشارة إليه.

الصورة الأدبية

تقتضي الوجهة الجديدة التي اتجه إليها رشيد في هذه المرحلة ، وهي إدخال المعاني العصرية في شعره أن يستمد صوره البيانية من محيط هذه البيئة المعاصرة ليتلاءم المضمون مع الوسائل الفنية ، وهذا ما حاوله رشيد فيما اصطنعه من الاستعارات والتشبيهات كما يلاحظ في هذه الأبيات : ^{٤٢}

وتصيحُ الآذانَ تَسْتَرِقُ السَّمْعَ جَوَابًا يَأْتِي مِنَ الْعَامِرِيهِ
 قد أقامت لك الأمانِي سِلْكَاً لأداءِ الرسائلِ البرقيهِ
 إن نأى يُدِنُه الخيالِ مِنَ التمثيلِ في آلهِ له رَصْدِيهِ
 وعلامَ الوقوفِ حَوْلَ رُسُومِ دَارِسَاتِ ما ثَمَّ منها بَقِيهِ
 تُمَطِّرُ السُّحْبُ مِنْ عِيونِكَ ما تار بُخارًا عن ناركِ القَلْبِيهِ
 بَحْرُ دَمَعٍ وفُلْكَ جِسْمِكَ فِيهِ سَيَّرْتَهُ أنفاسُكَ الصَدْرِيهِ
 خَلَّ عَنكَ التَّمويهِ بالغِيدِ وأَسْلِمَ إنما الحُبُّ لَذَّةٌ وَهَمِيهِ
 قد أقامت على الحقائقِ سِتْرًا فاستَسرَّتْ نُجومَها الدُّرِيهِ

^{٤١} - المنار والأزهر: ١٨٤

^{٤٢} - المنار: ١٩٤/١١/١

حَجَبَتْ عَنْكَ شَمْسَهَا بِسَحَابٍ ظَلَّهُ قَامَ صُورَةَ شَمْسِيهِ

فقد استعار أسلاك البرق للخيال الذي تثيره الأمانى المعسولة ، فيناجى الشاعر محبوبته البعيدة عنه بخياله ، كما يتناجى البعداء ، ويتواصلون بواسطة الرسائل البرقية ، ثم يشتت خيال المحب فيستحضر صورة الحبيبة البعيدة ، ويدنيها من الحبيب ، كما تدني وتقرب الآلة الرصدية (التلسكوب) الأجرام البعيدة ، ويثبت لقلب العاشق المتيم نارا تبخر سوائل جسمه فتكون منها سحب تمطر عن طريق عيونه فيتحول مطر الدموع إلى بحر تجري فيه سفينة جسم العاشق بقوة أنفاس وزفرات صدره. وهكذا يحاول رشيد رضا أن يستمد صورته الاستعارية من معطيات وأدوات الحضارة الحديثة. وفي مدحه للسلطان عبد الحميد ، يشكل رشيد رضا صورا فنية عمادها التشبيه التمثيلي بأدوات من المحيط المعاصر ، وذلك كتشبيهه السلطان عبد الحميد وهيئة وكلائه ونوابه ومعاونيه ، الذين يصدرن عن أوامره ، ويستضيئون برأيه ، بالشمس ونظامها ، فمقام السلطان في حاشيته كمقام الشمس في الكواكب الدائرة في محيطها ، الجارية في فلکها ، المستمدة منها ضوءها وخصائصها :

سار في نهج ملكه وُكَلَاءَ مَثَلُوا نُورَ عَدْلِهِ لِلرَّعِيهِ^{٤٣}

بالشمسِ نظامها فيه دارت واستنارت سيارته بشريه

وكتشبيه دار الخلافة (المابين) وكونه مقصد الجميع ، ومحط الآمال ، والحركة الدائبة التي تجري حوله بصورتين إحداهما مألوفة ، والأخرى لا تخلو من جدة وطرافة ، أما الأولى فالكعبة المشرفة المعمورة دائما بالقاصدين الطائفين من الحجاج والمعتمرين والزائرين ، والثانية مركز الجاذبية ، الذي ينتهي إليه ، وتحيط به كل الأجسام المشاكلة له :

فكأن المابين والناس ما بين مُجَدِّ سَعِيَا وَذِي بَطْنِيهِ^{٤٤}

كعبةٌ والحجيجُ من كل فجٍّ يَنْتَحِيها أو مَرَكْزُ الجَازِبِيهِ

^{٤٣} - المنار: ١٩٦/١١/١

^{٤٤} - السابق: ١٩١/١١/١

ومن صورته التشبيهية العصرية ، تشبيهه حبه الدائم للأمير محمد باشا ، الصادر إليه من كل عضو من أعضاء جسمه بالدورة الدموية ، في تسلسلها وانتظامها في جميع أجزاء الجسم :

ويكُلِّي تَسْلُسَلْ لَه وُدِّ دَار فِيه كَالدَّوْرَةِ الدَّمَوِيهِ

ويلاحظ أن قصيدة الجاذبية قد حوت الكثير من المعاني والصور العصرية أكثر من غيرها ، كما أنها أول قصيدة طبق فيها مذهب الجديد بضرورة عصرنة شعره بملاحظة مقتضيات العصر ، ومعطيات علومه ومعارفه ، مع المحافظة على متانة الأسلوب وجزالة اللفظ ، كما يقول فيما يشبه خاتمتها :^{٤٥}

هَآك بَكَرًا جَاءَتْ بِمُبْتَكِرَاتٍ مِنْ مَجَانِي جَنَاتِهَا مَعْنَوِيهِ
أَشْرِبْتُ رِقَّةَ الْحَضَارَةِ لَكِنْ رُوِيَتْ بِالْجَزَالَةِ الْبَدْوِيهِ
أُعْجِبْتُ بِالْمَدِيحِ فِيكَ فَقَامَتْ تَتَهَادَى كَأَنَّهَا حُورِيهِ
رَامَتْ الْخُلَى فِي الثَّنَاءِ فَلَبَّتْهَا عُقُودُ الْكَوَاكِبِ الدَّرِيهِ
فَبَدَتْ تَتَحَيَّ عُلَاكَ وَنَاهِيكَ بَبَادٍ أَوْفَى عَلَى الْمَدَنِيهِ
تَسْتَمِيحُ الرِّضَا لِكِي تَغْتَدِي رَاضِيَةً عِنْدَ رَبِّهَا مَرَضِيهِ

المحسنات البديعية

لا يبدو أن السيد رشيد رضا يعنى بتحلية شعره بالمحسنات البديعية المجتلبة ، وتعتمد تصيدها ، وما يوجد منها فيه جاء دون استكراه ، وأكثر ما يكون ذلك الجناس والاقتراس من القرآن والحديث ، وكلاهما ينم عن قوة ثقافته اللغوية والدينية ، فمن ذلك :

الجناس :^{٤٦}

(رقيقا - رقيق) (شمنا - شممنا) (عذبا - عذابا) (التحديق - الحدائق) (عرف المعارف) (قرب - القرابة) (النبوة - البنوة) (دار - دورة) (قصور - قصور)^{٤٧}
(الظهور - الظهور)^{٤٨} (روض - أريض) (الإدارة - الإرادة)

^{٤٥} - السابق: ١٩٦/١١/١

^{٤٦} - المنار: ١٥٤/١١/١ ، ١٧٦/١١/٢

^{٤٧} - أحدهما جمع قصر ، والآخر بمعنى التقصير.

الاقتباس :

- فقال ائلا لا تلقوا فبسملت قارئاً ولا تياسوا من روحه فهو راحم
اقتباسا من الآيتين الكريمتين : قوله تعالى (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) ^{٤٩} وقوله
تعالى : (وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ) ^{٥٠}

- وضل على علم فإلهه هواه وتلك الواجبات المحارم
اقتباسا من قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) ^{٥١}
- يدلبيه شيطان العدا بغروره وللوهم سلطان على النفس حاكم
اقتباسا من قوله تعالى : (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) ^{٥٢}

الخصائص الموسيقية

لم يخرج رشيد رضا في هذه المرحلة أيضا عن نظام القصيدة العمودية في
الأوزان والقوافي ، بل حافظ على المتعارف عليه في موسيقى القصيدة العربية
التقليدية ، فجاءت قصيدة الجاذبية بائية من بحر الخفيف ، والقصيدة الجمالية من
بحر الكامل ، وقافيتها اللام المضمومة ، والقصيدة التي مدح بها السلطان عبد
الحميد الثاني من بحر البسيط ، بقافية الياء المشددة ، وأما المقصورة الرشيدية فمن
بحر الرجز ، وقافيتها الألف المقصورة.

^{٤٨} - أحدهما جمع ظهر ، والآخر مصدر ظهر.

^{٤٩} - سورة البقرة : ١٩٥

^{٥٠} - سورة يوسف : ٨٧

^{٥١} - سورة الجاثية : ٢٣

^{٥٢} - سورة الأعراف : ٢٢

المطلب الثالث : شعره في آخر حياته (ديوان السيد)

أما القسم الثالث من شعر رشيد ، الذي ميزناه عن القسمين السابقين ، اللذين سمى أولهما بالشعر التقليدي ، وسمى الثاني بالشعر العصري ، فهو الذي تضمنه ديوانه الوحيد الذي سماه (ديوان السيد) ، وقال في تمهيده : "فكرة اختمرت في نفسي ، وكمنت في ثنايا الضلوع ، وسرت مع الدم في الشرايين .. دموع هي خلاصة دم القلب ، تحدرت من العيون ، فكان منها المداد جرى به القلم على صفحات القرطاس .. ليس ديواني طاقة من الزهور المنسقة أو تحفة أدبية مصنوعة .. كلا ، لا هذا ولا ذلك ، بل هي دموع تفجرت ينابيعها ، وقلب فاضت زفراته." ^{٥٣} وقال في ختامه (كلمتي) : "نعم انتهيت من ديواني الأول "ديوان السيد" - الحمد لله - وها أنت تقرؤه الآن أيها القارئ الكريم ، ولعلك تجد فيه ما تصبو إليه نفسك ، ويتحرك له شعورك ، وهذا مبتغاي. وإلا .. فحسبي ما قمت به من مجهود يعجز مثلي عن القيام به ، وما كان هذا إلا إرضاء لضميري ، وإظهارا لشعوري." ^{٥٤}

الرؤية الشعرية

في هذين النصين السابقين ما يشير إلى طرف من الرؤية الشعرية الجديدة التي انطلق منها رشيد في ديوانه ، فهو شعر جاء بعد تجربة شعورية اختمرت في نفسه ، وكمنت في ثنايا ضلوعه ، وسرت مع الدم ، إنه وليد معاناة شعرية حقيقية وليس شعر مناسبات اجتماعية لا يسنده إلا شعور باهت مصطنع ، ولا شعرا يقصد به خدمة مذهب أو فلسفة معينة ، ولا كان تطبيقا شعريا لفكرة أدبية لم تخامر شعور الشاعر ، ولم تلامس شغاف قلبه ، ليولد أشبه ما يكون بتحفة أدبية مصنوعة كما قال. إنه شعر يعبر عن ذات صاحبه ، لم يكن باعته إلا إرضاء لضمير الشاعر ، وإظهارا لشعوره الذي طفق به الكيل ، وهو شعر "قوامه الرؤيا الذاتية إلى الأشخاص ، والأحداث ، وأشياء الكون ، والوجود." ^{٥٥}

^{٥٣} - ديوان السيد: ٣

^{٥٤} - السابق: ٩٠

^{٥٥} - الفن والأدب ، د. ميشال عاصي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، الطبعة الثانية ، ص ١٩٧٠م ، ص ١٤٢

الخصائص المعنوية :

تكاد أغراض الديوان الذي حوى ثلاثين قصيدة ، تتراوح ما بين قطعة من خمسة أبيات ، وقصيدة من أربعين بيتا تنحصر في غرضين رئيسيين ، وهما الوطنيات والوجدانيات ، فأما شعره الوطني فهو الذي يقفه على قضايا الوطن ، التي من أهمها تحريره ، وطرد المستعمر منه ، ويحتمس به المقاومة ، ويحثها على التضحية من أجله ، والجهاد في سبيله تحت راية الإسلام : ^{٥٦}

قَمِ لِلْعُلَا وَارْفَعِ عَنِ النَّفْسِ الصَّغَارِ وَارْفَعِ لِيَوَاءِ الدِّينِ بَيْنَ الْعَالَمِينَ

لأن هذا ما نال به الأجداد المجد والعزة والرفعة ، ومن ساوره الشك في ذلك فما عليه إلا أن يقرأ التاريخ ، ويستنتق شواهدا : ^{٥٧}

بِزَيْنِيَا سَلِّهَا وَسَلِّ غَرْنَاطَةَ عَنِ خَيْرِ مَجْدٍ لِلغَزَاةِ الظَّافِرِينَ
سَلِّ قُبْرُصَا سَلِّ رُودِسَا وَالْقَيْرِوَا نَ وَقُرْطُبَا وَالْقَادِسِيَّةَ وَالْحُصُونِ
سَلِّ خَالِدَا سَلِّ طَارِقَا سَلِّ سَعْدَكُمْ فَتَكَتْ سَيُوفُهُمْ بِجَيْشِ الْكَافِرِينَ
بُرْنَايَ سَلِّ أَبْطَالَهَا فِدْمَاؤُهُمْ ذَكَرَى لِنَصْرِ الْعَافِقِي عَلَى السِّنِينَ

وهو إذ يحث على المقاومة والجهاد ، لاستعادة سيادة وطن الآباء والجدود ، يستثير نخوة الأبطال ، ويستدر حماسهم بتذكيرهم بأن الأعاجم تعيث في أرضهم الفساد ، وتسوم أبناء يعرب وقحطان الذل والهوان : ^{٥٨}

هَذِي بِلَادُكَ لِلْأَعَاجِمِ سِلْعَةً كَمْ سَامَهَا نَذْلٌ وَكَمْ فِيهَا اغْتَدَى
أَيْنَ الرِّجَالُ وَأَيْنَ مِنْهُمْ يَغْرُبُ أَيْنَ الشُّعُورُ الْحَيُّ أَيْنَ تَبَدَّدَا
أَفْلَيْسَ مِنْ قَحْطَانَ أَصْلُ دِمَائِكُمْ أَفَيُقْبَلُنْ قَحْطَانُ أَنْ يُسْتَعْبَدَا

ويصف رشيد بكل ألم المعركة التي دارت بين الجيش الفرنسي المهاجم ، وبين المقاومة السورية في مدينة دمشق عقب الحرب العالمية الأولى ، فيصور هولها ،

^{٥٦} - ديوان السيد: ١١

^{٥٧} - السابق: ١١

^{٥٨} - السابق: ١٤

وظفاعة ما ارتكبه المحتل من الجرائم ، وما أحدثه فيها من دمار وسفك للدماء
بأسلحته المتطورة الفتاكة : ٥٩

ما للرصاصِ تَنَثَّرَتْ وَحَدَاتِهِ ما للمدافعِ قَدِ تَطَايَرِ نَارُهَا
ما للقذائفِ جَدَلَتْ أُسْدَ الشَّرَى شِيْباً وَشُبَاناً طَوَتْ نِيرَانُهَا
ما للدخانِ تَكَاثَفَتْ طَبَقَاتُهُ حَجَبَ السَّمَاءِ مُشْرِداً عُقْبَانُهَا
ما للجبالِ التَّانِكُ يَصْعَدُ فَوْقَهَا كَالسُّلْحَفَاةِ تُرَى يَدْبُ دَبِيبُهَا
ما للجِيَادِ تَخَاذَلَتْ فُرْسَانُهَا والطَائِرَاتُ تُجْدُ فِي تَبْدِيدِهَا

ويعسر الألم قلبه ، عندما يجد نفسه بعيدا عن ساحات القتال في الوقت الذي يكون
فيه الوطن بأحوج ما يكون إلى كل أبنائه للدفاع عنه : ٦٠

والأَرْضُ قَدِ مَادَ فِيهَا كُلُّ رَاسِيَةٍ مِمَّا أَصَابَ رِجَالَ الْعُرْبِ فِي الشَّامِ
النَفْسُ ثَائِرَةٌ وَاللَّهُ يَا وَطَنِي وَالْبُعْدُ عَنْكَ يَزِيدُ الْيَوْمَ تَهْيَامِي
قَلْبِي سَقِيمٌ وَأَحْشَائِي مُمَزَقَةٌ وَالْعَيْنُ فِي أَرْقٍ مِنْ جَوْرِ أَيَامِي

كما يندد بفرنسا ؛ المحتل الغاشم ، ويهدد ويتوعد لها بالويل ، وأنها ستصطلي بنار
المقاومة ، ولن تجني من عدوانها على البلد الحبيب إلا الخسارة : ٦١

إِيهِ فَرَنْسَا ضَلَّ سَعْيُكَ فَاحْذَرِي نَاراً يَطِيرُ شَرَارُهَا وَسَتَنْدَمِي
وَسَتَصَلِّيَنَّكَ يَا فَرَنْسَا نَارَهَا وَلَتَسْقِيَنَّكَ مِنْ نَقِيعِ الْعَلَمِ

ومما يستثير به حمية المقاومة ، ما يقوم به المحتل من نهب خيرات البلد ، وثورته
الطبيعية ، واستنثاره لها ، دون أبناء البلد : ٦٢

فَلِمَ التَّعَافُلُ وَالتَّكَاثُلُ وَالْوَنَى وَيَلَادُنَا لِلْعُرْبِ خَيْرٌ نِتَاجِهَا
فَبِلَادِهِ عَزَلَتْ لَنَا أَقْطَانَنَا نَسَجَتْهُ أَيْدِي الْعَامِلِينَ بِأَرْضِهَا
وَأَعَادَتْ الْمُنْسُوجَ يَزْهُو لَوْنُهُ وَابْتَزَّتْ الْأَمْوَالَ فِي أَرْبَاحِهَا

كما يندد بالموالين للاستعمار ، الذين يستخدمهم في بسط سلطانه ، وبطش أبناء
البلد ، ويرميهم بالخيانة والعقوق ، وينفي عنهم الوطنية الحققة : ٦٣

٥٩- ديوان السيد : ٢٤

٦٠- السابق : ٥١

٦١- السابق : ٤٤

٦٢- السابق : ٦٤

٦٣- ديوان السيد : ٨١

وطنَ العُروبةَ كمَ تَصَافِرَ خَائِنٌ معَ خَائِنٍ لَلْفَتَاكَ فَيَكُ وَذَبْدَبَا
 وطنَ العُروبةَ كمَ عَفُوقِ خَبٍّ فِي بَحْرِ العِمَايَةِ فِي الضَّلَالَةِ كَبْكَبَا
 وطنَ العُروبةَ كمَ دَعِي يَنْتَمِي زُورًا لِمَجْدِكَ كَمَا يَكُونُ مُحَبِّبًا
 وطنَ العُروبةَ كمَ خَوْوُنَ خَادِع قَد بَاعَ أَرْضَكَ لِلغَرِيبِ وَحَبِّبَا
 وطنَ العُروبةَ كَيْفَ يَجْسُرُ مُؤَمِّنٌ بَكَ أَنْ يَخُونَ عُهُودَ وَدِكَ رَاغِبَا
 لَيْتَالَ حَظًّا مِنْ دَخِيلٍ غَاصِبٍ يُعْطِيهِ مَا يَهْوَى وَيَهْوَى الْمَنْصِبَا
 فَيَسُومَ خَيْرَ مُوَاطِنِيهِ تَعَسُفًا ظُلْمًا وَيُظْهِرُ فِيكَ حُبًّا كَاذِبَا

وتصيب الديار الشامية ، وهي بعد في ظل الاستعمار بعض التقدم ، فيطرب له الشاعر ، ويحيي الشباب ، الذين تحققت على أيديهم هذه النهضة ، لكن يحذرهم من الركون إلى هذا التطور النسبي ، وأن يغفلوا عن القضية الكبرى ، وهي تحرير الوطن ، وطرده المستعمر ، ويذكرهم بأن تحرير الوطن منوط بإرادتهم ، التي لا تقهر ولا تغلب إذا ثارت : ^{٦٤}

وَأَنْظِمَ قَصِيدَكَ آيَاتٍ يُخْلِدُهَا فِي سُورِيَا الْمَجْدِ لَمَّا شَبَّ وَازْدَهَرَا
 أَعْلَامَ نَهْضَتِهَا قَدْ رَفَرَفَتْ وَعَدَّتْ تُجَلِّي لِنَاظِرِهَا مَا كَانَ مُسْتَتِرَا
 هَذَا الشَّبَابُ أَرَاهُ الْيَوْمَ قَدْ نَهَضَتْ بِهِ الْحَوَادِثُ فَالشُّبَّانُ أُسْدُ شَرِيَّ
 سَلِ النُّفُوسَ إِذَا مَا ثَارَ ثَائِرِهَا هَل تَرْتَضِي بَدَلًا عَنْ حَقِّهَا الدُّرَا
 لَا وَالَّذِي تَمْلِكُ الْأَكْوَانَ قَبِضَتُهُ إِنَّ الشَّبَابَ إِذَا مَا أَقْدَمَ انْتَصَرَا
 فَدَعِمُوا بِدَمِ الْأَحْرَارِ نَهَضَتَكُمْ لَا تَظْهَرُوا لِلْمَلَا خَوْفًا وَلَا ضَجْرَا

والغرض الثاني الذي استبد بشعر رشيد في ديوانه ، هو شعره الوجداني ، الذي يقف فيه مع نفسه ، ويتأمل فيه حظه من كفاحه ، ويعبر فيه عن همومه الخاصة به ، وهذا اللون من شعره يطبعه الحزن ، ويغلب عليه الأسى ، وتسمه الشكوى المريرة من حظ الشاعر النكد ، في حياة الغربة في مصر ، وكان قد قدم إليها لطلب مستقبل أفضل ، وكان أمله الذي يريد تحقيقه ، والذي هاجر من أجله ، وكافح في سبيله ، هو أن ينعم بحياة سعيدة هانئة ، وأن يصيب في مصر مجدا يبوئه مكانة مرموقة ، تؤهله لقيادة المجتمع العربي والإسلامي ، وكان هذا من أهم

مطلبية ، وأعز مقصديه ، لأنه كان يطمح إلى أن يخلف أستاذه الإمام محمد عبده ، في الزعامة الدينية ، ولم يكن ينقصه العلم ولا الحماسة والجهد لبلوغ هذا الهدف ، غير أن هذا الحلم لم يتحقق له على النحو الذي أراده ، ربما لأنه كان غريبا ، أو لأنه كان دون أستاذه في مواهبه القيادية ، فساءه ما فاتته من ذلك : ^{٦٥}

إذ بتُّ مُرتَقِبًا نَجْمَ السَّعَادَةِ فِي شَتَّى الْمَوَاقِفِ مِنْ بُعْدٍ وَمِنْ أَمَمٍ
أَرْجُو الْحَيَاةَ نَعِيمًا فِي جَوَانِبِهَا وَالْمَجْدُ مُطْلَبِي مِنْ غَايَةِ النِّعَمِ
فِيهِ الشِّفَاءُ لِنَفْسِي بَتُّ أَرْقُبُهُ بَيْنَ السَّوَانِحِ وَالْفَيْنَاتِ مِنْ قِدَمِ

لكن نوائب الدهر وغوائل الزمن حالت دون رشيد وما كافح من أجله السنين الطوال ، من اعتلاء ذروة المجد. ^{٦٦}

كَمْ عَرَكْتُ الدَّهْرَ فِي هَذِي الْحَيَاةِ وَسَبَّرْتُ الْعَوْرَ فِي شَتَّى الشُّؤُونِ
وَأَرَدْتُ الْمَجْدَ أَعْلُو هَامِهِ غَيْرَ أَنَّ الدَّهْرَ غَدَارٌ مَجُونِ

ويرفض رشيد الاستسلام ، بل يصر على بلوغ الأمل ، وتحقيق المنشود ، مهما بهظت التكاليف ، وتوعرت المسالك : ^{٦٧}

كَمْ خَانَنِي زَمَنِي وَالدَّهْرُ يَمْنَعُنِي عَنْ أَنْ أَشِيدَّ صَرَخَ الْمَجْدِ تَشْيِيدًا
لَكُنِّي أَبَدًا بِالْجِدِّ مُعْتَصِمٌ مَهْمَا رَأَيْتُ مِنَ الْأَيَّامِ تَنْكِيدًا

وظل يبحث عن أمله في كل مكان ، وبشتى الوسائل ، برغم العراقيل التي تشتت جهده ، وتضلل سعيه ، وتصيبه بالحيرة والإحباط : ^{٦٨}

نَادَيْتُ يَا أَمَلِي أَيْنَ الْمَقَامُ لَكِي أَسْعَى إِلَيْكَ عَلَيَّ عَيْنِي بِلَا مَهَلٍ
أَفِي السَّمَاءِ مَقِيمٌ أَمْ بِبَادِيَةِ أَمْ فِي الْخَفَا أَمْ تُرَى فِي ذِرْوَةِ الْجَبَلِ
إِنِّي وَحَقِّكَ لَا أَحْيَا بِلَا أَمَلٍ أَخْطُو خُطَاكَ وَلَوْ تَخْطُو إِلَى رُحْلِ

ثم استولى عليه التبرم ، ونال منه طول الطريق ، وبعد الشقة ، فزار بقوله : ^{٦٩}

بِاللَّهِ يَا أَمَلِي كَمْ بَتُّ مُرتَقِبًا مِنْكَ الْوِصَالَ فَهَلَا جُدْتَ يَا أَمَلِي
قَلَّ لِي بِرَبِّكَ مَا ذَنْبِي تُعَذِّبُنِي بِالْهَجْرِ وَالْبُعْدِ لَمْ تَرَحِّمْ وَلَمْ تَصِلْ

^{٦٥} - ديوان السيد : ٣٨

^{٦٦} - السابق : ٨٦

^{٦٧} - السابق : ٥٦

^{٦٨} - السابق : ١٥

^{٦٩} - ديوان السيد : ١٥

ثم يبلغ به اليأس مبلغاً جعله نهبا للحزن والأسى ، فقد تضافرت عليه الأزمات ؛ أزمة الضيق المعيشي ، وطول الغربة ، وإعراض وخذلان من يجاريه ، عندما كان حظه أحسن ، وماله أوفر ، بل يتعرض لاضطهاد البعض من أصحاب الأرض ، لأنه غريب ، ولمواقفه التي لا تواتيهم ، لأنهم يريدونه تابعا لا متبوعا: ^{٧٠}

ما أرى يا دهرُ إلا أني
بين كأسين اضطباحٍ واغْتَباق
كلما أهرقت صباحاً جرعةً
أرسلتها في المساء كأساً تراق
أقل السعد وحلت بعده
كربة العيش بنأيٍ واقتراق
وتوالت بعد هذا محنٌ
صيرت مني الحشا نضو اختراق
خانني الدهرُ وقد أمّلتُه
خانني الدهرُ وخانتني الرفاق
من مجيري يا إلهي من أسى يا بني الدنيا إلى الله المساق
قد كفاني يا إلهي ما أرى من عذابٍ وشقاءٍ واخْتِناق
من هُمومٍ وشجونٍ سَعرتِ واضطهادٍ بين خُلفٍ وشِفاق
ضِقتُ ذرعاً بالذي أعيا الورى
عبدَ الحرَّ لأرباب النفاق
ليس ذنبي يا إلهي غير أن لا أحابي لا أرائي لا ارتزاق
لي ضميرٌ عاش حياً يقظاً لست أرضى عيشَ ذلٍ لا يُطاق

وكان تخلي بعض أصحابه عنه في ساعة الشدة والحاجة من أوجع ما شكى منه رشيد ، فإن بعض من كان يثق فيهم ، ويرجو اتصال مودتهم ومساعدتهم له ، لم يثبتوا معه عندما تغيرت ظروفه ، وتكاثرت عليه المشاكل ، فانفضوا من حوله ، فضاعف ذلك همه وغمه : ^{٧١}

^{٧٠} - السابق: ٢٧

^{٧١} - السابق: ٥٧

هلا نظرت إلى من كان يصحبني يوم النعيم وقد أوردته الجودا
 قد كان لي عضدا يمسي ويصبح في شتى المواقف يوليني المقاليدا
 لكنه اليوم أمسى نائياً عجباً قد أنكر الود إذ لم يوف موعودا
 يا غارة الله قد عق الصداقة مذ ولّى النعيم وصار العيش منكودا
 ضلّ الزمان وخان الصّحب لست ترى إلا المنافق يزجيك الأناشيدا
 وانتهى حال رشيد في نهاية الأمر إلى طريق مسدود ، لا أمل في تخطيه وتجاوزه
 فأسقط بين يديه ، وأصبح فريسة للهموم ، وتضاعل أمله ورجاؤه لأن الظلمات
 الحالكة أحاطت به من كل جهة حتى غطت على ضوء نهاره ، فالجسم سقيم ،
 ومصائب الدهر متوالية ، والبؤس تمكن منه ، بعد أن اغتال أمله ٧٢

هذي الحياة بها أصبحت منكودا والجسم من سقم قد صار مكدودا
 وهكذا الدهر يوليني مصائبه واستنزف الدمع من عيني ترديدا
 واغتال من أملي ما كنت أرفبه وخانني الحظ فيما كان منشودا
 تلك المآسي وآلامي ثروعي والبؤس أفرغ في نفسي أغاريدا
 هذا الظلام أراه حالكا عجباً الشمس زاهية ما رمت تأكيدا
 أرى مصابي من دهري يخيل لي نورا تحيط به الظلماء ممدودا
 ثم لا ينتظر إنصافا ، ولا حكما عادلا من أحد ، هذا ما علمته التجارب ، وشهد به
 التاريخ ، فلا جرم أن ينتظر مع سائر الضعفاء عدالة السماء يوم لا عدل إلا عدله
 سبحانه وتعالى : ٧٣

أين عدل حُجبت آياته عن ضعيف حطمته الأقوياء
 ما عرفنا العدل يوما بيننا كم تمنينا من العدل الوفاء
 فاطرخ يا صاح من أسنمالي وتجلد واقطعن منه الرجاء
 لا ترى من غاية منشودة باسم عدل تاه فيه الحكماء
 وانتظر إن رمته حقا يرى يوم لا عدل سوى عدل السماء
 يوم تلقى النفس ما قد قدمت لإله العرش من حسن الولا

٧٢ - ديوان السيد : ٥٤

٧٣ - السابق : ٢٩

ومن حكم رشيد الذي هدته إليها طول التجارب أن الهوة سحيقة دائما بين الأمالي والمأمول الذي لا يستجيب لكل أمل وراغب ، ولا ينقاد إلا لأولي العزائم الفولاذية: ^{٧٤}

يلعبُ الدهرُ بآمالِ الفتى وأمانِي العُلا دُرَّ مَصُون

بينما النفسُ تَرى في ساجِها مُبتَغى الآمالِ في كافٍ ونون

ويتوجه رشيد أخيرا إلى الدهر مستعظفا ومسترحما ، راجيا منه أن يخفف عن بعض همومه ، وينيله شيئا من آماله ، حتى لا يظل مرتطما بصخر الحياة طول حياته:

٧٥

أَظُلُّ مُرْتَطِماً عَلَى صَخْرِ الْحَيَاةِ أَلَّا تَرَى صَخْرَ الْحَيَاةِ تَأْفُفَا

وَلَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْحَيَاةِ وَكُنْهَافَا مَنِ فَهَلَّا جِنْتَنِي لِتُخَفِّفَا

فَلَقَدْ كَفَى يَا دَهْرُ مَا قَاسَيْتَهُ وَلَأَنْتَ أَعْلَمُ فَارْحَمْنِي قَدْ كَفَى

الخصائص اللغوية والأسلوبية

لغة الديوان

لغة الديوان سهلة وواضحة ، ويكاد يخلو من الكلمات الغريبة ، التي تحوج القارئ إلى الرجوع إلى معاجم اللغة ، ولهذا خلا الديوان من الهوامش التفسيرية ، ولعل طبيعة موضوعات الديوان الوطنية والاجتماعية والوجدانية غير العميقة تقتضي هذا التبسيط اللغوي ، كما أن رؤية رشيد الشعرية في هذا الديوان ، التي لا تراعي إلا مشاعره وضميره ، أثار كذلك في عدم احتفاله بما كان يدعو إليه من إحياء موات اللغة بالاستعمال في اللغة الأدبية المعاصرة.

بناء القصيدة

من خصائص شعر رشيد الذي حوى ديوانه أنه قصير النفس ، قليل الأبيات فمن بين ثلاثين قصيدة ومقطوعة ، هي مجموع ما في الديوان ، لم يتجاوز ثلاثين بيتا إلا قصيدتان ، إحداهما أربعون بيتا ، وهي أطول ما في الديوان ، والأخرى اثنان

^{٧٤} - ديوان السيد: ٨٧

^{٧٥} - السابق: ٨٩

وثلاثون بيتا ، وفيه مقطوعة من خمسة أبيات ، وأخرى من ثمانية أبيات ، والباقي يتراوح ما بين عشرة أبيات وثمانية وعشرين بيتا.

النزعة الخطابية

من الظواهر الأسلوبية البارزة في شعر رشيد في ديوانه ميله إلى الخطابية لا يستثنى من ذلك شعره الوجداني ، وقصائده الغزلية ، حتى شعره الذي مدح به الأزهر وشيخه لا يخلو منها ، فهذه السمة عامة في هذا الشعر كله ، وأمارة الخطابية تتجلى في استخدامه الكثير للأساليب الإنشائية ، سواء الطلبية منها كالأمر والنهي والاستفهام والنداء ، أم الخبرية كأسلوب التعجب ، وأسلوب المدح وكم الخبرية ، التي أكثر من استخدامها بطريقة لا فته للنظر.

ويذكر أحد الباحثين أن الخطابية سمة تطبع شعر عهد النهضة والإصلاح فيقول : "يبدو أن النزعة الخطابية ، والطريقة المباشرة هي من أبرز سمات شعر عهد الإصلاح ، ولعل هذا يعود إلى أن أغلب الشعراء كانوا أصحاب رسالة ، يتوجهون بها إلى الجماهير الشعبية ، فالشعر في تقديرهم ، وفي ظروفهم تلك كان يتخذ أداة للنهوض ، ووسيلة من وسائل الدعوة إلى الإصلاح".^{٧٦}

وهذا في شعر رشيد الوطني محتمل ، أما شعره الوجداني ، وما جرى مجراه فلا ينطبق عليه هذا التعليل ، والظاهر أن نفسية رشيد ، والظروف والمدة الزمنية التي أنتج فيها هذا الشعر كانت متشابهة ومتقاربة ، فلم يختلف أسلوبه في شعره باختلاف موضوعاته.

التكرار

من علامات التقريرية والخطابية في أسلوب رشيد في ديوانه التكرار ، وقد لجأ إليه رشيد كثيرا ، فكرر بعض العبارات كثيرا ، بطريقة قد تفيد دلالات تتجاوز مجرد التكرار التوكيدي ، وقد رصدت بعض ما كرره فوجدت الآتي :

١- كرر كلمات (العرب - يعرب - قحطان) خمسا وخمسين (٥٥) مرة.

^{٧٦} - رمضان حمودة ، الشاعر الثائر ، ص ٣٩

٢- كرر كلمة (المجد) إحدى وأربعين (٤١) مرة.

٣- كرر كلمات (الوطن - البلد - الأرض) خمسين (٥٠) مرة

هذه هي الكلمات الأكثر دورانا في ديوان السيد ، تليها كلمات (الدم - الدهر - الأمل - الشرق - الشام وسوريا ودمشق)

نظمت قصائد هذا الديوان في فترة برز فيها الشعور العربي ، بصورة علت - حتى عند الإسلاميين - على الشعور الإسلامي العام ، وهي الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، التي قهرت فيها الخلافة الإسلامية ، ثم ألغيت ، ووقعت معظم الدول العربية تحت الاحتلال الأجنبي ، فكان من الطبيعي أن يغني رشيد رضا على وتر العروبة ، وهو يحمس المقاومة العربية ، ويستنهض الشعب العربي قاطبة على رفض الاستكانة والخضوع للاحتلال الغاشم ، وأن يذكرهم بمجد الآباء والجدود ، ومجد العروبة والإسلام ، ليتحمسوا للدفاع عن الوطن السليب ، والبلد الذي غلب على خيبراته الأجنبي المعتدي ، والشام وسوريا ودمشق من مفردات هذا الوطن ، الذي يجري في ساحاته الجهاد من أجل استعادته ، وتسيل فيه الدماء الزكية ، والشرق كان رمزا للأمم المستضعفة من قبل الغرب القوي بآلته العسكرية الجبارة ، ومعارفه الواسعة ، وعنجهيته وكبريائه.

وكانت معاناة رشيد ومقاساته ، التي رفع بها عقيرته في قصائد الشكوى في هذا الديوان ، بسبب ارتطامه بصخرة الحياة ، والتي وقفت حائلا منيعا ، بين دوافع آماله العظام ، ومنتبطات الدهر القاسية : ^{٧٧}

أَظْلُ مُرْتَبِطاً عَلَى صَخْرِ الْحَيَاةِ أَلَا تَرَى صَخْرَ الْحَيَاةِ تَأْفُفَا

فكان الدهر رمزا للخصم الذي يعاكس حظه ، ويغتال أمله ، ويأبى عليه الانطلاق في طريق بناء المجد ، وكان صراعه معه وشكواه منه سببا في تكرار كلمات الدهر والزمن.

ومن الخصائص المميزة لشعر الديوان أنه يرمز عن القوة بالأسلحة التقليدية القديمة ، فيطلب من الأبطال أن ينازلوا العدو بالسيف والرمح والنبل ونحوها من الأسلحة العتيقة ، مع أنهم كانوا مسلحين في الواقع بالأسلحة النارية الحديثة ، وهذا

يدل على أن رشيد رضا لم يلتفت في الديوان إلى ما كان يدعو إليه من استمداد المعاني العصرية من أدوات الحضارة المعاصرة.

الصور الأدبية

الصور الأدبية التي استعان بها رشيد في تجلية معانيه ، والتعبير عما يجول في خياله ، هي من النوع المألوف في مادتها وأسلوبها ، وقد ذكرنا أن رضا قد تخلى في شعره هذا عن نشدان المعاني العصرية ، واشتقاق وسائله البيانية من محيط البيئة الجديدة ، وأن هذا الشعر يمثل تجربته الخاصة على سجيتها ، دون مراعاة قيم فنية معينة ، أو رؤى شعرية لم تخالط شعوره ، ولم تلون خياله ولم تصبح بعد جزءاً من تجربته ، فإن وجد في صورته ما يشير إلى الجدة ، فبحكم التطور الطبيعي ، لا بسبب القصد إلى التحديث والمعاصرة ، كما كان شأنه في المرحلة السابقة ، وأكثر صورته البيانية الاستعارة^{٧٨} ، ومن صورته الاستعارية التي تشير إلى نوع من الجدة استعارة المجون لفعل الدهر في قوله :^{٧٩}

وَأَرَدْتُ الْمَجْدَ أَعْلُو هَامَةً غَيْرَ أَنَّ الدَّهْرَ عَدَارٌ مَجُونٌ

إن استعارة الاعتلاء الحسي للحصول على الشيء والتمكن منه استعارة مألوفاً ومطروقة ، أما استعارة المجون لفعل الزمن والدهر فليس أمراً مألوفاً ، وذلك أن المجون استهتار في الخلق والقيم ، وانحراف في السلوك ، فليس من المعهود أن يقول الشاكي من الدهر إن الدهر فاجر أو فاسق أو ماجن ، بل المعهود أن يقول إنه معاند ومعاكس وغادر أو خائن ، على معنى أنه لا يجد فيه مأموله ، وكأنه وعده بشيء ثم أخلفه في الوعد ، ولعل رشيداً اتخذ الدهر رمزاً لأولئك الذين وقفوا في طريقه ، وحالوا بينه وبين ما سعى إليه من المجد والسيادة ، ومنهم أصدقاؤه الذين خانوه ، وأعداؤه الذين ناصبوه العدا عياناً ، أو من خلف الكواليس ، فكان يخلع على

^{٧٨} - والصورة الاستعارية أنسب لشعره الوجداني في هذه المرحلة كما يقول أحد الباحثين : "إذا كان التشبيه - بمفهومه البلاغي القديم - قد ساد عند شعراء الكلاسيكية الجديدة ، لما فيه من قيم موضوعية متواضع عليها ، فإن الاستعارة كأداة تصويرية غلبت على النتاج الشعري عند الوجدانيين ، لما فيها من تكثيف عاطفي ، وما يستدعيه ذلك من خيال ، لتحقيق أغراضهم النفسية تحقيقاً جمالياً." انظر : التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية ، د.عدنان حسين قاسم ، مكتبة الفلاح - الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م ، ص ١٠٧

^{٧٩} -ديوان السيد: ٨٦

الدهر وهو يشكو منه صفات هؤلاء ، الذين قد يكون من بينهم الماجن والخائن كما
يصرح أحيانا أنه يريد هؤلاء : ^{٨٠}

خانني الدهرُ وقد أمَلْتُهُ خانني الدهرُ وخانتني الرفاق

فخيانة الدهر بخيانة أصدقائه الذين كان يأتهمهم ، ويعتمد عليهم في دهر مديد ،
ويشبه ذلك قوله : ^{٨١}

ضَلَّ الزَّمَانُ وَخَانَ الصَّحْبُ لَسْتُ تَرَى إِلَّا الْمُنَافِقَ يُزْجِيكَ الْأُنَاشِيدَا

فقد استعار الضلالة للزمن ، لضلالة من عاشوا فيه معه. وفي قوله : ^{٨٢}

ما لعيشٍ كَلَفَ النَّاسُ بِهِ قَدْ أَحَاطَتْهُ سُجُوفٌ وَفُتُونٌ

استعارة تستحق التأمل ، وهي أنه أراد تصوير نوع الحياة والمعيشة أو الترف
المعيشي ، الذي فتن الناس به ، فجسده واستعار له الستائر والفتون كناية عن الترف
، الذي قد لا يخلو من إثم لدلالة "الفتون" ، والسجوف أو الستائر من أمارات الترف ،
التي شاعت في هذا العصر.

ومن استعاراته المتداخلة قوله : ^{٨٣}

أَمْرَقُ أَحْشَاءَ الظَّلَامِ بِلَامِعٍ مِنَ الحُجَجِ البَيْضَاءِ فِي الفَخْرِ والسَّعْدِ

فقد استعار التمزيق لاجتهاده في الإبطال ، وأثبت للظلام أحشاء ، وللحجج لمعانا
وبياضا ، ثم ورى بالفخر والسعد عن الكتب التي استعان بها في رفع الجهل
والضلالة عن نفسه ، فهي صورة متراكمة ، تعبر عن اغتباطه بما وجده في الأزهر
الشريف من العلوم النافعة التي هاجر من أجلها ، واغترب في سبيلها.

ومن تصويبه الموحى قوله : ^{٨٤}

وهكذا الدهرُ يُولِينِي مَصَائِبَهُ واستَنْزَفَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِي تَرِيدَا

واغْتَالَ مِنْ أَمْلِي مَا كُنْتُ أَرْقُبُهُ وخانني الحظُّ فيما كان منشودا

تلك المآسي والآمي تروغني والبؤسُ أفرغَ في نفسي أَعَارِيدَا

هذا الظلامُ أراه حالكا عَجبا الشمسُ زَاهِيَةً ما رُمْتُ تَأْكِيدَا

^{٨٠} - ديوان السيد : ٢٨

^{٨١} - السابق : ٥٧

^{٨٢} - السابق : ٨٦

^{٨٣} - السابق : ٨٠

^{٨٤} - السابق : ٥٤

أَرَى مُصَابِيَّ مِنْ دَهْرِي يُخَيِّلُ لِي نُورًا تُحِيْطُ بِهِ الظُّلْمَاءُ مَمْدُودًا

فالاستعارات التي حشدها في هذه القطعة ترسم لوحة قاتمة من حظ رشيد رضا في أمله ، فقد اغتال الدهر أمله بعد مصائب متتالية ، استنزفت دموعه ، واستولى عليه الرعب من المآسي والآلام التي تحيط به ، وأفرغ في نفسه البؤس أغاريد الشقاء ، حتى استحال نهاره إلى ليل حالك ، وظلام دامس ، ولم يبق من آماله العراض وأمانيه العظام إلا خيط ضئيل تحيط به الظلماء من كل جانب ، وفي قوله ^{٨٥} : * وأفرغ البؤس في نفسي أغاريد * استعارة طريفة ، فكأن البؤس لما تمكن من نفس الشاعر ، وتغلب على مقاومته المعنوية ، احتفل لهذا الانتصار ، في داخل نفس الشاعر التي حطمها ، بإطلاق أغاريد الفرح والسرور .

وتغلب الحسية على تشبيهاته كقوله في تشبيهه : (التانك = الدبابة) بالسلحفاة في الشكل ، وربما في الحركة البطيئة : ^{٨٦}

مَا لِلجِبَالِ التَّانِكُ يَصْعَدُ فَوْقَهَا كَالسُّلْحَفَاءِ تَرَى يَدْبُ دَبِيْبُهَا

وتشبيه آلة حربية معاصرة بالسلحفاة يدخل في شرط شعره العصري ، ولكنه يتيم ، وبالمناسبة ذكر رشيد في قصيدة دمشق التي منها البيت السابق عدة أسماء لآلات حربية حديثة منها : (الرصاص - المدافع - القذائق - التانك - الطائرات) وهذا على خلاف ما قدمنا من أنه كان يرمز كثيرا عن القوة بالأسلحة القديمة ، لا الحديثة ، وهذا صحيح ، لأنه الغالب على خلاف هذه القصيدة ، التي مزج فيها بين الاثنين . ومن تشبيهاته المألوفة أيضا قوله : ^{٨٧}

هَذَا الشَّبَابُ دِمَاؤُهُ كَمَرَاجِلٍ تَغْلِي مِنَ الضَّغْطِ الَّذِي لَمْ يَهْمَدِ

وهو في حسيته كالسابق ، لأن عماده السمع ، وكذلك قوله في وصف سائل متسول ^{٨٨} :

أَحْشَاؤُهُ فِي جَوْفِهِ كَالنَّارِ مَشْبُوبِ اللَّهَبِ

^{٨٥} - ديوان السيد : ٥٤

^{٨٦} - السابق : ٢٥

^{٨٧} - السابق : ٢٢

^{٨٨} - السابق : ٧٦

وعلى هذا النحو تجري تشبيهاته ، لأداء وظيفة البيان والتوضيح في المعنى المقصود. ولا تبعد كنياته في مألوفيتها ومعهوديتها عن ساحة تشبيهاته ، ومنها قوله^{٨٩}:

* لن تغمض الأجفان عن أوطاننا * كناية عن عدم الغفلة أو التفريط في تحرير الوطن ، ومثلها : (رضيع الحرب) في قوله :^{٩٠}

قَمِ رُضِيْعَ الْحَرْبِ مِنْ سَاحَاتِهَا وَتَقَدَّمَ مَعْنَا آيَاتِهَا

كناية عن البطل المترس في الحرب ، ومنها (جرد السيف من الغمد) في قوله :^{٩١}

جَرَدَ السَّيْفَ مِنَ الْغِمْدِ كَفَى ضَحِكَ السَّيْفِ الْإِمَامَ تَسْتَكِين

كناية عن الاستعداد للقتال. ومنها : (ارفعوا الهامات) في قوله :^{٩٢}

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ يَا نَسْلَ الْأَسْوَدِ يَا رِجَالَ الْمَجْدِ مِنْ خَيْرِ الْجُدُودِ

أَنْتُمُو خَيْرُ أَمَانِي الْخُلُودِ ارْفَعُوا الْهَامَاتِ هَيَّا وَالْبُنُودِ

وهي كناية عن استشعار العزة والكرامة.

الرمز

من الصور الأدبية التي استعان بها السيد رشيد رضا في ديوانه "الرمز" الذي يغني في دلالاته عن الكلمات الكثيرة ، ويكون أقدر في بعض الأحيان على التعبير عن المعنى المقصود^{٩٣} ومن هذه الرموز ما يرمز به عن معاني عامة ، ومنها ما يرمز به عن قضايا خاصة به ، فمن النوع الأول استخدام أسماء تاريخية ؛ أشخاصا أو بلدانا للتعبير بها عما ارتبط بها من المعاني تاريخيا ، وذلك كاستعماله (خالدا ، وطارقا ، وسعدا ، والغافقي) للتعبير بها عن أبطال الإسلام عامة ، الذين حملوا لواء هذا الدين ، في ميادين الجهاد ، فليس المراد بذكر هذه الأسماء قاصرا على أعيان أصحابها ، وإنما لكونهم نماذج ورموزا لكل من أبلى مثل بلائهم ، وكذلك الشأن في

^{٨٩} - ديوان السيد : ٨٤

^{٩٠} - السابق : ٦٥

^{٩١} - السابق : ٦٠

^{٩٢} - السابق : ٣١

^{٩٣} - يقول الدكتور فايز الداية عن وظيفة الكلمة الرامزة : إنها "لمحة في غاية الإيجاز ترد في سياق شعري لتعميق جنبات فيه." انظر: جماليات الأسلوب: الصورة الفنية في الأدب العربي: د. فايز الداية ، دار الفكر المعاصر ، لبنان - بيروت ، ودار الفكر ، دمشق - سورية ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، ص ١٧٥

أسماء المدن والبلاد ، ذوات الدلالات التاريخية المعينة مثل (قرطبة ، القادسية ، قبرص ، القيروان ، ونحوها).

يقول رشيد مستعينا بهذه الرموز في العبير عن الفروسية الإسلامية ، وعن الفتوحات العظيمة في فجر الإسلام :^{٩٤}

بِيزَنْتِيَا سَلُّهَا وَسَلُّ غَرْنَاطَةَ عَنْ خَيْرِ مَجْدٍ لِلْغَزَاةِ الظَّافِرِينَ
 سَلُّ قَبْرُصًا سَلُّ رُودِسًا وَالْقَيْرَوَا نَ وَقُرْطُبًا وَالْقَادِسِيَّةَ وَالْحُصُونِ
 سَلُّ خَالِدًا سَلُّ طَارِقًا سَلُّ سَعْدَكُمْ فَتَكَتْ سَيُوفُهُمْ بِجَيْشِ الْكَافِرِينَ
 بُرْنَائِي سَلُّ أَبْطَالَهَا فِدْمَاؤُهُمْ ذِكْرِي لِنِصْرِ الْغَافِقِي عَلَى السِّنِينَ

فقد حشد هذا الكم من الأسماء التاريخية لتعينه على الكشف عما اقترن بها ، من الخبرة التاريخية ، التي يختزنها القارئ أو المتلقي في ذاكرته ، فيقفز ذهنه إلى ما قام به هؤلاء الأبطال وغيرهم الكثيرون من الفتوحات التي شملت مع هذه المدن مناطق وأراضي واسعة ، إضافة إلى ما يستحضره القارئ عند سماعه لهذه الأسماء التاريخية من التفاصيل المرتبطة بهذه الحقبة التاريخية ، وهذا تحققه الرموز على وجازتها.

ومن الرموز العامة أيضا في هذه الديوان (يعرب وقحطان) ، وهما جدان من جدود العرب ، ولكن رشيدا يتخذهما رمزا للعنصر العربي وللأصالة والمجد ، والأنفة والإباء ، وكل الصفات الحميدة التي كان العرب يتمدحون بها ، لكونهم عربا ، فيثري هذا معانيه ، ويمكنه من التركيز والتكثيف مع التعبير الموجز الموحى. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذين اللفظين مع لفظي (العرب والعروبة) وهما مثلهما في الرمزية ، كرهما رشيد فيما يزيد على خمسين موضعا ، ومن ذلك قوله :^{٩٥}

^{٩٤} - ديوان السيد : ١١

^{٩٥} - السابق : ١٤

أَيْنَ الرِّجَالِ وَأَيْنَ مِنْهُمْ يَغْرُبُ أَيْنَ الشُّعُورِ الْحَيِّ أَيْنَ تَبَدَّدَا
أَفَلَيْسَ مِنْ قَحْطَانَ أَصْلُ دِمَائِكُمْ أَفَيَقْبَلُنْ قَحْطَانُ أَنْ يُسْتَعْبَدَا
حَاشَا فَمَا الْعَرَبُ الْكِرَامُ بِذَلَّةٍ عَاشُوا وَلَا وَهَنَتْ جَحَافِلُهُمْ يَدَا

فهذه الرموز الثلاثة هنا لمثل عليا ، ومعاني سامية ، يراد الاقتداء بها ، والحفاظ عليها. وفي قوله : ^{٩٦}

مَا لِي أَرَى الدَّهْرَ يَا قَحْطَانُ يُفْرِغُنِي مَا لِي أَرَى البُؤْسَ مَا جَتَّ فِيهِ أَخْلَامِي
نجد قحطان رمزا للعنصر العربي ، الذي يخاطبه الشاعر باسم جده الأكبر ، وقد
آثره ليذكر المخاطب ، ما يرتبط بهذا الاسم من دلالات عميقة ، وغنية تجعله أكثر
تأثرا واستجابة لما يلقي إليه باسم هذا الجد العظيم ، ولهذا يلاحظ اعتماد رشيد
المتكرر على هذا الرمز وسيلة فعالة لاستنهاض العرب واستثارة حماسهم كما في
قوله : ^{٩٧}

هَا رُوحُ قَحْطَانَ أَطْلَ مِنَ الْعَلَا يَسْتَهْضِ الْهَمَمَ الْعَوَالِي مَرْحَبَا
أَبْشِرْ بِنُوكِ أبا الْعُرُوبَةِ كُلِّهِمْ مُتَوَثِّبٌ أَوْ كَادَ أَنْ يَتَوَثَّبَا
يَفْدُونَ مَجْدَكَ بِالنَّفُوسِ وَإِنَّهُمْ أبدأ الْحَيَاةَ يَحْقُقُونَ الْمَآرِبَا

أما رموزه الخاصة ، التي تعبر عن تجارب ذاتية ، وقضايا تتصل بحياته
الخاصة فمنها (دعد) الذي هو في الأصل من الأعلام المؤنثة المشهورة ، الكثيرة
الدوران على ألسنة المعربين ، وعلماء النحو العربي ، ولكنه يتخذ هذا الاسم رمزا
لمحبوبة معينة ، أو محبوبة مثالية يتغنى بجمالها الخلقي والخلقي ، ويشبب بها
تشبيبا عذريا أو صوفيا بريئا ، وفي ديوانه ثلاث قصائد تحمل اسم دعد ، عناوينها:
(ذكرى دعد - إلى دعد - دعد) كما ورد اسم دعد في سياق الغزل في غير هذه
القصائد ، كقوله في قصيدة "أنا والأزهر" : ^{٩٨}

إِذَا لَمْ أَفْزُ يَا دَعْدُ بِالْعِلْمِ يَافِعَا فَلَا أَسْعَدْتَنِي فِي هَوَاكَ يَدُ الْجَدِّ

^{٩٦} - ديوان السيد : ٥١

^{٩٧} - السابق : ٨٣

^{٩٨} - السابق : ٨٠

وكلامه في القصائد الثلاث متشابه ، وهو حديث عام لا يتعدى وصف دعد بالجمال ، وكمال الخلق ، وأنه يحبها من أجل هذا ، ويبقى وفيها لحبها فلا ينساها ، كما في قوله : ٩٩

يا حُسْنَهَا سَلَبْتُ عُقُولَ ذَوِي النُّهَى يَا لِلْفُؤَادِ غَرَامُهَا أَضْنَانِي
كَيْفَ الْمَلَامُ بِحُبِّهَا وَعُيُونُهَا فَتَنَّتْ رِجَالَ الزُّهْدِ وَالْأَدْيَانِ
حُورِيَّةً زَانَ الْإِلَهِ جَمَالُهَا بِحُلِيِّ الْعَفَافِ فَضِيلَةُ الْإِنْسَانِ
وَبِحُسْنِ آدَابٍ وَظَرْفٍ كُمَلَّتْ أَوْصَافُهَا وَالسَّحَرُ فِي الْأَجْفَانِ

ولا يبدو أنه يقصد محبوبة معينة ، وإلا لكان في كلامه ما يشير إلى بعض تجاربه معها ، أو ما يدل على معاناة حقيقية ، على شاكلة ما يتعرض له المحبون من صد وهجر وحرمان ، ولما ناسب أن يقول في محبوبته المعينة إنها محبوبة كذلك لذوي النهى ، وتفتن رجال الزهد والأديان ، فهو إذا تغزل في محبوبة مثالية ، ولا يستبعد أن يكون مثار هذا الغزل ما سبق ذكره من تعرض الشاعر لإخفاقات في علاقاته الزوجية الأولى.

ومن رموزه الخاصة "الدهر" و"الزمن" اللذين يرمز بهما كثيرا عن أعدائه ومثبطيه الذين يقفون في وجهه ، ويكون سببا في إخفاقاته في تحقيق طموحاته ، وبلوغ مآربه ولهذا يرمي الدهر بصفات هؤلاء الخصوم من الغدر والمكر والمجون كما في قوله : ١٠٠

كَمْ عَرَكْتُ الدَّهْرَ فِي هَذَا الحَيَا وَسَبَرْتُ العُورَ فِي شَتَّى الشُّؤُونِ
وَأَرِدْتُ المَجْدَ أَعْلُو هَامَهُ غَيْرَ أَنَّ الدَّهْرَ عَدَاؤُ مَجُونِ

فالدهر الغدار الماجن هو الذي يحول بينه وبين اعتلاء هام المجد ، ويزعجه عن أن يشيد صرح المجد ، وعن كل غاية عظيمة : ١٠١

وَالدَّهْرُ يُزَعِّجُنِي عَنِ غَايَةِ عَظُمَتِ مِنْ بَعْدِ مَا أَمَلِي قَدْ كَانَ مَعْقُودَا
كَمْ خَانَنِي زَمَنِي وَالدَّهْرُ يَمْنَعُنِي عَنِ أَنْ أَشِيدَ صَرْحَ المَجْدِ تَشْيِيدَا

٩٩ - ديوان السيد : ٧٧

١٠٠ - السابق : ٨٦

١٠١ - السابق : ٥٦

بل إن دهره يسعى إلى شنقه ، وخنقه خنقا حقيقيا أو معنويا ، ثم يريد أن يضافه ويواده ، بعد أن فعل به ما فعل: ١٠٢

إِيهِ دَهْرَ الْغَدْرِ أَقْبِلْ أَوْ فَأْدْبِرْ لَسْتُ إِلَّا زَارِدًا حَبْلَ الْخِنَاقِ
بُنِسْتُ الْأَيَّامُ تَأْتِي بَعْدَمَا أَشْبَعْتَنِي عَلْقَمَا مَرَّ الْمَذَاقِ
هَا فُوَادِي مِنْهُ فَكَّكَتْ الْغُرَى وَقَطَّعَتْ الْوُدَّ مِنْ بَعْدِ التَّلَاقِ
أَفْبَعْدَ الْغَدْرِ يَا مَنْ خَانَنِي مِنْ وَفَاءٍ أَوْ صَفَاءٍ وَاتَّفَاقِ

وهكذا يصرح بأن من يشكو منه باسم الدهر ما هو إلا صديق غدر به وخانه ، وسعى إلى التخلص منه ، ويريد مع ذلك أن لا تفهم خيانتته ، وأن تبقى الصداقة والمودة.

ومن رموزه الخاصة أيضا "الأمل" ، وتعني في أصل اللغة ما يتمناه المرء ويحب أن يحصل عليه في مستقبله ، سواء أكان سهل التحقيق أم بعيد المنال ، ولكل إنسان آمال وأمان ، ولكن رشيدا لا يريد به مطلق الأمل ، أو ما يصاحب الإنسان في حياته من التطلع إلى مستقبل أحسن وإلى غد أفضل ، ونحو ذلك من الترجيات والآمال التي تتبدل بتبدل الأيام ، وتقدم الإنسان في العمر ، ولكنه يريد أملا خاصا واحدا ثابتا ، لا يتغير بمرور الأيام ، وطروء الظروف المغايرة ، وهو السيادة الدينية والعلمية ، اللذين بهما يتحقق مجده ، وقد سبق في ترجمته ما كان يأمله ، ويتهيأ له من خلافة شيخه الأستاذ الإمام محمد عبده ، هذا هو ما كان يأمله ويترقبه ، كما يشير إليه قوله : ١٠٣

أَمَلْتُ مُرْتَقِبًا وَرِدًا يُطَالِعُنِي بَعْدَ الظَّمَا مُصْعَدًا إِنْ كَانَ مَوْرُودًا

بل كان في نظره - ومما علمه من رضا شيخه عنه ، وترشيحه له في هذه الخلافة - شيئا محققا لولا كيد الكائدين: ١٠٤

وَالدَّهْرُ يُزْعِجُنِي عَنْ غَايَةِ عَظَمَتِ مِنْ بَعْدِ مَا أَمَلِي قَدْ كَانَ مَعْفُودًا

ولا يزال رشيد طالبا وساعيا إلى هذا المجد ما بقي في جسمه عرق ينبض: ١٠٥

١٠٢- ديوان السيد : ٢٧

١٠٣- السابق: ٥٦

١٠٤- السابق: ٥٦

١٠٥- السابق: ٥٨

يا نفس صَبْرًا فلا تَأْسِي على زمن كان النعيم به كالصبح مشهودا
 أَحْيِي لِي الأملَ المَنْشُودَ وارْتَفَعِي إلى السَّمَاءِ هناك الصرْحُ قد شِيدَا
 وابْنِي لِمَجْدِكَ بُنْيَانًا قَوَائِمُهُ فوق النُجُومِ إلى العلياء تَمْهِيدَا
 هذا أو أوْمَلْ^{١٠٦} والأمالُ تَحْفِزُنِي في كل سَانِحَةٍ مادمتُ مَوْجُودَا

الخصائص الموسيقية

حافظ رشيد كما عهدناه في النظم على الأوزان القديمة ، وقد ظهر في دراسة نقده أنه لم يكن يرى لمن يريد أن يقرض شعرا عربيا الخروج عن النظام الموسيقي المعهود في الشعر العربي العمودي ، ولهذا يحرص في شعره في هذه المرحلة الذي ضمه ديوانه "ديوان السيد" على التقيد بالأوزان الخليلية ، بحيث قد انتظم شعره في خمسة أوزان على النحو الآتي

١- بحر الكامل : إحدى عشرة قصيدة (١١)

٢- بحر البسيط : عشر قصائد (١٠)

٣- بحر الرمل : سبع قصائد (٧)

٤- بحر الوافر : قصيدة واحدة (١)

٥- بحر الطويل : قصيدة واحدة (١)

وآثر الصور الوافية الطويلة من هذه البحور على القصيرة (المجزوءة - المشطورة - المنهوكة) فلم يستعمل من القصيرة إلا في قصيدتين ، إحداهما من مجزوء الكامل ، والأخرى من مجزوء الرمل.

أما القوافي فكان فيها كذلك تابعا أو مقلدا ، لا مخالفا أو مبتكرا ، غير أنه نظم قصيدتين كلتاهما من بحر الرمل ، على نظام الخمسات في القوافي المتغايرة ، فجعل إحداهما تستقل كل خمسة أسطر منها بقافة واحدة ، وهي طويلة من ثمانية أجزاء ، تتوالى قوافيها كالاتي (لامية - دالية - هائية - نونية ضادية - ميمية - نونية - ألف مقصورة) وهذا جزؤها الأول:^{١٠٧}

^{١٠٦} - هكذا في الأصل ، والطاهر أنه : أوْمَلْ.

^{١٠٧} - ديوان السيد: ٦٥

يا حفيدَ العُربِ يا نَسْلَ الأُولى شَيِّدُوا الصِّرْحَ وَجِدُوا لِلْعُلا
يا ابنَ مَنْ أَعْلَامُهُمْ بَيْنَ المَلا خَفَقَتَ لِلْمَجْدِ تُحْيِي الأَمَلا

جَدِّ التَّارِيخِ وَاشْفِ العِلا

وخالف في الثانية بين قافية الشطر الخامس من كل جزء والأشطر الأربعة الأخرى ،
التي جعل قافيتها واحدة ، وجعل الشطر الخامس في كل جزء على قافية نظرائه في
الأجزاء الأخرى ، كما يدل عليه النموذج : ^{١٠٨}

يا شِبابَ العُربِ يا نَسْلَ الأَسُودِ يا رِجالَ المَجْدِ مِنْ خَيْرِ الجُودِ
أَنتُمُ خَيْرُ أمانِي الخُلُودِ فارفَعُوا الهاماتِ هيا وَالبُودِ

لنُعِيدَ المَجْدَ مَجْدَ العُربِ

الأشطر الأربعة الأولى دالية ، وقافية الشطر الخامس بائية ، وكل الأشطر الخامسة
بائية مثله في جميع الأجزاء ، ولكل جزء ما عدا الخامس قافية موحدة خاصة به. ^{١٠٩}

مكانته الشعرية

يذكر معاصرو السيد رشيد رضا ، الذين ترجموا له ، أنه قال الشعر في
صباه ، ثم انقطع عنه عندما كبر نصيبه ، وثقل ميزانه في العلوم والفنون . يقول
الزركلي : "محمد رشيد بن علي رضا .. صاحب مجلة المنار ، وأحد رجال الإصلاح
الإسلامي ، من الكتاب العلماء بالحديث ، والأدب ، والتاريخ ، والتفسير .. ونظم
الشعر في صباه." ^{١١٠} ويقول الأستاذ محمد كرد علي : "وكان ينظم الشعر قبل أن
يحذق العلوم العربية." ^{١١١} ويومئ كلام الأستاذين إلى أنه تخلى عن قول الشعر بعد
أن كبر في السن والعلم ، أو أن اهتمامه فيه لم يعد كما كان من قبل ، بل تحول
إلى العلم والإصلاح والجهاد ، فأصبح الشعر من أقل بضاعته التي لا تسترعي
انتباه الباحثين في علمه وعطائه ، والمترجمين له بجهوده وجهاده.

^{١٠٨} - ديوان السيد : ٣١

^{١٠٩} - ويذكر د. إبراهيم أنيس أن هذا النوع الثاني من الخمسات أكثر شيوعا لدى الشعراء المحدثين فيقول
: "وإنما الخمس الذي استحسناه واستعدبوا موسيقاه هو ذلك الذي تتكرر فيه قافية الشطر الخامس من كل قسم
من أقسام المقطوعة." انظر : موسيقى الشعر: د. إبراهيم أنيس ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، ص ٣٣٩

^{١١٠} الأعلام : ١٢٦/٦

^{١١١} - المعاصرون : ٣٣٤

كان السيد رشيد رضا صديقا لكبار الشعراء في عصره ؛ كالبارودي ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد شوقي ، وعندما نظم مقصورته الرشيدية - وكان معجبا بها ، كثير الذكر لها - عرضها على هؤلاء الشعراء الفحول ، وسجل آراءهم فيها ، ومن ذلك قوله : "فلما قرأها محمود سامي باشا البارودي ، فضلها على الدريدية ، وطالبني بطبعها أو نسخها" ^{١١٢} وهذا كلام يدل على إعجاب بالمقصورة ، وعلى تقدير موهبة رشيد رضا الشعرية ، ولو كان ذلك أمام صاحبه ، بحيث لا يخلو من المجاملة والمصانعة ، وعرض المقصورة على حافظ إبراهيم أيضا ، فقال : "إن القافية تساعدك على هذا التطويل مع المتانة." ^{١١٣} وتعليق حافظ أقرب إلى النقد الموضوعي ، إذ ذكر أن المقصورة متينة في لغتها وأسلوبها ، وأن هذه الإجادة مع طول المقصورة ليس راجعا إلى فحولة رشيد الشعرية فحسب ، وإنما أسهم في هذا اختيار القافية المواتية ، والوزن السهل ، وأيا كان مرد جمال المقصورة فقد أشعر نقد حافظ بأنه زكى المقصورة الرشيدية ، وأشاد بشاعرية صاحبها.

ويقول فيه مقدم ديوانه ؛ الأستاذ طه عبد الباقي سرور : "وشاعرنا الموهوب الأستاذ السيد محمد رشيد رضا ، خلق شاعرا بفطرته وآماله وأحلامه ، بل هو في ذاته قصيدة رائعة ، تراه حالما سابحا ، بل يكاد يكون شفافا ، تلمس روحه ولا ترى جسده ، وإذا انسكبت عيناه على وجهك فأنت غارق ، لا تفيق في أمواج من الأرواح والأنغام .. أنت في دنيا ، ملئت أخيلة ، وأحلاما ، وزهورا ، وأنغاما." ^{١١٤} وتعليق هذا الأستاذ ، وإن كان من قبيل التقارظ المساييرة لهوى المقرظين ، فإنه يشير إلى طرف من حقيقة رشيد ، فقد كان الرجل دقيق الإحساس ، سريع التأثر ، خفيف الروح ، على ما به من حدة ، شاعري الطبع ، بعيدا عن التزمت ، الذي يجنح إليه في الغالب أمثاله من علماء الدين في عهده.

وفي تعليقات شكيب أرسلان على المقصورة الرشيدية ، التي نشرها مع طائفة من شعره في كتابه "السيد رشيد رضا" ما يدل على إجلاله لموهبة رشيد الشعرية ، إذ يشبه بعض قصائده بشعر الشريف الرضي ، وأبي العلاء المعري .

^{١١٢} - السيد رشيد رضا : ١١٣

^{١١٣} - السابق : ١١٣

^{١١٤} - ديوان السيد : ٦

أما الدكتور أحمد الشرباصي ، فيقرن السيد رشيد رضا بالشاعر المصري محمد عبد المطلب ، في كونه مغرماً بالقديم ، متكلفاً بطرائق القدماء في قول الشعر ، إضافة إلى تتبع الغريب ، واستكثار الكلمات النادرة في قاموسه الشعري ، يقول الدكتور في هذا الصدد : "وعلى الرغم من كثرة الشعراء المجيدين ، في الثلث الأول من القرن العشرين ، نجد طائفة من الشعراء تميل إلى متابعة القدماء ، أكثر مما تميل إلى الانخراط في سلك المجددين ، ومن هذه الطائفة من ظل يحن إلى روح البداوة في الشعر ، أو يكلف بالصور الشعرية الموروثة ، أو يحرص على تضمين شعره كثيراً من الكلمات اللغوية ، أو النادرة الاستعمال." ^{١١٥}

هذا ما قاله بعض الباحثين في مكانة رشيد رضا الشعرية ، وفعلاً كان رشيد شاعراً موهوباً ، فقد قال الشعر في صباه ، وقبل أن يتلقى مبادئ العلوم ، التي يمكن الاستعانة بها في صنع نظم يشبه الشعر ، كما جرت عادة كثير من العلماء ، وقد ذكر أنه نظم بعض قصائده في حالة تشبه الارتجال ^{١١٦} مما يعكس قوة شاعريته ، وأنه لا يجتلبه بتكلف وتعمل ، وكان من الطبيعي في مرحلته الشعرية الأولى أن يستلهم من الشعر العربي القديم في عصور ازدهاره ، وأن يحتذي حذو كبار شعرائه ، وينسج على منوالهم ، ويقتفي آثارهم ، معارضا ومقتبسا ومسترشداً ، وهو لا يخفي هذا بل يصرح به كقوله في بعض شعره : "فنظمت المرثية الدالية ، التي اشتهرت حتى كادت تذكر مع مرثية المعري الدالية في فلسفتها ، ومرثية الشريف الرضي الدالية في تعظيم قدر المرثي بها." ^{١١٧} ومن هذا المنطلق عارض مقصورة ابن دريد بمقصورته الرشيدية ، التي أربت على أربعمئة بيت ، والتي كان ينوه بها كثيراً ، ويتركها مفتوحة يضيف إليها كلما استجدت لديه عاطفة الشعر ، ويصعب تقييم شعر السيد رشيد رضا ، الذي قاله في مرحلته الشعرية الأولى ، التي كان فيها محاكياً ومقلداً ، لقلّة ما تبقى منه في المصادر المتاحة ، ويكفي أن رشيداً قد حكم عليه بأنه شعر تقليدي ، ولا يعني هذا أنه كان ضعيفاً في أسلوبه وصياغته.

^{١١٥} - رشيد رضا صاحب المنار : ٦٩

^{١١٦} - السابق : ١١٠

^{١١٧} - السابق : ١١٠

وأما المقصورة الرشيدية ، فهي من شعره القوي الناضج ، وقد أسلفنا رأي الأدباء والشعراء الكبار فيها ، وفي رأيي أنها ليست سواء في مستواها الفني ، بل هي متفاوتة ، تبعا لتنوع موضوعاتها ، واختلاف عاطفة صاحبها لاختلاف أوقات نظمها ، فمقدمتها في الاعتبار بعجائب صنع الباري ، وفي وصف الحديقة والكتاب أو المجلة ، تعلو على الجزء الذي مدح به صديقه العريس ، وكلاهما يختلف عن مدحه لشيخه ؛ الشيخ جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، وعمما ختم به المقصورة ، من حث الدعاة على الصبر ، وعدم اليأس والاستسلام ، ونصحه لهم بأخذ أسباب القوة ، فهذا الجزء أقرب إلى طابع النظم منه إلى طابع الشعر .

ولشعره الذي وصفه بالشعر العصري طابع خاص به ، من حيث كونه مراعى فيه لمقاييس ومفاهيم معينة ، وكان حريصا على تنزيل شعره على تلك المقاييس وتطبيقه عليها ، وإذا كان الالتزام يعني إطارا عاما ، ومجالا فسيحا يحول فيه الشاعر ، بحيث لا يناقض المبادئ العامة لهذا الإطار ، ولا يخرج على مفاهيمه الأساسية ، فقد بدا رشيد رضا في رأي الباحث مبالغا في هذا الالتزام ، بحيث حبر على نفسه واسعا ، فكثف من إيداع مصطلحات العلوم ، وأسماء المكتشفات والمخترعات في شعره ، كما يظهر ذلك في قصيدة "الجاذبية" ، والقصيدة التي مدح بها السلطان عبد الحميد الثاني ، وهنأه بعيد جلوسه على العرش ، وقد ينظر إلى مذهبه في العصرنة مذهبا هجينا ، لا ينبع من قرارة خيال الشاعر ، ولا يدل على اصطباغه بروح العصر ، بحيث يصدر من معطيات العصر تلقائيا ، من غير أن يقصد ذلك ، فيصدق عليه نقد العقاد في قصيدة ، في وصف الطائرة للشاعر محمد عبد المطلب ، الذي كان مولعا بمذهب قدامى الشعراء ، فأراد أن يدلي دلوه في المذهب الجديد ، ويظهر قدرته على إتيان شعر عصري ، فنعى عليه العقاد فهمه للشعر العصري ، وأنه لا يحصل باستبدال الطائرة بالناقة وقال : "والواقع أن الشاعر العربي إنما كان يصف الناقة لأنها جزء من حياته .. وهو أشعر ألف مرة من يحكيه بوصف الطائرة في العصر الحديث ، لأنها أحدث أدوات المواصلات ، كأننا لا

نعيش إلا لنصف هذه الأدوات .. وما هي بمستحقة منا الوصف لو ما نظرنا إلى الفن والأدب إلا بمقدار ما تبعته فينا من شعور ، وتفتحنا لنا من خيال." ^{١١٨}

وكان مما قرره رشيد رضا نفسه في آرائه النقدية ، أن علوم العصر ومعارفه لا تحصل فائدتها ، إلا إذا صارت "ملكات راسخة في الأمة ، وأما حشو الأذهان بالألفاظ والمصطلحات ، وشغل العقول بحفظ بعض المسائل ، تقليدا لمن نقلت عنهم ، قد يكون ضرره أكبر من نفعه." ^{١١٩} ودعا "إلى إشراع الطريق ، لجعل لغة الأمة تتسع لهذه العلوم والفنون ، وما يتجدد منها في كل آن." ^{١٢٠}

ولعل خير ما يمثل رشيد رضا من شعره ، وهو على سجيته ، شعره الذي حواه ديوانه "ديوان السيد" ، وهو شعر لا محاكاة فيه لمذهب قديم ، ولا مراعاة لطريقة أو فلسفة معينة ، وإنما جاء استجابة لرغبات رشيد ، وتصوير عواطفه ومشاعره في مختلف المواقف الوطنية والإنسانية والذاتية ، ويعكس تجربته في الحياة ، ونظرته إلى ما حوله من القضايا والحوادث "كما تجسدها المعاناة والبحث والكشف عن معاني الوجود" ^{١٢١} ، فهو في رأيي خير شعره ، وإن كان من أبرز خصائصه نزعة الخطابية ، كما أسلفت القول في الدراسة الفنية لشعره ، ولكنه من حيث صدق العاطفة ، والتعبير عن الواقع العام والخاص ، وطبيعة الموضوعات التي اتخذها ميدانا له ، كل ذلك يرشحه ليكون أفضل شعره ، وهو أولى بالعصرنة من شعره الذي سماه الشعر العصري ، لأن الشعر العصري في الواقع هو الذي يكون "مرآة يتصفح فيها الناس صور نفوسهم في كل عصر وطور." كما يقول العقاد. ^{١٢٢}

أما ما ذهب إليه الدكتور أحمد الشرباصي من أن رشيد رضا كان - مثل محمد عبد المطلب - مولعا بمحاكاة قدامى الشعراء البدويين ، ولهذا حشا شعره كثيرا من الكلمات الحوشية والنادرة ، فلم يظهر لي من شعر السيد رشيد رضا ما يعزز هذا الرأي.

^{١١٨} - أعلام الشعر : ٢٦٢

^{١١٩} - المنار : ٧٨٦/١٠/٢٧

^{١٢٠} السابق : ٧٨٦/١٠/٢٧

^{١٢١} - الحركة الأدبي في دمشق ، د. أسكندر لوقا ، مطابع ألف باء - الأديب ، دمشق ، ١٩٧٦م ، ص ١٣٥

^{١٢٢} - الحركات الفكرية والأدبية في العالم العربي الحديث ، أبو عوض أحمد ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ١٩٩٥م ، ص ٢٧٨

المبحث الثاني : الدراسة الفنية لنثر السيد رشيد رضا

المطلب الأول : رسائله

أغراضها

معظم الرسائل التي وجدها الباحث للسيد رشيد رضا هي المجموعة في كتاب : (السيد رشيد رضا أو إحياء أربعين سنة) لشكيب أرسلان ، وعددها مائة واثنان وخمسون (١٥٢) رسالة ناهز مجموع صفحاتها خمسمائة صفحة ، وكلها مرسله إلى صديقه شكيب أرسلان ، الذي جمعها في هذا الكتاب ، وهناك رسائل أخرى يسيرة ، وردت في مجلة المنار ، وفي بعض الكتب المؤلفة فيه ، وتتنوع هذه الرسائل ، بتنوع الغرض المنشأ لها ، وتنوع المرسل إليهم ، المخاطبين بها ، ولكن يجمعها رابط واحد ، من حيث الموضوع ، وهو كونها رسائل إخوانية غير رسمية ، تحمل الملامح الشخصية ، ولا تخضع لأسس فنية معينة.

أسلوبها

ومهما اختلفت أو تنوعت أغراض هذه الرسائل ، وتفاوتت المخاطبون بها ، فإن طابعها العام ، وسماتها البارزة التي تميزها أنها متحررة من قيود الصنعة والتكلف لأنها لم تنشأ لتنتشر ، وإنما لمناجاة الأصدقاء ، ومناصحة الأولياء ، ومكاتبة الأهل والإخوان ، ومع هذا فإنها عالية في أسلوبها ، فصيحة في لفظها ، لمكانة صاحبها العلمية ، ومنزلته الأدبية واللغوية ، ولأنها من إنشائه في مرحلة نضجه العلمي واستواء أدبه وفكره^{١٢٣} ، وهذا ما يشير إليه الدكتور سامي الدهان إذ يقول : "ولا شك في أن الذين يريدون أن يدرسوا رشيد رضا يستطيعون أن يقرأوا كتبه .. كما يستطيعون أن يرجعوا إلى أسلوبه الشخصي غير المتكلف في هذه الرسائل فقد كان الرجل يكره النثر المسجع ، ويميل إلى أسلوب الترسل الحر ، فأسلوبه يختلف في أغراضه وأساليبه عن أساليب المترسلين القدماء."^{١٢٤}

^{١٢٣} - ذكر رشيد رضا أنه لم يحتفظ إلا قليلا من رسائله الشخصية قبل هجرته إلى مصر. انظر : الأزهر والمنار

١٨٧ :

^{١٢٤} - الأمير شكيب أرسلان: ٣٦٣

ويذهب الأمير شكيب أرسلان إلى أبعد من ذلك ، فيجزم بأن هذه الرسائل تمثل قمة أدب رشيد رضا ، لأنها تضاهي في فصاحتها ، وقوة بيانها ، أدبه المنشور ، مع أنه لم يتوقع أن تنشر هذه الرسائل ^{١٢٥} ، فدلّت على أن ملكته البيانية راسخة في طبعه. يقول شكيب : "فلا تجد إنشاءه في هذه الكتب الخاصة ينزل درجة واحدة عن إنشائه في المنار ، وفي كتبه العامة ، لأن ملكة الفصاحة لا تفارق قلمه في عام ولا خاص ، ولا بد للبحر أن يقذف الدر كيفما تحرك. بل بروز السيد رشيد في مفاضله بلا تكلف ، ولا توقع نشر ، جعل كلامه أوقع ، وأبعد مدى في التأثير ، ولذلك قلت إن هذه الرسائل الخاصة هي من أعلى ما جرى به قلم السيد رشيد في حياته ، كما يتضح لكل ذي بصر بصناعة الكتابة." ^{١٢٦}

ومع هذه الشهادة يلاحظ في بعض رسائل رشيد ما ينتمي إلى الأساليب القديمة ، من العناية باللفظ ، والحرص على المحسنات البديعية ، والصور المجازية ، وإطلاق الألقاب والنعوت المبالغ فيها ، وهذه الملاحظة خاصة بما وجد من رسائله قبل هجرته إلى مصر ، ومن ذلك خطابه إلى السيد جمال الدين الأفغاني الذي يقول فيه : الحمد لله على أفضاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ، وعلى سيدي المطلق ، ذي القدح المعلى ، والجواد المصلى الأسبق ، سدره منتهى العرفان ، وجنة مأوى المحاسن والإحسان ، الذي له في كل جو متنفس ، ومن كل نار مقتبس ، الإمام الفرد ، والعقل المجرد ، حجة الإسلام ، وعلم الأعلام ، أخطب الخطباء ، وأبلغ الكتاب ، من أوتي الحكمة وفصل الخطاب بدل الأبدال ، سيد الآل ، الإنسان الكامل ، الوارث الكامل ، المرشد الكامل. ^{١٢٧} وفيه بعد هذه المقدمة ، يتلطف في استئذان جمال الدين في الالتحاق بحاشيته ، والتتلمذ عليه ، ويتقرب إليه بما يخلع عليه من المدح المفرط : "إني مذ لاحت عليّ مخايل التمييز ، ما نمت إليّ

^{١٢٥} - وهذا ما يؤكد الأستاذ أنور الجندي بقوله : "وليس من شك أن المراسلات الأدبية في نظر النقادة والباحثين أصدق من مختلف الفنون المتصلة بالتعبير الذاتي والإفشاء ، وهي أعلى درجة من الترجمة الذاتية وأدب المذكرات وأدب الرحلات ، وكلها ألوان تتيح للكاتب تصوير نفسه ، والإفشاء عن عاطفته ومشاعره تجاه الأحداث الخاصة والعامة ، وذلك أن التراجم الذاتية وأدب المذكرات ، إنما يكتبها الكاتب تحت سلطان إحساس يقظ ، بأنها ستذاع في الناس ، وتنتشر في الصحف أو الكتب ، ومن هنا يتسم بالتحفظ يضيف عليها ، وتبدو وقد أضاف عليها شيئاً قليلاً أو كثيراً من (التوايل) . انظر صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر أنور الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩م ، ص ٢٠٥

^{١٢٦} - السيد رشيد رضا: ٣٠٧

^{١٢٧} - تاريخ الأستاذ: ٨٥/١

خبر ألد وأشهى ، ولا أنبل وأسمى ، من خبر سيدي (جمال الدين الأفغاني) ، نبأ عظيم غرس في قلبي حبة الحب والشغف ، وسقاها بماء الحياة ، فنبتت نباتا حسنا ، وتشعبت أفنانها .. شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .."قله أنت من ذي نفس زكية ، وروح قدسية ، ما هبت نفحة من معارفها في جو قوم إلا ونفخت في رممهم روح الفضل ولا تدفقت أمواه فضائلها في أرض أمة إلا وجرفت منها أردان الجهل." ١٢٨

فهذا خطاب اعتمد فيه رشيد على المبالغة في الأوصاف والنعوت ، التي خلعها على المخاطب ، وحاول التأنق في الأسلوب بالسجع حيناً ، وبالاقتباس حيناً آخر ، وبالصور المجازية حيناً ثالثاً ، فعنايته منصرفة إلى تزيين اللفظ ، وتحسين الأسلوب ، وإظهار البراعة في اقتناص الألقاب التي كانت مألوفة في المخاطبات في تلك الأيام الخوالي ، من صدر حياته ، دون الاهتمام بإثراء أفكار الخطاب ، إذ إن خطابه على طوله لم يتضمن إلا فكرتين أساسيتين هما : مدح السيد ، والرغبة في رفقته.

ويبدو أن رسائل رشيد قبل هجرته إلى مصر كانت من هذا القبيل ، وربما أهملها ولم يحتفظ منها بشيء لهذا السبب ، إلا ما عز عليه كهذا الخطاب التاريخي. يقول رشيد : "وأما المكتوبات الشخصية فلا أذكر أنني حفظت صورة مما كتبتة منها قبل هجرتي إلى مصر ، وهو قليل ، إلا كتابي التاريخي الذي أرسلته من طرابلس إلى حكيمنا السيد جمال الدين الأفغاني .." ١٢٩

أساليب متكررة في رسائله

ترد بعض العبارات في رسائل رشيد بصورة متكررة ، وكأنه يؤثرها على غيرها ، لأنها أولى وأصح في الاستعمال ، أو يقصد إشاعتها وإشهارها بين الكتاب ، أو لأنها غلبت على استعماله ، فتكررت في أسلوبه أكثر من غيرها ، ومن ذلك :

١٢٨ - تاريخ الأستاذ: ٨٦/١

١٢٩ - المنار والأزهر: ١٨٧

- ١- (ألقى إليّ كتابك) وهذا تعبير قرآني ، ورد في قوله تعالى : (إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ) ^{١٣٠} وكان رشيد رضا يحب موافقة أساليب القرآن ، وينصح غيره بذلك. ^{١٣١}
- ٢- (مكتوبات) كان يؤثر هذا الجمع مع مفرده (مكتوب) ويكثر من استعمالهما وينكر جمع مكتوب على مكاتيب لأنه جمع غير قياسي. ^{١٣٢}
- ٣- (الكتاب) بمعنى الكتابة الشائعة الاستعمال ، فيقول مثلا : "أبطلت في الكتاب إليك في هذه المرة " وهذا كثير في رسائله. ^{١٣٣}
- ٤- (مرجوع) بمعنى جواب ، من الكلمات الكثيرة الدوران في رسائله. ^{١٣٤}
- ٥- (لما) يستعمل رشيد هذا الحرف كثيرا ، وكأنه رأى أن الناس أهملوه ، واكتفوا بنظيره (لم) غير شاعرين أو أبهين بالفروق اللغوية الدقيقة بينهما ، فأراد أن ينبه إلى ذلك بالاستعمال الكثير كما في قوله : "ولعل تقريظ المنار له قد أرضاك ، ولما يرسل الحلبي إليّ المجلد الثاني منه ، وقد رأيت فذكرته فوعد ، ولما يف ، ولكنه لا بد أن يفى". ^{١٣٥}
- ٦- (وجملة القول - وخلاصة القول) تتكرر هاتان الكلمتان في رسائل رشيد مما يدل على استشعاره بطول الكلام وتشعبه في الرسالة ، فيلجأ إلى تلخيصه وإجماله. ^{١٣٦}
- ٧- (أول من أمس) من العبارات الكثيرة الدوران في رسائله ، ولا يضيف ولو مرة واحدة بأن يقول أول أمس. ^{١٣٧}
- ٨- وهناك كلمات أخرى أقل شيوعا في رسائله ، ولكنها تدل على طرف من أسلوبه الخاص. من ذلك : (افترص) بمعنى انتهز الفرصة ، وهذا أكثر

^{١٣٠}- سورة النمل : ٣٠

^{١٣١}- كما نصح بذلك صديقه شكيبا مذكرا بما كان منه مع أستاذه الشيخ محمد عبده قائلا : "وقد راجعت أستاذنا مرة في كلمة كتبها في مقالات الإسلام والنصرانية ، مخالفة لأسلوب القرآن ، وهي صواب في نفسها ، وكانت المراجعة كتابية ، فكتب إلي بأن أصححها ، أو أغيرها ، وعلل ذلك بأنه لا يجب مخالفة القرآن ، ولو إلى صواب." انظر : السيد رشيد رضا ، ص ٣٨٨

^{١٣٢}- السيد رشيد رضا ، ص ١١٩

^{١٣٣}- السابق: ٣٥١

^{١٣٤}- السابق: ٤١٦

^{١٣٥}- السابق: ٧٣٠

^{١٣٦}- السابق: ٤٨١

^{١٣٧}- السابق: ٤٠٨

شيوخا في استعمال الناس من الصيغة الفعلية. ومنها : (علاوة) بمعنى
الملحق ، كما في قوله : "فقد ألقى إلي أمس كتابك الكريم ، وعلاوته السياسية
، التي هي أكبر منه ، (أو ملحاقه كما يكتب النجديون)" والتعبير المعاصر
أن العلاوة هي الإضافة الكلامية لا المادية. ومنها (بكرة اليوم) أي : صباح
اليوم. ١٣٨

المطلب الثاني : مقالاته

موضوعات مقالاته

كان رشيد رضا من أقطاب النهضة المفكرين والمنظرين والعاملين لها ، ومن دعاة التجديد الديني ، والإصلاح السياسي والاجتماعي والطابع الغالب على هؤلاء هو الشمولية في الرؤية ، والموسوعية في المعرفة ، والتعددية في الاهتمامات ، فلا يرى أحد منهم قاصرا جهده العلمي أو العملي في مجال واحد ، وقد اتخذ معظمهم الجرائد والمجلات من أهم وسائلهم الأدبية لنشر أفكارهم^{١٣٩} ، فكان تنوع موضوعاتها تبعا لتعدد اجتهاداتهم ، "ومعظم المؤلفات التي أخرجها كبار الكتاب ليست سوى مجموعات من المقالات نشرت في الصحف ثم رتبته على حسب موضوعاتها."^{١٤٠}

شرح السيد رشيد رضا في العدد الأول من مجلته الموضوعات التي ستعالجها المجلة فقال : "وغرضها الأول الحث على تربية البنات والبنين ، لا الحط في الأمراء والسلطين ، والترغيب في تحصيل العلوم ، لا الاعتراض على القضاة والقانون ، وإصلاح كتب العلم وطريقة التعليم ، والتنشيط على مجارة الأمم المتمدنة في الأعمال النافعة ، وطروق أبواب الكسب والاقتصاد ، وشرح الدخائل التي مزجت عقائد الأمة ، والأخلاق الرديئة التي أفسدت الكثير من عوائدها ، والتعاليم الخادعة التي لبست الغي بالرشاد ، والتأويلات الباطلة التي شبهت الحق بالباطل ، حتى صار الجبر توحيدا ، وإنكار الأسباب إيمانا ، وترك الأعمال المفيدة توكلا ، ومعرفة الحقائق كفرا وإحادا ، وإيذاء المخالف في المذهب دينا ، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحا ، واغتيال العقل ، وسفاهة الرأي ولاية وعرفانا ، والذلة والمهانة تواضعا ، والخضوع للذل والاستبسال للضيم رضا وتسليما ، والتقليد الأعمى لكل متقدم علما وإيقانا."^{١٤١}

^{١٣٩} - "وكانت صحافتنا قبل الحرب العالمية الأخيرة - صحافة مقال ، أي أنها تعتمد اعتمادا كبيرا في تحريرها على المقالات المختلفة." الأدب وفنونه ، عز الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي ، ص ٢٢٠

^{١٤٠} - الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار: د. جودت الركابي ، دار الفكر ، دمشق - سورية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م ، ص ٣٢٠

^{١٤١} - المنار: ٩/١/١

وبعد أربع وثلاثين سنة كتب إلى شيخ الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي وقد استشاره في تحسين مجلة الأزهر : "أهم أبواب هذه المجلة فيما أرى سبعة." ^{١٤٢} وملخصها:

- ١- باب المقالات الدينية والعلمية والتاريخية والخطابية.
- ٢- باب الفتاوى العلمية.
- ٣- باب كشف الشبهات وحل عقد المشكلات.
- ٤- باب البدع والخرافات.
- ٥- باب التربية والتعليم
- ٦- باب آداب اللغة العربية وتاريخها.
- ٧- باب الاقتباس والانتقاد.

ولو قارنا بين الأبواب السبعة التي اقترحها لمجلة الأزهر - وهي التي تشير إليها مقدمته في العدد الأول - وبين موضوعات مجلة المنار على مدى السبع والثلاثين سنة التي اتصل عملها لوجدناها متطابقة ، وهذا يدل على أن رؤية رشيد رضا في موضوعات مجلته لم تتبدل أثناء هذه الفترة الطويلة ، غاية ما في الأمر أن التركيز على بعض الموضوعات خف مع تقدم سن المجلة ، وزاد التركيز على غيرها ، وهذا ما يبدو في إقلال رشيد من الموضوعات التربوية والتعليمية ، وكثرة تركيزه على معالجة المشاكل الدينية الناشئة من تعقد الحياة المدنية بتفاعلها مع نتائج النظم العلمانية (الرأسمالية والاشتراكية) وخاصة عندما اشتهرت المجلة وصاحبها ، وأصبح كثير من المسلمين في العالم الإسلامي يعولون عليها في فهم الدين كما يشير إلى ذلك كلام العقاد: "ولقد لقيت أنا في بلدي أناسا من أبناء أفريقية العربية الذين يعبرون بأسوان في طريقهم إلى الحج ذاهبين أو عائدين ، فوجدت بينهم من يقرأ مجلة المنار ، ويعول عليها في فهم شعائر الإسلام وأحكامه." ^{١٤٣} كذلك قلت مقالاته في اللغة والأدب ، ولم تعد اهتماماته فيهما كما كانت من قبل ، ويبدو أنه أفسح المجال فيهما لغيره عندما كثر المشاركون في تحرير المجلة معه ، فكان يكتب المقالات الأدبية

^{١٤٢} - السابق: ٢٢٣/٣/٣٢

^{١٤٣} - المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد ، المجلد السابع عشر تراجم وسير ٣ ، دار الكتاب اللبناني - بيروت ، ص ٥٤٧

واللغة - مع آخرين - الأستاذ محمد الخضر حسين ، الذي كتب سلسلة مقالات بعنوان : "الخيال في الشعر العربي" ^{١٤٤} وسلسلة أخرى بعنوان : "القياس في اللغة" ^{١٤٥} وفيما عدا المواضيع العلمية كان نصيب رشيد كنصيب الأسد في تحرير موضوعات المجلة.

شكل المقالة الرشيدية

المقالة الرشيدية غالبا ما تكون مبنية على الثلاثية الآتية : المقدمة ، وصلب الموضوع ، والخاتمة ^{١٤٦} وذلك أنه يمهد للموضوع في المقدمة ، ثم ينتقل إلى صلب الموضوع ، فيشرحه ويبسط فيه المناقشة بالأدلة النقلية والعقلية ، ثم يخلص إلى الخاتمة ليجز فيها النتيجة أو يسجل العبرة المستخلصة ، ويتبع هذا المنهج حتى في مقالاته العامة (الصحفية) التي يعالج بها قضايا ووقائع آنية ، ومن أمثلة ذلك مقاله الآتي ، وعنوانه : "اليهود في فرنسا وفي مصر" الموضوع كان تعليقا على واقعة وقعت في فرنسا ، تمس اليهود بسوء ، فكتب السيد رشيد رضا هذا المقال الذي استهله بقوله : "قبل أن يلبس بونابرت تاج الإمبراطورية كانت حجته القوية لدى الشعب الفرنسي دفاعه عن الحرية العمومية ، وخدمة المبادئ الجمهورية ، غير انه بعد ارتفاعه العرش الإمبراطوري لم يأل جهدا في محو تلك الحرية ، ودوس تلك المبادئ الدستورية ، وهذا شأن الإنسان في كل أن يطلب الحرية مرعوسا ، ويكرهها رئيسا ، يستخدم العدالة مظلوما ان وينبذها ظالما ، إلا من وفقه الله (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ)" ^{١٤٧} ثم شرع في صلب الموضوع ، وعرض الواقعة التي حدثت فقال : "لقد شاعت أنباء المشاكل السياسية الداخلية في فرنسا إثر مسألة "دريفوس" وقضية "زولا" وما قاساه اليهود فيها من الإهانة والاضطهاد وسوء المعاملة." ^{١٤٩} وحل مصدر هذا الاضطهاد ، مستبعدا أن يكون بسبب التعصب الديني ، لأن الدين قد خبا في نفوس

^{١٤٤} - المنار: ١٤١/٢/٢٢

^{١٤٥} - السابق: ٦٠٢/٨ / ٢٢

^{١٤٦} - وهذا من مقومات المقالة. انظر: أدب عصر النهضة: د. شفيق البقاعي ، دار العلم للملايين ، بيروت -

لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م ، ص ٢٦٠

^{١٤٧} - سورة ص : ٢٤

^{١٤٨} - المنار: ٥٣/٢/١

^{١٤٩} - المنار: ٥٣/٢/١

هؤلاء ، ورجح أن يكون سببه التعصب العرقي ، والحسد على اليهود لثرائهم الكبير ، ثم ذكر أنه لو حدث لليهود في بلد شرقي مثل ما حدث لهم في فرنسا لكان موقفهم وموقف الفرنسيين ومن وراءهم من الأوربيين مختلفا كل الاختلاف ، ثم تعجب رشيد - وربما هذا سبب كتابته في الموضوع - من تقليد الجرائد المصرية للجرائد الفرنسية في الهجوم على اليهود فقال : "ومن الغريب أن داء الجرائد الإفريقية قد سرى إلى بعض الجرائد المصرية ، فقامت تصلي اليهود نارا حامية ، وتأخذ عليهم مهارتهم في الكسب".^{١٥٠} ثم دافع عن اليهود لكونهم شعبا لا يمكن تجريمه برمته بجريمة فرد أو أفراد معدودين ، ثم خلص إلى ختام المقال ، وسجل فيه رأيه وتوصيته بوجوب العدالة في حق اليهود أينما كانوا ، وبعدم نقل فتنة فرنسا إلى مصر فقال : "أما نحن فرأينا أن الحرية العمومية ليست مختصة بفريق دون فريق .. فالمأمول أن لا يدخل الكتاب في هيئتنا الشرقية عاملا جديدا للنزاع والشقاق ، فحسبنا ما لدينا من تلك العوامل القبيحة ، وإنا الآن أحوج إلى عوامل الاتفاق منا إلى عوامل الشقاق".^{١٥١}

تطول أحيانا مقدمة المقال عند السيد رشيد رضا ، فتطغى على المقال ، وتستحوذ على معظم مساحته ، وكأنها المقصودة دونه ، ومن ذلك مقال له بعنوان : "القوة للحق والحق بالقوة" وغرضه فيه حث الشعوب والعناصر المكونة للخلافة العثمانية على الحرص بالاتحاد ، والتمسك بالرابطة العثمانية ، مع تحقيق المنافسة الشريفة والعدالة في تطوير مناطقهم بالعلم والتنمية الاقتصادية والزراعية وكل أسباب القوة ولكنه مهد له بمقدمة في فلسفة القوة ، وأنها محبوبة ، وبها ينال الحق ويحفظ ، ومشروعية المنافسة ، وتحقيق التوازن بينهما بالعدل ، وضرب الأمثلة لذلك من حياة البشر ومن حياة الأمم والدول ، وأن أوروبا نالت ما نالت من التقدم بسبب التنافس والتباري في اكتساب أسباب القوة ، والاحتماء بها ، سواء أكانت تلك القوة ذاتية بالنسبة للدول ذوات الكثافة السكانية أو كانت قوة جاءت بالاتحاد والتعاون مع دول أخرى ، وهذا ما تلجأ إليه الدول القليلة السكان. استغرقت هذه المقدمة أكثر من ثلثي المقال ، وبدأها بقوله : "كن قويا بالحق يعرف لك حقك كل أحد : العلم قوة ، والعقل

^{١٥٠} - السابق: ٥٣/٢/١
^{١٥١} - السابق: ٥٣/٢/١ - ٥٤

قوة ، والفضيلة قوة ، والاجتماع قوة ، والثروة قوة ، فاطلب هذه القوى بالحق ، تنل بها كل حق ، وتحفظ كل حق موجود." ١٥٢

ثم انتهى إلى معالجة الموضوع الأساسي ، فقال : " علينا نحن معاشر العثمانيين أن نكون على بصيرة في حياتنا الجديدة التي نستقبلها للدستور .. نحن أمة مؤلفة من شعوب شتى ، لا جامعة لها كلها إلا اعتقادها أن ارتباط بعضها ببعض يكون لها قوة عامة ، يعتز بها كل واحد منها ، وتكون مباراته ومنافسته للآخر من غير بغي ولا عدوان سببا لقوة الوحدة العامة بقوة أفرادها." ١٥٣

وفي خاتمة المقال لخص الهدف من ورائه ، وزبدة أفكاره ، ونقطة ارتكازه بقوله : "وجملة القول : أن هذا العصر هو عصر المباراة والمنافسة ، من سبق فيه ساد وعلا ، ومن تخلف فيه خاب وخسر ، وامتهن واحقر ، فعلى العقلاء من كل عنصر ، وفي كل ولاية ، وكل بلد أن يحثوا قومهم على ذلك ، وأن تكون وجهتهم فيه ترقية الأمة والدولة بترقية أنفسهم ، ليكونوا بعلومهم ومعارفهم وثروتهم واجتماعهم حصنهما الحصين وركنهما الركين." ١٥٤

عناوين المقالات

يلاحظ في عناوين مقالات السيد رشيد رضا أمور منها : أنها موجزة غالبا فلا يلجأ إلى العناوين الطويلة التي تأخذ سطرًا كاملاً أو نحوه ، وهذا دليل على وعيه بما يتطلبه فن المقالة الحديثة من التأنق في اختيار عناوينها ، ومراعاة الدقة والإيجاز فيها ١٥٥ ولعل العناوين التالية - وهي لثلاثة أعداد متتالية من السنة الأولى تشير إلى شيء من هذه الظاهرة ، وهي :

العدد الخامس :

- الموالد أو المعارض.

١٥٢ - المنار: ٥٩٧/٨/١٣

١٥٣ - السابق: ٥٩٧/١١/١٣

١٥٤ - السابق: ٥٩٧/١١/١٣

١٥٥ - يقول بعض الباحثين في معايير عنوان المقالة : "ويجب أن يتسم بالتركيز والإيجاز والتعبير عن الموضوع." انظر: فن المقالة: أ.د. صالح أبو إصبع (بمشاركة) ، دار مجدولاي للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م ، ص ٢٨

- المنار في بلاد الشام.
 - الشرقيين الأدنى والأقصى.
- العدد السادس :

- منكرات الموالد.
 - صدمة جديدة على اللغة العربية (١)
 - خبر واعتبار.
 - رئيس الولايات المتحدة والحرب.
- العدد السابع :

- كيف السبيل
- صدمة جديدة على اللغة العربية (٢)
- رواية اليتيم.

ومن خصائص عناوينه انه كثيرا ما يستعيرها من القرآن والأحاديث النبوية الشريفة ، ولا يلزم أن تكون الموضوعات التي يستعير لها هذه النصوص المقدسة موضوعات دينية. بل قد تكون إصلاحية أو اجتماعية أو سياسية ، ومنها هذه الأمثلة اليسيرة :

١- "ويل للعرب من شر قد اقترب" ^{١٥٦} والموضوع في الحرب بين السعودية واليمن. ^{١٥٧}

٢- (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) ^٤ والموضوع في الانحراف عن الإسلام. ^٤

٣- (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) ^{١٥٩} الموضوع نقد الطرق الصوفية. ^{١٦٠}

٤- (فادعوا الله مخلصين له الدين) ^{١٦١} الموضوع في الرد على منتقد للمجلة.

^{١٥٦} - صحيح البخاري : ٢٥٨٩/٦ ، صحيح مسلم : ٢٢٠٧/٤

^{١٥٧} - المنار : ٧٤٠/١٠/٣٣

^٤ - ^{١٥٨} سورة الأحزاب : ٦٧

^٤ - المنار : ٦٠٦/٣٢/١

^{١٥٩} - سورة الأحزاب : ٤

^{١٦٠} - المنار : ٤١٠/٣٢/١

^{١٦١} - سورة غافر : ٤٠

- ٥- (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) ^{١٦٣} الموضوع في تخلف المسلمين. ^{١٦٤}
- ٦- تبصرة وذكر لقوم يعلمون: ^{١٦٥} الموضوع في التربية والتهديب. ^{١٦٦}
- ٧- (بهتان عظيم) ^{١٦٧} الموضوع في الرد على متجن على أستاذه الشيخ محمد عبده ^{١٦٨}
- ٨- النبا العظيم: ^{١٦٩} الموضوع في نقد ما نشر عن اكتشافات علمية. ^{١٧٠}

الخصائص اللغوية والأسلوبية

تحدث رشيد رضا عن اللغة التي كان يكتب بها المجلة ، فقال في معرض حديثه عن النصائح التي قدمها إليه أستاذه الإمام محمد عبده : "كان يقول لي مرارا إن المنار في موضوعه ولغته لا يفهم أكثر ما فيه إلا الخواص ، فينبغي أن تتحرى من سهولة العبارة ، وقلة غريب اللغة فيها ، ما يقربه من أفهام القارئين ، حتى العوام منهم ، وقد تحريت موافقته في هذه ، حتى إن قارئ المنار ليجدون من غريب اللغة في السنة الأولى ما لا يجدون فيما بعدها ، ولكن بقي أكثر مباحثه للخواص بالرغم من ذلك التحري." ^{١٧١} وهذا هو الذي يظهر عند التمحيص ، من أن لغته في المجلة بصفة عامة لغة الخواص من أهل العلم والأدب وليست لغة الجرائد المعهودة في أيامه ، ولعل طبيعة موضوعات المجلة ، وكونها مجلة شهرية تناسب تلك اللغة ، وأكثر ما تقع المفردات الغريبة في كلام رشيد مقالاته ذوات النزعة الخطابية ، وكذلك مقدمات مقالاته التي يتوخى فيها التركيز في العبارة ، ويحرص فيها على الجمل المترادفة والمتقابلة ، فمن مقالاته الخطابية التي حشا فيها الكلمات

^{١٦٢} - المنار: ٤٤٧/٢٤/١

^{١٦٣} - سورة هود: ١١٧

^{١٦٤} - المنار: ٨٥٨/٣١/١

^{١٦٥} - لفظ الآية (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) سورة ق: ٨

^{١٦٦} - المنار: ٦٩/٤/١

^{١٦٧} - سورة النور: ١٦

^{١٦٨} - المنار: ١٩٩/١٢/١

^{١٦٩} - لفظ الآية (عم يتساءلون عن النبا العظيم) سورة النبا: ١-٢

^{١٧٠} - المنار: ٦٧/٣/٦

^{١٧١} - السيد رشيد رضا: ١٧٩

الغريبة مقالة له بعنوان : "صيحة حق" بدأها بقوله : "أيها الشرقي كيف يطيب لك النوم على غوارب هذه الأمواج المضطربة ، وفي مهاب هذه العواصف العاتية ، أما أزعجك هذا الموج الملتطم ، وأرهبك هذا اللج المغتم أما أقلق هزيز هذه الرياح المتناوحة ، وهزت جسمك زعازعها المتراوحة ، أما صخت آذانك ، وخدرت جثمانك ، فيتعذر إسماعك وحسيسك ، ووقع اليأس من إيقاظك وتنبهك ، لو كنت يقظان لكنت أجدر بالأطيط من الغطيط." ^{١٧٢} على هذا النحو تمضي المقالة ، وتتكاثر فيها الكلمات الغريبة ، التي تحتاج إلى شرح وتفسير ، فشرح رشيد بعضها ، ولم يشرح البعض الآخر ، وبلغ مشروحه ثلاثا وعشرين كلمة ، ولكن هذا الصنيع من رشيد رضا في استكثار الغريب ، كأنه مقصود لذاته نادر في مقالاته ، حتى الخطابية منها ، بدليل أنه - باستثناء المقال السابق - لم يشرح أي كلمة في الهامش في الأعداد التسع والأربعين لمجلد السنة الأولى ، التي ذكر أن الغريب فيها أكثر من سائر أعداد المجلة ، لكنه شرح بعض الكلمات واضعا الشرح بين قوسين ، ومن ذلك قوله : "وكأنني أسمع كريرا (هو صوت من الصدر كصوت المنخق)" ^(١٧٣) وقوله : "التواكل والتناوة (ترك المذاكرة والمدارسة)" ^{١٧٤} وقوله : "ولا يمكن أن نسابق الفسكل (الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل)." ^{١٧٥} وقوله : "تسموهم ونبدّهم (نعلوهم ونغلبهم)" ^{١٧٦} كما أنه ضرب صفحا عن تفسير كثير من الغريب الذي يبدو أنه كان يعتمد اجتلابه. ^{١٧٧}

بين الموضوعية والخطابية

يعالج السيد رشيد رضا مقالاته بإحدى طريقتين ؛ طريقة موضوعية وطريقة خطابية. ^{١٧٨} أما الطريقة الأولى فهي الغالبة على استخدامه ، ويتناول بها

^{١٧٢} - المنار: ٢١٧/١٣/١

^{١٧٣} - السابق: ٨٠٥/٤١/١

^{١٧٤} - السابق: ٣٤١/١٩/١

^{١٧٥} - المنار: ٢٧٨/١٦/١

^{١٧٦} - السابق: ٢٧٨/١٦/١

^{١٧٧} - ومنه : بهرة الإسلام أي : بلده (القاموس المحيط ٤٥٣) - هجير الجور بمعنى شدة حره (القاموس المحيط

ص٦٣٨) - الزعازع " الشدائد (القاموس المحيط ص ٩٣٦) انظر المنار: ٨٠٥/٤١/١

^{١٧٨} - يقسم بعض الدارسين المقال إلى نوعين : ذاتي وموضوعي ، وبعضهم إلى ثلاثة أقسام : المقال العلمي ، والمقال الأدبي والمقال الصحفي. انظر : فن المقالة ، د. محمد يوسف النجم ، دار صادر ، بيروت ، ودار الشرق

موضوعاته التربوية والاجتماعية والإصلاحية والدينية وغيرها من الموضوعات ذوات الطابع العلمي ، وخصائصها - كما سبق في شكل المقالة - أن يمهد للموضوع بمقدمة تشير إلى طابعه ، وتشوق القارئ إليه ثم يخلص منها إلى صلب الموضوع فيعرض لتفاصيله ، ويبسط مناقشة قضاياها بما لديه من الحجج والبرهين ووسائل الإقناع المتاحة ، ثم يختم الموضوع بخاتمة توجز أفكاره ، وتستخلص نتائجه ، وأسلوبه في هذه الطريقة هادئ لأنه يحاطب العقل ويناجي الفكر ، ومن نماذج هذا الأسلوب قوله في بعض مقالاته بعنوان : "الصيام والتمدن" : "أكتب هذه المقالة لطائفتين من المسلمين ؛ طائفة تصوم ذاهلة عن معنى الصوم ، محرومة من فوائده ومزاياه ، فصومها أقرب إلى العادة منه إلى العبادة ، وطائفة أفرطت في الترف والتتعم ، واسترسلت في الشهوات استرسالا ، فشق عليها الصوم ، فتركته غير مبالاة بالأمر الإلهي ، ولا ملتفتة إلى ما في هذه العبادة من المنافع الروحية والجسدية .." ^{١٧٩} وهكذا يبدو أسلوب هذه الطريقة أسلوبا علميا منطقيًا ، يعرض القضية على بساط البحث والمناقشة بالأدلة النقلية والعقلية ، فأسلوب هذه الطريقة إذاً هو الأسلوب العلمي.

وأما الطريقة الخطابية فهي التي يصوغ بها مقالات يخاطب بها عاطفة الجمهور ، ويقصد من ورائها إثارة مشاعرهم ، وتهيج عواطفهم ، واستنهاض همهم إلى أمر يحثهم عليه ، واستثارة اشمئزهم من منكر يقصد تنفيرهم منه وإعراضهم عنه ، وهذا النوع من كلامه أشبه بالخطب المنبرية منه بالمقالات الصحفية ، وقد سبق أن عد رشيد الخطابة إحدى الموضوعات الصحفية ، حين اقترح مواضيع مجلة الأزهر فقال : "أهم أبواب هذه المجلة فيما أرى سبعة : الباب الأول : باب المقالات الدينية والعلمية والتاريخية والخطابية." ^{١٨٠}

ومن نماذج مقالاته ذوات الطابع الخطابي قوله في مقالة عنوانها : (ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأصلونا السبيلا) ^{١٨١} : "اللهم غوثا غوثا ، ورحمة ولطفًا. اللهم عونا

، عمان ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م ، ص ٥٣ ، فن المقال الصحفي ، د. إسماعيل إبراهيم ، دار الفجر للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣م ، ص ٦٩
^{١٧٩} - المنار: ٦٧٤/٤٣/٢
^{١٨٠} - المنار: ٢٢٣/٣/٣٢
^{١٨١} - سورة الأحزاب: ٦٧

عونا ، ومنة وفضلا. انظر اللهم إلى هذه الأمة التي شقيت بعد السعادة ، ،
 واستعبدت بعد السيادة ، وذلت بعد العز ، وافتقرت بعد الغنى ، وضعفت بعد القوة ،
 وجهلت بعد العلم ، وظلمت بعد العدل ، وفسقت بعد الطاعة ، و (كفرت بأنعم الله
 فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ^{١٨٢} اللهم قد مسن الرجال ،
 وفنك النساء ، وعم الجهل ، وساءت التربية ، وأرسلت الحبال على الغوارب ، فصار
 المعروف منكرا ، والمنكر معروفا .." ^{١٨٣}

وهكذا يسترسل في مقاله كله أو خطبته بالأحرى بجمل متناظرة ، وأخرى
 متقابلة ، ينادي ويدعو ، ويتعجب ويعجب ، لأن المقام مقام استثارة واستنهاض ، لا
 مقام جدال وإقناع ، ولا مقام تعليم وتفهم ، ومن مقالاته الخطابية المثيرة والعنيفة ما
 كتبه عندما خلع السلطان عبد الحميد ، وأودع في السجن ^{١٨٤} : "قل اللهم مالك
 الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء
 بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) ^{١٨٥} جلت قدرة الله ، ونفذت مشيئته ، وغلب
 قدره ، وعلت كلمته ، جعل الأيام دولا ، وجعل للدول نواميس وسننا ، فلا مبدل
 لسننه ، ولا محول لنواميس خلقه ، فلا يغررك إملاؤه للظالمين ، واستدراجه للمفسدين
 ، (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ..) ^{١٨٦} لا ينفذ من قدره حذر ، ولا ينفذ
 من محيط سننه سلطان البشر ، فلا يهولنك ما ترى من رسوخ الاستبداد .. لقد
 صدقنا وعده ووعيده ، وأرانا بأعيننا مصداق كتابه ، فهذا عبد الحميد خان وأعوانه
 وقرناؤه وخصيانه وجواريه وغلماناه ، قد بغوا في الأرض ، وتركوا السنة والفرص ،
 وعطلوا الشريعة والقوانين ، واستبدوا بجميع العثمانيين ، وجمعوا القناطير المقنطرة
 من الأموال ، وحشدوا لحمايتهم الألوف المؤلفة من الرجال ، وأقاموا المعازل
 والحصون ليمنعوا أنفسهم أن يصلوا عليها المظلومون (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم
 من الله فأتاهم من حيث لم يحتسبوا ..) ^{١٨٧} نعم .. إن في ذلك لكبرى العبر لمن

^{١٨٢} - سورة النحل : ١١٢

^{١٨٣} - المنار: ٦٠٦/٣٢/١

^{١٨٤} - السابق: ٢٧٦/٤/١٢

^{١٨٥} - سورة آل عمران : ٢٦

^{١٨٦} - سورة إبراهيم : ٤٢

^{١٨٧} - سورة الحشر : ٢

يعقل ويتدبر (كلا والقمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر..)^{١٨٨}

وهي مقالة طويلة استمد فيها رشيد من بحر بحر حماسه ، وكأنها نفثة مصدور ، ونغمة مصدوم ، وتنفس مكبوت ، وآهة مجروح ، واقتبس لها من الآيات والآثار والأشعار ما كساها حلة بديعة ، وأخرجها في ثوب أدبي قشيب ، وهكذا يبدو المقال في أسلوبه وأدواته مقالا خطابيا ، يدور حول فكرة واحدة ، وهي تسجيل خواطر وانطباعات رشيد رضا من هذا الحدث الجلل.

المحسنات البديعية

يذكر النقاد ومؤرخو الأدب أن الصحافة في العالم العربي مرت بمراحل عدة ، يختلفون في تحديد عددها ، ويتفقون على أنها بدأت مع جريدة الوقائع المصرية ، التي أنشئت في عهد محمد علي باشا ، وأن المقالات الصحفية في مرحلتها الأولى كانت مثقلة بالسجع وأنواع البديع المختلفة ، ثم عاقبت تلك المرحلة مرحلة الريادة الصحفية ، التي مثلت الانطلاقة الحقيقية للصناعة الصحفية شكلا ومضمونا ، وهذه الفترة مدينة - كما يذكرون - للسيد جمال الدين الأفغاني ؛ موقظ الشرق ورائد النهضة فيه ، ثم تدرجت الصحافة في مدارج التطور إلى أن انتهت إلى الصحفيين المحترفين والمتخصصين.

يكاد رشيد رضا يكون معاصرا لمعظم مراحل التطور الصحفي^{١٨٩} فقد أنشأ مجلة المنار في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٨م) واتصل نشاطه الصحفي إلى ما يزيد على الثلث الأول من القرن العشرين (١٩٣٥م) ويظهر على أسلوبه في أعداد المجلة الأولى سمات مرحلة الريادة ، من علو في اللغة ، وسمو أدبي في الأسلوب ، وخطابية في الأداء ، وقلة احتفال بالسجع والمحسنات البديعية.

^{١٨٨} - سورة المدثر : ٣٢-٣٦

^{١٨٩} - ومن الباحثين من يضعه في المرحلة الثالثة التي برزت فيها "طلائع المدرسة الأدبية والصحفية الحديثة" ويقرّنه بأحمد لطفي السيد ، وعلى يوسف ، وخليل مطران ، وعبد العزيز جاويش. انظر: دراسات ومقالات في الأدب العربي: د. أحمد بن ناصر الدخيل ، نادي المنطقة الشرقية الأدبي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م ، ص ١٧٠

ويبدو أن السيد رشيد رضا قد تخلص من الأسلوب المسجوع في وقت مبكر ، بتأثير من أستاذه الشيخ حسين الجسر ، ودليل ذلك أن أول مقالة كتبه رشيد في مجلة "طرابلس" بطلب وحث من شيخه المذكور ، ثم نشره فيما بعد في مجلة المنار ، لا يختلف في قوة لغته ، ومتانة أسلوبه ، وخلوه من السجع المتكلف عن بقية مقالات مجلة المنار ، وأما السجع غير المتكلف فمقالاته حافلة به ، كما لاحظ شكيب أرسلان الذي قال تعليقا على ذكر رشيد رضا نفوره وكرهيته للسجع : "كان السيد المترجم يكره تكلف السجع ، ولكنه كثيرا ما يستعمل السجع إذا جاء عفوا بدون تكلف".^{١٩٠} وكثرة وقوع السجع في أسلوبه من غير طلب أو استكراه دليل على اتساع محفوظه اللغوي ، وكثرة محصوله الأدبي ، وشاعرية طبعه ، "والشاعر فيما نرى تأتيه السجعات عفو الخاطر غالب الأحيان".^{١٩١} كما لاحظ هو في نثر أحمد شوقي فقال : "نعم إنه في الشعر أعلى كعبا ، وأرسخ قدما ، وإن روح الشعر اللطيفة تطوف في جميع منشوره".^{١٩٢} ومن سجعه غير المتكلف ما في هذه المقالة بعنوان : "الدين والمدنية في الشرق" : "فالشرق هو مهبط الوحي ، ومشرق شمس الأديان ، وهو الجدير بالمحافظة على الدين ، وإن استهان به سائر العالمين ، والدين وضع إلهي حق يأمر بتزكية النفس وتطهيرها ، ويحث على الحب والائتلاف ، وينهى عن العدا والاختلاف"^{١٩٣}

ومن سمات أسلوب رشيد البديعية كثرة اقتباساته من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وسبب ذلك يرجع إلى كونه عالم دين ، تجري هذه النصوص المقدسة على لسانه ليل نهار ، في مواضعه وخطبه ، وفي كتابة رسائله ومؤلفاته الدينية ، فلا غرابة إذا أن يتسرب كثير من هذه النصوص - وهي قمة النماذج الأدبية - إلى مقالاته الصحفية ، ولاحظ الباحث أنه كثيرا ما يأتي بهذه الاقتباسات في مفتتح مقالاته ، ويجعلها منطلقا في حديثه ، وكأنه أراد أن تحقق له براعة الاستهلال ، وقوة الاستناد في آن واحد ، وذلك كقوله في مقال بعنوان : (دائرة

^{١٩٠} - السيد رشيد رضا: ١١٧

^{١٩١} - لأمير شكيب أرسلان ١٦١

^{١٩٢} - المنار: ٢٤:٥٦٦/٣

^{١٩٣} - المنار: ٢٤٢/١/١

المعارف الإسلامية ومفاسدها) : "اسم خادع كسور له باب ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب" ^{١٩٤} وفي آخر بعنوان : (التربية الإسلامية والتعليم الإسلامي) : "كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، تلوكهما الألسنة والأقلام ، وتجولان في جميع الأذهان ، ويتحدث بهما الرجال والنساء والولدان". ^{١٩٥} ويقول في مستهل ثالث عنوانه : (الاستقلال ما هو ؟) : "الاستقلال ما الاستقلال وما أدراك ما الاستقلال". ^{١٩٦}

وهكذا يكثر رشيد من الاعتماد على النصوص المقدسة في بداية المقال ، ربما لتعطي كلامه قوة وجمالا في وقت واحد ، وأما اقتباساته في غير هذا الموطن فكثيرة ، لا تحتاج إلى الاستشهاد والاستدلال ، وقد لا يخلو منها أكثر مقالاته ، وخاصة الطويلة منها.

^{١٩٤} - السابق: ٣٨٦/٥/٣٤ ، انظر في سورة الحديد : ١٣

^{١٩٥} - السابق: ٥٤٤/٧/٣٤ ، انظر صحيح البخاري : ٢٣٥٢/٥ ، ومسلم : ٢٠٧٣/٤

^{١٩٦} - السابق: ٢٩٧/٦/٢١ ، انظر مثلا سورة القارعة : ١،٢

المطلب الثالث : أدب رحلاته

منهجه في كتابة الرحلات

لم يكن رشيد رضا سائحا أو رحالة يقصد من رحلاته الاستجمام والتمتع أو الاستكشاف والاطلاع ، وتسجيل مشاهداته على أساس يومي ، وإنما دفعه إلى القيام بتلك الرحلات أغراض أخرى أهم وأولى بالنسبة إليه من مجرد السياحة والزيارة ، فقد كان وراء كل رحلة غرض محدد ومهمة واضحة ، غالبا ما تكون إصلاحية أو دينية ، ولهذا اختلف أسلوبه في الكتابة باختلاف دائرة اهتمامه في كل رحلة ، ومع ذلك فقد حرص رشيد في كل رحلاته على الآتي :

١- أن يستبعد المعلومات العامة المعروفة غالبا عن الجهات التي يزورها ، والتي قد يكون بعضها مدونا في الكتب ، كما استبعد أن ينقل أو يستمد مادة رحلاته من كتاب.

٢- أن يصرف اهتمامه إلى ما فيه العبرة والفائدة والنكته ، وإلى الأشياء التي يعجب بها أو يستظرفها ، وهذا ما يعبر عنه بقوله: "وإنما يحسن فيها تقييد بعض الشوارد المبعثرة ، والنوادر التي لا تتال باليسير من المراجعة ، والنوادر التي تزدان بها المحاضرة ، وما يستتبطه السائح من العبرة والفائدة ، حتى فيما صورته الفكاهة والتسلية." ^{١٩٧}

٣- أن لا يلزم نفسه باتباع الطريقة اليومية في تسجيل المعلومات ، وإنما يصوغ ما لديه من المعلومات والملاحظات بطريقة موضوعية ، لا تخضع للإطار الزمني الذي وقعت أو جمعت فيها المعلومات ، وقد يشير إلى الأيام ، ويرتب المعلومات على أساس يومي ، وخاصة إذا كان على ظهر سفر ، وكانت المعلومات مشاهدات عامة أو أحداث متسلسلة. ^{١٩٨}

٤- الفصل بين ما يكتبه عن المهام الأساسية ، التي قام من أجلها بالزيارة ، وبين ما يراه مناسبا لأدب الرحلة ، فينشر الثاني بمجلة المنار بعنوان : الرحلة الفلانية ، وينشر الأول بموضوع يناسبه ، ولا يدخله في الرحلة غالبا.

^{١٩٧} - المنار: ٣٠٦/٤/٢٣

^{١٩٨} - السابق: ١١٤/٢/٢٣

أسلوبه في كتابة الرحلات

أسلوبه في تدوين رحلاته هو الأسلوب العلمي ، الذي يراعي الوضوح والدقة ، لأنه في الغالب يشرح قضايا تحتاج إلى وضوح الأسلوب ، ودقة الأداء ، لكي تفهم ، ولكنه يلجأ أحيانا إلى الأسلوب الأدبي^{١٩٩} وذلك عندما يصف مشاهدات عامة أو يعبر عن إحساسه الخاص بما يستثير مشاعره من منظر طبيعي آخاذ تهش له نفسه ، وما يخشع له وجدانه من جلاله الشعائر المعظمة في المدن المقدسة التي زارها ، فيستعين بخياله في تصوير تلك المشاهد ، كوصفه لمشاعره عند رؤية الكعبة المشرفة لأول مرة في حياته ، وما غشيه من المشاعر الفياضة قائلا : "حتى إذا اكتحلت عينه برؤية الكعبة المعظمة ، وراع القلب ما جللها من المهابة والعظمة ، تذكر أنها أول بيت وضع للناس ، ومباركا وهدى للعالمين .. فإذا دنا من مهبط الروح الأمين ، ومصطاف الملائكة والنبیین والصدیقین واشهداء والصالحین ، فلا تسأل ثم عن الدموع كيف تنسكب ، وعن الضلوع كيف تضطرب ، وعن الأعناق كيف تخضع ، وعن القلوب كيف تخشع ، ولا عن وجدان الإيمان كيف يتألق نوره في الجنان ، ويفيض بيانه على اللسان ، فيحركه بما يلهم من الثناء ، وما يشعر بالحاجة إليه من الدعاء ، لا تسأل - أيها القارئ - عن شيء من ذلك ، ولا عن غيره مما يكون عند أداء المناسك ، فمن ذاق عرف ومن حرم انحرف."^{٢٠٠}

إن من أبرز سمات أدب الرحلات كما يراه بعض الدارسين "الانصراف عن اللهو والعبث اللفظي ، والطلاء السطحي ، والإيثار للتعبير السهل ، المستقيم الناضج بغنى التجربة ، وصدق اللهجة الشخصية ، مما لا نجده متوافرا عند البلغاء ، والأدباء المحترفين ، ونجده بقوة عند العلماء ، وفقهاء الدين ، والمؤرخين ، وهؤلاء الرحالين ."^{٢٠١}

^{١٩٩} - أسلوب أدب الرحلة تتجاذبه فنون أدبية عدة كما يشرحه أحد الباحثين بقوله : "يعد أدب الرحلات من أهم فنون الأدب العربي بعد الشعر والرواية وأكثرها خصبا ومتعة لأن هذا الأدب لم يكن وصف الرحلة فيه خالصا فقد امتزج بعض القصص والتقارير العلمي والمذكرات واليوميات والسيرة الغيرية والسيرة الذاتية." أساليب

التعبير الأدبي : ص ١٩٧

^{٢٠٠} - المنار: ١٢١/٢/٢٠

^{٢٠١} - أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي : ٦

المطلب الرابع : تراجمه الأدبية الدرجة الفنية في تراجمه الأدبية

اقتصرت الباحثة على نموذجين من تراجمه الأدبية ، أهمهما ترجمته الغيرية في أستاذه الإمام محمد عبده ، وعنوانها : (تاريخ الأستاذ الإمام) ، والآخر ترجمته لنفسه في كتابه : (المنار والأزهر) ، فإذا عدنا بهما إلى الأسس الفنية لفن السير الأدبية ، وعرضناهما على مقاييسه ومميزاته ، التي تفصله عن علم التاريخ وفن القصة ، وتضعه في الأشكال الأدبية ، وجدناهما قد استوفيا هذه الأسس والمقاييس ، فمن حيث الدوافع والبواعث ، يظهر أن رشيدا كان معجبا ومحبا لأستاذه إعجابا وحباً لا حدود لهما ، الأمر الذي جعله يفضل ويقدّمه في علمه وعمله وفكره على كل أحد ، وجعله داعية لزعامته وإمامته ، لإيمانه بأن الإصلاح الإسلامي لا ينهض إلا به^{٢٠٢}

كان هذا الحب والإعجاب أكبر سبب في أن يكتب سيرته ، ليس لتخليد ذكره فقط ، وإنما ليحمله نموذجا يحتذى به ، ويستهدى بسيرته ، ، ولهذا توجه إلى الأمة المصرية بقوله : "قد آن للأمة ، وقد صار لها زعماء تنقاد لهم ، ومجلس نواب يسيطر على حكومتهم ، وكتاب بلغاء يدعون إلى المصلحة العامة ، وخطباء مصاقع يهزون قلوب الخاصة والعامة ، أن تراجع مناقب هذا الإمام ، التي فصلناها في هذا التاريخ ، وتقرر ما يجب عليها ، من إحياء ذكره ، والاهتداء بإرشاده ، وبناء أسس التربية والتعليم الديني والمدني على أسس قواعده ، وتتعاون أحزابها وحكوماتها على تنفيذ ما قررت في الوقت القريب المناسب له ، فإنها هي القواعد الحكيمة ، التي تحفظ لها قواعدها وأخلاقها ، وتكوين بيوتها (عائلاتهما) ، ونماء ثروتها ، وترسيخ دعائم استقلالها ، وتجعلها قدوة للبلاد العربية والشعوب الإسلامية."^{٢٠٣}

^{٢٠٢} - وفي هذا الشأن يقول د. طه وادي : "ويلاحظ في الترجمة الغيرية - غالبا - أن المترجم معجب بالشخصية التي يترجم لها." انظر: هيكل رائد الروية: د. طه وادي ، دار النشر للجامعات ، الطبعة الثانية ،

١٩٩٦م ، ص ٣٨

^{٢٠٣} - تاريخ الأستاذ: ١/١٠٧٠

تجمع لدى رشيد رضا من أخبار الإمام ، بحكم اختصاصه به ، ما خفي على غيره^{٢٠٤} فأراد وفاء له وللتاريخ ، ونصحا للأمة أن يضطلع بواجب نشره ، ولتحقيق الموضوعية والصدق التاريخي البعيد عن التزديد ، وعن الخيال غير الواقعي ، وتوثيقا للمعلومات التي عرضها^{٢٠٥} ذكر السيد رشيد رضا المصادر التي استقى منها مادة سيرته ، فبلغت عشرين مصدرا ومرجعا ، معظمها مستمد من صاحب الترجمة^{٢٠٦} ثم ذكر أنه يلتزم الموضوعية والنزاهة ، في تقديم الصورة الحقيقية للمترجم له ، دون القصد إلى إبراز الجوانب المضيئة فقط من حياته ، وإسقاط أو إهمال الجوانب السلبية فقال : "وقد جريت على سنن علمائنا المتقدمين من رواة الآثار المحدثين ، في بيان آراء الأستاذ ، وعاداته وشمائله وأخلاقه بالصراحة والحرية والصدق ، ومنها ما هو منتقد عندي على ما كان بيننا من الاتفاق الذي يندر أن يوجد مثله بين اثنين من الناس ، وأنا أعلم أن منها ما يكون منتقدا في نظر غيري وإن كان صوابا عندي ، ومنها ما ينتقد نشره ، لأن مثله غير معتاد ، أو لأنه من مبالغاته ، التي ربما كان يقصد بها التأثير الخاص ، ككلمته في تحييف الفقهاء ، وهذا نادر ، ومن أنعم النظر في فوائد هذا الاستقصاء رأى أن أهمها تمثيل حقيقة الرجل من كل ناحية ، كي يحيط به القارئ خبرا ، ويحكم عليه حكما صحيحا ، فإن الذين يترجمون الرجال بذكر محاسنهم ومناقبهم ، وإخفاء هناتهم ومثالبهم ، إنما هم شعراء مداحون ، لا مؤرخون حقيقيون."^{٢٠٧}

أحاطت هذه الصورة التي رسمها السيد رشيد رضا لشيخه بحياته الكاملة ، في تدرجها وتطورها ، وما تقلب فيه من نعم ، أو اكتنفته من محن ، وما ثبت عليه من آرائه ، أو هجره بما أفاده الزمن من خبرة ، وسلك في سيرته منهج السرد والشرح ،

^{٢٠٤} - ومنها ما كان يقول له فيه : "هذا لا يكتب ، أو هذا لا يقال لكل أحد." انظر : تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ، ص ٨٩٠ ، ومن ذلك لائحة تربوية ، قدمها إلى (السر أفلن بارنج) يقول رشيد بشأنها : "وخبر هذه اللائحة سر لم يكن يعرفه أحد ، ولم أصرح به في ترجمة الأستاذ التي نشرناها في المنار ، ولكن التاريخ يجب أن ينطق بجميع الحقائق ، التي لا ضرر فيها على أحد ، وما أشرت نشر هذا الجزء منه إلا لأتمكن من هذه الحرية." انظر : تاريخ الأستاذ: ٤١٩/١

^{٢٠٥} - وهذا أيضا شرط أساسي في التراجم الأدبية كما يقول د. إحسان عباس : "لابد له (أي : كاتب السيرة) أن يبني ما يكتبه على أساس متين من الصدق التاريخي." انظر: فن السير: د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت

، لبنان ، ص ٧٥

^{٢٠٦} - تاريخ الأستاذ: ١/ع

^{٢٠٧} - السابق: ٥/١

وأقام ترجمة شيخه على تقسيم ثلاثي ، فصلّ فيه حياته ونتاجه العلمي ، وما قيل فيه عند وفاته شعرا أو نثرا ، ودرس حياته في مرحلتين ؛ مرحلة النشأة والتكوين العلمي ، ومرحلة العمل والعطاء ، ولكل منهما تقسيم ثلاثي ، فقد قسم المرحلة الأولى على حياته الأسرية ، وحياته العلمية ، وحياته الصوفية ، وللمرحلة الثانية ثلاثة أطوار ، الطور الأول ما قبل النفي ، الطور الثاني فترة النفي ، والطور الثالث ما بعد النفي .

هكذا بنى رشيد هذا العمل الضخم الذي بلغ أربعة مجلدات كبيرة على تصور هندسي واضح ، على أن في الكتاب أمرين قد يلاحظهما القارئ بعين سلبية ؛ أولهما الاستطرادات الكثيرة الطويلة النفس ، مثل تراجم بعض الأشخاص المؤثرين ، كالسيد جمال الدين الأفغاني ، ورياض باشا ، وغيرهما من رجال الفكر والسياسة ، كما أطال في شرح بعض الأحداث الكبيرة ، مثل الثورة العربية وكل ذلك له صلة قوية بسيرة صاحب الترجمة ، ولكنه قد يقطع تسلسل السيرة على القارئ ، والأمر الآخر هو تكرار بعض مسائل الكتاب في مظان مختلفة ، وقد اعتذر رشيد عن هذا الأمر بقوله : "كُتبت هذا التاريخ في أثناء سنين كثيرة ، وفترات بعيدة ، وأوقات يختلف فيها الفكر والشعور .. ومن ثم يجد القارئ فيه تكرارا لبعض المسائل عن سهو أو عمد ، وربما تختلف فيه العبارة في المسألة الواحدة بعض الاختلاف في اللفظ ، كاختلاف الورق ، ولاسيما المسائل التي اعتمدت في كتابتها على حفطي ، وأرجو أن لا يكون فيها شيء من التناقض." ^{٢٠٨} أما سيرته الذاتية فهي من حيث المنهج والبواعث والخطة كسيرة شيخه ، إلا أنها دونها في الحجم بكثير. ^{٢٠٩}

^{٢٠٨} - تاريخ الأستاذ: ٤/١

^{٢٠٩} - بلغ ملخص ترجمة رشيد لنفسه في كتابه (المنار والأزهر) في القسم الثالث منه اثنتين وسبعين (٧٢) صفحة ، والكتاب كله - ويقع في نحو من ثلاثمائة صفحة - جزء من سيرته ، لأنه يصور تجربته مع الأزهر.

أسلوبه في تراجمه الأدبية

أسلوب رشيد في تراجمه وسيره الأدبية أسلوب علمي واضح ، لا يجنح إلى الخيال الأدبي ، ولا يتصيد الغريب أو المحسنات البديعية ، لأنه يشرح الحقائق ، ويعرض مادة علمية ، ولهذا يكون عامة أسلوبه على شاكلة النموذج الآتي :^{٢١٠} "ألف الأستاذ هذه اللجنة من الجمعية الخيرية الإسلامية ، وكان يذهب بنفسه إلى منازل أمراء الأسرة الخديوية ، وغيرهم من الكبراء ، فيطلب منهم الإعانة لها.." ^{٢١٠}

وأحيانا يتخذ أسلوبه سمة أدبية ، وذلك عندما يصور موقفا تسنده العاطفة ، كقوله في وصف خلق شيخه : "كان على ما علمنا من صفحه عن الأعداء ، وكمال الوفاء للأحباء ، والثقة بصدق بعض الأصفياء ، والإحسان بأولئك وهؤلاء.." ، وكذلك عندما يحلل ولا يشرح كقوله في ختام ترجمة جمال الدين الأفغاني : "وعجيب من مثل السيد على استنشاء بصيرته بنور اليقين ، وضمه بين حاشيتي علوم المتقدمين والمتأخرين ، ووقوفه على يفاع من الحكمة ، يجمع الدنيا به بنظرة ، ويستقصي أطرافها بلمحة ، وقد تجردت له عن زينتها وزخارفها ، وأمأطت له اللثام عن أباطيلها وسفاسفها ، أن يبقى في نفسه مكان لشيء منها يقال له الرئاسة ، وتنتزع همته إلى حال من أحوالها." ^{٢١١}

مكانة رشيد في النثر الفني

منزلة رشيد رضا في مجال النثر الفني مقدمة على منزلته في المجالات الأدبية الأخرى ، لأنه توافر عليه ما لم يتوافر على جنس آخر من الأجناس الأدبية ، وقد ذكرنا في ترجمته في الفصل الأول ، ما قاله صديقه أمير البيان شكيب أرسلان ، وما قاله كذلك صديقه في النضال السياسي عبد الحميد الزهراوي في غزارة إنتاجه ، وسيلان قلمه ، وسهولة الكتابة عليه ، وكان يقول عن نفسه إنه قلما يقع الترميح أو الشطب فيما يكتبه ، وهذا يدل على تمكنه في اللغة ، وطول باعه في المجالات العلمية والفكرية التي يكتب فيها ، وكأنما يغرف من بحر ، ولا ينحت من

^{٢١٠} - تاريخ الأستاذ: ٨٤٣/١

^{٢١١} - السابق : ٩٨/١

صخرة أفكاره ، فما أن يتوجه عزمه إلى الكتابة في موضوع ، إلا انثالت عليه المعلومات انثيالا ، وانقاد له لغة التعبير انقيادا عجيبا ، بل إن بعضا من مخالطيه يذكر أنه كان يكتب أثناء الحديث مع ضيوفه ، فلا يقطع الحديث حبل تفكيره^{٢١٢} ومكتوباته الكثيرة شاهدة على قوة ملكته الكتابية ، فله من المؤلفات الموسوعية تفسير القرآن الكريم في اثني عشر مجلدا ، وصل فيه إلى سورة يوسف ، ومجلة المنار في خمسة وثلاثين مجلدا ، تتراوح صفحات المجلد الواحد ما بين ثمانمائة إلى ألف صفحة تقريبا ، وتربو نسبة السيد رشيد رضا في تحريرها وكتابة مادتها على سبعين في المائة ، وبما أن المجلة كانت شهرية في غالب أحوالها ، فقد كان يكتب في الجرائد اليومية ، والمجلات الأسبوعية ، وله إلى جانب ذلك عشرات الكتب ، ولو جمعت مؤلفاته ، وما خلفه من تراث مكتوب في مجموعة متكاملة متسلسلة ، على نحو ما تفعله بعض دور النشر في أعمال كبار الكتاب ، لربما بلغت أو زادت على مائة مجلد كبار الحجم.

ومما يعطي نثر رشيد رضا قيمة فنية كبيرة ، ويكسوها حلة أدبية بهيجة ، أنه دخل في عالم الكتابة ، وهو راسخ القدم في علوم اللغة العربية ، متمكن من ناصية قواعدها ، متضلع من شعرها ونثرها. يقول شكيب أرسلان في تصوير ذلك : "وأكثر ما أمدّه في خطته هذه قوة ملكته العربية ، وفهمه من أسرار العربية ما لا يفهمه غيره."^{٢١٣} ويصفه في مكان آخر "بالرسوخ العظيم في اللغة ، والطبع الريان من العربية."^{٢١٤} ويذكر رشيد أنه عرض مقدمة أحد كتبه على شيخه الإمام محمد عبده ، فلما قرأها قال : "أسلوب رفيع" وكان من عاداته إذا أعجبه الكلام أن يقول "مش بطل"^{٢١٥} هذا مع ما اكتسبه أسلوبه من التمرن والدربة الطويلة الأمد ، وأفاده من الخبرة المتراكمة.

ومما عزز منزلة رشيد رضا في مجال النثر الفني أيضا سمو الموضوعات التي كان يكتب فيها ، وبراعته في معالجتها ، وما ساند أسلوبه من الرصيد العلمي الذي مكنه من بلوغه شأوا بعيدا فيها ، وخير مثال على ذلك كتابه "الوحي المحمدي"

^{٢١٢} - المنار : ٤٨٠/٦/٣٥

^{٢١٣} - السيد رشيد رضا : ٢٢٥

^{٢١٤} - السابق : ١٥

^{٢١٥} - السابق : ١٢٦

، الذي أشاد بجلالة قدره ، وعظم فائدته كبار العلماء في عصره ، وتبارت الأقسام الموهوبة في تقييده وتأيينه ، ومن هؤلاء شيخ الجامع الأزهر والأستاذ العقاد ، ومن كتبه المبرزة في مجالها "الخلافة أو الإمامة العظمى" و "حقوق النساء في الإسلام". وقد تضمن تفسيره موضوعات دينية واجتماعية وعلمية كثيرة ، عالجه في ضوء نصوص القرآن المعجزة ، بأسلوب عصري مشرق الديباجة ، غير أن مجلة المنار سنتزل في رأي الباحث المرجع الخصب لنثره الفني ، بثتى أنواعه الأدبية ، والعلمية ، والصحفية ، وغيرها.

ومما يحسب لرشيد رضا ، ويرفع منزلته بين أدياء عصره ، ما أسدى إلى الحركة العلمية والأدبية في عصره ، من خدمة جليلة ، في بعث ونشر كنوز الأجداد ، وإنتاج المعاصرين ، فإليه يرجع الفضل في طباعة ونشر كتب عبد القاهر الجرجاني ، مثل أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، بعد أن طلب من أستاذه الشيخ محمد عبده مراجعتها وتصحيحها ، ونشر كذلك مقامات بديع الزمان الهمذاني ونهج البلاغة بتصحيح شيخه ، وطلب من الشيخ كذلك شرح القرآن وتفسيره للناس ، على نحو قريب من أفهام أهل العصر ، ولم يزل يراجعه والشيخ يتردد في ذلك ، حتى تم له ما أراد ، ثم خلفه فيه بعد أن قضى الشيخ نحبه ومضى إلى ربه ، وهو الذي طلب من الشيخ كتابة سيرته الذاتية ، فاستجاب له ، ولم يتمها^{٢١٦} ولما مات الشيخ كتب سيرته ، ونشر تراثه من رسائل^{٢١٧} ومقالات ومؤلفات ، وحوى كتابه "تاريخ الأستاذ الإمام" الكثير من ذلك. والكتاب من أربعة مجلدات كبيرة ، وكان ينوي نشر ذيل له ، غير أنه توفي قبل أن يوفق في ذلك.

ومن مظاهر تشجيعه للحركة العلمية والأدبية في عصره ، أنه أفصح مجالاً واسعاً في مجلته ، لأعمال الأدياء والشعراء والعلماء ، بالتقريض والتتويه والنقد والنشر ،

^{٢١٦} - الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، د. يحيى إبراهيم عبد الدائم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، - لبنان ص ٥٩

^{٢١٧} - يقول الدكتور عمر الدسوقي : "وها هو ذا الشيخ محمد عبده يسجل له الشيخ رشيد رضا أكثر من أربعين رسالة". انظر : نشأة النثر الحديث وتطوره ، د. عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص ١٠٩

المبحث الثالث : الدراسة الفنية لنقد السيد رشيد رضا

المطلب الأول : السمات القديمة في نقده

النقد اللغوي

"يحدد عالم الرياضيات ، أو الكيمياء ، أو الفيزياء ، أو رجل القانون ، أو المؤرخ أو الجغرافي ، أو عالم الاجتماع ، أو الفيلسوف ، أو اللغوي ، عمله قياسا إلى أشياء محددة ، ويستعين بمنهجيات صريحة ، ويسعى إلى تحقيق غايات مسلم بها. فبعيدا عن المجال الخاص بكل حقل .. يميل كل هؤلاء إلى الاتفاق على طبيعة العلم الذي يشتغلون فيه ، وعلى المناهج التي تخصه .. أما الحقول والمناهج الأدبية فيندر مثلها في نظر العلماء في عدم الدقة ، وسرعة التبدل ، ومفاهيمها ضمنية غالبا ، ومتغيرة وغامضة."^{٢١٨}

وقضايا النقد من أكثر قضايا الأدب خضوعا للتغاير والغموض ، لما للذوق فيها من نصيب وافر وقديما أعجب بعض النقاد بالشعر الحولي المحكك ، الذي يتوافر عليه الشاعر ، حتى يخرج أبيات قصائده مستوية في الجودة ، وبريئة من أي مغمز ، بينما رفض هذا الصنيع آخرون وعدّوه تجنيا على الفطرة ، ونوعا من التكلف يخل بقيمة العاطفة ، وينال من صدقية التجربة^{٢١٩} والأبيات التي استشهد بها ابن قتيبة على أنها نموذج للشعر الضعيف^{٢٢٠} نالت إعجاب واستحسان الإمام عبد القاهر الجرجاني ، واستشهد بها على الشعر المثالي الصياغة.^{٢٢١}

ومهما يكن من أمر هذا التفاوت والتنوع في النظرات النقدية ، فقد كانت هناك أسس نقدية محورية ، ينطلق منها النقاد جميعا ، وكان أكثر النقاد في عصر رشيد رضا - بما فيهم العقاد ومدرسته المجددة - يحتكمون إلى الأصول القديمة للنقد العربي ، فكانوا : "يعنون بالنقد اللغوي وصحة الألفاظ والتراكيب ، ومقاييس البلاغة

^{٢١٨} - قضايا أدبية عامة : إيمانويل ، فريس ، وبرنار موراليس ، ترجمة د. لطيف زيتوني ، المجلس الوطني

للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ٢٠٠٤ ، ص ٦٣

^{٢١٩} - العمدة في محاسن الشعر وأدبه: ٢٢٦/١ ، والبيان والتبيين: للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة

الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٥م ، ١٣/٢

^{٢٢٠} - ابن قتيبة ، الشعر والشعراء: لابن قتيبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط ١٩٨١م ص ١٤

^{٢٢١} - دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني ، علق عليه محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ص ٧٤

، وأوجه الاستعارة والمجاز والتشبيه. " ٢٢٢ وميخائيل نعيمة الذي يعد من أكثر النقاد المعاصرين تحررا لا يشكو من وجود مقاييس نقدية ثابتة يتحاكم إليها بقدر ما يشكو من قلة من يحسنون استعمال هذه المقاييس. ٢٢٣

وعلى هذا فلا غرابة في أن يتكئ رشيد على مقاييس النقد العربي القديم في معظم أحكامه النقدية ، كما ظهر من دراسة نقده السابقة ، ومن أهم أسسها النقد اللغوي ، الذي يراه بعض الباحثين السمة البارزة في نقد عصر النهضة فيقول : "إنا نستطيع أن نقول الآن بعدما قدمنا ، إن النقد منذ أيام النهضة الأدبية ، التي بزغت إبان الثورة العرابية إلى مطلع القرن العشرين وأوائله ، كان نقدا لغويا ، يتمتع ببعض الذاتية من جهة أخرى ، معتمدا في حكمه على الذوق ، وبميل الاستطراد. " ٢٢٤

الذاتية في النقد

من السمات البارزة في نقد رشيد رضا أنه نقد ذاتي ، غير معتل ولا مبرر فكثيرا ما يطلق الأحكام النقدية ؛ من تحسين أو تفضيل أو تهجين ، دون أن يذكر لهذه الأحكام سببا ، ودون أن يكلف نفسه بالكشف عن مكامن الجمال ، ومواطن القصور والمآخذ في النص الذي ينتقده ، ليشارك القارئ أو المتلقي معه في تذوق النص ، فيسلم له ما أصدره من الأحكام ، أو يناقشه فيها ، ولعل مرد ذلك إلى ما سبق ذكره من قبل ، من أن رشيدا كان دارسا متذوقا لما يعرض له من فنون الأدب المختلفة ، من شعر وخطبة وقصة ، فيبيدي رأيه فيما يستثيره منها بإعجاب أحيانا ، وبإنكار أحيانا أخرى ، وقد يصاحب ذلك تعليل وتبرير ، وقد لا يصاحبه شيء من ذلك ، وهو الأكثر ، لأنه ليس أدبيا محترفا أو متخصصا منقطعا إلى هذا المجال ، فلا يلزم نفسه بالتعليل والشرح والمناقشة الطويلة . "وما دمنا قد سلمنا بأن الأدب موضوع غير دقيق بطبيعته ، أي ليس له دقة العلم وموضوعيته ، وأن جانب الفردية متوافر فيه ، بل شرط أساسي لامتيازه ، فيكون من البديهي أن نسلم بذلك في منهج

٢٢٢ - في الأدبي العربي الحديث : د. عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي ، ط ٦ ، ٢/٢٨٢

٢٢٣ - الغربال: ميخائيل نعيمة ، ص ٧٤

٢٢٤ - التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد ، عبد الحي دياب ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص ٦٤

دراسة الأدب ، ونعمل حسابه عند الحكم على الأثر الفني وتقدير قيمته .. فالذوق في مجال الحكم على الآثار الفنية أمر لا بد من قيامه على أن يكون الذوق الذي تربي وقوت أسانيده . " ٢٢٥

الاعتدال في النقد

من خصائص رشيد النقدية اعتداله في تعامله مع القضايا النقدية التي كانت مثارة في أيامه ، ومنها القديم والجديد ، والفصحى والعامية ، والالتزام والتحرر منه ، وغير ذلك من القضايا التي استجدت مع تولي عصر الضعف الأدبي. ٢٢٦ فلم يكن رشيد رضا أدبيا تقليديا متعصبا لكل قديم ، وإن انطوى على دخن ، ولا متهافتا على كل جديد ، وإن لم يكن فيه غناء ، بل كان متوسطا ، يضمن بالقديم ، ما لم يتبين فيه فسادا ، ومرحبا بالجديد ، الذي تلوح له فوائده وثماره.

لهذا كان يدعو الأدباء والشعراء إلى تمثّل معاني العصر ، والاستيحاء من معطيات ما استجد من العلوم والمخترعات ، والنظم والمبادئ والأفكار الحديثة ، بل تجاوز الدعوة المجردة إلى محاولة تطبيق ما دعا إليه على شعره ونتاجه الأدبي ، ولما ارتفع نداء البعض بنبذ الأوزان والقوافي ، لأنها تقيد حرية الشاعر في الغوص على معانيه كيفما شاء ، ناقشهم بموضوعية وهدوء ، دون أن يبادلهم صراخا بصراخ ، فكان مما قال : "أي عيب في الأوزان حملته على جعلها رقا يجب أن يحرر الشاعر نفسه منه ؟ وأما القوافي فإن صح أنها قيد أو مدعاة ملل ، فاللغة العربية لا تقيد به بشيء منها ، وقد كسر المولدون من شعراء العربية في الأندلس ، وفي المشرق منذ قرون ، وزاد شعراء هذا العصر عليهم." ٢٢٧

فهذا تفريق منه ، بين الأوزان التي لا يستقيم شعر بدونها في نظره ، وبين القوافي التي هي زيادة حلية في إيقاع الشعر الموزون ، فلا مانع لديه من النظر في أمرها إذا صح أنه بتجاوزها يصيب الشعر تطورا ، غير أنه رفض أن ينبذ القديم

٢٢٥ - قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، د . محمد زكي العشماوي ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩ م ، ص

٣٨٠

٢٢٦ - مثل إصلاح الخط العربي ، أو استبدال غيره به.

٢٢٧ - المنار: ٣٩٦/٥/٢٧

لمجرد قدمه ، لا لعيب في ذاته لأنه "ما من قديم إلا وكان جديدا ، ولا جديد إلا وسيكون قديما ، ومن لا قديم له لا جديد له ، بل لا وجود له ، وإنما الأمم بتاريخها." ٢٢٨

وكان يريبه من هذه الدعوة أن أصحابها يمجدون قديم الغير ، ويرفضون قديم أمتهم العربية والإسلامية ، يمجدون الشعر اليوناني ، والشعر الروماني ، وشعر شكسبير ومعاصريه من شعراء الأمم الأوربية ، وينتقصون الشعر العربي القديم ، بل وجد أن بعض هؤلاء يعتز بالقديم الذي يسبق الإسلام ؛ ورأي من المصريين من يقول إن اللغة العربية "ليست اللغة المصرية الصميمة بل هي منا كاللغة اللاتينية من الأوربيين" ٢٢٩ ويعتز بالتراث الفرعوني ٢٣٠ وتراث حوض البحر الأبيض المتوسط الذي يربط المصريين والمغاربة بنظرائهم الأوربيين في القاسم الجغرافي المشترك. ٢٣١ فلما رأى رشيد أن هذه دعوة تتجاوز المنطق الأدبي ، والقيم الفنية ، وأنها تتخذ من الأدب والفن وسيلة إلى تحقيق مأرب أخرى حمل عليهم حملة شعواء ، وأطال في مناقشاتهم وردودهم ، ونسبهم إلى الإلحاد. ٢٣٢

كان رشيد كذلك وسطا بين المتشددين في المحافظة على مقاييس اللغة العربية وقواعدها والمتساهلين فيها ، فقد انتقده أحد أساتذة اللغة العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت ، واتهمه بالجمود على قواعد العربية القديمة فقال : "وكثير من منتقدينا يأتون في هذا النوع من الانتقاد بالمبكيات المضحكات ، ولا أحاشي جلة من أكابر علمائنا وكتابنا معا ، والغريب أن بعضهم ينكر القياس ، فلا يجيز في الاستعمال إلا ما نص عليه في كتب أمهات اللغة ، فإن لم ينص الصحاح أو الفيروزآبادي ، أو لسان العرب على (احتار) مثلا ، يؤاخذون من يستعملونها من أكابر الشعراء والفقهاء ، وكاد العلامة السيد محمد رشيد رضا ؛ صاحب مجلة المنار

٢٢٨ - المنار: ٣٩٦/٥/٢٧

٢٢٩ الأدب العربي المعاصر في مصر : د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السادسة / ص ١٨١

٢٣٠ - في الأدب العربي القديم: ٢٣٥/٢

٢٣١ - المنار: ٢٣٧/٢

٢٣٢ - المنار: ٧١٨/٩/٢٩

المشهورة ، يهوي في مهواة هؤلاء الأقباط فإنه على سعة علمه ، لم يرقه استعمال بعضهم (احترار) مع معرفة أنه قد استعملها قبله الإمام ابن فارض المشهور. " ٢٣٣

إن رشيد رضا هو الذي أخذ على أحمد شوقي استعماله لهذه الكلمة غير القياسية^{٢٣٤} ولم يشفع له عنده أن سبق إلى استعمالها كل من ابن فارض ، وابن عابدين ، والشيخ عبد الغني النابلسي ، لأنهم ليسوا بحجة عنده ، إذ يرى أن "ما انفرد به قدماء المولدين من أساطين علماء اللغة وأدائها لا يحتج به ، إذا خالف القواعد القياسية ، فما القول في المتأخرين من أهل القرون الوسطى إلى اليوم." ٢٣٥

ثم إن رشيد رضا دافع عن نفسه ما رمى به الأستاذ البيروتي من الجمود والتشدد فقسم العلماء في هذا الشأن إلى ثلاثة أقوام : قوم متساهلون إما بسبب قلة بضاعتهم ، وهم كثيرون ، أو بسبب سوء نيتهم ، وقصدتهم إفساد اللغة ، وهم قلة أو بسبب إبتارهم للمعاني على الألفاظ مع سعة علمهم وقوة فهمهم ، "وهناك قوم آخرون وسط بين هؤلاء وأولئك يقولون : إن باب القياس في أصل العربية أوسع منه في عرف واضعي الفنون ، ولاسيما البصريين منهم ، وإنه ينبغي لنا أن نسلك في العربية مسلك أهلها في الاشتقاق من الجوامد والتعريب والتجوز وغير ذلك ، ولكن يجب أن لا نجدد فيها إلا ما نحتاج إليه ، ولا نجدد في كتابها ، وإلا كانت الزيادة تكثيرا يتقل علينا احتمالها بغير فائدة . فكلمة (احترار) مثلا لا حاجة إليها ، لأنه ورد بمعناها حار وتحير ، وكاتب هذه السطور يرى هذا الرأي ولكنه لا يطلق العنان فيه للأفراد ، لما يترتب على ذلك من الفساد الذي أشرنا إليه في فاتحة الكلام ، بل يحتم أن يكون برأي جمعية من العلماء يبحثون في ذلك ويجعلون له نظاما ، وينشرون ما يرونه صوابا في الصحف ، ليعم الاستعمال ويؤمن الخلاف." ٢٣٦ وأصرح من ذلك في اعتدال رشيد ووسطية نقده بين المغالين والمتساهلين في قضية قواعد اللغة ومقاييسها ، ما كتب به إلى صديقه الأمير شكيب أرسلان ، في مناقشات لغوية جرت بينهما: "وأخبرك بأن هذه المسائل كلها قد كانت موضوع مناقشات طويلة عندنا ، في

٢٣٣ - المنار: ٤٤٤/٦/٩

٢٣٤ - السابق: ٥٦٦/٢٤/٣

٢٣٥ - السيد رشيد رضا: ٥٤٨

٢٣٦ - المنار: ٤٤٤/٦/٩

المجمعين اللغويين اللذين ألفناهما هنا ، ولأسيما الأول ، فقد كان من المتشددين في المحافظة على النقل والقواعد حفني بك ناصف ، والشيخ أحمد الإسكندرية ، ومن الواقفين على الطرف المقابل الدكتور يعقوب صروف وغيره ، وكنت أنا والشيخ أحمد إبراهيم في الوسط." ٢٣٧

وهكذا يبدو رشيد معتدلا في القضايا اللغوية والأدبية المثارة في أيامه ، مما يدل على اعتزازه وتمكنه من التراث الأدبي القديم بدون تعصب ، وتطلعه إلى أي جديد مفيد ونافع دون التفريط بالقديم بلا سبب ولا مقتض ، ولو حاول الباحث استقصاء الشواهد الدالة على اعتداله في مختلف القضايا اللغوية والأدبية لطال الكلام.

المطلب الثاني : السمات التجديدية في نقده

تطور دلالات الألفاظ

عني رشيد في السنوات الأولى من مجلة المنار بدراسة تطور دلالات الألفاظ ومفردات اللغة العربية ، ولاحظ أن كتاب العصر من صحفيين وغيرهم ، يمارسون هذا التطوير ، بما يلاقونه من المصطلحات العصرية المتجددة ، التي تحتاج إلى مقابل لها في اللغة العربية ، فإما أن يكون هذا المقابل من الكلمات العربية الموجودة ، وحينئذ يستجد لها معانٍ إضافية ، وإما أن يلجأوا إلى التعريب ورأى رشيد أن هذا التطور أمر طبيعي . تقتضيه ظروف كل عصر ، فإذا تواطأ كتاب العصر أو اصطالحوا على كلمات يؤدون بها معاني أو مسميات جديدة ، فلا مشاحة في الاصطلاح.

ثم وعد بأن يتتبع هذا التطور اللغوي ، بالتنبيه والشرح والتفسير ، لكي يساير جمهور القراء كتابهم في هذا الأمر فقال : "من القضايا المسلمة أن لا مشاحة في الاصطلاح ، ولا مندوحة عن مراعاة ما يتواطؤ عليه الجمهور ، ومجاراة الناس على ما يصطلحون عليه في كل زمان ومكان ، وقد انطلقت ألسنة أهل هذا العصر وجرت أقلامهم بألفاظ ، يريدون بها من المعاني غير ما تدل عليه في أصل اللغة أو في عرف أهل العصور السالفة ، ولهم ألفاظ أخرى جاءتهم من الفنون الحادثة ، والاكتشافات الجديدة ، والكثير منها ما لم تستعمله العرب ، فرأينا أن نشرح في صحيفتنا هذه الألفاظ ، حيناً بعد حين ، لأن كثيراً من القراء غير عارفين بها ، على الوجه الذي نستعمله ، وبالمعنى الذي يعرفه العارفون." ^{٢٣٨} ومع أن دراسة التطور الدلالي لمفردات العربية الفصحى في أي من العصور المتأخرة بعد عصور الاحتجاج لا يضيف جديداً إلى معاني تلك المغردات إلا أنه يعين على تنوير الأعمال الشعرية التي طورت هذه الدلالات الجديدة. ^{٢٣٩}

ومما ذكر من هذه الألفاظ :

^{٢٣٨} - المنار: ١٤/١/١

^{٢٣٩} علم الدلالة العربية: د. فايز الداية ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ، سوريا ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م ص ٢٨٥

- ١- الطبيعة : له معان عديدة عند الأطباء والفلاسفة والصوفية ، ومعناه الجديد المخلوقات أو الحالة التي هي عليها ، وهذا يوافق معنى اللفظ في أصل اللغة ، والطبيعي عند العامة الدهري.^{٢٤٠}
- ٢- النواميس : أصله (ناموس) يوناني ، ومعناه الشريعة ، ويستعمل الآن بمعنى السنة الكونية.^{٢٤١}
- ٣- الكافر : معناه المخالف في الدين ، ويطلق اليوم على الملاحدة.^{٢٤٢}
- ٤- الملحد : الميل ، ومنه الميل عن الحق ، ومن إطلاقاته المعاصرة العلماني.^{٢٤٣}
- ٥- السيد : يطلق في عرف المسلمين على أهل بيت النبوة أو الحسينيين منهم وعند النصارى على المسيح ، وكبار رجال الدين. "وابتدع بعض الجرائد العربية المحدثه في زمن الحرب إطلاق لقب (السيد) على كل أحد ، وجعله بدلا من كلمة أفندي التركية^{٢٤٤} (ومسيو ومستر) الإفرنجيتين ، فأنكر ذلك السواد الأعظم من العرب المسلمين والنصارى جميعا .. وسبق المغاربة والمصريون إلى استعمال كلمة (السّي) في هذا المقام .. ومعناه المثل ، ومثناه : سيان .. وهو جدير بأن يعم في هذا الاستعمال."^{٢٤٥} ولكن الذي حدث أن السيد بمعنى (مسيو ومستر) شاع واشتهر ، ولم يكتب لكلمة (السي) التي تمنى رشيد أن تحل محل السيد في الإطلاق على كل فرد الخلود والبقاء فضلا عن الشيوخ والشهرة.
- ٦- الدعاية : مثل الدعوة في أصل اللغة ، وفي اصطلاح كتاب العصر في معنى ما يسميه الإفرنج "بروباغندا"^{٢٤٦} وأول من أطلق هذا المصطلح هو السيد رشيد رضا نفسه ، حيث راجعه في استعماله الأمير شكيب أرسلان فأجابه بقوله : "(الدعاية) وردت في كتاب النبي (ص) إلى هرقل ، قال

٢٤٠ - المنار: ١٥/١/١

٢٤١ - السابق: ١٥/١/١

٢٤٢ - السابق: ١٧/١/١

٢٤٣ - السابق: ٧١٨/٩/٢٩

٢٤٤ - أصل لفظ "أفندي" إنجليزي ، ثم استعارته التركية.

٢٤٥ - المنار: ١١٢/٢/٢١

٢٤٦ - هذا التفسير من شكيب أرسلان. انظر السيد رشيد رضا ، هامش صفحة ٣٤٤

"أدعوك بدعاية الإسلام" كما في كتاب "بدء الوحي" من أول صحيح البخاري ، وهي كالدعوة الكثيرة الاستعمال في كل ما يدعى إليه ، فأحببت استعمال الكلمة الطريفة في الدعوة الخاصة بالمذاهب العامة ، من سياسية ودينية ، واتبعتي بها كثير من الكتاب. " ٢٤٧

وهذا بحث طريف ومفيد ، ولو اتصلت عناية رشيد به لكانت فائدته عظيمة في اللغة والأدب جميعا.

تطور نظرة المجتمع إلى الأدباء

لاحظ السيد رشيد رضا أن منزلة الأديب تطلو في المجتمع ، وأن هذا يدل على تنامي وعي المجتمع ، كما أنه نتيجة لتطور موقف الشعراء ، وتحولهم إلى التعبير عن قضايا المجتمع ، حيث لم يعد الأمراء والملوك والوجهاء محورا لاهتمام الشعراء ، فلم يلبث الجمهور أن التفوا حولهم ، وأطوهم منزلة سامية تليق بمكانتهم الأدبية ، وهذا ما استوحاه رشيد من وفاة شاعر النيل محمد حافظ إبراهيم فرأى من وجع المجتمع لموته ، وإحساسه العميق بالفقد والحزن الذي تجلى في كل المظاهر من إقامة المآتم ، وحفلات التعازي ، وتبادل المواساة ، واهتمام وسائل الإعلام المختلفة ، وأصحاب الكلمة والقلم بهذا الحدث الجلل ، وقد تزامنت وفاته وفاة أحد أمراء الأسرة الخديوية الحاكمة ، فلم يكن لها من الصدى معشار ما كان لوفاة الشاعر الاجتماعي الفقير ، "الذي شعر بالآلام شعبه وهمومه" ٢٤٨ بانتمائه إلى الطبقة الفقيرة منه ، فأحسن التعبير عن شعبه ووطنه. يقول رشيد في ذلك: "والعبرة في هذه أنه آية بينة على ارتقاء الأمة العربية في آدابها النفسية والاجتماعية ، يبشر بقرب زوال العظمة الوهمية ؛ عظمة الألقاب الموروثة والثروة المادية ، وإعقاب العظمة الحقيقية لها ؛ عظمة العلم والأدب وخدمة الأمة." ٢٤٩

كان رشيد قد دعا الشعراء والأدباء إلى تجديد معانيهم ، بمعطيات علوم العصر ، والاستمداد من الفنون الحديثة ، والمخترعات الجديدة ، وكل المعارف

٢٤٧ - السيد رشيد رضا: ٣٤٤

٢٤٨ دراسات في الشعر العربي المعاصر: د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثامنة ، ص ١٢

٢٤٩ - المنار: ٦٢٥/٨/٣٢

الإنسانية التي تسهم في التطور العمراني ، في مختلف المجالات ، وتنبه رشيد إلى أن التجديد المطلوب لا يحصل ولا يتم باستظهار أسماء المخترعات ، والنظريات العلمية الجديدة ، وترديدها في الشعر وفنون الأدب المختلفة ، وإنما يتم الاقتباس المفيد ، إذا أخذت هذه العلوم بالاستقلال الفكري والاجتهاد في الفهم ، بحيث تتحول هذه العلوم إلى ملكات راسخة في ذهن الأمة ، وتندمج في ثقافتها ، وتتسع لها لغتها ، عندئذ فقط تصبح المعاني العصرية جزءاً لا يتجزأ من تجربة الشعراء ، ولهذا حث العلماء والأدباء إلى : "إشراع الطريق الموصل لجعل لغة الأمة تتسع لهذه العلوم والفنون ، وما يتجدد منها في كل آن".^{٢٥٠}

وعيه بأسس النقد الأبى الجديد

يقول رشيد رضا في تقديمه وتقريضه لكتاب أسرار البلاغة ، للإمام عبد القاهر الجرجاني : "تمتاز كتب الإمام عبد القاهر الجرجاني ، واضع فنون البلاغة (رحمه الله تعالى) على سائر الكتب التي ألفت من بعده مزايًا ، منها أن عبارتها بليغة ، وأساليبها رشيقة ، ومنها تصوير المعاني شخوصاً تامة سوية ، حتى كأن المعقولات ملموسة مرئية ، ومنها كثرة إيراد الشواهد والأمثلة على الوجه الذي اختاره الأوربيون ومقلدوهم في كتب التعليم لهذا العهد".^{٢٥١}

إن تصوير المعاني شخوصاً هو ما يعبر عنه بالتجسيد ، بل إن هذا الوصف جامع للتجسيد والتشخيص لأنه يحصل بنقل المعاني إلى عالم المحسوسات المجسّدة ، ثم خلعها صفات الأشخاص الآدميين^{٢٥٢} وهذا النوع من الاستعارات هو ما يحتفي به النقاد المعاصرون ، لأنه يكشف عن إحساس الشاعر الدقيق بالأفكار التي تعتلج في وجدانه ، وتلوينها بما يدل على عمق تفاعله مع تلك المعاني والمشاعر ، فتارة يجسدها لإعطائها أبعاداً مادية تتراءى له في خياله ، وأحياناً يشخصها بما يدل على طبيعة علاقته بها.

^{٢٥٠} - المنار: ٧٨٦/١٠/٢٧

^{٢٥١} - السابق: ٩٤٣/٣٤/٦

^{٢٥٢} - التصوير الشعري (رؤية نقدية لبلاغتنا النقدية) : د. عدنان حسين قاسم ، مكتبة الفلاح - الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م ، ص ١٤٩-١٥٢

ومن نظراته النقدية التي فيها روح الجدة ، إعلاؤه لمكانة شعور الشاعر ، وحسن تمثيله له في شعره ، بحيث يكون الشعر تمثيلا صادقا ، وتعبيرا حقا عن شعوره ووجدانه ، وهذا لا يصدق كثيرا على الموضوعات التقليدية التي يطرقها الشعراء في المناسبات الروتينية. يقول رشيد في هذا المقام : "نظم أشهر شعراء مصر القصائد في التهاني السلطانية ، وفي مقدمتهم إسماعيل صبري ، وأحمد شوقي بك ومحمد حافظ بك ، وامتازت قصيدة شوقي بأنها لم تكن مدحا وثناء مجردا كغيرها بل تمثيلا لشعوره ووجدانه الخاص ، من حيث هو ربيب بيت الخديوي إسماعيل باشا ، وغرس نعمته." ٢٥٣

نظرة إلى ثقافة الأديب

لاحظ السيد رشيد رضا أن ثقافة الأديب المعاصر وعدته ، لم تعد قاصرة على اجترار الموروث القديم من لغة وأدب وقواعد ، وإنما عليه أن يواكب ثقافة العصر ، وأن يعي المعطيات المدنية الحديثة ، ليستقيم تعبيره عنها ، ويتمكن من مخاطبة أهلها بأسلوب العصر ، فقال : "ويستمد علم الأدب اليوم من ينابيع ، لم تكن مفجرة في أرض أسلافنا من قبل ، ويحتاج في تحقيق نتيجته التي علمت ، إلى فنون كثيرة لم تكن في العصور الأولى ، أو كانت ، لكن على غير هذه الحالة التي هي عليها اليوم ." ٢٥٤ ودعا الأدباء "إلى معرفة كل ما في العصر من الفنون والصنائع في الجملة ؛ ليقتدروا على مخاطبة كل صنف من الناس بما يناسب ذوقه ، ويتصرفوا في كل موضوع بما هو أمسّ بحالة أهله ." ٢٥٥

٢٥٣ - المنار: ٥٩/١/١٨

٢٥٤ - السابق: ١٣٤/٨/١

٢٥٥ - السابق: ١٣٤/٨/١

الدعوة إلى الأدب الإسلامي

كان السيد رشيد رضا يدعو إلى الأدب الملتزم ، ويرى أن الأديب الحق هو الذي يتبنى قضايا الأمة ، ويدعو بأدبه إلى الفضائل والقيم الإنسانية العليا ^{٢٥٦} ، ويرد على من يفرق بين أدب النفس (الأخلاق) وأدب اللسان (الأدب) بقوله : "إن أدب النفس لا يكون كاملا إلا بأدب اللسان ، فالأول يستلزم الثاني . " ^{٢٥٧} ويكاد رشيد يسلب صفة الأديب ، ممن لا يخدم بأدبه مصالح أمته ، ومنافعها ، وقيمها . "فمن لا يقدر على الكلام الفصيح في التتفير عن الرذائل والترغيب في الفضائل ، وفي سائر المواضيع المتعلقة بمنافع أمته ومصالحها قولاً وكتابة ، لا يكون أديبا . " ^{٢٥٨} وعلى هذا يكون رشيد من أوائل الأدباء المعاصرين ، الذين دعوا إلى نظرية الأدب الإسلامي .

ملاحظة تطور النثر في عصره

من نظرات رشيد النقدية ، التي تدل على مواكبته للحركة الأدبية في عصره ، ومتابعته لما يستجد فيها ، ملاحظته أن النثر ارتقى في عصره أكثر من الشعر ، وذلك بفضل الجرائد التي نهجت أسلوباً جديداً في الكتابة النثرية ، وبفضل الحركة التأليفية النشطة . يقول رشيد منوها ببعض أدباء عصره : "وثمرات أدواهم ظاهرة في جنات الجرائد ، والمصنفات الحديثة النافعة ومنها يعلم أن الترقى في المنشور أكثر منه في المنظوم." ^{٢٥٩}

إذا أضيف إلى هذه الملاحظات ذوات الطابع التجديدي ، اهتمام رشيد الكبير بالفنون الأدبية الجديدة ، مثل القصة والرواية ، حيث خصص لهما مساحات كبيرة في مجلته ، بالتقريب والتقديم ، وحث الأدباء على المساهمة فيهما بالتأليف والترجمة ، علاوة على ما سبق من اعتدال موقفه من القضايا اللغوية والأدبية التي دار النقاش حولها في عصره ، أمكن القول بأنه كان مؤيداً ومناصرًا للتجديد وهذا ما

^{٢٥٦} - معالم الأدب الإسلامي ، د.عمر عبد الرحمن الساريسي ، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع - الكويت ان

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣م ، ص ٦٣

^{٢٥٧} - المنار : ١٣٣/٨/١

^{٢٥٨} - السابق : ١٣٤/٨/١

^{٢٥٩} - السابق : ٥/٨/١

يقتضيه أيضا إصلاحه الديني والمدني ، وينسجم مع مواقفه الأخرى التجديدية ، حيث كان مع التجديد في المجالات الفقهية والعقدية والتعليمية والاجتماعية والسياسية ، فكيف يكون إذا مقلدا أو جامدا على القديم في المجال الأدبي ؟!

يتهم بعض الدارسين رشيد رضا بأنه كان عقبة أمام تحديث الأدب المصري ، وتجديد الشعر فيه ، كما كان عائقا في طريق الأفكار التقدمية كالقومية حسب رأيهم ، فيقول : "لكن رشيد رضا لم يكن قوميا في تفكيره ، وكان يزود بحماسة دافقة عن الدعوة إلى جامعة الإسلام ، بحيث تصبح البلاد الإسلامية جميعا أمة واحدة ، لا اثر فيها للقوميات ، بل كان يرى في فكرة القومية مبدأ غريبا عن الإسلام ، هذا إلى أنه وقف موقف المعارضة ، من تقدم نزعات التجديد في الأدب المصري الحديث." ^{٢٦٠} ، وإنما رفض رشيد رضا ترك كل الضوابط الأدبية ، والمقاييس اللغوية ، بحجة ابتكار وهمي ، يتذرع به ضعاف البضاعة ، لإخفاء عجزهم عن تحصيل العلوم المكتملة للمبدعين ، والفنون اللازمة للأدباء المعتبرين ويشاركه في هذا حامل لواء التجديد في الأدب العربي الحديث ؛ الأستاذ عباس محمود العقاد ، إذ يقول مناقشا لمخائيل نعيمة ، في دعوته إلى التحرر من الضوابط اللغوية والأدبية : "وزبدة هذا الخلاف أن المؤلف يحسب العناية باللفظ فضولا ، ويرى أن الكاتب أو الشاعر في حل من الخطأ ، مادام الغرض الذي يرمي إليه مفهوما ، واللفظ الذي يؤدي به معناه مفيدا ، ويعن له أن التطور يقضي بإطلاق التصرف للأدباء ، في اشتقاق المغردات وارتجالها ، وقد تكون هذه الآراء صحيحة في نظر بعض الزملاء ، ولكنها في نظري تحتاج إلى تنقيح وتعديل ، ويؤخذ فيها بمذهب وسط بين التحريم والتحليل .. ولكن يجب أن نذكر أن اللغة لم تخلق اليوم ، فنخلق قواعدها وأصولها في طريقنا ، وأن التطور إنما يكون في اللغات التي ليس لها ماض وقواعد وأصول ، ومتى وجدت القواعد والأصول فلماذا نهملها أو نخالفها ، إلا لضرورة قاسرة لا مناص منها." ^{٢٦١} وهذا عين موقف رشيد رضا ، فيما جرى بينه وبين الأستاذ جبر ضومط ، الذي كان يدعو بمثل دعوة ميخائيل نعيمة.

^{٢٦٠} - رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده : ٢٦٧

^{٢٦١} - مقدمة الغربال لميخائيل نعيمة : ١٠

مكانة رشيد في النقد الأدبي

ذكر الباحث فيما مضى من دراسة نقد رشيد رضا ، أنه لم يكن ناقدًا محترفًا أو متخصصًا ، وإنما كان أدبياً كبيراً ، وعالماً لغوياً ، وشاعراً موهوباً ، وناقداً متذوقاً ، يعلق على ما يصادفه من الآثار الأدبية ، والأعمال الشعرية تعليقا مقتضيا ، غير متوسع في شرحها ، وبيان مزاياها ، أو مواطن ضعفها ، وكانت صلته بالحركة الأدبية صلة قريبة ، لأنه كان صاحب مجلة كبيرة ، تعنى - من بين قضايا أخرى - بقضية الأدب ، حيث كان الأدباء يرفعون إليه ما ينجزونه من الأعمال الأدبية ، لتقييمها ثم نشرها في المجلة ، وعرف عنه اهتمامه الخاص بالفنون الجديدة ؛ مثل القصة والرواية ، فكثر ما يهدى إليه منها ، حتى ناهزت القصص التي قرظها في مجلة المنار وحدها مائة قصة ، كما كان الشعراء - ومن بينهم الكبار - يهدون إليه دواوينهم ، فيكتب إليهم رأيهم فيها ، وينصح البعض بما يراه ضرورياً في تحسين أدائه ، ومن ذلك ما أجاب به نقولاً أفندي رزق الله ، الذي طلب رأيه في قصة كتبها بعنوان "حواء الجديدة": "وأرجو أن تتوخى فيما ستكتب الغاية والفائدة ، أكثر مما تتوخى من حسن الوضع ، ولطيف التعبير ، وقوة التأثير ، وأجدر بمن يعرض عمله لنقد الرجال أن يبلغ منه غاية الكمال."^{٢٦٢} ونصح مصطفى صادق الرافعي ، بتجنب الأبيات المغسولة في شعره ، التي يقل معناها ، ويكثر لفظها ، فقال: "هذا وإنني لا أتكلم في انتقاد الديوان ، ولكنني أنصح الناظم أن يفكر عند النظم ، أو عند التنقيح ، في معاني الأبيات ، التي تبقى في ذهن القارئ ، لا في التأثير فقط ، فإن من تخيلاته ، أو من أبياته ، ما يروع لفظه وسبكه السمع ، حتى إذا تأمله القارئ ، لم يجد له معنى يستقر عنده الفهم."^{٢٦٣}

هذا وكان السيد رشيد رضا ناقدًا بطبعه ، قليل التسليم بالموروثات المتعارف عليها والتقاليد المرعية ، إلا بعد التمحيص والتدقيق فيها ، فما لا يسنده دليل عقلي ، أو حجة شرعية ، لفظه وطرحة ، سواء أكان شأنًا دينياً أم فكرياً أم أدبياً ، كما كان

^{٢٦٢} - المنار : ٧١٧/٩/٩
^{٢٦٣} - السابق : ٧٩٦/١٠/٩

دقيق الملاحظة ، صادق الفراسة ، ويشهد على قوة حاسته النقدية ، وصحة بصره بالرجال وبمذاهبهم ومنازلهم ، ما أثر عنه من إطلاق الألقاب على العلماء ، التي اشتهروا بها ، فهو الذي لُقّب الشيخ محمد عبده بالأستاذ الإمام^{٢٦٤} وهو الذي أطلق لقب أمير البيان على شكيب أرسلان^{٢٦٥} واقتبس الدكتور سامي أدهم في كتابه "عبد الرحمن الكواكبي" كلاما من رشيد رضا فيه ، وهو قوله : "رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي ، وعالم من علماء العمران ، وحكيم من حكماء الاجتماع البشري."^{٢٦٦} فجعله شعارا لكتابه ، كما رجع إليه الأستاذ العقاد مرارا في تحليل بعض مواقف الإمام محمد عبده ، كقوله : "ومنه كما قال السيد رشيد رضا من الإغراق والغلو في السيد ما يستغرب صدور عنه."^{٢٦٧}

^{٢٦٤} - السيد رشيد رضا : ٢٧٣

^{٢٦٥} - أمير البيان شكيب أرسلان ، د. أحمد الشرباصي ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر ، الطبعة الأولى ١٩٦٣م ، ص ٦١٧

^{٢٦٦} - عبد الرحمن الكواكبي : ٣

^{٢٦٧} - عبقرى الإصلاح والتعليم ، الإمام محمد عبده : ٩١

الخاتمة

نتائج البحث .

الاقتراحات .

نتائج البحث :

بعد دراسة حياة وأدب السيد محمد رشيد رضا انتهى الباحث إلى النتائج

الآتية :

- كان السيد رشيد رضا من العلماء العصاميين ، الذين وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد في العلوم النقلية والعقلية ، دون إطالة الاعتماد على العلماء والشيوخ ، ودون الانتظام الكثير في مقاعد الدراسة النظامية .
- وصل رشيد رضا إلى درجة الاستقلال في التعامل مع التراث الإسلامي فكانت له فتاوى ومواقف اجتهادية في مختلف القضايا الشرعية والفكرية تعبر عن تفرد في الفهم .
- يعد رشيد رضا من رواد النهضة العربية والإسلامية الحديثة ، بعلمه الغزير ، وثقافته الواسعة ، وفكره المستنير ، ونضاله السياسي في الذود عن حمى الإسلام والعروبة ويسابقيته وتقدم عهده .
- كان مع أستاذه ؛ الشيخ محمد عبده ، والسيد جمال الدين الأفغاني ثالث الأعمدة ، التي قام عليها الفكر الإسلامي الإحيائي الحديث .
- يعد رشيد رضا ملهم الحركات الإسلامية المعاصرة ، على اختلاف مدارسها ، بما تفرد به بعد أستاذه من تنقية الفكر الإسلامي مما شابه من شوائب العقلانية والتوفيقية ، والعودة به إلى الأصول المأمونة للسلفية الأولى .
- كان أحد أبرز زعماء المقاومة العربية التي ناضلت من أجل الاستقلال بل يمكن عده من رموز القومية العربية في عصر النهضة ، ولم تكن قوميته تتعارض مع إسلاميته .
- من أهم ما يدل على منزلة رشيد الرفيعة ، وعلو شأنه في أمته علاقاته القوية بملوك ورؤساء العرب ، واستماعهم إلى نصائحه ، وحرصهم على علاقتهم به .
- كان رشيد خلافا لما ذكره بعض الدارسين مطلقا على ثقافة العصر ، قوي المشاركة في قضايا الأمة ، وكان اهتمام المستشرقين بآرائه أكثر من

اهتمامهم بشيخه محمد عبده ، وقرّظ في مجلة المنار كثيرا من أعمال أدباء الغرب والشرق الأوربي .

• كان السيد رشيد رضا صحفيا رائدا ، وإعلاميا بارعا ، وكانت مجلته "المنار" رابعة أربع مجلات ، اعتبرت موسوعات ، في غزارة مادتها ، وبراعة أقلام أصحابها ، وطول اتصال عمرها ، وهي إضافة إلى المنار : المشرق للأب لويس شيخو اليسوعي ، والهلال لجرجي زيدان ، والمقتطف للدكتور يعقوب صروف .

• كان رشيد رضا بشهادة معاصريه من أكثر كتاب عصره إنتاجا ، وأغزهم علما ، وأسلسهم قلما ، وأكثر مكتوباته في مجلة المنار ، وله مؤلفات تروى على الثلاثين ، منها تفسير القرآن الكريم ، في اثني عشر مجلدا ، كما كان يكتب في الجرائد والمجلات المختلفة .

• كان رشيد أديبا متفنا ، وشاعرا موهوبا ، ولكن شهرته العلمية ، وكفاحه الفكري والسياسي ، حجب وغطى على مكانته الأدبية ، فلم يشتهر بين الدارسين أدبه ولا شعره .

• كان رشيد رضا أديبا بالطبع ، بمعنى أن موهبته الشعرية المودعة في طبعه ، وإتقانه للعلوم العربية بشتى فروعها ، وممارسته الكثيرة للكتابة والتأليف تضعه في مصاف أدباء عصره .

• شغل رشيد عن قول الشعر بعد أن نبغ في العلوم الإسلامية ، وتصدر للإصلاح والنضال الفكري والسياسي ، وعاد إلى الاهتمام به في آخر حياته ، كما يظهر شعر ديوانه "ديوان السيد"

• تدرج رشيد في شعره في مراحل ثلاث : مرحلة التقليد ، ومرحلة التجديد المقصود ، ومرحلة التعبير عن الذات ، وقد اعتبرت شعره في المرحلة الأخيرة خير شعره ، لأنه يمثل صدق تمثيل ، ولأنه كان آخر عطاءه الشعري .

• نسب بعض النقاد السيد رشيد رضا إلى الجمود والتزمت في نظراته النقدية ، ودافع هو عن نفسه ، ورجح الباحث أنه كان معتدلا في الجدل

الذي احتدم بين أنصار القديم ودعاة التجديد ، بل رأى أنه كان أقرب إلى روح التجديد ، غير أنه لم يستسغ التفريط بقواعد العربية ، وتجاوز مقاييسها بدون مبررات تدعو إلى ذلك ، وبدون أن يتم ذلك في مجامع لغوية متخصصة .

- لا يوجد في شعر رشيد رضا ما يؤيد ما ذهب إليه بعض الباحثين من أنه كان مولعا بتتبع الغريب في شعره ، ومحاكاة طرائق البدويين من قدامى الشعراء ، وأنه كان مثل الشاعر المصري محمد عبد المطلب في المذهب الشعري ، ومن ثم ذكرت أن شعره أقرب إلى الوضوح في لغته ، بما في ذلك مقصوده الطويلة التي عارض بها اللغوي الشهير ابن دريد .
- إن من أهم الآثار الأدبية التي خلفها السيد رشيد رضا مجلة المنار ، التي حوت كثيرا من المقالات المتنوعة ، والآراء الأدبية المختلفة .
- تراث رشيد النثري غزير المادة ، كثير التنوع ، وخاصة ما حوته منه مجلة المنار ، بحيث يتمثل فيه كثير من ألوان النثر الفني ، وقد اختصر الباحث في دراسته له على : الرسائل ، والمقالات ، والسيرة الأدبية ، وأدب الرحلات .
- كان رشيد رضا ذا موهبة شعرية ، وأهلية أدبية كبيرة ، لكنه انصرف إلى مجالات أخرى ، وخاصة عندما أصبح زعيما دينيا ، ورمزا من رموز الإصلاح الإسلامي .
- مكانة رشيد رضا في الكتابة الفنية مكانة سامية ، وهو يضاهي في قوته الأدبية كثيرا من أقرانه الذين حظوا بعناية الدارسين .
- كان نقد رشيد رضا جزءا من أدبه ، ودليلا على مكانته في فهم كلام العرب .
- لم يحظ رشيد رضا بالاهتمام الذي يستحقه من الأدباء ، فلا نجد له ذكرا في كتب الأدب ، التي تترجم لكثير من معاصريه ، باعتبارهم أدباء العصر ، من أمثال عبد الرحمن الكواكبي ، وشكيب أرسلان ، وباحثة البادية ، ومصطفى كامل ، وعلي يوسف ، وحتى شيخه محمد عبده ،

وتدرس مختارات من أدبهم النثري ، مع أنه ليس بأقل من هؤلاء شأنًا في الأدب إن لم يفقههم فيه .

- أن مصادر شعر رشيد ثلاثة : ما حوته كتبه ومنها مجلة المنار ، ومقصورة رشيد التي بدأ نظمها في عام ١٣١٥هـ وكان يزيد فيها حتى كان منها ما اعتبره من آخر شعره ، وديوان السيد .
- أن رشيد رضا كان أقرب إلى روح التجديد والانفتاح بوعي على المستجدات الفنية ، على خلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين ، ولم يكن يترسم خط الشعراء القدامى في شعره إلا في المرحلة الأولى من مراحل شعره الثلاثة التي تدرج فيها ، وذلك على خلاف ما ذهب إليه البعض الذين قرنوه بالشاعر عبد المطلب .
- أنه كان رائد الأدب الإسلامي ، بما دعا إليه من ربط الأدب بالقيم الإسلامية ، وملاحظته التلازم بين الأدب السلوكي والأدب التعبيري ، فلا قيمة للأدب التعبيري ما لم يكن منميا للأدب النفسي .
- أسهم رشيد في نهضة الأدب العربي الحديث ، بتقريبه وتقديمه لأعمال الأدباء ، وبيئاته مساحة كبيرة في مجلته للقضايا الأدبية التي كان يسهم في تحريرها إلى جانب قلمه البارع أدباء كبار مثل : مصطفى صادق الرافعي ، وأمير البيان شكيب أرسلان والأستاذ جبر ضومط ، والأستاذ محمد خضر الحسين ، والأستاذ أحمد كمال وغيرهم ، كما كان كثير التشجيع للأدب المترجم وخاصة القصص والروايات ، وعلى هذا فقد اعتبرت "المنار" من المجالات الأدبية في عصر رشيد رضا .

الاقتراحات :

بعد صحبة السيد رشيد رضا في دراسة حياته وأدبه ، رأى الباحث بأن هناك حاجة إلى مزيد من البحث والدراسة في أدب رشيد ، من خلال مجلة المنار وكتبه العديدة وخاصة في المجالات الآتية :

- **القصة والرواية :** كان لدى رشيد رضا عناية بالقصة والرواية ، حيث أشاد بأهميتهما ، وقرظ وقدم كثيرا من القصص والروايات المنشأة بالعربية أو المترجمة إليها ، كما حكا في المنار بعض القصص العربية القديمة ، وصاغ هو بأسلوبه بعض القصص القصيرة مثل : تأثير الاعتقاد في العمل وكتابه الوحدة الإسلامية محاولة روائية ، فهو حوار طريف بين شخصين أحيانا ، وبين أشخاص عدة أحيانا أخرى ، في قضية الإصلاح والتقليد. وكل هذه المحاولات تتدرج في جهد رشيد في القصة والرواية .
- **رسائل رشيد :** لا يزال كثير من رسائل رشيد رضا قابعا في أرشيفات الدول ، ومحفوظا في خزائن مكاتب الخاصة والعامة ، وإذا كانت رسائله إلى صديقه شكيب أرسلان فقط ، قد صدر المنشور منها في مجلد ضخم ، بلغ ثمانمائة صفحة ، فإن رسائله إلى عشرات الأصدقاء ، والعلماء ، والوجهاء ، والمسؤولين ، ورؤساء الدول لا زالت تنتظر البحث والدراسة والنشر .
- **مقالاته :** بلغ مجموع مقالات رشيد رضا في مجلة المنار وحدها ألفين وتسعمائة وثمانية وثلاثين مقالا ؛ منها الأدبية ، والعلمية ، والصحفية وغيرها ، وله مقالات أخرى كثيرة كان ينشرها في الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، فلو خصصت مقالاته بدراسة ، تحصيلها وتصنيفها على حسب الموضوعات ، وتدرس خصائصها وفروقها على حسب الأغراض ، والتطور الزمني ، والفكري للسيد رشيد رضا ، لكان ذلك عملا مفيدا .
- **القضايا الأدبية في مجلة المنار :** يمكن أيضا دراسة القضايا الأدبية التي كانت تعنى بها مجلة "المنار" ، وهل تمثل تلك القضايا اتجاها أدبيا معينيا كما يمكن دراسة أدب غير رشيد رضا في مجلة المنار ، مثل سلسلة المقالات

التي نشرها الأستاذ محمد خضر الحسين بعنوان: "الخيال في الشعر العربي"
وعنوان: "القياس في اللغة العربية".

- **الخطابة** : من الموضوعات النثرية في أدب رشيد التي تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث الخطابة ، فقد كان رشيد كثير الخطب ، كثير التنوع فيها كما أن له آراء في هذا الفن ، فهذا الموضوع من حيث حجمه ، وتعدد أغراضه ، يحتاج إلى دراسة متأنية تتوافر عليه .
- **المساجلات الأدبية واللغوية** : دارت بين رشيد ونظرائه الأدباء مساجلات ومناظرات ومناقشات وردود في اللغة والأدب والفكر ، وقد حوت "المنار" طرفا من ذلك ، كما حوى كتاب شكيب في رشيد رضا ما جرى بينهما من ذلك بواسطة الرسائل الإخوانية ، فهذا أيضا من الموضوعات التي تحتاج إلى دراسة خاصة بها ، وأهم مصادره المنار والمجلات والجرائد المعاصرة لها. وممن جرت بينهم المناظرات أو الردود : الدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور محمد لطفي جمعة ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والدكتور أحمد أمين ، والأستاذ محمد فريد وجدي والشيخ عبد الحسين شرف الدين ، وغيرهم .

ملخص البحث :

أشار البحث إلى ما اعترى الثقافة الإسلامية - ومن ضمنها الأدب العربي - من فتور في ظل سيادة الدول الأعجمية على البلاد العربية ، ثم شرح حال عصر رشيد رضا سياسيا وفكريا ، موضحا ما انتهى إليه أمر الدولة العثمانية ، التي كانت تمثل رمز الوحدة الإسلامية في نظر الشعوب الإسلامية قبل سقوطها ، وترجم البحث للسيد رشيد رضا ، بما يكشف عن سيرته الذاتية ، نشأة ، وتعلما ، وكفاحا في خدمة الدين والأمة العربية والإسلامية ، وأنه تلقى تعليما دينيا على شيوخ مدينة "طرابلس" الشام ، وأنه عني بتثقيف نفسه بالثقافة العصرية ، وتأثر بمدرسة "العروة الوثقى" الفكرية ، التي تزعمها السيد جمال الدين الأفغاني ، وتلميذه الشيخ محمد عبده المصري ، ثم هاجر السيد رشيد رضا إلى مصر ، لملاقاة الشيخ محمد عبده ، والعمل معه على ممارسة الإصلاح ، في جو أكثر حرية من الشام ، وفي هناك لمع نجمه ، وخاصة بعد وفاة شيخه .

تتاول البحث في شطره الثاني أدب رشيد رضا ، فوجده أدبا غزيرا ومتنوعا ، إذ تبين أن لرشيد رضا شعرا منشورا ، ونثرا كثيرا ، وآراء نقدية مبنوثة في مجلة المنار الموسوعية ، فتتاول البحث هذا الأدب بالدراسة والتحليل والنقد ، وظهر أن تراث رشيد رضا الأدبي لم يحظ بالعناية الكافية ، وأن معظم من تعرضوا لدراسته أو ترجموا له ، ركزوا على اهتماماته الدينية والفكرية ، فشغلوا بها عن تراثه الأدبي .

إن تراث رشيد رضا الأدبي ليضعه - بجدارة - في مصاف أدباء عصر النهضة الذين تدرس آثارهم الأدبية ، مثل الشيخ علي يوسف ، وقاسم أمين ، وشكيب أرسلان ، ومصطفى كامل ، وغيرهم .

كان السيد رشيد رضا - رغم اعتزازه ودفاعه عن التراث - ذا رؤية إصلاحية وتجديدية في قضايا الدين والفكر والأدب ، وأشارت هذه الدراسة إلى طرف من نظراته التجديدية في الأدب . انتهت الدراسة إلى أن السيد رشيد رضا أحد أدباء عصر النهضة ، واقترحت على الدارسين إجراء مزيد من البحوث .

الفهارس

فهرس الآيات .

فهرس الأحاديث .

فهرس الأشعار .

فهرس المصادر والمراجع .

فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات

م	الآية	السورة ورقم الآية	الصفحة
١	(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)	إبراهيم: ٢٤	أ
٢	(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا)	الكهف: ١	١
٣	(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)	الحجر: ٩	١
٤	(كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحِثُّ مِثْلَهُ نَسْتَكْفُرُ)	ص: ٣	٢٢
٥	(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)	فصلت: ٤٤	٤٤
٦	(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)	يوسف: ٥٢	٨٣
٧	(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)	الزمر: ١٧-١٨	١٠٢
٨	(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)	آل عمران: ١٥٩	١٠٦
٩	(فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ)	الغاشية: ٢١	١٠٦
١٠	(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)	الأنعام: ١٠٧	١٠٦
١١	(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ ق: ٤٥)	ق: ٤٥	١٠٦

مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)

- ١٢ (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ إِبراهيم: ٢٤-٢٥ ١٦٥
أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (اقتباس)
- ١٣ (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) الإسرائ: ١ ١٧٤
- ١٤ (فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ) يونس: ٣٢ ١٨٩
- ١٥ (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) طه: ١١٤ ٢١٧
- ١٦ (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) النمل: ٢٩-٣٠ ٢٩٧
- ١٧ (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالٍ نَعَجْتِكِ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) ص: ٢٤ ٣٠١
- ١٨ (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا) الأحزاب: ٦٧ ٣٠٤، ٣٠٨
- ١٩ (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ اللَّائِي تظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) الأحزاب: ٤ ٣٠٥
- ٢٠ (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) غافر: ١٤ ٣٠٥
- ٢١ (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ) هود: ١١٧ ٣٠٥
- ٢٢ (تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) ق: ٨ (اقتباس) ٣٠٥
- ٢٣ (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) النور: ١٦ ٣٠٥

- ٢٤ (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ) النبأ: ١-٢ ٣٠٥
- ٢٥ (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) النحل: ١١٢ ٣٠٨
- ٢٦ (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ آلِ عِمْرَانَ : ٢٦ ٣٠٨
مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
- ٢٧ (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) إبراهيم: ٤٢ ٣٠٩
- ٢٨ (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ) الحشر: ٢ ٣٠٩
- ٢٩ (كَلَّا وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) المدثر: ٣٢-٣٤ ٣٠٩
- ٣٠ (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمُ (اقتباس) سُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) الحديد: ١٣ ٣١١

فهرس الأحاديث

الصفحة	الحديث	م
٤	"لتفتحن القسطنطينية على يد رجل ، فنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش" مسند الإمام أحمد : ٣٣٥/٤	١
٢١٤	"ويل للعرب من شر قد اقترب" صحيح البخاري : ٢٥٨٩/٦ ، صحيح مسلم : ٢٢٠٧/٤	٢
٢١٨	عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم" صحيح البخاري : ٢٣٥٢/٥ ، صحيح مسلم : ٢٠٧٣/٤	٣
٢٣٠	"أدعوك بدعاية الإسلام" صحيح البخاري : ٧/١ ، صحيح مسلم : ١٣٩٣/٢	٤

فهرس الأشعار

(على حسب ورودها في البحث)

الصفحة	الوزن	البيت الأول في القطعة	م
٤٥	الرجز	بيت رقي في المعالي مـورد	١ خير البرايا أحمد سمالـه
٤٩	الطويل	أو الراح تجلي في يد الرشأ الألمي	٢ سلاح كزهر الروض أو نفحة الصبا
٤٩	الكامل	والصبر أصعب ما يقاد نجائبه	٣ ألزمت نفسي الصبر فيك تاسيا
٤٩	مجزوء الكامل	د مكللا مثل الثمر	٤ فترى الجراد على الجريـ
١٢٢	البسيط	لا حول للخلق بالخلاص ولا	٥ هو المنون فقصر دونه الأمـلا
١٢٣	البسيط	ووارث المصطفى فينا ونائبه	٦ شيخ الشيوخ إمام العصر أوحده
١٢٣	البسيط	وقد أعد له جناته نـزلا	٧ طوبى لمن بجوار الله قد نـزلا
١٢٣	البسيط	قرت به عينه مذ كاسها نهـلا	٨ لئن بكاه بنا علم اليقين فقـد
١٢٤	الكامل	والنعش مثل المهـد للأولاد	٩ إن المنية غاية الميـلاد
١٢٤	الكامل	ناموسه فرد من الأفـراد	١٠ أطبيعة ذا الحزن ليس يشذ عن
١٢٥	الكامل	إلا كبعض الضيف والقصاد	١١ قد جاءه هذا الحمام فلم يكـن
١٢٥	الكامل	بمواكب الأعراس والأعياد	١٢ حفت به زمر وسار كشأنه
١٢٥	الرمل	تترأى فوق طوق النيشـر	١٣ لسن إن نظم الشعر غـدا
١٢٥	الطويل	ويا أيها الأقوام حسبكم بشـرا	١٤ ألا يا بشير السعد كرر لنا البشـرى
١٢٦	البسيط	أجل عيد على الدنيا سياسي	١٥ يوم الجلوس على العرش الحميـدي
١٢٧	الخفيف	بلحاظ قامت بها العصيـة	١٦ نصرت دولة المها التركيـة
١٢٨	الخفيف	كل عضو كآلة حربيـة	١٧ أي حسن نرى بهذي الغواني
١٢٨	الخفيف	يفتري عن ضوعة المفريـة	١٨ كم تناجي الدجى وما أنت ممـن
١٢٨	الخفيف	وز هام الجوزاء بالفوقيـة	١٩ جر ذيلا عن المجرة إذ جـا
١٢٩	الخفيف	بواتنا البنوة النبويـة	٢٠ وكفاني قرب اتلقرابة أنـا
١٣٣	الرجز	بحكمة تروق أرياب الحجى	٢١ تبارك البارئ مبدع السـورى
١٣٤	الرجز	رصعها النور بأصناف الحلـى	٢٢ وروضة تجلى بثوب سندس
١٣٥	الرجز	مثل مدب النمل يسعى في الربى	٢٣ وصاحباي دفتر في طيـه
١٣٦	الرجز	ريان من ماء العفاف والحيا	٢٤ وأروع تلقاه في ريعانـه
١٣٦	الرجز	يفي لي السهد ويخلف الكـرى	٢٥ كم ليلة أبيتها مفكـرا
١٣٨	الرجز	هبي وعن عينيك فامسحي الكـرى	٢٦ لو لا صياح منذر أهـاب أن
١٣٩	الرجز	فربما كان حصاها كالحصا	٢٧ لا تعجبك كثرة جاهلـة
١٤٣	الرمل	وارفع الضيم وجاهد للبلـاد	٢٨ قم فتى العرب إلام الإضطهـاد
١٤٣	البسيط	صمصامة الشام واجلوا باسمها الغررا	٢٩ هيا خذوا بيد الأوطان واخرقـوا
١٤٣	الكامل	اقصوا الطغاة بكل أبيض صارم	٣٠ هبوا رجال الشام عن أوطانكـم
١٤٤	البسيط	ساح المعامع في حزم وإقـدام	٣١ هبوا بني وطني بالسيف واقتحموا
١٤٤	الكامل	مجد الجدود الفاتحين المالكيـن	٣٢ قم يا ابن يعرب جدد المجد الثميـن
١٤٤	الرمل	وتقدم في الوغى واحتسب	٣٣ جدد العهد الذي من ذهـب
١٤٥	البسيط	المجد شيده الأحرار فاستطـرا	٣٤ صرح العلا لبيوت الشام من قـدم
١٤٥	الرمل	شيدوا الصرح وجدوا للعلـى	٣٥ يا حفيد العرب يا نسل الأولـى
١٤٥	الكامل	لمتى تئن ولا تراك مجاهـدا	٣٦ قم يا فتى العرب البلاد حزينيـة
١٤٦	البسيط	كم قتلت ونفت من خير أقـوام	٣٧ هذي فرنسة كم في الشام قد عسفت

- ٣٨ هذي فرنسة أهل الشام فانتبهوا
٣٩ أين الأولى ذهبوا يا قوم فانتبهوا
٤٠ هذي بلاك للأعاجم سلعة
٤١ يا فتى العلياء يا ابن الأكرمين
٤٢ إيه فرنسا ضل سعيك فاحذري
٤٣ وطن العروبة كيف يجسر مؤمن
٤٤ النفس ثائرة والله يا وطني
٤٥ كيف اصطباري عن فدائك بالدماء
٤٦ لا خير في يوم علي شمسسه
٤٧ قم واذكر الصديق أول مؤمن
٤٨ أكرم برابطة الشباب طليعة
٤٩ يا صبية عبثت ريح الضلال بهم
٥٠ نظرة يا شرق نحو الطامعين
٥١ يا طالبا لرياض العلم أزهرنا
٥٢ فيه المراغي والإخلاص رائده
٥٣ في ذمة الحق سبع تلوها سبع
٥٤ النور منبجس من أزهر سطعت
٥٥ أتيتك صاد النفس يا طيب السورد
٥٦ نظمت لها القوافي في هواها
٥٧ وأنا المشوق وما لشدة لوعتي
٥٨ يا دعد إني مستهام وإن بي
٥٩ يا حسنها سلبت عقول ذوي النهى
٦٠ يا لروحي إذ تبتددت
٦١ بالله يا أملي كم بت مرتقبنا
٦٢ أفي السماء مقيم أم ببادية
٦٣ إيه دهر الغدر أقبل أو فادبر
٦٤ ضقت ذرعا بالذي أعي السورى
٦٥ وهكذا الدهر يوليني مصائبه
٦٦ هذي الحياة وكم فيها خطوى
٦٧ هلا نظرت إلى من كان يصحبنى
٦٨ يلعب الدهر بأمال الفتى
٦٩ ما لأهل الأرض صباحا ومساء
٧٠ كم ظلام في قرون قد مضت
٧١ أين عدل ضل ذو العقل به
٧٢ رأيت باكيا مما يروعه
٧٣ يا ليت لي سعة أعطيه ما وسعت
٧٤ صبرا أخي فما الأيام دائمة
٧٥ قل للأولى جمعوا الذهب
٧٦ قم يا غني وسارع من
٧٧ أبدا تحن إليك المأرواح
٧٨ ولكم يميل إلى كلامك سمعه
٧٩ والله منى جانب لا أضيعه
٨٠ والشكل والخفة فى الأرواح
- ١٤٦ ماذا تريد بكم يا سادة الأمم البسيط
١٤٦ ما ذا يراد بأرض العرب والحرم البسيط
١٤٦ كم سامها نذل وكم فيها اغتدى الكامل
١٤٧ يا منار الفخر بين الناهضين الرمل
١٤٧ نارا يطير شرارها وستندمي الكامل
١٤٧ بك أن يخون عهود ودك راغبا الكامل
١٤٨ والبعد عنك يزيد اليوم تهيامي البسيط
١٤٨ ودم العروبة في عروقي قد جرى الكامل
١٤٨ طلعت ولم أذكرك يا مهد الصبا الكامل
١٤٨ وانشر مفاخر فضله لا تجحد الكامل
١٤٩ تهدي الأنام إلى الطريق المفرد الكامل
١٤٩ ما الدين رائدكم بل كيد شيطان البسيط
١٤٩ ببلاد الشرق مهد الفاتحين الرمل
١٥٠ فيه الحياة إذا ما شئت ترجمها البسيط
١٥٠ بالحزم والجد والأخلاق عاليها البسيط
١٥١ والعشر من بعد ساعاتها عدو البسيط
١٥١ أنواره وغدا يهدي المضلينا البسيط
١٥٢ ويا منهل العلياء في مطلع السعد الطويل
١٥٣ وصغت عقود در في رضاها الوافر
١٥٣ إلا عيونك أستعين بسحرها الوافر
١٥٤ ولها أطار من العيون رقادهما الكامل
١٥٤ يا للفؤاد غرامها أضنانتي الكامل
١٥٤ في حمى العرب الأميين مجزوء الرمل
١٥٦ منك الوصال فهلا جدت يا أملي البسيط
١٥٦ أم في الخفا أم ترى في ذروة الجبل البسيط
١٥٦ لست إلا زاردا حبل الخناق الرمل
١٥٧ عبد الحر لأرباب النفاق الرمل
١٥٧ واستنزف الدمع من عيني ترديدا البسيط
١٥٧ كم ذا طرقت طريقا كان مسدودا البسيط
١٥٧ يوم النعيم وقد أوردته الجودا البسيط
١٥٨ وأماني الفتى در مصصون الرمل
١٥٨ يطلبون العدل والعدل هباء الرمل
١٥٨ كان فيها العدل إهراق الدماء الرمل
١٥٩ أين عدل حار فيه العقلاء الرمل
١٥٩ من سوء حال وقد جادت مدامعه البسيط ١١٠
١٥٩ كفاي من ذهب أو كنت أنفعه البسيط
١٦٠ يوم سرور ويوم ساء طالعاه البسيط
١٦٠ إن الفقير لفي سغب مجزوء الكامل
١٦٠ واعط الفقير من الذهب مجزوء الكامل
١٦٥ ووصالكم ريحانها والبراح الكامل
١٧٩ ولو أنه عتب تشب حروببه الكامل
١٩٢ وللهو مني والخلاعة جانب الطويل
٢٢٥ أمح ما يعشق من الملاح الرجز

- ٢٣٤ الطويل فوا حيرتي إن لم تكن فيك خيرتي
٢٣٤ الخفيف وحقيق بأنها تحتسار
٢٣٦ البسيط وتبدي التيه في الأعطاف والأشرا
٢٣٨ الكامل في المشكلات أرى به ما لا أرى
٢٤٠ المجتث وما أعاني وألقى
٢٤٠ الوافر بما أبداه من شرف الطباع
٢٤١ الطويل لها في حواشي كل داجية فجر
٢٤٣ البسيط ازح ماذا بنفسه صنعنا
٢٤٣ البسيط فصاحة البدو في ألفاظ تركي
٢٤٤ مجزوء الرمل فالغنى يرعى العقول
٢٤٨ البسيط لا حول للخلق بالخلاص ولا
٢٤٨ البسيط إن كنت في غفلة فالله ما غفلا
٢٤٩ البسيط ووارث المصطفى فينا ونائبه
٢٥٠ البسيط وقد أعد له جناته نـزلا
٢٥٠ البسيط شمس الرشاد وبدر الهدى قد أفلا
٢٥٠ الكامل والنعش مثل المهـد للأولاد
٢٥٠ الكامل ناموسه فرد من الأفـراد
٢٥١ الكامل إلا كبعض الضيف والقصاد
٢٥٢ الرمل أم لآل فوق بسط السنـدس
٢٥٢ الرمل عند فقد الحرث منه بـدلا
٢٥٢ الرمل يتراءى فوق طوق البشـر
٢٥٤ البسيط مرارة الكون وارتاعت مغاربه
٢٦١ الرجز مريده الوارث كل ما حـوى
٢٦٢ الطويل كروض أريض باكرته النسائم
٢٦٣ الخفيف لنفوس الجمعية الأبيـة
٢٦٤ الطويل بحب جمال الدين لا الجسم هائم
٢٦٥ الخفيف جوابا يأتي من العامريـة
٢٦٦ الخفيف مثلوا نور عدله للرعيـة
٢٦٦ الخفيف مجد سعيا وذي بطئـة
٢٦٧ الخفيف دار فيه كالدورة الدمويـة
٢٦٧ الخفيف من مجاني جناتها معنويـة
٢٧٠ الكامل وارفع لواء الدين بين العالمين
٢٧٠ الكامل عن خير مجد للجدود الظافرين
٢٧٠ الكامل كم سامها نذل وكم فيها اغتدى
٢٧١ الكامل ما للمدافع قد تطاير نارها
٢٧١ البسيط والبعد عنك يزيد اليوم تهيامي
٢٧١ الكامل نارا يطير شرارها وستندمي
٢٧١ الكامل وبلادنا للغرب خير نتاجها
٢٧٢ الكامل مع خائن للفتك فيك وذذبنا
٢٧٢ البسيط في سوريا المجد لما شب وازدهرا
٢٧٣ البسيط شتى المواقف من بعد ومن أمم
٢٧٣ الرمل وسيرت الغور في شتى الشئون
٢٧٣ البسيط عن أن أشيد صرح المجد تشييدا
- ٨١ وما احترت حتى اخترت حبك مذهبها
٨٢ حكم حارت البرية فيها
٨٣ عار على الغيد أن تزهو وتقتخرا
٨٤ هو عدتي للحادثات وعمدتي
٨٥ لله أشكو غرامتي
٨٦ أيا من فاق أهل العصر طورا
٨٧ من نفر الغر الذين سيوفهم
٨٨ وارحمنا للغريب في البلد النـا
٨٩ وما المدامة بالألباب أعب من
٩٠ أعطني الناي وغنمي
٩١ هو المنون فقصر دونه الأمـلا
٩٢ يا نائما وصروف الدهر توقظه
٩٣ شيخ الشيوخ إمام العصر أوحده
٩٤ طوبى لمن بجوار الله قد نـزلا
٩٥ نعم لقد علم لدين الله وانكشفت
٩٦ إن المنية غاية الميـلاد
٩٧ طبيعة ذا الحزن ليس يشذ عن
٩٨ قد جاءه هذا الحمام فلم يكـن
٩٩ اسقط الطل أم نبت الحمـس
١٠٠ يا عربيا اتخذوا نبت اللـمى
١٠١ لسن إن نظم الشعر غـدا
١٠٢ خطب أصاب فؤاد الشرق فانطـرت
١٠٣ ثمت قام بالإصلاح بعـده
١٠٤ فيا أيها الحبر الذي لطف طبعه
١٠٥ فأباح العمران سر الترقـي
١٠٦ لئن هام في حب الحسان فإنني
١٠٧ وتصيح الأذان تسترق السمـع
١٠٨ سار في نهجه وكـلاء
١٠٩ فكان المابين والناس ما بيـن
١١٠ وبكلي تسلسل لـه ود
١١١ هاك بكرا جاءت بمتكـرات
١١٢ قم للعلا وارفع عن النفس الصغـار
١١٣ بيزنتيا سلها وسل غرناطـة
١١٤ هذي بلاك للأعاجم سلعة
١١٥ ما للرصاص تنانرت وحداته
١١٦ والأرض ماد فيها كل راسيـة
١١٧ إيه فرنسا ضل سعيك فاحـذري
١١٨ فلم التغافل والتكاسل والونـى
١١٩ وطن العروبة كم تضافر خائـن
١٢٠ وانظم قصيدك آيات يخلدهـا
١٢١ إذ بت مرتقبا نجم السعادة فـي
١٢٢ كم عركت الدهر في هذي الحيا
١٢٣ كم خانني زمني والدهر يمنعي

- ٢٧٣ البسيط أسعى ليك على عيني بلا مهل
 ٢٧٤ البسيط منك الوصال فهلا جدت يا أملي
 ٢٧٤ الرمل بين كأسين اصطباح واغتباق
 ٢٧٥ البسيط يوم النعيم وقد أورته الجودا
 ٢٧٥ البسيط والجسم من سقم قد صار مكودا
 ٢٧٥ الرمل عن ضعيف حطمته الأقوياء
 ٢٧٦ الرمل وأماني العلاء درّ مصون
 ٢٧٦ الكامل ة ألا ترى صخر الحياة تاففا
 ٢٧٨ الكامل ة ألا ترى صخر الحياة تاففا
 ٢٧٩ الرمل غير أن الدهر غدار مجنون
 ٢٨٠ الرمل خانني الدهر وخانتني الرفاق
 ٢٨٠ البسيط إلا المنافق يزجيك الأناشيدا
 ٢٨٠ الرمل قد أحاطته سجوف وفتون
 ٢٨٠ الطويل من الحجج البيضاء في الفخر والسعد
 ٢٨٠ البسيط واستنزف الدمع من عيني ترديدا
 ٢٨١ الكامل كالسحفاة يدب دبيبهـا
 ٢٨١ الكامل تغلي من الضغط الذي لم يهمد
 ٢٨٢ مجزوء الكامل كالنار مشبوب اللهب
 ٢٨٢ الرمل وتقدم معلنا آياتهاـا
 ٢٨٢ الرمل ضحك السيف لإلام تستكين
 ٢٨٢ الرمل يا رجال المجد من خير الجدود
 ٢٨٣ الكامل عن خير مجد للجدود الفاتحين
 ٢٨٤ الكامل أين الشعور الحي أين تبيددا
 ٢٨٤ البسيط ما لي أرى اليوس ماجت فيه أحلامي
 ٢٨٤ الكامل يستنهض الهمم العوالي مرحبا
 ٢٨٤ الطويل فلا أسعدتني في هواك يد الدهر
 ٢٨٥ الكامل يا للفراد غرامها أضنانني
 ٢٨٥ الرمل وسبرت الغور في شتى الشئون
 ٢٨٥ البسيط من بعد ما أملي قد كان معقودا
 ٢٨٦ الرمل لست إلا زاردا حبل الخناق
 ٢٨٦ البسيط بعد الظما مصعدا إن كان مورودا
 ٢٨٦ البسيط من بعد ما أملي قد كان معقودا
 ٢٨٧ البسيط كان النعيم به كالصبح مشهودا
 ٢٨٨ الرمل شيدوا الصرح وجدوا للعلى
 ٢٨٨ الرمل يا رجال المجد من خير الجدود
 ١٢٤ ناديت يا أملي أين المقام لكـي
 ١٢٥ بالله يا أملي كم بت مرتقبـا
 ١٢٦ ما أرى يا دهر إلا أنـي
 ١٢٧ هلا نظرت إلى من كان يصحبني
 ١٢٨ هذي الحياة بها أصبحت منكـودا
 ١٢٩ أين عدل حجبت آياتـه
 ١٣٠ يلعب الدهر بأمال الفتـي
 ١٣١ أظل مرتظما على صخر الحيا
 ١٣٢ أظل مرتظما على صخر الحيا
 ١٣٣ وأردت المجد أعلو هامـه
 ١٣٤ خانني الدهر وقد أملتـه
 ١٣٥ ضل الزمان وخان الصحب لست ترى
 ١٣٦ ما لعيش كلف الناس بـه
 ١٣٧ أمزق أحشاء الظلام بلامـع
 ١٣٨ وهكذا الدهر يوليني مصائبـه
 ١٣٩ ما للجبال التناك يصعد فوقها
 ١٤٠ هذا الشباب دماؤه كمر اجـل
 ١٤١ أحشاؤه في جوفـه
 ١٤٢ قم رضيع الحرب من ساحاتـها
 ١٤٣ جرد السيف من الغمد كفـي
 ١٤٤ يا شاب العرب يا نسل الأسدود
 ١٤٥ بيزنتيا سلها وسل غرناطـة
 ١٤٦ أين الرجال وأين منهم يعـرب
 ١٤٧ ما لي أرى الدهر يا قحطان يفرعني
 ١٤٨ ها روح قحطان أطل من العـلا
 ١٤٩ إذا لم أفز يا دعد بالعلم يافعـا
 ١٥٠ يا حسننا سلبت عقول ذوي النهي
 ١٥١ كم عركت الدهر في هذي الحيا
 ١٥٢ والدهر يزعجني عن غاية عظمت
 ١٥٣ إيه دهر الغدر أقبل أو فأدبـر
 ١٥٤ أملت مرتقبا وردا يطالعني
 ١٥٥ والدهر يزعجني عن غاية عظمت
 ١٥٦ يا نفس صبيرا فلا تأسى على زـمن
 ١٥٧ يا حفيد العرب يا نسل الأولي
 ١٥٨ يا شباب العرب يا نسل الأسدود

المصادر والمراجع

أ. المصادر :

١. القرآن الكريم .
٢. تاريخ الأستاذ الإمام: السيد محمد رشيد رضا ، الدار الفيصلية للنشر والتوزيع والتصدير ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣م.
٣. تفسير المنار: السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت.
٤. حقوق النساء في الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدي العام: محمد رشيد رضا . تعليق محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٤م.
٥. ديوان السيد: السيد محمد رشيد رضا ، دار الطباعة الحديثة بمصر.
٦. ديوان النهضة : محمد رشيد رضا ، اختار النصوص وقدم لها أدونيس وخالدة سعيد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.
٧. رسالة التوحيد: الأستاذ الإمام محمد عبد ، تعليق محمد رشيد رضا ، مكتبة القاهرة ، الطبعة السابعة عشر ، ١٩٦٠م
٨. السيد رشيد رضا ، شكيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون ، دمشق - سورية ١٩٣٦م.
٩. مجلة المنار: السيد محمد رشيد رضا ، دار التدمرية ، الرياض ، (قرص : مكتب مارس للبرمجة ونظم المعلومات ، مصر القاهرة)
١٠. الخلافة: السيد محمد رشيد رضا ، الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٨٨م.
١١. المنار والأزهر: السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٣هـ.
١٢. الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية وتوحد المذاهب: السيد محمد رشيد رضا ، المكتب الإسلامي.
١٣. الوحي المحمدي: السيد محمد رشيد رضا ، دار المنار ، مطبعة محمد علي وأولاده بالأزهر بمصر ، ١٩٥٥م

ب. المراجع

١٤. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٣م.
١٥. الأدب وفنونه ، عز الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي
١٦. الأدب الحجازي في القرن الحادي عشر: د. عائض الراددي ، مكتبة المدني للطبع والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى.
١٧. الأدب العربي المعاصر في مصر : د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السادسة.
١٨. الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار: د. جودت الركابي ، دار الفكر ، دمشق .
١٩. أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي ، أحمد أبو سعد ، دار الشرق الجديد ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦١م
٢٠. أدب عصر النهضة: د. شفيق البقاعي ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م
٢١. الأدب العربي الحديث: د. محمد صالح الشنطي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع ، حائل ، الطبعة الرابعة ٢٠٠٣م.
٢٢. أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة: د. محمد مخزوم ، معهد الإنماء العربي ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م
٢٣. أساليب التعبير الأدبي: د. إبراهيم السعافين (بمشاركة) ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن ، الإصدار الثالث ٢٠٠٠م.
٢٤. الإسلام في القرن العشرين حاضره ومستقبله: عباس محمود العقاد ، دار الكتب الحديثة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٤م
٢٥. الإسلام الأمس والغد: محمد أركون ولويس غارديه ، ترجمة علي المقلد ، دار التنوير للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م.

٢٦. الإسلام كبديل: د. مراد هوفمان ، ترجمة غريب محمد غريب ، مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا للنشر والإعلام بألمانيا الموحدة
٢٧. الإسلام والتجديد في مصر: تشارلز أدمز ،
٢٨. الإسلام والحضارة الغربية: د. محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان ، الطبعة السابعة ، ١٩٨٥م
٢٩. الإسلام والرسول في نظر منصفى الشرق والغرب: الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي ، مطابع قطر الوطنية ، الدوحة - قطر ، ١٣٩٨هـ .
٣٠. الإسلام والغرب دراسة في قضايا الفكر المعاصر: محمد الخير عبد القادر ، دار الجيل ، بيروت والدار السودانية للكتب ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ١٩٩١م.
٣١. أعلام الإسلام: عبد الوهاب سكر ، ص ١٠٨
٣٢. الأعلام: خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م ١٢٦/٦
٣٣. الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره: د. سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، ط ٢
٣٤. البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان: د. طلال عتريسي ، الوكالة العالمية للتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م
٣٥. البيان والتبيين: للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٥م.
٣٦. تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة - مصر.
٣٧. تاريخ الأدب العربي (العصر العثماني) د. عمر موسى باشا ، دار الفكر المعاصر ، بيروت - لبنان ، دار الفكر ، دمشق - سورية ، إعادة الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م
٣٨. تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند: مسعود الندوي ، نشر وتوزيع دار العربية

٣٩. تاريخ الدولة العربية الإسلامية وحضارتها ، د. حسين مؤنس (بمشاركة) ، وزارة التربية - الكويت ، الصف الأول الثانوي ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤-١٩٦٥ م.
٤٠. التاريخ والحضارة الإسلامية في باكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربي: د. عبد الله محمد جمال الدين ، دار الصحوة للنشر ، القاهرة.
٤١. تباشير النهضة الأدبية ، وليم الخازن ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣ م ،
٤٢. تراث الإسلام: جوزيف شاخت (بمشاركة) ، ترجمة محمد زهير السمهوري (بمشاركة) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، الطبعة الثالثة.
٤٣. التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد ، عبد الحي دياب ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ م
٤٤. التراث وتحديات العصر في الوطن العربي (الأصالة والمعاصرة) ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ م.
٤٥. تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل : محمد الغزالي ، دار الشروق ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٢ م.
٤٦. تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي : أنور الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٠ م.
٤٧. التصوير الشعري (رؤية نقدية لبلاغتنا النقدية) : د. عدنان حسين قاسم ، مكتبة الفلاح - الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م ، ص ١٤٩-١٥٢
٤٨. تطور الرواية العربية الحديثة: د. عبد المحسن طه بدر ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة.
٤٩. التفسير ورجاله: الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، مطبعة الأزهر ١٩٧٠ م

٥٠. التصوير الشعري (رؤية نقدية لبلاغتنا النقدية) : د. عدنان حسين قاسم ،
مكتبة الفلاح - الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م
٥١. التفكير فريضة إسلامية: عباس محمود العقاد ، دار الرشاد الحديثة ،
الطبعة السادسة
٥٢. الجامع الصحيح المختصر ، محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق د.
مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، الطبعة الثانية ،
١٩٨٧م
٥٣. جماليات الأسلوب ، الصورة الفنية في الأدب العربي: د. فايز الداية ، دار
الفكر ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣م.
٥٤. الحركات الفكرية والأدبية في العالم العربي الحديث ، أبو عوض أحمد ،
دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ١٩٩٥م
٥٥. الحركة الأدبية في دمشق ، د. إسكندر لوقا ، مطابع ألف باء - الأديب ،
دمشق ، ١٩٧٦م
٥٦. حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربية: محمد الغزالي ، مطبعة
حسان ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧م.
٥٧. حوار لا مواجهة: د. أحمد كمال أبو المجد ، دار الشروق ، ١٩٩٨م
٥٨. حياة الشرق دوله وشعوبه وماضيه وحاضره: د. محمد لطفي جمعة ، دار
إحياء الكتب العربية ، القاهرة - مصر.
٥٩. دراسات في الشعر العربي المعاصر: د. شوقي ضيف ، دار المعارف ،
القاهرة ، الطبعة الثامنة.
٦٠. دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه ، د. محمد عبد المنعم خفاجي
، مكتبة الأزهر ، القاهرة
٦١. دراسات ومقالات في الأدب العربي: د. أحمد بن ناصر الدخيل ، نادي
المنطقة الشرقية الأدبي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م.
٦٢. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني ، علق عليه محمود محمد شاكر ،
مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٦٣. دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي: عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات - الكويت ، ودار القلم ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩م ص ٥
٦٤. دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش: حسان على حلاق ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان.
٦٥. الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: أكمل إحسان الدين أوغلي (بمشاركة) ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول (إرسيا) ، ١٩٩٩م.
٦٦. الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، د. قيس جواد العزاوي ، الدار العربية للعلوم ، الطبعة الثانية ، بيروت - لبنان ، ٢٠٠٣م
٦٧. الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط: د. علي محمد محمد الصلابي ، دار الإيمان للطبع والنشر.
٦٨. الديوان: عباس محمود العقاد (بمشاركة) ، دار الشعب ، الطبعة الثالثة.
٦٩. ديوان ابن دريد ، وشرح مقصورته للخطيب التبريزي ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه ، راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي
٧٠. الرؤيا والتشكيل في الأدب المعاصر: د. أحمد رحمانى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م.
٧١. رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده : د. عثمان أمين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥م
٧٢. الرحلة إلى الحجاز في الأدب العربي الحديث ، د. أحمد محمد على حنطور ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م
٧٣. رسالة التوحيد: الأستاذ الإمام محمد عبد ، تعليق محمد رشيد رضا ، مكتبة القاهرة ، الطبعة السابعة عشر ، ١٩٦٠م.
٧٤. رشيد رضا صاحب المنار ، د. أحمد الشرباصي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر ، ١٩٧٠م.

٧٥. زعماء الإصلاح في العصر الحديث: أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان.
٧٦. السلطان عبد الحميد الثاني (مذكراتي السياسية ١٨٩١-١٩٠٨) مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٢م
٧٧. السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده: أورخان محمد علي ، دار الوثائق ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م.
٧٨. السلطان محمد الفاتح: د. سيد رضوان علي ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م.
٧٩. السيد محمد رشيد رضا: محمد أحمد درنيقة ، مؤسسة الرسالة ودار الإيمان ، الطبعة الأولى.
٨٠. الشاعر الثائر ، رمضان حمودة: د. محمد ناصر ، المطبعة العربية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨م.
٨١. شرح مقصورة ابن دريد ، الأستاذ عبد الوصيف محمد ، المكتبة الشعبية
٨٢. الشعر والشعراء: لابن قتيبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١م
٨٣. الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية من مطلع النهضة إلى عام ١٩٣٩م: دار الملايين ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٢م.
٨٤. شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام: د. أحمد الشرباصي ، دار الجيل بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨م.
٨٥. شكيب أرسلان مختارات نقدية في اللغة والأدب والتاريخ: جمعها وقدم لها سعود المولي ، دار الكلمة للنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م.
٨٦. الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح: محمد بن عبد الله السلطان ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، إدارة الثقافة والنشر ١٩٩٣م.
٨٧. الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل: سمير أبو حمدان ، الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب العالمي ، ١٩٩٢م.

٨٨. صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي
٨٩. الصراع بين القديم والحديث في الأدب العربي الحديث: د. محمد الكتاني دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م.
٩٠. صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر ، أنور الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩م
٩١. العالم الإسلامي والنظام الدولي: د. محمد عمارة (بمشاركة) ، مركز دراسات العالم الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ م
٩٢. عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ، مصطفى محمد حميدانو ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، قطر ، الطبعة الأولى.
٩٣. العثمانيون في التاريخ والحضارة: د. محمد حرب ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٩م.
٩٤. العرب والفكر التاريخي: عبد الله العروزي ، دار التنوير للطباعة والنشر الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م
٩٥. عصر الدول والإمارات: د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة.
٩٦. العصر العثماني: نادية محمود مصطفى (بمشاركة) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة
٩٧. العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي (العصر المملوكي) : نادية محمود (بمشاركة) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م.
٩٨. العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز: د. بكر فائق الصواف ، مطابع سجل العرب ، ١٩٧٨م.
٩٩. علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق دراسة تاريخية تأصيلية نقدية: د. فايز الداية ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م.

١٠٠. العمدة في محاسن الشعر وآدابه: لابن رشيق ، قدم له وشرحه وفهرسه د.صلاح الدين الهراوي دار ومكتبة الهلال ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى.
١٠١. الغريال: ميخائيل نعيمة ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤م.
١٠٢. فجر العلم الحديث: توبي أ. هاتف ، ترجمة أحمد محمود صبحي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٩٩٧م
١٠٣. الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر: د. محمد البهي ، دار الفكر بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٣م
١٠٤. فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي: د. أحمد محمد جاد عبد الرزاق ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٩٥م
١٠٥. الفن والأدب ، د. ميشال عاصي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠م
١٠٦. فن السيرة: د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان.
١٠٧. فن المقالة: أ.د. صالح أبو إصبع (بمشاركة) ، دار مجدولاي للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م
١٠٨. فن المقالة ، د. محمد يوسف النجم ، دار صادر ، بيروت ، ودار الشرق ، عمان ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م
١٠٩. فن المقال الصحفي ، د. إسماعيل إبراهيم ، دار الفجر للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣م
١١٠. في الأدب الحديث: د.عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي
١١١. القاموس المحيط: الفيروز آبادي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧م.
١١٢. قضايا أدبية عامة: إيمانويل ، فريس ، (بمشاركة) ، ترجمة د. لطيف زيتوني ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ٢٠٠٤م.

١١٣. قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، د. محمد زكي العشماوي ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩م
١١٤. لسان العرب ، المؤلف : محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري الناشر : دار صادر - بيروت ، الطبعة الأولى ، ٤٣٤/١٣
١١٥. لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: الأمير شكيب أرسلان ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥م.
١١٦. ليبيا المعاصرة: د صلال العقاد ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٠م.
١١٧. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن الندوي ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، دار القرآن الكريم ، بيروت - لبنان ، ١٩٧٨م.
١١٨. المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد ، المجلد السابع عشر تراجم وسير ٣ ، دار الكتاب اللبناني - بيروت.
١١٩. مجموعة أعلام الشعر: عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠م.
١٢٠. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي ، المكتبة العلمية - بيروت
١٢١. محمد بن دريد وكتابه الجمهرة ، د. شرف الدين علي الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ، إسكندرية ، ١٩٨٥م
١٢٢. مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت ، طبعة جديدة ، ١٤١٥ - ١٩٩٥ ، تحقيق : محمود خاطر.
١٢٣. المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام: محمد محمود الصواف ، دار الثقافة للطباعة والزنكوغراف ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥م

١٢٤. المسلمون في تاريخ الحضارة: ستانود كب ، ترجمة محمد فتحي عثمان ،
الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م .
١٢٥. المعارك الأدبية بين زكي مبارك ومعاصريه: محمد جاد البنا ، دار
الكتاب السعودي ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م .
١٢٦. مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مؤسسة قرطبة - القاهرة .
١٢٧. المعاصرون: محمد كردي علي ، علق عليه محمد المصري ، مجمع
اللغة العربية بدمشق ، مطبعة دار أبي بكر ، ١٩٨٠م ٣٣٤
١٢٨. معالم الأدب الإسلامي ، د.عمر عبد الرحمن الساريسي ، مكتبة الفلاح
للنشر والتوزيع - الكويت ان الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣م
١٢٩. معالم الثقافة الإسلامية: عبد الكريم عثمان ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة
الأولى ، ١٩٩٩م .
١٣٠. المقدمات التاريخية للعلم الحديث ، توماس جولدشتاين ، ترجمة أحمد
حسان عبد الواحد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت
٢٠٠٣م
١٣١. منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: فهد بن عبد الرحمن الرومي
، مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة الرابعة ١٤١٤ هـ
١٣٢. الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي ، دار المعرفة ،
بيروت ، لبنان .
١٣٣. موسيقى الشعر: د إبراهيم أنيس ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة
الرابعة .
١٣٤. نحن والحضارة الغربية: أبو الأعلى المودودي ، مؤسسة الرسالة ،
بيروت - لبنان ١٩٨٣م .
١٣٥. النقد الأدبي الحديث ، د. علي جابر المنصوري ، دار عمار - الأردن ،
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م
١٣٦. النهضة العربية والنهضة اليابانية: د. مسعود ضاهر ، المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، ١٩٩٩م

١٣٧. هيكل رائد الروية: د. طه وادي ، دار النشر للجامعات ، الطبعة الثانية
١٩٩٦م.

١٣٨. واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام: وحيد الدين خان ، ترجمة د. سمير
عبد الحميد إبراهيم ، دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، الطبعة
الأولى ، ١٩٨٤م .

الدوريات :

١٣٩. مجلة عالم الفكر ، المجلس الأعلى الوطني للثقافة والفنون والآداب ،
الكويت ، م٢٦ ، العددان ٤ ، ٤ ، ١٩٩٨م.
١٤٠. الاجتهاد: مجلة متخصصة تعنى بقضايا الدين والمجتمع والتجديد العربي
والإسلامي ، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر ، بيروت ، لبنان.

الإنترنت :

١٤١. www.raddadi.com

الأقراص المدمجة :

١٤٢. مكتبة ماس الشاملة للكتب ، إنتاج ماس للبرمجة ونظم المعلومات .
١٤٣. موسوعة مجلة المنار - الأعداد الكاملة ، إنتاج ماس للبرمجة ونظم
المعلومات ، القاهرة مصر .
١٤٤. مكتبة الأدب العربي - الإصدار الأول ١.٠ ، مركز التراث للبرمجيات ،
الأردن .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
	الاستهلال :
أ	- الآية
ب	- إهداء
ج	- كلمة شكر
١	- المقدمة
٩	- التمهيد
١٢	الفصل الأول : عصر و حياة السيد رشيد رضا
١٢	المبحث الأول : عصر السيد رشيد رضا
١٢	المطلب الأول : الحالة السياسية في عصره
١٤	- بداية ضعف الدولة العثمانية
١٦	- محاولات الإصلاح
١٨	- أسباب فشل الإصلاحات
٢٠	- إنصاف السلطان عبد الحميد الثاني
٢١	- وضع المناطق العربية في عهد الدولة العثمانية

- ٢٣ - تترك الدولة العثمانية
- ٢٦ - انفصال المناطق العربية عن تركيا
- ٣٠ - المطلب الثاني : الحالة الفكرية في عصره
- ٣٠ - بواعث النهضة
- ٣٣ - دعاة النهضة
- ٣٨ - الحالة الثقافية في عصره
- ٤٣ - حالة الأدب في عصره
- ٥١ - المبحث الثاني : حياة السيد رشيد رضا
- ٥١ - المطلب الأول : أسرته وسيرته
- ٥٢ - حول نسبه
- ٥٤ - مكانة عائلته
- ٥٥ - تصوفه
- ٥٧ - جهوده في الدعوة والإصلاح
- ٥٩ - هجرته إلى مصر
- ٦٦ - زواجه
- ٦٧ - صفاته

- المطلب الثاني : حياته العلمية
- ٧٥
- ٧٥ - تعليمه النظامي
- ٧٥ - تعليمه غير النظامي
- ٧٩ - تكوينه العلمي
- ٨٣ - ثقافته العصرية
- ٨٨ - مكانته العلمية
- المطلب الثالث : حياته الفكرية
- ٩٣
- ٩٣ - موقفه من الصوفية
- ٩٦ - موقفه من العلماء التقليديين
- ٩٨ - موقفه من دعاة التغريب
- ١٠١ - جهوده في التجديد الإسلامي
- ١٠٣ - دوره في نشوء الحركات الإسلامية
- ١٠٤ - مواقفه السياسية
- ١١٤ الفصل الثاني : أدب السيد رشيد رضا
- ١١٤ المبحث الأول : شعر السيد رشيد رضا
- ١١٤ - توطئة : رشيد رضا الشاعر

- ١١٥ - مصادر شعره
- ١١٦ المطلب الأول : شعره المنشور في كتبه
- ١٢٥ المطلب الثاني : المقصورة الرشيدية
- ١٢٦ - مصادر المقصورة وعدد أبياتها
- ١٢٨ - موضوعات المقصورة
- ١٣٤ - بين المقصورة الرشيدية والمقصورة الدريدية
- ١٣٧ المطلب الثالث : ديوان السيد
- ١٣٨ - الوطنيات
- ١٤٥ - الأزهاريات
- ١٤٧ - الغزل
- ١٤٩ - الوجدانيات
- ١٥٣ - الاجتماعيات
- ١٥٦ المبحث الثاني : نثر السيد رشيد رضا
- ١٥٦ المطلب الأول : رسائله
- ١٥٨ - رسائله في كتاب "السيد رشيد رضا" لشكيب ارسلان
- ١٥٩ - رسائله إلى أساتذته

- ١٦٣ - رسائله إلى العلماء
- ١٦٤ - رسائله إلى الملوك والرؤساء
- ١٧٠ - رسائله إلى أصدقائه
- ١٧٣ - رسائله إلى طلابه
- ١٧٤ - رسائله إلى أهل بيته
- ١٧٦ - المطلب الثاني : مقالاته
- ١٧٩ - مقالاته السياسية
- ١٨٠ - مقالاته الاجتماعية
- ١٨١ - مقالاته في الاستعمار
- ١٨٣ - مقالاته في الحرب العالمية الأولى
- ١٨٤ - مقالاته الدينية
- ١٨٥ - مقالاته الوصفية
- ١٨٨ - المطلب الثالث : أدب رحلاته
- ١٨٨ - رحلات رشيد وبواعثها
- ١٩٣ - الرحلة السورية
- ١٩٥ - الرحلة القسطنطينية

- ١٩٦ - الرحلة الحجازية
- ١٩٧ - الرحلة الهندية
- ١٩٩ - الرحلة الأوربية
- ٢٠٢ - المطلب الرابع : تراجمه الأدبية
- ٢٠٢ - تراجمه الغيرية
- ٢١١ - ترجمته الذاتية
- ٢١٦ - المبحث الثالث : نقد السيد رشيد رضا
- ٢١٦ - المطلب الأول : اتجاهه النقدي
- ٢٢٥ - المطلب الثاني : تطبيقاته النقدية
- ٢٤٢ - الفصل الثالث : الدراسة الفنية لأدب السيد رشيد رضا
- ٢٤٢ - المبحث الأول : الدراسة الفنية لشعر السيد رشيد رضا
- ٢٤٢ - المطلب الأول : شعره التقليدي
- ٢٤٦ - الخصائص الفنية لشعره التقليدي
- ٢٤٦ - الرؤية الشعرية
- ٢٤٨ - المبالغة في المعاني والصور
- ٢٤٩ - مصادر ثقافته الشعرية

- ٢٤٩ - الخصائص اللغوية والأسلوبية
- ٢٥١ - الخصائص الموسيقية
- ٢٥٢ المطلب الثاني : شعره العصري
- ٢٥٢ - رؤيته الشعرية
- ٢٥٤ - الخصائص المعنوية
- ٢٥٤ - أغراضه الشعرية
- ٢٥٧ - معانيه العصرية
- ٢٥٨ - الخصائص اللغوية والأسلوبية
- ٢٥٨ - بناء القصيدة
- ٢٥٩ - اللغة
- ٢٥٩ - الصورة الأدبية
- ٢٦١ - المحسنات البديعية
- ٢٦٢ - الخصائص الموسيقية
- ٢٦٣ المطلب الثالث : شعره في آخر حياته (ديوان السيد)
- ٢٦٣ - رؤيته الشعرية
- ٢٦٤ - خصائصه المعنوية

- ٢٧٠ - خصائصه اللغوية والأسلوبية
- ٢٧٠ - لغة الديوان
- ٢٧٠ - بناء القصيدة
- ٢٧١ - النزعة الخطابية
- ٢٧١ - التكرار
- ٢٧٣ - الصورة الأدبية
- ٢٨٦ - الرمز
- ٢٨١ - الخصائص الموسيقية
- ٢٨٢ - مكانته الشعرية
- ٢٨٨ المبحث الثاني : الدراسة الفنية لنثر السيد رشيد رضا
- ٢٨٨ المطلب الأول : رسائله
- ٢٨٨ - أغراضها
- ٢٨٨ - أسلوبها
- ٢٩٠ - أساليب متكررة في رسائله
- ٢٩٣ المطلب الثاني : مقالاته
- ٢٩٣ - موضوعات مقالاته

- ٢٩٥ - شكل المقالة الرشيدية
- ٢٩٧ - عناوين المقالات
- ٢٩٩ - الخصائص اللغوية والأسلوبية
- ٣٠١ - بين الموضوعية والخطابية
- ٣٠٣ - المحسنات البديعية
- ٣٠٦ - المطلب الثالث : أدب رحلاته
- ٢٠٦ - منهجه في كتابة الرحلات
- ٣٠٧ - أسلوبه في كتابة الرحلات
- ٢٠٩ - المطلب الرابع : تراجمه الأدبية
- ٢٠٩ - الدرجة الفنية في تراجمه الأدبية
- ٣١٢ - أسلوبه في تراجمه الأدبية
- ٣١٢ - مكانة رشيد في النثر الفني
- ٣١٥ - المبحث الثالث : الدراسة الفنية لنقد السيد رشيد رضا
- ٣١٥ - المطلب الأول : السمات القديمة في نقده
- ٣١٥ - النقد اللغوي
- ٣١٦ - الذاتية في النقد

- ٣١٧ - الاعتدال في النقد
- ٣٢١ المطلب الثاني : السمات التجديدية في نقده
- ٣٢١ - تطور دلالات الألفاظ
- ٣٢٣ - تطور نظرة المجتمع إلى الأدباء
- ٣٢٤ - وعيه بأسس النقد الأدبي الجديد
- ٣٢٥ - نظرتة إلى ثقافة الأديب
- ٣٢٦ - الدعوة إلى الأدب الإسلامي
- ٣٢٦ - ملاحظته تطور النشر في عصره
- ٣٢٨ - مكانة رشيد في النقد الأدبي
- ٣٣٠ الخاتمة
- ٣٣٠ - نتائج البحث
- ٣٣٤ - الاقتراحات
- ٣٣٦ - ملخص البحث
- ٣٣٧ الفهارس
- ٣٣٧ - فهرس الآيات
- ٣٤٠ - فهرس الأحاديث

٣٤١

- فهرس الأشعار

٣٤٥

- فهرس المصادر والمراجع

٣٥٧

- فهرس الموضوعات